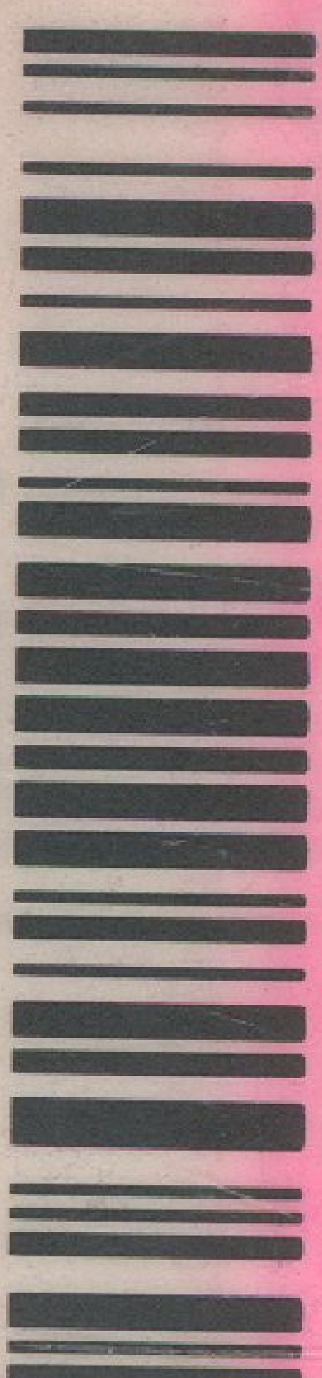


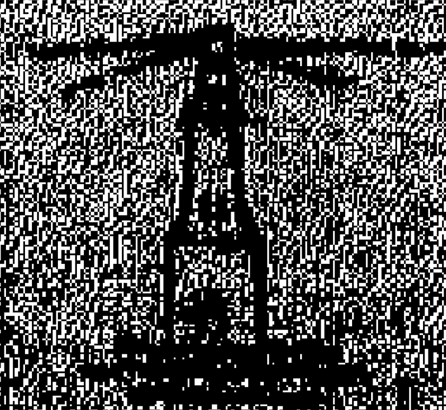


اقرأ

أحمد الشنتناوى

التنبؤ بالغيب

قديماً وحديثاً



دار المعارف بمصر

التنبؤ بالغيب

قديماً وحديثاً

أحمد الشنتناوى

التنبؤ بالغيب

قديمًا وحديثًا

اقرأ ٢٠١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠١ — سبتمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

الفصل الأول

ما هو التنبؤ بالغيب

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يعلمُها إلّا هُو وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلّا يَعْلَمُهَا وَلا حبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِين » .

والغيب هو ما لا نعتمد فى إدراكه على إحدى الحواس فلا يدخل فى دائرته استنباط النتائج من مقدماتها ومعرفة المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال ، وقياس ماغاب بماحضر ، كعلمنا شفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجعاً ، وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات نامياً ، وسقوط أمة إذا ألفينا أبناءها متفرقى القلوب منغمسين فى اللهو والترف منصرفين عن الجد والعمل . كل ذلك وما أشبهه خارج عن دائرة علم الغيب أو التنبؤ بالغيب الذى هو موضوع هذا الكتيب .

والإنسان مولع منذ أن وجد على ظهر الأرض إلى اكتشاف الغيب ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث . وقد ظهر من بنى البشر فى كل عصر من العصور أناس ادعوا أن لهم القدرة على التنبؤ بالغيب وقراءة المستقبل ، وقد خلعت عليهم هذه القدرة

مهابة واحتراماً وتبجيلا بين الناس ، بل لقد أدنتهم هذه المقدرة من مراتب الأنبياء وسلكتهم فى عداد أولياء الله الصالحين .

ولم يقف هذا الميل أو الادعاء بالقدرة على كشف الغيب عند حد الأفراد بل تعداهم إلى الأمم والشعوب ؛ فقديماً برع الأشوريون فى التنبؤ بالغيب وذلك عن طريق ملاحظة الكواكب والأجرام السماوية فى مسالكها وقد مكنتهم سماؤهم الصافية من مراقبة حركاتها وقالوا إن لهذه الحركات دلالات على حظوظ الناس ومصائرهم . وقد أخذ الكلدانيون هذا العلم عنهم وواصلوا قراءة صفحة السماء ومشاهدة النجوم فى تحركاتها وأقاموا على ذلك كله علماً يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ومعرفة المصير الذى قدر لهم . ولقد كان للمصريين القدماء نصيب وافر من هذ العلم ورثوه عن أسلافهم خلال ماض سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

أما الإغريق فكانوا لا يقدمون على أمر من الأمور إلا بعد التماس النصيحة من الآلهة واستشارة الكهنة الذين كانوا يدعون التنبؤ بالغيب .وكان علم الكهانة شائعاً عند العرب أيام الجاهلية إذ كانوا يطلقون لفظة كاهن على كل من ادعى علم الغيب ، أو تنبأ بشىء قبل وقوعه . وقد نبغ فيهم كثيرون من الكهان مثل

شق بن أنمار، وسطيح بن مازن، وطريفة الكاهنة، وزبراء الكاهنة وغيرهم .

وقد ورد فى الكتاب المقدس الشيء الكثير من التنبؤات على ألسنة بعض الأنبياء من أمثال إرميا وحزقيل . وقام نفر من العلماء يدرسون هرم الجيزة الأكبر من حيث دلالته على بعض التنبؤات ويؤكدون بالأدلة الحسابية الملموسة أن بعضها قد تحقق فى العصر الحاضر .

وكان التنبؤ بالغيب من الأمور الشائعة فى العصور الوسطى وظهر فى تلك العصور عرافون كثيرون تنبأوا بأمور كثيرة تحقق الكثير منها ، ولعل أشهر هؤلاء العرافين هو نستراداموس Nostradamus أحد علماء العصور الوسطى، وقد عاش فى القرن السادس عشر وكانت له تنبؤات كثيرة تحقق منها الجزء الأكبر. وقد شابت تنبؤاته الشيء الكثير من الغموض بسبب التواء أساوبها، فقد كتب هذا العالم تنبؤاته فى شكل أشعار رمزية لها دلالاتها الخاصة نذكر منها على سبيل المثال النبوءة التالية :

« سوف يغلب الأسد الصغير الأسد الكبير فى ساحة النزال بعد مبارزة واحدة . سوف يطعن ناظريه الموضوعين فى قفص من ذهب ، وبعدها يموت الأسد الكبير ميتة شنيعة » .

كان نستراداموس هذا معاصراً للملك هنرى الثانى ملك فرنسا . وفى يوليه من عام ١٥٥٩ احتفل الملك هنرى بزواج أخته مرجريت من دوق ساڤوى. وكان من بين برنامج الاحتفال إقامة مسابقة بالطعن بالرماح . وكان هنرى ماهراً فى اللعب بالرمح لذلك دعا أحد ضيوفه من الشبان وهو إيرل مونتجومرى من الحرس الاسكتلندى لمنازلته بالرماح . وقد اعتذر هذا الشاب عن هذا الشرف المحوط بالأخطار ولكن الملك أصر على ذلك . وفى خلال النزال اخترق رمح مونتجومرى خوذة خصمه الذهبية ودخل الرمح فى عين الملك اليمنى . وقد مات الملك هنرى الثانى بعد ذلك ميتة شنيعة مؤلمة .

وتنبأ وليم ليللى William Lilly المنجم الإنجليزى فى عام ١٦٥١ بالطاعون الذى اجتاح مدينة لندن عام ١٦٦٥ وبالحريق الذى دمرها عام ١٦٦٦ .

وكان تنبؤه من الدقة بحيث أنه تألفت بعد حريق لندن لجنة برلمانية لسؤال ليللى هذا عما إذا كان تنبؤه هذا مستمداً من معلومات أخرى غير ما أنبأته به النجوم والكواكب وذلك خشية أن يكون ذلك الحريق قد شب نتيجة مؤامرة من المؤامرات .

وبير Peare متنبىء إنجليزى آخر تنبأ فى عام ١٨٦٨ بأن

الملك چورج – وكان فى ذلك الوقت فى الثانية من عمره، وله من الإخوة ما يكبرونه سناً – سوف يصبح ملكاً لإنجلترا تحت اسم چورج الخامس ، وقد تحققت هذه النبوءة .

وتنبأ أحد الإنجليز فى عام ١٨٨٦ بأن عام ١٩١٧ سوف يكون على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لإسرائيل وبريطانيا . والمعروف أن اللورد اللنبى قد دخل فلسطين عام ١٩١٧ واستولى على القدس وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطانى بعد أن ظلت تحت الحكم الإسلامى طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان وقد مهد ذلك لظهور دولة إسرائيل الحديثة .

وقد ظهرت قبل عام ١٩١٤ نبوءات كثيرة عن الأحداث الجسام التى حلت بأوربا فيما بين عامى ١٩١٤ و ١٩٢٠ وهى الفترة التى نشبت فيها الحرب العالمية الأولى . فقد تنبأ العراف ويتزر Weitzer فى أوائل القرن الحالى بأن السنوات الإحدى عشر من ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠ سوف تكون ذات شأن خطير بالنسبة للقارة الأوربية ، كما تنبأ معظم العرافين والمنجمين بدون استثناء بحرب ضروس تشنها ألمانيا خلال الأعوام من ١٩١٣ إلى ١٩١٦. وفى عام ١٩٠٥ أى قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعشر سنوات تقريباً نشرت مدام تيبس Thebes العرافة الفرنسية المشهورة هذه

الكلمات فى التقويم السنوى الفرنسى :

« إن مستقبل بلجيكا محزن مظلم . إن هذه الدولة الصغيرة توحى بالرفاهية والسلام ولكنى أكرر كلماتى السابقة ، أن هذه البلاد سوف تشعل النيران فى أوربا بأسرها » .

ونحن نذكر جميعاً كيف أغارت ألمانيا على بلجيكا فى الحرب العالمية الأولى على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء التى كانت معقودة بينها و بين تلك الدولة ، الأمر الذى أدى إلى نعت هذه المعاهدة بأنها « قصاصة ورق » وكان ذلك هو السبب الذى دفع إنجلترا إلى دخول الحرب العالمية الأولى .

وذكرت مدام تيبس فى طبعة سنة ١٩١٣ من ذلك التقويم ذاته ما يلى :

« إنى أرى بين أيدى كبار الإيطاليين دلائل تدل على حرب ضروس لم يحدث لها شبيه من قبل . إن ألمانيا تهدد أوربا كلها بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ، ولكن الحرب إذا وقعت فسوف لا تحتفظ ألمانيا بعدها بمركزها الرفيع . وقد سبق أن أكدت مراراً أن أيام القيصر أصبحت معدودات ، وسوف تحدث بعده تغيرات هائلة فى ألمانيا » .

وقد تنبأ بعض العرافين بموت اللورد كتشنر غرقاً وهو فى

السادسة والستين من عمره ، وأن مارك توين الروائى المشهور سوف يصبح ثرياً فى أواخر أيامه أى بعد الثامنة والستين من عمره، وهى كلها أمور تحققت عن آخرها فيما بعد .

ومجمل القول إن التنبؤات موجودة منذ أن وجد الإنسان . ونحن اليوم نسخر من النبوءات التى يطالعنا بها من حين لآخر بعض العرافين والمنجمين وإن كان الكثيرون منا يعتقدون فيها وإن لم يفصحوا عن هذا الاعتقاد خوفاً من أن يرميهم الناس بالسذاجة أو التأخر العقلى . وليس هذا بجديد فقد وجد على الدوام فى كل عصر من العصور أناس سخروا من هذه النبوءات وآخرون اعتقدوا فيها . ولعل مرد هذا أنه لم يوجد قط عراف أو منجم صدق كل الصدق فيما تنبأ به . كما نجد إلى جانب ذلك عرافين تنبأوا بأشياء لا يميل الناس عادة إلى تصديقها كهؤلاء الذين يتنبأون من وقت لآخر بقرب فناء العالم فكان مصيرهم السخرية والمقت ، بل إن بعض العرافين قد تنبأوا فى العهد القديم بفناء أو زوال قارة الأطلانتس (القارة المفقودة) فكان مصيرهم القتل .

والإنسان بطبعه ميال إلى الشك بل إن الشك عنصر من عناصر حياته العقلية، ومما زاد من شكه فى هذه النبوءات ظهور

بعض العرافين تنبأوا بنبوءات كاذبة لم يتحقق منها شيء، على أن هذه النبوءات الكاذبة لا يجب أن تقلل من قيمة النبوءات على الإطلاق، أو تكون مطعناً فى فن الكهانة، فما من فن إلا وكان حدس أهله عرضة للكذب . فإذا أخطأ الطبيب فى حدسه فإن ذلك لا يطعن فى فن الطب ولا يمكن كذلك أن نقول إن الملاحة ليست فناً لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه، وهل يفقد الفن العسكرى قيمته لأن قائداً طائر الصيت قد حلت به الهزيمة وفقد جيشه وولى الأدبار ؟

لقد ذكر العرافون كثيراً من النبوءات الصادقة، وتحفظ لنا كتب التاريخ الكثير من هذه النبوءات الصادقة التى تحققت عن آخرها وهذا يدعونا إلى التساؤل : مَن هو العراف ؟

هناك تعريف حديث يقول إن العراف هو شخص بعيد النظر الروحى فكما أن هناك فى العالم الطبيعى قصر نظر وبعد نظر فكذلك هناك بعد نظر روحى .

ويمكن أن نعرف التنبؤ بالاختصار بأنه قوة تمكن صاحبها من رؤية الأشياء والحوادث غير المنظورة، سواء فى الزمان أو فى المكان . والنبوءة لاتفيد عادة قائلها بشىء من الأشياء، بل كثيراً

ما أدت بعض النبوءات إلى استشهاد من قالوا بها .

ومما هو جدير بالذكر أن علماء البحوث الروحية، وكثيراً من علماء النفس يعتقدون اليوم فى تبادل الشعور والخواطر مع الغير وهو ما يعرف عندهم باسم « تلباثى » Telepathty ويرون فى التنبؤ بالحوادث المستقبلة حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها، وإن لم يجدوا لها تفسيراً تطمئن إليه النفس . وليس هذا مقصوراً على تبادل الشعور والخواطر والتنبؤ بالأحداث المستقبلة، بل هناك أيضاً حقائق علمية كثيرة لا نجد لها تفسيراً، أو أنها لم تفسر بعد التفسير الكافى المقنع .

إن كل ما نتمتع به اليوم من وسائل الراحة والرفاهية إنما هو ثمار آراء بدت فى أول أمرها غريبة مستنكرة ، وكم سفهت واستهزىء بأصحابها ورموا بالجنون وفساد الرأى فيما يذهبون، ولكن ما لبث ما كان بالأمس مزاعم باطلة أن صار اليوم حقائق ثابتة ذات ثمار يانعة فيها منافع للناس .

نحن لا نعرف اليوم على سبيل المثال ما هى الكهرباء وأن كل ما نعرفه عنها هو آثارها التى نشاهدها ، وكذلك الحال بالنسبة للأشعة الكونية أو القوة التى تتحكم فى الذرة وغير ذلك من الظواهر الكونية . لقد مضى الوقت الذى كانت تعتبر فيه

هذه الأشياء التى لا نجد لها تفسيراً من خوارق الطبيعة، ولكننا لا نميل اليوم إلى نعتها بأنها من خوارق الطبيعة، ولكنها أشياء طبيعية لم تفسر بعد .

إن من مظاهر تفكيرنا تلك الظاهرة التى نطلق عليها لفظ « المحال » فنحن نعرف أنه منذ أكثر من قرن من الزمان كانت بعض الأشياء المألوفة لنا اليوم تعد من الأمور المستحيلة . ألم تكن مبادىء نظريات الطيران والغواصات والراديو والتليفزيون آراء غريبة طالما سخر الناس من القائلين بها، محتجين إذ ذاك بأن تحقيق تلك الآراء مما يتنافى وسنن الكون وقوانينه الطبيعية .

فنحن نعرف أن المهندسين منذ أكثر من قرن من الزمان ، ذكروا أنه من المحال أن تجرى عربات حديدية ذات عجلات ملساء فوق خطين من الحديد وهى محملة بالأثقال دون أن تنزلق ، وأنه من المحال أن تجرى هذه العربات الحديدية بسرعة عشرين أو ثلاثين ميلا فى الساعة دون أن تهشم أجسام البشر الذين يركبون هذه العربات أو تحدث لهم أشد أنواع الاضطرابات المخية والعصبية .

وكان القول بإمكان صعود الإنسان إلى القمر أو غيره من الأجرام السماوية فى مستهل هذا القرن يعد ضرباً من الخيال

لا يمكن تحقيقه ولكننا اليوم أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من الصعود إلى هذه الأجرام السماوية بفضل هذه الصواريخ الجبارة التى هى من صنع الإنسان . إن عدد الأشياء التى نعتها الإنسان بأنها محالة تتفق وعدد المخترعات والمكتشفات الإنسانية .

إن عالماً ممتازاً مثل السير همفرى داڤى Humphry Davy قد سخر من الفكرة القائلة بأنه فى الإمكان إنارة مدينة كبيرة مثل لندن بمصابيح الغاز ، وأن أكاديمية العلوم الملكية البريطانية قد ماجت بأصوات السخرية والاستنكار عند ما أعلن أمامها بنجامين فرانكلين رأيه عن مانعة الصواعق . ومجمل القول إن الاعتقاد فى استحالة تحقيق الأشياء الصعبة أو غير المفهومة من العادات التى كونتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل.

لقد كان هناك من سوء الحظ نبوءات كثيرة ظهرت خلال التطور البشرى لم يتحقق منها شىء ، وكان إلى جانبها نبوءات صادقة ولكنها كانت مع ذلك موضع الشك والسخرية شأنها فى ذلك شأن النبوءات الكاذبة .

إن الشك عادة عقلية مفيدة، ولكن كثيراً ما يساء استعماله فيكون ضرره أكثر من نفعه. وإنه على الرغم من الشك والسخرية فى محيط التكهن بالغيب فإن النبوءات ظاهرة قد تغلغلت فى

ضمير الإنسانية منذ آلاف من السنين ، ولم تقو أية قوة على محوها من ضمير الإنسانية . إن تعلق المرأة الحديثة — بل وكثير من الرجال — بالمنجمين والعرافين وضاربى الرمل والودع أمر يفوق الوصف . إن اعتقادنا فى النبوءات لا يمكن أن يموت شأنه فى ذلك شأن اعتقادنا فى كثير من الظواهر النفسية والأمور الروحية وإن عز علينا تفسيرها .

ومن أبسط الأمثلة التى يفسرون بها سبق النظر فى مجال الغيب، قولهم فلنتخيل قطار سكة حديد يسير حول جبل من الجبال ، ويقترب منه من الناحية الأخرى من الجبل قطار آخر يسير على نفس الخط الحديدى . وأن كلا من القطارين يسير بسرعة واحدة ولا يدرى أحدهما شيئاً عن الآخر . ولا يتلقى هذان القطاران أية إشارة للتوقف ، والنتيجة الحتمية هى تصادم القطارين لأن كلا منهما جاهل بمصيره . وهناك رجل فى طائرة على ارتفاع بضعة آلاف من الأقدام فوق القطارين وهو مدرك تمام الإدراك لما سوف يحدث للقطارين فهذا واضح أمامه تمام الوضوح . ولو كان فى استطاعته الاتصال بالقطارين لأنبأهما بالكارثة التى تنتظرهما، اللهم إلا إذا اتخذ القطاران من الإجراءات السريعة المباشرة التى تحول دون وقوع هذه الكارثة . إن هذه القدرة

التنبؤية بسيطة غاية البساطة بالنسبة للطيار إنه فى حالة تسمح له بأن يرى ويدرك ويتنبأ . كذلك العراف هو فى حالة نفسية تسمح له بأن يرى أحداث المستقبل ويتنبأ بها .

والواقع أن التنبؤ بالغيب ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية، حظها من البحث العلمى ضئيل بالمقارنة مع الظواهر الإنسانية الأخرى . لقد ضمت كثير من المؤلفات المنوعة شوارد مبعثرة من المعلومات المثيرة عن التنبؤات الصادقة والأخرى الكاذبة . وليس غرضنا من هذا البحث المقتضب أن نؤيد أو ننكر القدرة على التنبؤ بالغيب ، إنما غرضنا أن نجعل القارىء على دراية بموضوع من الموضوعات التى تثير اهتمامه وشغفه ثم نترك له بعد ذلك الحكم على الموضوع وفق ما يهتدى إليه عقله وإحساسه .

الفصل الثانى

التنبؤات فى العهد القديم

يصف أفلاطون التنبؤ بأنه « أسمى الفنون » وكان القدماء يمارسونه على نطاق واسع عن طريق أماكن الوحى المختلفة oracles فقد كان فى العهد القديم مراكز خاصة للتنبؤ يذهب إليها الناس لاستشارة الآلهة فيما ينوون القيام به من أعمال ، فتتحدث إليهم الآلهة على لسان الكهنة الموجودين فى كل مركز من تلك المراكز وبأسلوب خاص يتميز به كل مركز منها .

وكان الرأى أن هذا النوع من النبوءات يعد ضرباً من الهذيان، إذ كان يعترى الكهنة فى تلك المراكز التنبؤية نوع من الهذيان، فتنطلق ألسنتهم بأقوال تنبىء عما سيحدث فى قابل الأيام. وقد فسر سقراط هذا الهذيان بأنه هبة خاصة من السماء ومنبع أعظم النعم بين البشر . فقد أسبغت كاهنات دلفى ودودونا — وكانا من أهم المراكز التنبؤية فى بلاد اليونان القديمة — نعماً وفيرة على بلاد اليونان عند ما كان يعترى هؤلاء الكاهنات هذا الضرب من الهذيان فى حين أنهن لم يقدمن إلا القليل من هذه النعم وهن فى كامل وعيهن .

لقد كان هذا هو رأى أعظم حكماء اليونان فى هذه النبوءات الأمر الذى جعل جميع الإغريق يعتقدون فيها طوال مئات بل آلاف من السنين ، ويغمرون مذابح المعابد القائمة فى تلك المراكز التنبؤية بالهدايا والقرابين حتى إننا عند ما نقرأ اليوم عن وحى دلفى وما كان به من ساحات متسعة ونافورات ومعابد جميلة ،واستاده العظيم ومسرحه الفخم وتماثيله الرخامية العديدة والأخرى المصنوعة من البرنز بل ومن الذهب ، ورسومه التى أبدعتها ريشة الرسام الإغريقى الشهير بوليجنوتس Polygnotus لتضاءل أمام أعيننا جميع الكنوز المحفوظة الآن فى أكبر المتاحف العالمية .

لقد تجمع هذا الثراء العظيم فى بقعة واحدة من أرض اليونان لوجود كاهنة فى تلك البقعة تدعى « بيثيا » Pythia كانت تلوك بين أسنانها بعض أوراق شجر الغار وتستنشق الغازات التى كانت تنبعث من شق فى الصخر أسفل الكرسى الذى كانت تجلس عليه ، وتشرب من مياه نبع كاسوتس المقدس فتعتريها شبه غيبوبة وتهذى بكلام ينبىء عما سيقع من أحداث فى مستقبل الأيام .

كان الناس يلجأون إلى كاهنة دلفى هذه ويلقون إليها

بأسئلتهم فتأتيهم الإجابة وكثيراً ما تكون مشوشة وغير مفهومة بالنسبة للسائل فيتصدى لتفسيرها حاشية بيثيا من الكهنة الملازمين لها ويصيغونها فى أبيات مفهومة من الشعر المرسل . وإن ثراء وحى دلفى وشهرته الكبيرة التى طالت مع الزمن لدليل قوى على أن الناس فى ذلك العهد القديم كانوا يعتقدون فى صحة النبوءات التى تصدر عن هذا الوحى ، وأنها قد تحققت على مدى الأيام .

ولعل أقدم مراكز التنبؤ اليونانية هى وحى دودونا Dodona فى جنوب مقدونيا . وكان هذا المركز يقوم وسط مرج من أشجار البلوط . وكان الاعتقاد أن حفيف هذه الأشجار يحمل فى طياته إرادة الإله زيوس ومشيئته . وكان الكهنة بدورهم يقومون بتفسير هذه الأصوات التى تنبعث من أوراق هذه الأشجار ويعدونها الإجابة المنشودة عن الأسئلة التى كانت تنهال على كهنة هذا المركز من الوافدين إليهم من جميع أنحاء اليونان استنباء عما يخفيه عنهم القدر من أمور وأحداث .

والظاهر أن الآلهة كانت تتعشق المروج والأشجار وخاصة أشجار التوت والبلوط ونبات الطرفاء . وتذكر كتب التاريخ أن جان دارك تلك المسيحية العذراء كانت تستمع إلى هواتف عليا تأتى إليها من بين أشجار الغابة التى كانت ترعى فيها أغنامها

حتى أنها قد توسلت إلى جلاديها قبل إحراقها أن يذهبوا بها مرة أخرى إلى الغابة حتى تستمع إلى هذه الهواتف السماوية التى كانت تستمع إليها من قبل فى غابات موطنها دومرى Domremy من أعمال فرنسا .

ومهما يكن من الأمر فإن وحى دودونا هذا كان قديم العهد فى الوقت الذى أخذ فيه هوميروس يتغنى بأشعاره . وقد تجمعت حول هذا الوحى الكثير من الأساطير والأخبار ، منها أن جماعة من أهل مقاطعة بيوشيا اليونانية جاءوا لاستشارة هذا الوحى فأشارت عليهم كاهنته مرتيل myrtile بأن الأجدر بهم أن يفعلوا أكثر الأشياء نكراً ، فلم يسعفهم تفكيرهم فى تلك اللحظة بأكثر من أن يلقوا هذه الكاهنة فى دست ملىء بالماء المغلى وقالوا إنهم لم يجدوا أكثر من ذلك عملا يتسم بالجحود ونكران الجميل .

والواقع أن كثيراً من هؤلاء الكهنة والعرافين قد لاقوا مصيراً سيئاً أشبه بهذا المصير إما بسبب النبوءات التى قالوا بها ولم تلاق هوى فى نفوس سامعيها ، وإما بسبب عدم تحقق النبوءات التى قالوا بها .

وقد عثر الأثريون على بعض لوحات نقشت عليها بعض الأسئلة التى كان يوجهها الناس إلى وحى دودونا منها هذا السؤال :

« هل فقدت منى أغطيتى ووسادتى أم سرقها غريب ؟ » وسأل آخر : « هل أنا أبو هذا الجنين الذى سوف تضعه زوجتى نيلا nyla قريباً ؟ » وغير ذلك من الأسئلة التى تدور على هذا المنوال.

ويا حبذا لو كان فى مقدورنا أن نعرف ردود هذه الأسئلة ولكن المجموعات الكبيرة التى كانت تضم هذه النبوءات المختلفة والتى ظلت على قيد الوجود أكثر من ألفين من السنين قد اختفت نهائياً حوالى الوقت الذى استولى فيه الترك على مدينة القسطنطينية ولم يبق منها إلا بعض فقرات لا تغنى الباحث كثيراً فى هذا الموضوع .

ومجمل القول إن هذه النبوءات كانت من الأمور المعروفة فى العهد القديم . وكان يعتقد فيها كثير من الأمم المتحضرة وفى طليعتها اليونان التى كانت تضم أحكم حكماء العهد القديم من أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط . والمعروف أنه قد جاء على لسان كاهنة دلفى أن سقراط هو أحكم حكماء البشرية . وكان لهذا القول أثر عميق فى نفس سقراط .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته قال :

« إنى لمغتبط بهذا الموت كل الاغتباط لأن الإله لم يعطنى

شارة عند ما برحت دارى ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ومن عادة الإله أن يعطى هذه الشارة كلما هددنى الشر » .

وهناك كلمة مشهورة يعزوها التاريخ إلى سقراط وهى : « إن هناك شيئاً إلهيا ذلك هو ما أطيعه دواماً وهو على الرغم من أنه لا يدفعنى إلى عمل ما فإنه كثيراً ما يمنعنى عن الإقدام على عمل بالذات » . ويروى عن سقراط أيضاً أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » وقد عصب عينه برباط فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟ فأجابه هذا قائلا :

« بينما كنت أتجول فى الريف إذا بغصن شجرة منحن قد انطلق وأصاب عينى » فقال سقراط : « هذا معقول لأنك أبيت طاعتى عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى النذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

على أن اليونانيين فى ذلك العهد البعيد كانوا نزاعين أيضاً إلى الشك فى كل شىء كما هو شأننا اليوم . فنحن اليوم نشك فى كل شىء ونسخر من كل شىء ونطلب تفسيراً معقولا لكل شىء وكذلك فعل اليونانيون . على أن الكهنة فى مراكز هذه الهواتف الإلهية كانوا على جانب كبير من اللباقة والدهاء

وبعد النظر ولهم تجارب منوعة فى شتى الأمور . وليس من شك مع هذا أن الكثير من هذه التنبؤات التى قالوا بها لم يتحقق ، كما أن كثيراً منها كان على جانب كبير من الغموض والإبهام .

على أن هذا كله لا يفسر لنا ذلك النظام التنبؤى الذى ظل قائماً طوال آلاف السنين فى أكثر الأمم حضارة وتقدماً . لقد استشار الملوك والساسة هذه الهواتف فى أعقد المشاكل فى السياسة وشئون الدولة . وقد قال شيشرون خطيب الرومان الأشهر — وكان خصما عنيداً للتنبؤ فى مختلف فنونه — « إن مهبط الوحى فى دلفى ما كان يكثر زواره على هذا النحو ويشتهر إلى هذا الحد ويزدحم بالقرابين ، تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب ، لو أن الناس فى مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منذ زمن طويل واضمحلت شهرته فى الوقت الحاضر إذ لم يعد له من بعد الصيت ما كان له قديماً ، فإنه ما كان يصيب هذه الشهرة فى ماضيه لو أنه كان غير خليق بالتقدير فى أعلى مراتبه . ومن الممكن أن تكون الأبخرة الأرضية التى كانت تضىء نفس كاهنة « بيثيا » بالإلهام الإلهى قد اختفت بالتدريج على مر الزمان ، كما جفت فيما نعلم أنهار واختفت من الوجود . بينما غير بعض الأنهار الأخرى بالانحراف

والدوران مجراه » .

ولعل من أشهر نبوءات العالم القديم التى صدرت عن وحى دلفى هى النبوءة المتصلة بالملك قارون Croesus ملك ليديا . وكان هذا الملك من أغنى ملوك الأرض وكان يضرب بثرائه الأمثال فيقال أغنى من قارون . وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصة هذه النبوءة التى قيلت لهذا الملك والرؤيا التى رآها وما كان من أمر تحقق النبوءة والرؤيا معاً .

اعتلى قارون هذا عرش بلاد ليديا بعد وفاة والده وبدأ يحكم وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وقد أغار قارون على جميع الولايات اليونانية فى آسية الصغرى، سواء ما كان منها تابعاً للأيونيين أو للأيوليين، وأخضعها جميعاً إلى سلطانه. ولم يكتف قارون بإرغام اليونانيين فى آسية الصغرى على دفع الجزية له، بل صمم على بناء أسطول ضخم يهاجم به اليونانيين من سكان الجزر، ولكنه أقلع عن تلك الفكرة نزولا على مشورة بعض الناصحين واكتفى بأن أصبح صاحب الكلمة العليا على جميع الدويلات التى كانت منتشرة فى آسية الصغرى .

وبعد أن حصل قارون على هذه الانتصارات كلها وبسط من سلطان ليديا أصبحت ساردس Sardis عاصمة ليديا موئلا

للمشاهير والعظماء، وأصحاب الفلسفة والمواهب الفنية فى جميع البلاد . وكان من بين هؤلاء الذين وفدوا على ساردس صولون المشرع اليونانى المشهور . فقد سن هذا المشرع نزولا عند رغبة الأثينيين مجموعة من القوانين لتطبيقها فى بلادهم ثم خرج بعد ذلك يجوب بلاد العالم فى رحلة استغرقت عشر سنوات متصلة . وكان الغرض الظاهر من هذه الرحلة هو الدرس والإطلاع ، أما هدفه الحقيقى فكان لتجنب ضرورة إلغاء أو إبطال هذه القوانين التى سنها . فقد كان الأثينيون لا يستطيعون أنفسهم عمل ذلك؛ إذ آلوا على أنفسهم أن يحتفظوا بهذه الأنظمة القانونية التى وضعها صولون دون انتهاك طوال عشر سنوات .

وقد زار صولون عدة بلاد منها مصر ثم ذهب ، إلى ساردس عاصمة الملك قارون وهناك قابله الملك بالترحاب ودعاه للإقامة فى قصره . وبعد أيام من حضوره إلى القصر كاف قارون خدمه بأن يصطحبوا صولون ويطلعونه على خزائن ثروته ليرى ما بها من نفائس وتحف. ولما تم ذلك استدعاه قارون ووجه إليه الخطاب قائلا:

« ضيفى الأثينى ، إن صوت الشهرة يفصح عالياً عن حكمتك . ولقد سمعت الكثير عن أسفارك وأنك قمت بدافع

حبك للفاسفة بزيارة جزء كبير من العالم، الأمر الذى دفعنى لأن أعرف منك أى رجل من بين الذين شاهدتهم هو أسعد الناس فى رأيك » .

كان قارون يتوقع أن يكون هو أسعد البشر ، الأمر الذى دفعه إلى سؤال صولون هذا السؤال . ولكن صولون برهن بإجابته أنه من أنصار الحق وأنه يمقت التملق والمداهنة .

أجاب صول : « أظن أيها الملك أن تللوس الرجل الأثينى هو الشخص الذى يستحق أكثر من غيره أن نطلق علية لفظ السعيد » . وقد عجب قارون من هذا القول فسأله : « وعلى أى شىء أقمت هذا الادعاء ؟ » فأجابه صولون : « لأن تللوس هذا كان يعيش فى ظل حكومة عادلة، وكان له كثير من الأبناء الفضلاء المحبوبين . وقد رأى تللوس أحفاده ولم يمت أحد منهم فى حياته . وبعد حياة موفقة ناجحة احتفلنا بجنازته بكل مظاهر التشريف والتبجيل، إذ اشترك فى الدفاع عن وطنه ضد العدو، ووقع شهيداً فى ميدان الفخار والمجد . وقد دفنه الأثينيون حيث استشهد ، وأقاموا له احتفالا فخماً » .

وظل صولون يحكى من أمجاد تللوس هذا الشىء الكثير

ولكن قارون قاطعه لأنه رغب متلهفاً أن يعرف الشخص الذى يمكن أن ننعته بالسعيد بعد تللوس هذا، ولم يكن يشك قارون أن إجابة صولون سوف تنصب عليه هذه المرة .

أجابه صولون : « هما كليوبس Cleobis وبيتو Bito وهما أخوان من أهل أرجيف، كانت ظروف حياتهما ملائمة، وقد اشتهرا بقوتهما البدنية الأمر الذى توجا من أجله بأكاليل الغار لفوزهما فى المسابقات العامة . ومما يحكى عنهما أنه إبان الاحتفال الذى أقيم للإله چينو حيث كان المفروض أن تحمل أمهما إلى المعبد على عربة تجرها الثيران . ولسبب ما لم تتمكن الثيران من القيام بعملها ، فما كان من هذين الشابين إلاأن وضعا نير العربة على أكتافهما، وسحبا العربة وعليها أمهما حتى باب المعبد لمسافة طولها نحو ستة أميال. وقد قاما بذلك أمام عدد جم من النظارة، وما أن انتهيا من تلك المهمة حتى اختتما حياتهما بشكل فريد سعيد . فقد دلل الآلهة فى هذه الحادثة على أن الموت نعمة تفوق نعمة الحياة . لقد أفصح الحاضرون عن إعجابهم بعمل هذين الشابين وامتدحوا قوتهم البدنية وتمنت النساء أن يكن فى مركز أمهما التى اغتبطت لهذا العمل الذى صاحبه المجد والفخار .

وقفت الأم أمام المذبح وابتهلت إلى الآلهة أن تخلع على

ولديها أحسن النعم التى يمكن أن يحصل عليها إنسان . وما أن انتهت الأم من ابتهالاتها وانتهت الجموع من تقديم القرابين حتى انتحيا الشابان مكاناً منعزلا بالمعبد ليأخذا قسطهما من الراحة بعد هذا العمل المجهد ، ولكنهما لم يقوما من مكانهما أبداً بعد ذلك إذ انتهت حياتهما عند هذا الحد. وكان من أمر أهل أرجيف أن أقاموا تمثالين لكليوبس وبيتو واحتفظوا بهما فى معبد دلفى على اعتبار أنهما شخصان يستحقان أعظم التقدير » .

وتلك فى رأى صولون وتقديره سعادة من الدرجة الثانية .

ظل قارون غير راض عما سمعه من صولون فوجه الكلام إليه قائلاً : « أيها الأثينى ، إنك تنظر باحتقار إلى مظاهر ثرائى بحيث وضعتنى فى مرتبة أدنى من مرتبة أشخاص مغمورين لاشأن لهم » . فقال صولون : « لا تنعت أى شخص بأنه سعيد إلا بعد أن تعرف طبيعة ميتته . إن أسباب السعادة ليست فى مستطاع أى شخص أن يحصل عليها جميعاً» وما إن سمع قارون هذه الكلمات من صولون حتى انصرف عنه عازفاً عن سماع رأيه فيه ؛ فخرج هذا المشرع الفيلسوف من قصر قارون آسفاً على مسلك هذا الملك ، الذى أبى أن يستمع لصوت الحكمة على لسان هذا المشرع العظيم .

وما إن رحل صولون حتى رأى قارون مناماً أزعجه أشد الإزعاج ، وكأنه عقاب حكمت به السماء نظير عجرفته وادعائه بأنه أسعد الناس جميعاً . رأى قارون فى منامه رؤيا تهدده بكارثة حرمته فيما بعد من ولده. كان لقارون ولدان: أحدهما أبكم، أما الآخر ويدعى أتيس Atys فكان يمتاز بتفوقه ونباهته . وكان مغزى الحلم الذى رآه قارون أن ولده أتيس سوف يموت بطعنة من سن رمح حديدى . هب قارون فزعاً من هذا الحلم وأخذ يقلب الأمر على جميع وجوهه . وكانت أول خطوة اتخذها أن قرر تزويج ابنه هذا ثم نحاه عن قيادة الجيوش الليدية التى قادها أتيس من قبل فى عدة حملات ، ثم نقل بعد ذلك جميع الرماح والنبال وغيرها من أدوات القتال من منازل الرجال إلى منازل النساء حتى لا تصيب واحدة منها ابنه ، إذ ربما تسقط عليه من مكانها المعلقة به .

وبينما كان قارون منهمكاً فى حفلات زفاف ابنه أتيس إذ جاء إلى ساردس أحد أفراد الأسرة المالكة فى فريجيا لاجئاً بعد أن ارتكب جريمة قتل . وقد حضر إلى قصر قارون طالباً من الملك حمايته . ولما سأله قارون فى أمره علم منه أنه يدعى أدراستوس وأنه قتل أخاه عن غير عمد فنفاه أبوه من البلاد . ولما كان قارون

على علاقات طيبة مع أسرة هذا اللاجىء، فقد فتح له أبواب قصره وبسط عليه حمايته .

وقد ظهر فى حوالى ذلك الوقت فى ميسيا Mysia بالقرب من أولمبوس خنزير برى هائل الحجم كان يهبط من الجبال بين الحين والآخر، ويفتك بمن يصادفه من أهل تلك البلاد . وقد هاجمه الأهالى أكثر من مرة ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه . ولما عز عليهم الأمر استنجدوا بالملك قارون، وطلبوا إليه أن يرسل إليهم ولده على رأس جماعة من شباب ليديا، ومعهم عدد من كلاب الصيد لتخليصهم من هذا الحيوان المفترس . ولكن قارون تذكر الحلم الذى رآه فأرسل إلى أهل ميسيا يعتذر عن إرسال ولده، بحجة أنه قد تزوج حديثاً ولا يسمح له وقته بمصاحبة هذه البعثة المطلوبة . ولما سمع أتيس بذلك أسرع إلى أبيه قارون ورجاه أن لا يحرمه من هذه الفرصة التى تتيح له أن يظهر شجاعته أمام زوجه، وأمام مواطنيه بوجه عام . فأخبره أبوه خبر الحلم الذى رآه فأقنعه أتيس أنه لو كان قد رأى فى المنام أنه سيموت بوخزة قرن أو نحو ذلك لكان له العذر فى منعه من مصاحبة هذه البعثة . وأخيراً سمح له أبوه بالذهاب إلى ميسيا مع أفراد البعثة للقضاء على هذا الخنزير البرى المتوحش .

وكان من أمر قارون أن أحضر هذا اللاجىء الفريجى وطلب منه نظير إيوائه وبسط حمايته عليه أن يكون حارساً أميناً لابنه طوال مدة هذه البعثة . ولقد قبل ذلك هذا اللاجىء عن طيب خاطر .

خرجت البعثة إلى ميسيا وكانت تضم نخبة من شباب ليديا الماهرين فى الصيد والقنص ومعهم عدد من كلاب الصيد المدربة . وقد وصلوا إلى جوار أولمبوس وبحثوا عن الخنزير حتى وجدوه فضيقوا عليه الحصار وهاجموه برماحهم . وحدث أن سدد ادراستوس رمحه نحو الخنزير ولكنه أخطأه وأصاب سن الرمح أتيس فقتله . وبذلك تحققت رؤيا قارون . وما إن علم قارون بمقتل ولده حتى أخذ يندب سوء حظه . وقد تقدم إليه ادراستوس طالباً منه أن يأمر بقتله لما اقترفته يداه ، ولكن قارون أجابه قائلاً : « إنك لست مذنباً فقد ارتكبت ذلك عن غير عمد ، إن الإله الذى حذرنى من هذا الشر هو الذى قام به » .

وقام قارون بعد ذلك بدفن ولده باحتفال مهيب . وفى المساء تسلل أدراستوس الذى قتل أخاه ثم صديقه إلى قبر أتيس واخذ ينعيه وينعت نفسه بأنه أتعس البشر طرا ثم طعن نفسه بخنجر فخر صريعاً فوق قبر أتيس .

أمضى قارون السنتين اللتين أعقبتا وفاة ابنه فى حزن عميق . ولم يكن يشغل باله فى تلك الفترة إلا ازدياد عظمة الإمبراطورية الفارسية وعلى رأسها الملك كايروس بن قمبيز . أخذ قارون يتساءل هل يقدم على عمل يوقف به توسع هذه الإمبراطورية قبل أن تصبح خطراً يهدد دولته ، أم يترقب ما سوف تجىء به الأيام . وأخيراً صمم على استشارة مراكز الوحى فى اليونان والأخرى الموجودة فى ليبيا . وأرسل لهذا الغرض رسلا إلى دلفى ودودونا وبرانشيدا وتروفونيوس وأمفياروس وهى أشهر مراكز الوحى فى اليونان القديمة ، كما أرسل رسله إلى مركز الوحى الشهير فى صحراء ليبيا وهو المعروف باسم زيوس آمون .

وكان غرض قارون من ذلك أن يختبر صدق هذه الهواتف السماوية ثم يحصل منها بعد ذلك على رأى قاطع بخصوص حملة يوجهها لمقاتلة الملك كايروس والقضاء على دولته . وزود قارون رسله بتعليماته وهى أن يسألوا هذه المراكز فى اليوم المائة من رحيلهم من ساردس عما يفعله الملك قارون فى ذلك اليوم ويدونوا ذلك كتابة ثم يخبرونه به بعد عودتهم إلى ساردس . ولم يحفظ لنا التاريخ الإجابات التى ذكرتها هذه المراكز التنبؤية ؛ وكل ما يعرف أن رسل قارون ما إن دخلوا معبد دلفى فى اليوم المحدد

وتقدموا بسؤالهم لكاهنته بثيا حتى أجابت :

إننى أحصى الرمال وأكيل البحار
وأسمع الأبكم والأصم صوتى
والآن يتصاعد إلى أنفى رائحة
سلحفاة وشاة فى قدر يغليان
حيث نحاس من أسفل ومن أعلا نحاس

ولما عاد الرسل إلى ساردس وأخبروا الملك بالإجابات التى سمعوها من هذه المراكز المختلفة وجد أنها غير مرضية ، ولكن ما أن سمع إجابة وحى دلفى حتى صاح بأن هذا هو ما كان يفعله فى ذلك اليوم المحدد . لقد عمد قارون فى ذلك اليوم إلى صنع شىء لا يخطر على بال أحد فقد أخذ سلحفاة وشاة وقطعهما إرباً ثم وضعهما فى قدر من النحاس له غطاء من النحاس وأشعل النيران تحت القدر فأخذ يغلى بما فيه . وعزم قارون بعد ذلك على أن يستحوز على عطف ورضاء إله دلفى عن طريق تقديم القرابين العظيمة . وتذكر كتب التاريخ أنه قدم من جميع الحيوانات الصالحة للقرابين ثلاثة آلاف رأس من كل منها ، كما أنه أحرق عدداً كبيراً من غالى الثياب والرياش المحلاة

باللألىء ونفيس الأحجار الكريمة على أمل أن ذلك كله سوف يكسبه عطف ومناصرة إله دلفى كما طلب من الليديين أن يقدم كل منهم ما يملك قرباناً لهذا الإله .

وبعد أن انتهى قارون من تقديم هذه القرابين حتى أذاب قدراً كبيراً من الذهب وصنع منه قواعد للتماثيل طول الواحدة منها ستة أشبار وعرضها ثلاثة أشبار ، وارتفاعها شبراً ، وبلغ عددها ١١٧ قاعدة . وكان أربع من هذه القواعد من الذهب الخالص أما الباقية فكانت من خليط الذهب والفضة ، كما صنع تمثالا لأسد من الذهب الخالص حمله على هذه القواعد .

ولما أتم قارون صنع هذه الأشياء كلها أرسلها إلى دلفى ومعها أكثر من ذلك ، قدران كبيران إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة ، وضعت الذهبية منها إلى يمين الداخل إلى المعبد والفضية إلى يساره . وأرسل قارون أكثر من ذلك ، أربع قوارير فضية لحفظ الخمور واثنتين لحفظ ماء الطهور إحداهما من الذهب والأخرى من الفضة وغير ذلك من نفيس التحف والهدايا .

وطلب قارون من الرسل الذين حملوا هذه الهدايا إلى معبد دلفى أن يسألوا وحى دلفى هذا السؤال : « هل يخرج قارون لملاقاة الفرس ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل سيتحالف معه غيره

فى سبيل تحقيق هذا الغرض؟» وكانت الإجابة التى تلقاها كما يلى : «إذا خرج قارون لمحاربة الفرس فإنه سيقضى على إمبراطورية عظيمة» . كما تضمنت الإجابة توصية بالتحالف مع أقوى الدويلات اليونانية .

ولما سمع قارون هذه الإجابة فرح غاية الفرح على أمل أنه هو الذى سيقهر كايروس ويقضى على دولته . لقد فسر قارون هذه النبوءة وفق هواه فعمل على إيجاد تحالف دفاعى بينه وبين كثير من الدويلات اليونانية،وكذلك بينه وبين المصريين ، ثم خرج بعد ذلك لمحاربة فارس . وقد حذره بعض عقلاء القوم من مغبة هذه الحملة لأنه لو انتصر على الفرس فسوف لا يجنى شيئاً من هذا الانتصار أما إذا لحقت به الهزيمة فسوف يفقد كل شيء، ولكن قارون اختار الحرب وكانت النتيجة أن لحقت به هزيمة منكرة : فقد اجتاح الفرس مدينة ساردس عاصمة ليديا بعد أربعة عشر يوماً من بدء القتال ووقع قارون نفسه فى الأسر .

وقد أمر كايروس ملك الفرس بأن يحرق قارون على كومة هائلة من الحطب . وبينما هو واقف على هذه الكومة فى انتظار مصيره المحزن وإذا به يخرج من بين ضلوعه أنات عميقة ويهتف

ثلاث مرات قائلا : صولون ، صولون ، صولون . فقد تذكر للتو قول صولون بأنه لا يصح أن ننعت أى شخص بأنه سعيد إلا بعد أن نعرف طبيعة ميتته . وقد أحب كايروس الملك المنتصر أن يعرف ما يقصده قارون من مناجاة هذا الشخص الذى يسمى صولون، ولكن قارون ظل صامتاً فترة من الوقت لا يحير جواباً ولما أرغم على الكلام ذكر قصته مع صولون المشرع الأثينى وأن المال فى واقع الأمر لا يمكنه بحال أن يسعد صاحبه .

وبينما كان قارون يقص على السامعين قصته مع صولون إذا بالنيران قد اشتعلت فى كومة الحطب التى سيحرق عليها قارون هو واثنى عشر شاباً من أبناء ليديا . ويقال إن كايروس بعد أن سمع هذه القصة من قارون رأى أنه من الجهل والغباء أن يقدم للنيران رجلا لم يكن أقل منه جاهاً وثراء، وخشى أن يحل به هو نفسه فى يوم من الأيام ما حل بقارون، إذ ما من شىء يملكه الإنسان له صفة الدوام والبقاء ولذلك أمر بأن تطفأ النيران بأسرع ما يكون وأن ينزل قارون من فوق منصة الإحراق هو ومن معه؛ ولكن الجند لم يستطيعوا التحكم فى النيران التى كان قد استعر أوارها فى تلك اللحظة .

وتذكر كتب التاريخ أن قارون لما علم أن الملك كايروس

قد غير من رأيه وأن كل فرد من الحاضرين يحاول إطفاء النيران دون جدوى ابتهل إلى الإله أبولو أن يهب لنجدته وتخليصه من هذا البلاء المحيط به إذا كان قد تقبل منه أية هدية أو قرباناً من القرابين التي قدمها إليه . وكان الدمع يهطل من عيني قارون وهو يتوسل إلى هذا الإله . وفجأة تغيم السماء بعد أن كانت صافية وتهب العاصفة وتنهمر الأمطار فتخمد كومة الحطب التي كان سيحرق فوقها قارون .

ولما شاهد كايروس ذلك أدرك أن قارون من الرجال الورعين المتعلقين بالآلهة لذلك أدناه منه وسأله : « أخبرني يا قارون من الذي حرضك على الخروج ضدي وبهذا أصبحت عدواً لي بدل أن تكون صديقاً ؟ » فأجابه قارون : « أيها الملك إنني صنعت ذلك لحظي التعس ولطيبة نفسك المتناهية، فقد دفعني إلى ذلك الإله الذي استشرته، فليس من أحد هو من البلاهة وعدم الحس والتقدير بحيث يؤثر الحرب على السلام، ففي وقت السلم يدفن الأبناء آباءهم أما في الحرب فيدفن الآباء أبناءهم » .

ومهما يكن من الأمر فإن قارون قد علم أنه بخروجه لقتال الفرس فإن دولة كبرى سوف تنهار — كما وعدت بذلك النبوءة — وإن كان الذي حدث هو انهيار إمبراطوريته .

هذا ولم تكن النبوءات محصورة فى اليونان وحدها بل كانت معروفة أيضاً فى مصر، بل هى فى مصر أقدم تاريخاً منها فى اليونان. فوحى آمون رع فى مصر يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكان به طيف يمثل الإله يتحدث إلى الناس، ويقبل منهم الأسئلة ويجيب عنها، ويقال إن الإسكندر الأكبر عند ما زار معبد آمون رع فى صحراء مصر خرج إليه هذا الطيف وخاطبه قائلاً: «إننى أعدك بأنك سوف تملك البلاد جميعاً وتخضع لك جميع الأديان».

واشتهر أيضاً فى البلاد المصرية وحى هليوبوليس، وكان الناس يفدون إليه فى كل بلد لاستشارة كهنته فى أهم أمورهم. والمعروف أن الإمبراطور الرومانى تراچان أرسل قبل أن يشترك فى حرب برثيا وفداً إلى هذا المركز التنبؤى لاستشارة كهنته فى مصير هذه الحرب. وتذكر التواريخ أن الكهنة أجابوا إجابة صامتة، وذلك بأن أرسلوا إلى تراچان غصن كرم مكسور دون أى تعليق أو شرح. وقد قتل هذا الإمبراطور فى هذه الحرب وحمل جثمانه إلى روما. وعند ذلك تذكر الناس نبوءة وحى هليوبوليس وقالوا لو كان تراچان يعتقد حقاً فى هذه النبوءات لما أقدم على هذه الحرب بعد أن وصله هذا الغصن المكسور.

والظاهر أن أخبار النبوءات الغامضة هى التى وصلت إلينا دون النبوءات الواضحة . والواقع أنه كانت هناك نبوءات صادقة كثيرة قدمت لأفراد كثيرين ولكن لم يهتم أحد بتسجيل هذه النبوءات الشخصية بعكس الحال مع النبوءات السياسية الكبرى التى كان يسعى إليها الملوك والحكام .

ومهما يكن من الأمر فقد ظلت هذه النبوءات قائمة أجيالا طويلة وكانت معروفة أيضاً فى العهد المسيحى حتى أن ترتوليان أحد آباء الكنيسة فى القرن الثالث الميلادى قد أعلن أن العالم لا يزال مزدحماً بالنبوءات . وكانت الحياة الرومانية مليئة بهذه النبوءات وخاصة ما كان منها متصلا بحياة القياصرة وأعمالهم وهذا هو السبب فى اهتمام بعض المؤرخين بهذه التنبؤات .

فقد تنبأ العراف سبورينا Spurinna بما حدث ليوليوس قيصر فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس . وحذره من خطر عظيم لا يمكن رده سوف يقع فى ذلك اليوم . وقد رأت كالبورينا زوجة يوليوس قيصر فى منامها حلماً تشاءمت منه غاية التشاؤم ؛ إذ رأت أن برج منزلها قد تهدم وأن زوجها قد طعن وهو بين ذراعيها . وكان يوليوس قيصر يشعر بالمرض فآثر المكوث فى منزله فى ذلك اليوم المشئوم يوم ١٥ مارس سنة ٤٤

قبل الميلاد . غير أن صديقه بروتس ذكر له أن جمعاً غفيراً من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظره بالمجلس فلا يصح له أن يخيب آمالهم .

وفى أثناء الطريق إلى مجلس الشيوخ قابل قيصر العراف سبورينا وكان الوقت إذ ذاك حوالى الحادية عشرة صباحاً . فما إن رآه يوليوس قيصر حتى ابتسم له قائلا : « ها قد حل اليوم الخامس عشر من شهر مارس ولم تحدث أية كارثة » فأجابه سبورينا « نعم قيصر ولكن لم يمض بعد هذا اليوم » .

وكلنا نعرف أنه لم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وكان يوليوس قيصر قد انتقل إلى العالم الآخر إثر طعنة نجلاء تلقاها من يد صديقه بروتس . وقال الناس فى ذلك الوقت لو كان يوليوس قيصر يعتقد حقاً فى هذه النبوءات لما اغتيل فى يوم ١٥ مارس .

وكان من الطبيعى أن تعنى القياصرة بعد ذلك بهذه التنبوءات فقد لجأوا إلى مراكز الوحى المختلفة يستنبئونها الغيب فى أوقات الحرب وفى أوقات السلم وفى كل أمر ذى شأن .

وكان بعض مشاهير الرومان لهم القدرة على التنبؤ بالغيب نذكر منهم فيجولوس Figulus أحد أعضاء مجلس الشيوخ

بروما . فقد كان هذا الرجل يعد فى نظر معاصريه أعلم الناس بالتنجيم . واتهمه البعض أنه من المشتغلين بالفنون الخفية . ويذكرون أنه شاهد ذات يوم اكتافيوس وقد جاء إلى مجلس الشيوخ متأخراً بعض الوقت فلما سأله فى ذلك علم منه أنه ولد له ولد فى ذلك اليوم فصاح فيجولوس قائلا : « لقد قدمت إلينا سيداً حاكماً » . ولقد اكتأب اكتافيوس عند سماعه هذا لأن الرومانيين فى تلك الأيام كانوا لا يزالون يرون أنهم أمة ديمقراطية لذلك فكر اكتافيوس أن يقضى على هذا الوليد ولكن فيجولوس نصحه أن لا يقدم على ذلك لأنه من المحال أن يغير اكتافيوس من المصير المحتوم .

ولقد لعبت النبوءات دوراً هاماً فى حياة أوغسطس ولد اكتافيوس، ففى الوقت الذى كان فيه اكتافيوس على رأس جيش فى تراقيا لم يفته أن يستشير الوحى هناك عن مصير ابنه . وبينما هو فى المعبد يصب الخمر على المذبح وإذا بألسنة النيران تغمر المعبد وترتفع إلى عنان السماء . وأخبر كهنة المعبد اكتافيوس أن حادثاً مثل هذا قد وقع مرة واحدة وذلك عند ما كان الإسكندر الأكبر يقدم القرابين عند المذبح .

ويقال إن تيوچينس المنجم الرومانى المشهور قد رغب فى

قراءة طالع الطفل أوغسطس . فما إن ذكر الطفل تاريخ مولده حتى هب تيوچينس من فوق مقعده وركع عند قدمى هذا الطفل. وكان أوغسطس من ناحيته يعتقد فى صدق طالعه ولذلك ما أن بلغ التاسعة عشرة من عمره حتى غادر المدرسة واعتلى عرش إكبر إمبراطورية معروفة فى ذلك الوقت .

ولقد حذر وحى دلفى الإمبراطور نيرون من الرقم ٧٣ . ولقد فسر هذا نيرون بأنه سوف يحكم حتى يبلغ الثالثة والسبعين من عمره ولكن الواقع أن هذه الإشارة كانت تشير إلى حكم خلفه الإمبراطور جلبا الذى حكم عدة أشهر وكان وقتذاك فى الثالثة والسبعين من عمره .

وقد دمر نيرون وحى دلفى إبان ثورة من ثوراته الجنونية ، لأنه رأى فى وجوده إنتقاص لسلطانه ، وقد خشى أن يظن الناس أن أبولو إله دلفى أعظم من نيرون .

الفصل الثالث
التنبؤ بالغيب عند العرب [١]

كانت الكهانة شائعة عند العرب أيام الجاهلية، فكان هناك الكهان والعرافون، وإن كانوا أحياناً يفرقون بين الكهانة والعرافة؛ فيقولون إن الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة، أما العرافة فخاصة بالأمور الماضية. ومهما يكن من الأمر فإن المراد بهما هو التنبؤ واستطلاع الغيب. وكان العرب يعتقدون أن للكاهن القدرة على كل شيء، فكانوا يستشيرونه فى كل أمر جلل من أمورهم ويتقاضون إليه فى خصوماتهم، ويستطبونه فى أمراضهم ويستفتونه فى ما أشكل عليهم، ويطلبون منه تفسير رؤاهم ويستنبئونه عن مستقبلهم. ولهذا كله كانت منزلة الكاهن عندهم فى أعلا المراتب، والكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين، وكان هذا هو شأن الكهان جميعاً فى سائر الأمم القديمة.

والرأى أن الكهانة ليست أصيلة عند العرب بل جاءتهم من بعض الأمم المجاورة وأغلب الظن أن الكلدانيين هم الذين نقلوا الكهانة إلى بلاد العرب مع ما نقلوه إليها من علم التنجيم. ومما يؤيد ذلك أن الكاهن يسمى فى العربية أيضاً « حازى » أو

« حزّاء » وهو لفظ كلدانى معناه الناظر أو الرائى أو البصير ، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . وقد اقتبس العرب بعد ذلك لفظ الكاهن من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات فى أورشليم وخصوصاً بعد أن دمرها طيطس عام ٧٠ للميلاد .

والكهانة بوجه عام تطلق على أنواع مختلفة من التنبؤ بالغيب ، لأنها تشمل الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس الماء وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وأهل الزجر والفأل ، والمنبئين عن الغيب باستنباء الطيور والسباع ، وأهل الرياضة السحرية وأصحاب الفراسة ونحوهم .

وقد جعل العرب الكهانة على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه. فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب . وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « إلا من

خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

والصنف الثانى ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد . والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس . والصنف الرابع ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

ويقولون إن الصنف الأول قد بطل بمجىء النبى صلى الله عليه وسلم وحرم الكهان بعد بعثة النبى من كشف الغيب . وقد جاء فى بعض الروايات أن لا كهانة بعد النبوة ، فلا يجوز تصديق الكهنة والإصغاء إليهم ، لأن هذا من دلالات الكفر . وجاء فى الحديث : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » . ويقولون عن الصنف الثانى إنه لا يبعد وجوده .

وقد أفاضوا الكلام عن الصنف الرابع الذى يستند إلى التجربة والعادة وقالوا إن هذا نظير الأسباب التى يستدل بها الطبيب والفلاح والطبائعى على أمور غيبية بما تقتضيه تلك الأدلة مثال الطبيب إذا رأى الجرح مستديراً حكم بأنه عسر البرء ، وإذا رآه مستطيلا حكم بأنه أسرع برءاً . وكذلك ما علم به الربان من أمور تحدث فى البحر والريح بعلامات تدل على ذلك من

طلوع كوكب أو غروبه أو علامات أخرى فيقول يقع مطر أو يحدث ريح كذا، أو يضطرب البحر فى مكان كذا ووقت كذا. وكذلك الفلاح يرى علامات فيقول هذه الشجرة يصيبها كذا وتيبس فى وقت كذا، وهذه الشجرة لا تحمل العام وهذه تحمل.

وذهبوا أكثر من ذلك فقالوا إن هذا أمر لا يختص بالإنسان بل كثير من الحيوان يعرف أوقات المطر والصحو والبرد وغيره كما جاء فى كتب الحيوان. والفرس الردىء الخلق إذا رأى اللجام من بعيد نفر وجزع وعض من يريد أن يلجمه علماً منه بما يكون بعد اللجام. وهذه النملة إذا خزنت الحب فى بيوتها كسرته نصفين علماً منها بأنه ينبت إذا كان صحيحاً وأنه إذا انكسر لا ينبت. والقط يدفن أذاه ويغطيه بالتراب علماً منه بأن الفأر يهرب من رائحة فيفوته الصيد، ويشمه أولا فأن وجد رائحته شديدة غطاه بحيث يوارى الرائحة والجرم، وإلا اكتفى بإيسر التغطية. وهذا الأسد إذا مشى فى لين سحب ذنبه على آثار رجليه ليغطيه علماً منه بأن المار يرى مواطىء رجليه ويديه.

وجاء فى كتب التاريخ أن الكهان العرب قد عرفوا نبأ سيل العرم قبل وقوعه ونصحوا أولى الأمر فى البلاد بالعمل على اتقاء شره. وكان هذا فى عهد عمرو بن عامر الذى تولى رياسة ولد

قحطان . إذا كان أخوه « عمران » كاهناً عقيما وزوجته « ظريفة الخير » كاهنة من حمير ، فرأى عمران أن قومه سوف يمزقون كل ممزق فأنبأ أخاه بما رأى فى كهانته ،وكان هذا أول نبأ عرف عن سيل العرم . وبينما كانت ظريفة الخير نائمة ذات يوم إذ رأت سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم هوت إلى الأرض فلم تصب شيئاً إلا أحرقته . ففزعت ظريفة لذلك وأدركها رعب شديد وأتت زوجها الملك وهى تقول إن ما رأته قد أذهب عنها النوم إذ رأت غيما أبرق وأرعد طويلا ، ثم أصعق فما وقع على شىء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الروع سكنوا من جأشها حتى ثابت إلى نفسها . ثم دخل زوجها إحدى حدائقه ومعه جاريتان ، فبلغها ذلك ، فأمرت وصيفاً لها أن يتبعها ، وانطلقت إلى زوجها حيث كان ، فاعترضتها ثلاث مناجذ — وهى دواب باليمن — منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فأخفت ظريفة عينها وجلست ، وطلبت إلى وصيفها أن يبلغها متى انصرفت هذه المناجذ ، فلما أبلغها ذلك ، انطلقت مسرعة إلى زوجها ، فاعترضها خليج الحديقة ووثبت منه سلحفاة وانقلبت على ظهرها ، وحاولت أن تعتدل على غير جدوى ، فاستعانت

بذنبها وحثت التراب على بطنها وجنبها وقذفت بولا . فهوت الكاهنة إلى الأرض حتى إذا عادت السلحفاة إلى الماء ، انطلقت ظريفة إلى زوجها فى الحديقة ، وكان النهار قد انتصف واشتد حره فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح . فلما أقبلت على زوجها ، ألفت الجاريتين على الفراش فاستحيا زوجها حين رآها ، وأمر الجاريتين بمغادرة الفراش لتأخذ زوجه مكانهما فكهنت هذه وقالت : « والنور والظلماء والأرض والسماء ، إن الشجر لتالف ، وليعودن الماء كما كان فى الدهر السالف » فسألها عمن أنبأها بذلك ، فقالت : « أخبرتنى المناجذ ، بسنين شداد يقطع فيها الولد والوالد » . قال ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر يتكفأ » قال عمرو وما ترين ذلك ؟ قالت : « هى داهية ركيمة ، ومصيبة عظيمة ، بأمور جسيمة » قال وما هى ويلك ؟ قالت « أجل أن لى فيها الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلى ولك الويل ، مما يجىء به السيل» فألقى نفسه عن الفراش وقال لها : ما هذا يا ظريفة ؟ قالت : « هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل » قال عمرو وما علاقة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد فإذا رأيت جرذا

(فأراً) يكثر بيديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن الحفر حُفـِر ، وأن قد وقع بنا الأمر » . قال وما هذا الأمر الذى يقع ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل » فانطلق عمرو إلى السد يحرسه ، فإذا بفأر يقلب برجليه صخرة لا يقوى على قلبها خمسون رجلا . . ! فكر إلى زوجته ، وأنبأها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنى منه ألم وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزيز الأجم أو تيس صرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العرم له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحبا من الصخر قضم كأنما يرعى خضيرا من سلم

فقالت ظريفة إن من شواهد ما أنبأتك به ، أن تأخذ مجلسك بين الجنتين ثم تأمر بزجاجة توضع بين يديك فإن الريح تملأها من تراب البطحاء ، مع أن الجنان مظللة ، لا تدخلها شمس ولا ريح . . . ! فلما فعل امتلأت الزجاجة بعد قليل من تراب البطحاء ، فانطلق إليها وأنبأها بما جرى ، وسألها : متى ترين هلاك السد ؟ . . قالت : فى سبع سنين . قال ففى أيها

يكون ! . . . قالت لا يعلم هذا غير الله ، ولو أوتى أحد علم ذلك لكنته ، ولا تأتى عليك ليلة طوال السنين السبع ، إلا ظننت أن السد يبيد فى غدها أو فى أثنائها . ورأى عمرو فى منامه سيل العرم ، وقيل له إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فلما استيقظ تحقق من صدق ما رأى ، فأدرك أن البلاء واقع والخراب نازل . فكتم الأمر واعتزم التخلص من ممتلكاته ، وانتوى الهجرة مع ولده من أرض سبأ ، ولكنه خشى أن يفتضح أمره ، فيستنكر الناس تصرفه ، فاحتال للأمر حتى أهانه ابنه وضربه ابنه على مرأى من ضيوف له ، تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما . . . فصاح : واذلاه . . . ! وأقسم ألا يقيم بهذا البلد وباع كل ما يملك ، ثم استفتى أخاه الكاهن فى البلد الذى يرحل إليه فقال الكاهن : « من كان منكم ذا هم بعيد ، وحمل شديد ومزاد جديد، فليلحق بقصر عمان المشيد » فكان الذى نزلوه أزد عمان فقال : « ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر » فكان الذين سكنوه خزاعة... إلى آخر ما جاء فى هذه القصة.

وتبين لنا القصة السابقة أسلوب الكهان فى تكهناتهم فقد كان لكهان العرب لغة خاصة بهم تمتاز بتسجيع خاص يعرف

بسجع الكهان مع تعقيد وغموض ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فى مثله : هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الإضافة . ولعل الكهان كانوا يلجأون إلى هذا الأسلوب من القول تمويها على الناس بعبارات تحتمل أكثر من وجه كما يفعل العرافون فى الوقت الحاضر .

وقد اشتهر فى بلاد العرب أيام الجاهلية كثير من الكهان والكواهن وأقدمهم شق بن أنمار ، وسطيح بن مازن ، وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق . ويقال إن شقا هذا كان نصف إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . وأن سطيحا كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ووجهه فى صدره ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان فى عصره من أشهر الكهان. وقد ولد فى يوم واحد هو وسطيح وكانا من المعمرين . ومن الكهان الذين نبغوا إبان النهضة العربية التى سبقت الإسلام : خنافر بن التوأم الحميرى وسواد بن قارب الدوسى . وكان من الكهان من ينسب إلى بلده أو قبيلته كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم .

أما الكواهن من النساء فإنهن عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهى أقدمهن وزبراء الكاهنة وغيرهما .

وكان هناك أيضاً إلى جانب الكهنة فئة أخرى من المتنبئين بالغيب وهم العرافون ،وقد كان منهم كثيرون فى بلاد العرب وذكرهم الشعراء فى أشعارهم فقد قال الشاعر :

فقلت لعراف اليمامة داونى فإنك إن داويتنى لطبيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا : شفاك الله والله مالنـــا بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد هو الأبلق الأسدى . وليس هناك اتفاق بصدد التفرقة بين الكهانة والعرافة . ولعل الذى عليه رأى الأغلبية هو أن العرافة لا تشمل الكشف عن الغيب متى اتصل بالماضى أو الحاضر وإنما تقتصر على ما ارتبط بالمستقبل وحده .

ومهما يكن من الأمر فإن العرب تسمى الكاهن عرافاً أيضاً وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب . والعراف عند العرب هو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات يستدل بها على نتائجها ، أى هى الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على الحوادث

الآتية بالمناسبة أو بالمشابهة الخفية التى تكون بينهما ، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولين لأمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى المستقبل كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها ، ونحو ذلك من الأمور .

ومن أمثلة العرافة أنه كان فى زمن هارون الرشيد عراف أعمى ، يستدل عن المسئول عنه بكلام يصدر عن أحد الحاضرين عقب السؤال ، فسرقت من خزانة الخليفة أشياء ، فاستدعاه هذا وأمر الحاضرين بأن يلتزموا الصمت عقب السؤال ، فأمر العراف يده على البساط فوجد نوى تمر ، فقال إن المسئول عنه در وياقوت وزمرد فى سفط . . . فسأل الرشيد عن مكانه فقال العراف إنه فى بئر ، فوجدوه كذلك . . . ! ! وسئل العراف فى ذلك ، فقال وجدت نوى تمر ، وطلع النخلة أبيض وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ، وهو لون الزمرد ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ، وهو لون الياقوت ! ! فلما سألتم عن مكان المسروق ، سمعت صوت دلو فعرفت أنه فى بئر . فاستحسن الرشيد فراسته وأعطاه مالا جزيلا .

ويدخل فى باب التنبؤ بالغيب الفأل والطيرة والعيافة وكلها

أشياء ترمى إلى الكشف عن حوادث المستقبل استناداً على كلام يسمع من الغير اتفاقاً ، أو استناداً على أصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها ، أو استناداً إلى مصحف يفتح فيكشف عن معنى عفواً ، وقد جرى هذا فى غير المصحف من كتب الشيوخ كديوان الحافظ والمثنوى ونحوهما .

والفأل أمر يدعو إلى الإقدام بعكس الطيرة فإنها تدعو إلى التشاؤم والإحجام . أما العيافة فهى زجر الطيور أى التحدث بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان . وكان العرب يزجرون الطير أو الحيوان أى يصيحون به أو يرمونه بحجر فإن ولاهم فى طيره ميامنه سموه سانحاً وتفاءلوا به ، وإن ولاهم مياسره سموه بارحاً وتشاءموا منه فالسانح مرجو عند العرب والبارح هو المخوف ، وإن كان بعضهم يتطير بالسانح ويتيامن بالبارح ، فأهل نجد يتيامنون بالسانح وأهل التهائم بالضد من ذلك .

وكان العرب فى الجاهلية يكثرون من الزجر ثم شاع الفأل بعد ذلك فى الإسلام ، وقد نهى النبى عن الطيرة فقال : « لا طيرة ولا هامة ولا سفر » وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل . قيل إنه حين هاجر إلى المدينة ودنا منها سمع منادياً يقول : يا سالم فقال لأصحابه سلمنا ، ولما دخلها سمع آخر يقول يا غانم فقال غنمنا .

وقد عرف عن عمر بن الخطاب أنه كان من الذين يجعلون من الألفاظ التى تقال عفواً موضع تفاؤل أو تشاؤم ، فمن ذلك أن رسولا من ميدان نهاوند أقبل عليه ذات يوم فسأله عن اسمه ، فقال : قريب فسأله عن أبيه فقال : ظفر فقال عمر متفائلا ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

وللعرب قصص وأخبار طويلة فى الفأل والطيرة والعيافة ؛ من ذلك ما حكاه المدائنى قال : خرج رجل من لهب — ولهم عيافة — فى حاجة له ومعه سقاء من لبن ، فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب ، فإذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم فى الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب ؛ فضرب الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فإذا غراب على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على شجرة فانتهى إليه فإذا تحت الشجرة كنز فلما رجع إلى أبيه قال له : ما صنعت ؟ قال سرت صدر يومى ثم أنخت لأشرب فإذا الغراب ينعب قال : أثره وإلا لست بابنى قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فإذا الغراب ينعب ، قال : أثره وإلا فلست بابنى قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب قال : اضرب

السقاء وإلا فلست بابنى قال : فعلت فإذا أسود ضخم ، قال : ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقعاً على سدرة ، قال : أطره وإلا فلست بابنى قال : أطرته ثم وقع على سلمة . قال أطره وإلا فلست بابنى ، قال : أطرته فوقع على شجرة قال : أخبرنى بما وجدت فأخبره . . .

وذكر التنوخي فى كتابه نشوار المحاضرة عن أبى الحسين قال : اجتزت أنا وأبو طاهر بن نصر القاضى بشارع القاضى ، نقصد دار قاضى القضاة أبى الحسين فى علته التى مات فيها لنعوده فإذا بثلاثة من الأعراب ركبان فشال أحدهم رأسه وقد سمع غراباً ينعب على حائط دار أبى الحسين قاضى القضاة فقال للنفسين اللذين خلفه : إن هذا الغراب ليخبرنى بموت صاحب الدار : . فقال له الآخر : أجل إنه يموت بعد ثلاثة أيام . فقال الآخر : نعم ويدفن فى داره . فقلت : أسمعت ما قالوا ؟ قال : نعم هؤلاء أجهل قوم . وافترقنا فلما كان فى ليلة اليوم الرابع سحراً ارتفعت الصيحة بموت قاضى القضاة أبى الحسين ، فذكرت قول الأعرابى وعجبت وحضرنا جنازته ودفن فى داره . فقلت لأبى طاهر أرأيت أعجب من وقوع مقالة الأعرابى بعينها إيش هذا ؟ . فقال : لا والله ما أدرى ولكن تعال حتى نسأل عنهم ونقصدهم

ونستخبر منهم من أين لهم ذلك . فقال : كنا أياماً نسأل عنهم وعن حلتهم من البلد فلا نخبر ، إلى أن أخبرونا أنهم نزول حلة من بنى أسد بباب حرب فقصدناهم ، فقلنا : هل فيكم من يبصر الزجر ؟ فقالوا : أجل ثلاثة إخوة فى آخر الحى يعرفون ببنى القائف ، ودلونا على أخبيتهم فجئنا فصادفنا أصحابنا بأعيانهم ولم يعرفونا فأخبرناهم بما سمعناه منهم وسألناهم عنه فقالوا : إنا وغيرنا نعرف نعيباً للغراب بعينه لا ينعبه فى موضع إلا مات ساكنه مجرباً على قديم السنين فى البوادى لا يخطئون ، ورأينا ذلك الغراب نعب ذلك النعب الذى نعرفه . فقلنا للآخر : كيف قلت إنه يموت بعد ثلاثة أيام ؟ قال : كان ينعب ثلاثا متتابعات ثم يسكت ثم ينعب قلنا على هذا فحكمت بذلك . فقلت للآخر وكيف قلت إنه يدفن فى داره ؟ قال : رأيت الغراب يحفر الحائط بمنقاره ورجليه ويحثو على نفسه التراب فقلت إنه فى داره.

وذكر عن كثير عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزة بها ، فلقيه أعرابى من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة بمصر ، قال : ما رأيت فى وجهك قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف ريشه فقال : ماتت عزة ! فانتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فبين من حبيب تعاشره

وقد اشتهر من بين العرب كثيرون فى الزجر والعيافة كعراف اليمامة والأبلق الأسدى والأجلح وعروة بن يزيد وغيرهم ممن لا يحصى عدداً .

وكان هناك من بين العرب من أنكر الزجر ونحوه وذم من اغتر به واعتمد فى أمره عليه منهم ضابىء بن الحرث وقد قال فى ذلك

وماعاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ورب أمور لا تضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

ومنهم النابغة وقد رُوى أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات ألوان فرجع ومضى النابغة . ولما رجع غانماً قال :

يلاحظ طيرة أبداً زياد لتخبره وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

وقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شيء

يجده أحدكم فلا يصدقه » . وقال شراح الحديث إنه ليس فى سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه وإنما هو تكلف بتعاطى مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانة جهل من فاعله .

وإنه على الرغم من ذلك فقد بقيت من هذا بقايا فى كثير من المسلمين . ومن العيب أن بعض القبائل العربية فى الجاهلية كانت لا تزوج بناتها إلا لمن اتصف بصفات خاصة منها معرفته للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم كانت من الصفات العلية .

وكانت عند العرب غير ما ذكرنا وسائل أخرى يتوسلون بها إلى معرفة الغيب كالطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى والخط فى الرمال . فكان الكاهن إذا سئل عن حادثة أخرج حصيات قد أعدها عنده فيطرق بعضها ببعض فيلوح له حينئذ ما يعلم به جواب السؤال . أما الخط فى الرمال فكان الكاهن يأمر غلامه أن يخط خطوطاً على رمل أو تراب ويكون ذلك منه فى خفة وعجلة لايدركها العدوالإحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين وهو يقول « إبنى عيان . أسرعا البيان » فإن كان آخر ما يبقى منها خطين فهو آية النجاح وإن كان قد بقى خط واحد فهو علامة الخيبة والحرمان .

الفصل الرابع
المنجمون والتنبؤ بالغيب

لم يكن للعرب فى الجاهلية دراية بصناعة التنجيم ، وظلوا على جهلهم بهذا العلم حتى كادت الدولة الأموية أن تنقرض . ونستدل على ذلك أننا لا نجد فى أشعار الجاهلية وأخبارها شيئاً يدل على علمهم بهذه الصناعة على وفرة ما جاء فى هذه الأشعار والأخبار ، من اشتغالهم بالكهانة والقيافة والزجر والطيرة وغير ذلك من أنواع التفاؤل والتشاؤم . على أن العرب الذين استقروا خارج الجزيرة العربية بعد أواسط القرن الأول قد قالوا بتأثير الكواكب فى السعد والنحس على الأخلاق .

ومهما يكن من الأمر فقد شاعت النجامة منذ الماضى السحيق عند قدماء الشرقيين . ويعتبر الكلدان أساتذة العالم فى علم النجوم فهم الذين وضعوا أسسه وأقاموا بنيانه ، وقد ساعدهم على ذلك صفاء سمائهم وجفاف هوائهم فرصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ أكثر من أربعين قرناً خلت .

وقد أخذ عنهم هذا العلم اليونانيون والآشوريون والمصريون

وغيرهم من أهل الحضارات القديمة . وفى القرن الخامس قبل الميلاد أغار الفرس على الكلدان وفتحوا بلادهم واستبدوا بهم فثقل ذلك على الكلدان فهاجر كثيرون منهم إلى البلاد المجاورة لهم وخاصة بلاد العرب التى كانت ملاذاً للمهاجرين من العراق ومصر والشام وذلك لامتناعها على الجيوش المغيرة بسبب فيافيها القفراء .

وكان فى جملة المهاجرين إليها جماعة من الكهان وأصحاب النجوم فتعلم العرب منهم أحكام النجوم وأخذوا عنهم أسماءها كما عرفوا منهم مواقع الأبراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس . وعلى الجملة فإن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة .

ولم يكن للتنجيم شأن عند العرب إلا منذ قيام الدولة العباسية ، ولعل أول من اهتم بالتنجيم والنجوم هو أبو جعفر المنصور الذى أمر بترجمة الكثير من كتب هذا الفن . وقد سار خلفاؤه على منواله وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم بحيث كان المنجمون فئة من موظفى الدولة كما كان الأطباء والكتاب والحساب ولهم الرواتب والأرزاق . وكان الخلفاء يستشيرون المنجمين فى كثير من الأمور الإدارية والسياسية ، فكانوا إذا خطر لهم أمر ذو شأن

وخافوا مغبته استشاروا المنجمين، فينظرون فى حال الفلك واقترانات الكواكب ؛ ثم يشيرون بموافقة هذا العمل أو عدمه .

ويعرف التنجيم عند العرب بأسماء مختلفة، فهم يسمونه أحياناً علم أو صناعة النجوم، وأحياناً علم أو صناعة الأحكام، وسماه البعض علم النجامة . ويطلق على المشتغل بعلم النجوم أو التنجيم الإحكامى، أو المنجم وإن كان اللفظ الأخير يطلق أيضاً على الفلكى .

وقد انعقد إجماع المتكلمين والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم . وشذ عن هؤلاء قلة من أمثال الكندى و إخوان الصفاء وفخر الدين الرازى .

ومن أقوال المنكرين لهذا العلم أنه ليس فى معرفة الكائنات قبل وقوعها صلاح لإنسان من الناس، لأن فى ذلك تنغيصاً للعيش واستجلاباً للهم واستشعاراً للخوف والحزن والمصائب قبل حلولها .

ويقول المؤيدون إن الإنسان إذا علم ما يكون من حادث فى المستقبل أو كائن بعد ، أمكنه أن يدفع عن نفسه بعضها لا بأن يمنع ويدفع كونها ، ولكن يتحرز منها أو يستعد لها كما يفعل سائر الناس، ويستعدون لدفع برد الشتاء بجمع الدثار، ولحر الصيف بأخذ السكن ، ولسنى الغلاء بالادخار ، ولمواضع الفتن

بالهرب منها والبعد عنها ، وترك الأسفار عند المخاوف وما شاكل ذلك ، مع علمهم بأنهم لا يصيبهم منها إلا ما كتب الله لهم وعليهم . ذلك بالإضافة إلى أن الناس متى علموا بالحوادث قبل كونها ، أمكنهم أن يدفعوها قبل نزولها بالدعاء والتضرع إلى الله والتوبة والإنابة إليه بالصوم والصلاة والقربان ، وسؤاله أن يصرف عنهم ما يخافون نزوله ، وبهذا نزلت الديانات وسنت الشرائع .

ومن وجوه الإنكار أن النووى وهو أحد الأئمة المجتهدين وقد توفى عام ١٦١ للهجرة لقى المنجم اليهودى « ما شاء الله » وكان صاحب حظ قوى فى سهم الغيب والإخبار بأمور الحدثان ، فقال له : أنت تخاف زحل وأنا أخاف رب زحل ، وأنت ترجو المشترى وأنا أرجو رب المشترى ، وأنت تغدو بالاستشارة ، وأنا أغدو بالاستخارة فكم بيننا . . . ؟

ويذهب المؤيدون لهذا العلم أن من نظر فى هذا العلم وفكر فى سعة هذه الأفلاك وسرعة دورانها وعظم هذه الكواكب وعجيب حركاتها وأقسام هذه البروج وغريب أوصافها تشوقت نفسه إلى الصعود إلى الفلك والنظر إلى ما فيه وليس هذا ممكناً بهذا الجسد الثقيل الكثيف ،ولكن النفس إذا فارقت هذه الجثة ولم يعقها شىء من سوء أفعالها أو فساد آرائها استطاعت أن

تصعد فى لمح البصر إلى عالم الأفلاك ، وبغير هذا تبقى تحت فلك القمر سائحة فى مقر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة تارة من الكون إلى الفساد وتارة من الفساد إلى الكون . والنظر فى هذا العلم يعين على الترقى إلى ما هو أشرف وأجل فهو ينبه النفس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

وقال منكروه إن أحكام هذا العلم وإن لم تبطل من أساسها فإنها لا تصح بأسرها وليس هذا بالهين اليسير ، وصحتها وبطلانها تتوقف على آثار الفلك . وقد يقتضى شكل الفلك فى زمان ما ، ألا يصح من أحكام النجوم شىء وإن غاص أهلها على وقائعها وبلغوا إلى أعماقها .

ويرد على ذلك المؤيدون بقولهم إن الصناعة لاتبطل ولاتكون أدلتها فاسدة ، لأن أهلها يتعرضون للأخطار فى استدلالاتهم ، فعلم النجوم وأدلته صحيحة وحق ، وإن أخطأ أهله فى بعض استدلالاتهم أو أكثرها . لأن الله هو الذى نصب الأشخاص الفلكية وأجراها مجاريها وقد جعله الله معجزة لإدريس النبى ، وكذلك الطب وصناعته ، فإن دلالته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون فى قضاياهم باستدلالاتهم التى نصبوها فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة الطب من أجل ذلك ، وهكذا أيضاً الفقهاء

والحكماء ، وأهل الفتوى فى أحكام الدين من الحلال والحرام ، قد يصيبون أو يخطئون فى قضاياهم واستدلالاتهم التى نصبها لهم البارى من آيات كتبه المنزلة . فخطؤهم وزللهم لا يبطل العلم والصناعة والأدلة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنقصه عن التمام .

وعلى الرغم من أن أدلة خصوم التنجيم ودعاة الاستخفاف به ، تبدو أقوى من حجج أنصاره ومؤيديه ، فإنها لم تذهب بنفوذه فى قصور الخلفاء والسلاطين وعند عامة الناس على السواء . وقد ظل هذا النفوذ قائماً حتى القرن الغابر حين أتى عليه قيام الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبر نيكوس المتوفى عام ١٥٤٣ بوجه خاص . ومن أجل هذا ظل قائماً فى البلاد التى لم تغزها الحضارة الغربية ، وإن افتقد جلاله الذى كان له فى العصور الوسطى . ومن الملاحظ أن قضاة اليمن كانوا لا يزالون يزاولون صناعة أحكام النجوم حتى عهد قريب بل لا تزال له آثار باقية فى تلك البلاد حتى اليوم .

ومهما يكن من الأمر فقد كان للمنجمين مكانة ممتازة فى بلاط السلاطين والخلفاء . وقد جاء فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان أن الحجاج بن يوسف حين حضرته الوفاة ،

استدعى منجماً وقال له : هل ترى فى علمك ملكاً يموت ؟ قال المنجم نعم ولست هو ، لأن الذى يموت اسمه كليب ، قال الحجاج إنه أنا والله « بذلك سمتنى أمى » وكتب وصيته .

وقد كان جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين ، يدنى المنجمين من حضرته ويستشيرهم فى أموره ، وكان نوبخت الفارسى يصحب المنصو ر ولما ضعف عن خدمته طلب إليه هذا إحضار ولده ليأخذ مكانه ، فسير له ولده أبا سهل .

ويذكر المؤرخون أن المنصو ر لما حج حجته التى توفى فيها، رافقه من المنجمين أبو سهل ، بل إن المنصور حين هم ببناء بغداد عام ١٤٥ هـ وضع أساس المدينة فى وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله بن سارية ، وأن الذين هندسوا المدينة كانوا فى حضرة نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزارى والطبرى من المنجمين.

ونستدل من هذا ومن روايات أخرى كثيرة أن بعض الحكام والخلفاء كانوا يعتقدون فى صحة أقوال المنجمين . وليس من شك أن هذا الاعتقاد لم يتكون إلا بعد أن خبروا المنجمين وتبينت صحة أقوالهم وتنبؤاتهم فى أحوال كثيرة .

وإذا كان المنجمون قد صدقت نبوءاتهم فى بعض الحالات فإن هناك روايات تدلنا على عدم تحقق نبوءاتهم فى أكثر

الحالات ؛ من ذلك اتفاقهم عند ما تم بناء مدينة بغداد عام ١٤٦ هـ أن طالعها يقضي بأنه لا يموت فيها خليفة . وشاع ذلك حتى هنأ الشعراء به المنصور حتى قال بعض شعرائه :

يهنيك منها بلدة تقضى لنا   أن الممات بها عليك حرام
لما قضت أحكام طالع وقتها   أن لا يرى فيها يموت إمام

وأكد هذا القول فى نفوس الناس موت المنصور بطريق مكة ثم المهدى بما سبذان ثم الهادى بعساباذ ثم الرشيد بطوس . فلما قتل بها المأمون الأمين بشارع باب الأنبار ظهر فساد قول المنجمين ولذلك قال الشاعر :

كذب المنجم فى مقالته التى   نطقت به كذباً على بغدان
قتل الأمين بها لعمرى يقتضى   تكذيبهم فى سائر الحسبان

وقد مات ببغداد جماعة من الخلفاء مثل الواثق والمتوكل والمعتضد والمكتفى والناصر وغيرهم .

ومن ذلك اتفاق المنجمين عام ٣٥٣ هـ عند ما أراد القائد جوهر بناء مدينة القاهرة ، وكان قد سبق مولاه المعز إلى الدخول إلى الديار المصرية لما أمره المعز بدخولها بالدعوة ، وأمره إذ دخلها أن يبنى بها مدينة عظيمة تكون نجوم طالعها فى غاية الاستقامة

ويكون بطالع الكوكب القاهر وهو زحل أو المريخ على اختلاف حاله . فجمع القائد جوهر المنجمين بها وأمر كل واحد منهم أن يحقق الرصد ويحكمه وأمر البنائين ألا يضعوا الأساس حتى يقال لهم ضعوه وأن يكونوا على هيئة من التيقظ والإسراع حتى يوافقوا تلك الساعة التى اتفقت عليها أرصاد أولئك الجماعة ، فوضعت الأساسات على ذلك فى الوقت الحاضر وسموها بالقاهرة إشارة إلى الكوكب القاهر ، واتفقوا كلهم بأن الوقت الذى بنيت فيه يقضى بدوام جدهم وسعادتهم ودولتهم ؛ وأن الدعوة لا تخرج فيها عن الفاطمية وإن تداولتها الألسن العربية والعجمية . فلما ملكها أسد الدين شيركوه بن شادى ، ثم ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومع ذلك المصريون قائمون بدعوة العاضد عبد الله بن يوسف ، توهم الناس أن ما قال المنجمون من قبل حقًّا لتبدل اللسان وحال الدعوة مستبق . فلما رد صلاح الدين الدعوة إلى بنى العباس انكشف الأمر وزال الالتباس وظهر كذب المنجمين حتى اعتذر من اعتذر منهم بأن البنائين كانوا قد سبقوا الرصادين إلى وضع الأساس .

وقد وقف بعض علماء المسلمين من التنجيم موقفاً وسطاً فلا هو بالمؤمن به ولا هو بالمنكر له ، من ذلك ما حكاه التنوخى فى

كتابه نشوار المحاضرة من أن أبا محمد عبد الله بن عباس الرامهرمزى المتكلم أخبره قال : أردت الانصراف من عند أبى على الجبائى — وهو من كبار المتكلمين — إلى بلدى فجئته مودعا فقال لى : يا أبا محمد لا تخرج اليوم فإن المنجمين يقولون إن من سافر فى مثله غرق فأقم إلى يوم كذا وكذا فإنه محمود عندهم فقلت : أيها الشيخ مع ما تعتقده فى قولهم كيف تجئ بهذا ؟ فقال : يا أبا محمد لو أخبرنا مخبر ونحن فى طريق أن فيه سبعا أليس كان يجب فى الحكمة علينا ألا نسلك ذلك الطريق إذا قدرنا على سلوك غيره وإن كان ممن يجوز عليه الكذب ؟ قلت : نعم . قال : فهذا مثله ، وقد يجوز أن يكون الله تعالى أجرى العادات بأن تكون الكواكب إذا نزلت هذه المواضع حدث كذا والأخذ بالحزم أولى . قال : فأخرت خروجى إلى اليوم الذى قاله .

ولقد سبق أن ذكرنا أن علم التنجيم كان مزدهراً فى العالم القديم وخاصة عند البابليين والأشوريين وفى الهند ومصر والصين واليونان وروما ، ولكنه تدهور حتى كاد يتلاشى فى أوربا بظهور المسيحية . غير أن الفتح الإسلامى لأوربا فى القرنين التاسع والعاشر قد أعاد لهذا العلم مكانته فى القارة الأوربية حتى أنه كان يعتبر فى عهد دانتى من أسمى العلوم وأنبلها . وكان هناك

منجم خاص لكل ملك أو أمير فى أوربا يستشيره فى كل أموره؛ فلا يقدم على عمل إلا بعد أن يقرأ له المنجم الطالع . بل والأكثر من ذلك أن بعض البابوات أنفسهم كانوا من المشتغلين بالتنجيم نذكر منهم البابا سلفستر والبابا يوحنا العشرين ويوحنا الحادى والعشرين وچوليوس الثانى وكليمنت الثامن وغيرهم . ولقد تنبأ مارسيليو فسينو Marsillio Ficino منجم دوق فلورنسه المعروف باسم لورنزو العظيم بأن واحداً من أولاد هذا الدوق — وهو چيوڤانى ده مديسى — سوف يعتلى الكرسى البابوى . ولما اعتلى چيوڤانى هذا الكرسى البابوى تحت اسم ليو العاشر أصبح راعياً للمنجمين ونصيراً لهم .

ونجد أن عالماً دينياً كبيراً وفيلسوفاً من أشهر فلاسفة العصور الوسطى وهو توماس الأكوينى يعلن أن الأجرام السماوية هى السبب فى جميع أحداث هذا العالم الدنيوى .

والواقع أن كل واحد فى العصور الوسطى كان يعتقد فى التنجيم على الرغم من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المنجمين . إن المنجمين الأوربيين الأول من أمثال كوبرنيكوس وتيخو براهه وكبلر ، بل إن إسحاق نيوتن مكتشف قانون الجاذبية كانوا جميعاً من المهتمين بدراسة « العلم القديم » أى التنجيم كما

كان يعرف فى ذلك الوقت . ويقال إن إسحاق نيوتن عند ما التحق بجامعة كمبردج عام ١٦٦٠ — وكان عند ذاك فى السابعة عشرة من عمره، سؤل عما يريد أن يدرسه بالجامعة فقال: أريد دراسة الرياضيات لأنى أرغب أن اشتغل بالتنجيم .

ولم يكن رجال الكنيسة أقل تعلقاً بالتنجيم من العلمانيين . فقد أصيب رئيس أساقفة كنيسة القديس اندروز بإنجلترا بمرض أعيا نطس الأطباء الإنجليز فأرسل فى طلب المنجم الرياضى المشهور چيروم كاردان من أوربا عام ١٥٥٢ . وقد قرأ هذا المنجم طالع الأسقف وكشف عن مرضه وعالجه حتى برىء . ولما انتهى المنجم من مهمته قال لرئيس الأساقفة : « لقد استطعت أن أبرئك من علتك ولكنى لا أستطيع أن أغير من مصيرك، ولا أن أحول دون رأسك وحبل المشنقة » . وحدث بعد ذلك بثمانية عشر عاماً أن شنق هذا الأسقف بأمر من لجنة التحقيق التى أنشأتها مارى كوين الوصية على عرش اسكتلندا .

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع المنجمون فى أخطاء عديدة جسيمة منها تلك التنبؤات التى جعلت أهل أوربا يبنون الفلك استعداداً للهرب من الطوفان الجديد الذى سوف يحل بالعالم كما قال المنجمون. وذهب المنجمون أيضاً فى العصور الوسطى إلى أن

نهاية العالم سوف تكون فى عام ١٥٨٤ وأكد هذا القول ليوفثيوس Leovituis منجم بلاط الأمير هنرى أمير البلاتينات ؛ الذى قال إن الكواكب تنبئ بأن العالم سيفنى فى عام ١٥٨٤ . بل إن كبلر كبير المنجمين والفلكيين فى عصره قرأ الطالع للجنرال ولشتين عام ١٦٠٩ وأنبأه بأنه سوف يعيش حتى يبلغ السبعين من عمره ولكن ولشتين قد مات قبل ذلك بنحو تسعة عشر عاماً.

ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد تحققت ، مثال ذلك ما ذكره المنجمون عن ذلك الطوفان الحربى الذى اجتاح العالم فى القرن الثالث عشر . ففى ذلك القرن ألقى زعيم إحدى القبائل الرحل التى تقطن السهوب الشاسعة الواقعة إلى الشمال والغرب من الصين الرعب فى قلوب الناس . فقد اجتاح هذا الزعيم بخفة وسرعة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ العالم بلاد آسيا وقهر دوق روسيا الأكبر وقضى على ملكه وعاث فى بلاده فساداً.

كان اسم هذا الزعيم « چنكيزخان » ولم يكن أحد فى العالم فى ذلك الوقت يعرف شيئاً عن هذا الزعيم الذى انقض على العالم كالصاعقة أو القضاء المحتوم . لقد كانت دعوات الناس فى صلاتهم فى ذلك الوقت « اللهم نجنا من غارات أهل الشمال » . لقد كان هذا الفاتح الجبار فى الواحد والأربعين من عمره عند ما

خرج فى حملته التاريخية الهائلة وكانت إمبراطوريته التى كونها بحد السيف تمتد من المحيط الهادى حتى نهر الدنيبر .

ولعل القارئ يسأل وما صلة ذلك بالتنبؤ بالغيب الذى هو موضوع هذا الكتاب؟ إن لذلك صلة وثيقة كما سنذكر فيما يلى:

فى مستهل عام ١١٧٩ وجد كثيرون من المنجمين أن الطوالع تدل على أن كارثة هائلة سوف تحل بالعالم وبالإنسانية ورأوا أن من واجبهم أن ينبهوا العالم إلى هذا الخطر الذى على وشك الحدوث ، فكان سكان أوربا أجمعين ينظرون إلى المستقبل نظرة ملؤها الخوف والوجل ، لأن المنجمين ذكروا أن هذه الكارثة سوف تحل عام ١١٨٦ . ولم يكن هذا الخوف مقصوراً على أهل أوربا وحدهم بل كان شائعاً فى جهات أخرى غير أوربا. فالشاعر والمنجم الفارسى المعروف « أنورى » قد تنبأ بعاصفة كاسحة فى السادس عشر من شهر سبتمبر عام ١١٨٦ ، لأن اجتماع خمسة كواكب فى برج الميزان فى تلك الليلة هو الذى دفع أنورى إلى التنبؤ بهذه النبوءة على الرغم من أن الليلة التى قال عنها أنورى أن عاصفة كاسحة قد حدثت فيها كانت ليلة هادئة.

وقد سخر أنورى من نفسه لهذا القول أو التنبؤ ولكن تبين بعد ذلك أن چنكيزخان زعيم التتر الذين اجتاحوا العالم قد ولد فى

تلك الليلة التى قال عنها أنورى وعلى ذلك تكون نبوءة أنورى صحيحة وإن لم يفهم مدلول هذه العاصفة الكاسحة فى حينه .

ومن المؤكد أيضاً أن كثيراً من تنبؤات المنجمين قد صدقت وتحققت ، من ذلك أن پيكو دلا ميراندولا وهو من أشهر علماء عصر النهضة فى إيطاليا وكان من المتعصبين ضد التنجيم والمنجمين حتى نعته البعض بأنه نقمة المنجمين ، قد تنبأ له ثلاثة من المنجمين أنه سيموت وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره . وكان من أمر هذه النبوءة أن تحققت بالضبط كما قال هؤلاء المنجمون إذ توفى پيكو فى اليوم بل وفى الساعة التى تنبؤا بها ؛ فكان ذلك أكبر نصر للمنجمين الذين حاربهم پيكو طوال حياته.

وهناك منجم آخر يدعى پيير دللى Pierre d'Ailly قد تنبأ بالفترة العصيبة التى سوف تمر بها فرنسا ابتداء من عام ١٧٨٩ وكان ذلك قبل حدوثها بأربعمائة سنة .

وقرأ أحد المنجمين الإيطاليين ويدعى چوليانو دل كارمن الطالع للدوق السندرو ده مديسى أول دوق لفلورنسة ، فوجد أن هذا الدوق سوف يُغتال وأن الذى سيغتاله هو ابن عمه لورنزاشيو . ورأى المنجم أن من واجبه أن يخبر الدوق بذلك على الفور ، ولكن الدوق استخف بقول المنجم وابتسم لهذه المخاوف التى

تساوره فقد كان أهل فلورنسة أجمعين يحبون الدوق ويلتفون حوله . ورأى أحد حراس الدوق أيضاً فى منامه أن الدوق قد اغتيل على يد رجل ضعيف قميىء حتى إن صورته قد علقت فى مخيلته . وفى الصباح قص الجندى هذا الحلم على سيده وفى أثناء ذلك دخل لورنزاشيو على الدوق فصاح الجندى ، هذا هو الرجل الذى شاهدته فى منامى فما كان من الدوق إلا أن صرف الجندى بعد أن أنبه على هذا القول . وفى نفس ذلك اليوم قتل لورنزاشيو الدوق أثناء صعوده درجات الكنيسة .

وفى عام ١٤٦٠ نشر جون كابسترانو كتاباً بعنوان « علم الفلك » ذكر فيه هذه النبوءة التالية وقال إنها ستحدث عام ١٦٢٢ :

« إن أسد نصف الليل الأكبر سوف يخرج من عرينه ولكنه لن يرجع ثانية إليه وإن يكن قد قام بما فرض عليه . سوف يقول كثيرون من يُعدون أنفسهم من الذين أوتوا الحكمة « إنه لايستطيع ذلك » ويقول آخرون « ألم نخبركم بذلك مقدماً ؟ أما الذين سوف يقاسون أكثر من غيرهم فسيتجاهلون الأمر وينظرون إلى هذا الأسد على اعتبار أنه ديك لا يخشاه أى صقر . ومهما يكن من الأمر فإن هذا الأسد سوف يزأر فى عام ١٦٢٢

بصوت عال بحيث تهتز له الأرض ويفزع منه جميع البشر » .

وقد تحققت هذه النبوءة فى عام ١٦٣٢ إذ خرج فى ذلك العام جوستاف أدولف أسد السويد وكان له الشأن الأكبر فى حرب الثلاثين سنة . وهو المدافع الأكبر عن المذهب البروتستانتى وأوقع الهزيمة بكل من الجنرال تيلى Tilly والجنرال وولنشتين Wallenstein وهما من أشهر قواد آل هابسبورج المدافعين عن المذهب الكاثوليكى . ولم تكن السويد ولا أية دولة أخرى من الدول الإسكندناقية لها أى شأن يذكر فى التاريخ الأوربى فى عام ١٤٦٠ وهو العام الذى نشر فيه كابسترانو نبوءته المذكورة .

والمعروف أيضاً أن تيخو براهة Tycho Brahe (١٥٤٦ — ١٦٠١) أعظم الفلكيين فى القرن السادس عشر كان يعتبر كذلك من أعظم المنجمين ، فقد كرس حياته للتنجيم وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره . وكان ينظر إلى الفلك والتنجيم على اعتبار أنهما شىء واحد وكان هذا هو رأى الكثيرين من علماء ذلك العصر . لقد اضطر تيخو إلى دراسة التنجيم سراً لأن أبواه كانا يرغبان فى أن يصبح ولدهما محامياً . وتمكن تيخو فى عام ١٥٧٧ — وكان لا يزال شاباً من أن يضحد نظرية أرسطو التى كانت متحكمة فى العقول زماناً طويلا ومؤداها

أن السموات محدودة ومحاطة بدائرة صلدة . وقد وصل إلى ذلك بدراسة المذنب الذى ظهر فى ذلك العام . بل لقد كان تيخو فى السابعة عشرة من عمره فقط عندما تنبأ فى عام ١٥٦٣ بالطاعون الكبير الذى اجتاح أوربا عام ١٦٦٥ ، وقد قال السير دافيد بروستر David Brewster وهو من أعظم علماء القرن التاسع عشر أن تيخو لا يتفوق عليه أحد من الفلكيين سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث .

لقد تنبأ تيخو هذا أيضاً بمجىء جوستاف أدولف وذلك من ملاحظته لنجم جديد ظهر فى برج ذات الكرسى Cassiopia عام ١٥٧٢ . فقد ذكر أن أميراً شجاعاً على وشك الظهور سوف تبهر جيوشه ألمانيا بأسرها ولكنه سوف يختفى هو نفسه عام ١٦٣٢ . والمعروف أن جوستاف أدولف لم يولد إلا عام ١٥٩٤ وقد قتل عام ١٦٣٢ فى موقعة لوتزن .

وكان فى بلاط الملكة إليصابات ملكة إنجلترا منجم يدعى چون دى John Dee وفى ذات يوم استدعى هذا المنجم على عجل لأن جلالة الملكة كانت تريد أن تستوضح منه عن بعض الأمور التى تشغل بالها . لقد ذكر منجم شاب يدعى جولد ماير أن جوستاف أدولف سوف يفقد حياته فى

لوتزن عام ١٦٣٢ . وكانت الملكة إليصابات هى وحاشيتها يهمها موت جوستاف هذا الذى أصبح خطراً يهدد ملكها ولكنها لم تكن تثق فى قول هذا المنجم الشاب . ولكن لما توفى جوستاف فعلا فى عام ١٦٣٢ فى لوتزن أصبح هذا الشاب منجماً شهيرا وكافأه الملك فرديناند الثالث وقربه إليه .

فليس بعجيب إذاً أن نرى الملوك والأمراء فى أوربا فى ذلك العهد يحتفظون فى بلاطهم بالمنجمين ويحيطونهم بمظاهر التكريم والتبجيل والتعظيم ويستشيرونهم فى كل أمر هام . فنجد أن رودلف الثانى إمبراطور النمسا كان شديد الرغبة فى أن يكون تيخو براهة منجمه الرسمى لذلك استدعاه إلى بلاطه ومنحه راتباً ضخماً وأرضاً يستغلها وابتنى له مرصداً خاصاً زوده بجميع آلات الرصد . وكان رودلف هذا يزهو بأن لديه الجداول الرودلفية وهى الجداول الفلكية التى وضعها تيخو وأصبحت تحمل اسم رودلف وكان الفلكيون يستعملونها بكثرة فى ذلك الوقت . وقد سمح رودلف لمنجمه تيخو أن يستعين بكبلر Kepler فى أبحاثه الفلكية وهو الرجل الذى ذاع صيته فى الفلك بعد ذلك حتى كادت شهرته تغطى على شهرة تيخو براهة .

وجون كبلر هذا من أعظم الفلكيين الذين ظهروا فى العالم

كما كان أيضاً من أعظم المنجمين . ولقد تنبأ كبلر هذا بمقتل ولنشتين ولكنه أخطأ فى تحديد التاريخ بالضبط . وهو كفلكى قد وضع القوانين الفلكية التى تنسب إليه وهى التى مكنت بعد ذلك السير إسحاق نيوتن من الكشف عن قانون الجاذبية . على أن هذا الفلكى قلما كان يخطىء كمنجم فى تنبؤاته . فقد ذكر فى تقويمه الفلكى لعام ١٦١٩ أن الإمبراطور متياس سوف يموت فى شهر مارس من ذلك العام . وقد توفى بالفعل هذا الإمبراطور فى العشرين من شهر مارس سنة ١٦١٩ .

وكان كبلر إذا قرأ طالع فرد من الأفراد فكأنه يرسم له صورة واضحة دقيقة وكأنها بريشة المصور العالمى رمبرانت . لقد قرأ كبلر طالع دوقة فريدلاند (زوجة ولنشتين) ولم يكن قد رأى هذه السيدة من قبل ولكنه ذكر وصفا دقيقاً لمنظر هذه الدوقة ولصفاتها المميزة لها ولمزاجها الخاص كل ذلك بشكل دقيق للغاية، الأمر الذى دفع ولنشتين أن يتخذ من كبلر منجماً خاصاً له . وكان معنى ذلك فى تلك الأيام أن يأخذ هذا المنجم راتباً ضخماً ويقطن فى منزل أنيق ويستمتع بوافر العناية والتكريم . على أن هذا الحظ الذى واتى كبلر قد جاءه متأخراً لأن كبلر قد توفى بعد ذلك بسنتين :

لقد كان الأمراء والحكام فى أوربا يطمحون فى أن يكون لكل واحد منهم منجم مثل كبلر إذ ما معنى الحياة فى نظرهم دون منجم ماهر ينبئهم بما ستأتى به الأيام من أحداث ؟ . فنى عام ١٦٢٠ تقدم السير هنرى واتون سفير چيمس الأول ملك انجلترا إلى كبلر بعروض سخية ولكنه أخفق فى سفارته ولم ينجح فى إغراء هذا الفلكى الشهير على الذهاب إلى انجلترا إذ آثر كبلر العوز على أن يعيش فى بيئة غريبة عليه فى كل شىء .

على أن انجلترا كانت فى الوقت الذى رفض فيه كبلر أن يذهب إلى هناك تمهد لمنجمها الخاص . فإنه فى نفس العام الذى قابل فيه السير هنرى واتون المنجم كبلر وعرض عليه الذهاب إلى لندن — وفد على هذه المدينة شاب قوى البنية من أهل الريف. وكان فى ذلك الوقت فى الثامنة عشرة من عمره على حظ قليل من العلم وعلى دراية باللغتين اليونانية واللاتينية وقد جاء إلى لندن سعياً وراء الرزق . واشتغل هذا الشاب فى بداية أمره فى بعض المهن الحقيرة ثم جرته الصدفة بعد ذلك إلى الاتصال بالدكتور سيمون فورمان Simon Forman وكان من المشتغلين بالعلوم الخفية فحبب هذا العالم للشاب وكان يدعى ليللى Lilly

دراسة التنجيم ، وتزوج هذا الشاب بعد وفاة أستاذه من أرملته وكانت على حظ من الثراء فتمكن من دراسة التنجيم على يد بعض المشتغلين بهذا العلم .

وقد أخذ هذا الشاب منذ عام ١٦٤١ ينشر تنبؤاته التى قابلها المثقفون فى ذلك الوقت بالضحك والسخرية ولكن كثيراً من علية القوم الإنجليز كانوا يذكرون بعد ذلك تنبؤاته بالإعجاب ومن بينهم شارل الأول وكرومويل ، بل كان ليللى هذا فى وقت من الأوقات يعتبر المنجم الخاص لكرومويل .

ومن الأسباب التى أدت إلى شهرة ليللى هذا تنبؤه بالطاعون الأعظم وبحريق لندن الشهير . ومن المعروف أن البرلمان الإنجليزى عند ما أخذ يبحث عن أسباب حريق لندن الهائل الذى حدث عام ١٦٦٦ استدعت اللجنة القائمة بهذا البحث ليللى وسألته ما إذا كان تنبؤه هذا قائماً على علمه بمؤامرة كانت تدبر لهذا العمل أم قائماً على حسبانات فلكية . وقد أقنع ليللى اللجنة أنه تنبؤه هذا كان قائماً على حسابات فلكية دون غير . وأخذ ليللى هذا يصدر التقاويم الفلكية التى نال بسببها شهرة فائقة وحصل من ورائها على ثروة كبيرة .

الفصل الخامس

التنبؤ بالغيب فى أوربا

مر وقت فى العصور الوسطى كان فيه أهل أوربا وخاصة البلاد التى تعرف الآن باسم ألمانيا والنمسا يعملون بجد ونشاط وفى أيديهم الفؤوس والمعاول فى بناء الفلك على نحو ما كان يصنع نوح لكى يعتصموا بها من الهلاك غرقاً . كان الناس يسرعون فى بناء تلك السفن وقلوبهم مملوءة فزعاً لأن واحداً من العرافين المشتغلين بعلم التنجيم ويدعى چوهان ستوفلر Johann Stoffler قد أعلن بناء على حساباته التى لا يتطرق إليها الخطأ أن فيضاناً آخر على مثال فيضان نوح سوف يجتاح أوربا بأسرها ويهلك أهلها أجمعين ، فلم يكن أمام الناس إلا أن يبحثوا عن وسيلة تعصمهم من هذا الفناء المحقق . غير أن هذا الفيضان المزعوم لم يتحقق ، بل قام عراف آخر أكثر شهرة من العراف الأول هو جورج تنستتر Tannenstetter من أهل ڤينا وأخذ يفند ادعاءات ستوفلر وأعلن أن ليس هناك مايدل على حدوث مثل هذا الفيضان وأن نبوءة ستوفلر هذا كاذبة .

كان ذلك فى القرن السادس عشر ، أما اليوم فلو قام منجم أو عراف وأعلن مثل هذه النبوءة الخاصة بنهاية العالم لقابلها الناس بالسخرية والابتسام وقد لا يحفل بها أحد البتة إلا ضعاف القلوب والعقول ، أما فى العصور الوسطى فلم تكن مثل هذه النبوءة تمر دون أن تحدث الفزع والهلع فى قلوب الناس لأنه كانت هناك فكرة شائعة متأصلة فى النفوس وهى أن الدنيا قد قاربت نهايتها بل إن هذه الفكرة كانت فى القرن العاشر الميلادى جزءاً من العقيدة العامة التى يعتنقها أهل أوربا . لقد كان الناس فى ذلك العصر يتطلعون إلى نهاية العالم كما نتطلع نحن أبناء القرن العشرين إلى السماء انتظاراً لدلائل الغيث بعد فترة من الجفاف . وقد ذكر معظم العرافين عام ٩٩٩ على أنه التاريخ الذى سوف تحدث فيه هذه الطامة الكبرى .

كان الناس يتوقعون أن يكون يوم الحشر فى بيت المقدس لذلك كان عدد الحجاج المتجهين ناحية المشرق فى عام ٩٩٩ من الكثرة بحيث كانوا يشبهون بجيش عرمرم هائم على وجهه . لقد باع معظم هؤلاء الحجاج جميع ما يملكون من حطام الدنيا قبل أن يغادروا أوربا فى طريقهم إلى بيت المقدس وأخذوا يعيشون على دخل الأراضى المقدسة .

لقد أهمل الناس تشييد المبانى العامة أو إصلاحها إذ ما الداعى إلى ذلك ونهاية العالم أصبحت قاب قوسين أو أدنى وكانت النتيجة أن أصاب التلف والدمار الكثير من هذه المنشآت العامة بل وتهدم أغلبها ولم ينج من هذا المصير المفجع الكنائس و بيوت العبادة .

لقد اتجه إلى بيت المقدس الأمراء والفرسان و رجال الدين والعبيد والجميع يسير ون صحبة واحدة ومعهم أولادهم وأزواجهم ينشدون الأناشيد والترانيم وهم فى طريقهم وعيونهم متجهة إلى السماء فى خوف وتضرع ووجل يتوقعون فى كل لحظة أن تنفرج السماء و يهبط منها السيد المسيح .

ولما لم تحن نهاية العالم فى القرن العاشر توقع الناس من جديد أنها سوف تحين فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر أو بعد ذلك إذ لابد أنها آ تية لا محالة.وأصبح تعلق الناس بهذه الساعة الأخيرة هو الأمل الثانى لهم بعد التعلق بالحياة . لقد أخذ المنجمون فى وقت من الأوقات يرسلون الأنباء إلى جميع البلاد معلنين أن نهاية العالم وفناء الجنس البشرى سوف يكون فى عام ١١٨٦ . غير أن هذا الحادث الجلل لم يقع وصار يؤجل من وقت لآخر وكأنه تمثيلية كبرى تؤجل الحين بعد الحين .

إن العرافين فى الوقت الحاضر ومفسرى النبوءات الكثيرة الواردة فى الكتاب المقدس أو التى ينطوى عليها سر الهرم الأكبر يقولون إن « نهاية الزمن » تعنى أنه ستكون هناك تغيرات كبيرة جوهرية فى العالم دون أن يعنى هذا نهاية العالم إنما يعنى عصراً جديداً وليس فناء العالم وكل ما فيه .

وقد ظهر قبل العهد المسيحى مجموعات من كتب التنبؤات تناولتها أيدى الصفوة المثقفة من اليهود ذوى العقول المستنيرة الذين نهلوا من الثقافة اليونانية . وكانت هذه الكتب تنبئ بمجيء عصر سوف تسود فيه العدالة بين الناس ويعيش الناس فى سلام ووئام متحابين متعاونين ، وأن الأرض سوف تخرج طيباتها من فاكهة مختلف ألوانها وأن المدن سوف تعج بالطيبين الأخيار من الناس . وسوف تخلو الأرض من الزلازل والحروب والمجاعات .

وفى صدر العصر المسيحى أضاف المسيحيون إلى هذه التنبؤات التى تبشر بالمدينة الفاضلة تنبؤات أخرى تشير إلى أن العالم سوف يمر بعصر ذهبى تسوده المحبة والرخاء والسلام .

وكان الرومان من ناحية أخرى لا يحفلون بهذه التنبؤات المختلفة وفى عهدهم ظهرت نبوءات أخرى تنبئ بزوال

الإمبراطورية الرومانية ولكنهم سخروا من هذه التنبؤات لأنهم كانوا يعتقدون أن الإمبراطورية الرومانية عبارة عن كيان أو نظام أبدى لا يمكن أن يزول ولذلك نجدهم يحفظون هذه المجموعات التنبؤية فى الكابيتول بعيدة عن متناول أيدى الناس بل إنهم سنوا من القوانين فى عام ٤٠٥ للميلاد ما تفرض الموت على من يعرف عنه أنه اطلع على هذه الكتب المليئة بأخبار الغيب. ولذلك اتخذت التنبوءات بعد ذلك فى أوربا وجهة أخرى سنذكرها فيما يلى .

إن من الأسباب التى جعلت التنبؤات فى العصور الوسطى تتسم بهذه السمة المحزنة المفزعة أن الأشخاص الذين كانوا يقرأون الكتب المقدسة كانوا يقرأونها قراءة حرفية فى لغاتها القديمة كما أنه كانت تراود أذهانهم فكرة مجىء المسيح الدجال والمسيح الدجال يعد سبباً آخر من أسباب هذا الفزع المزمن العام الذى كان يهدد أهل العصور الوسطى .

لم يكن هناك خبر عن موعد ظهور هذا المسيح الدجال غير أن نفراً من كبار العالمين ببواطن الأمور اتفقوا على أن المسيح الدجال على وشك الظهور . ونذكر أنه فى عام ٣٨٠ أعلن مارتن Martin أسقف تورز بتهيب ووقار أن المسيح

الدجال يعيش بالفعل وإن كان لا يزال صبياً . وفى عام ١٠٨٠ أى فى الوقت الذى كان فيه أهل أوربا يعتقدون فى زوال العالم — ذكر أسقف فلورنسه مؤكداً أن المسيح الدجال قد ولد . وبعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون أى فى عام ١٤١٢ رأى أحد كبار رجال الوعظ المسيحيين أن من واجبه أن يكتب للبابا بنديكت Benedict الثالث عشر منبئاً أن المسيح الدجال قد بلغ بالفعل التاسعة من عمره . وقال كثيرون غير هؤلاء إنهم رأوا الرؤى التى تشير إلى قرب ظهور المسيح الدجال وإنه أصبح من الضرورى أن يعد المؤمنون أنفسهم لهذا القتال الرهيب الذى على وشك الوقوع .

وتحوى بعض المؤلفات القديمة سلسلة من الصور تمثل ولادة وحياة وموت رجل الشر (المسيح الدجال) . بل إننا نجد فى عهد متأخر أى فى منتصف القرن التاسع عشر أن العرافة جوزفين لامرتين — وهى عرافة مشهورة من أهل اللورين بفرنسا — تتكهن بأن المسيح الدجال سوف يولد فى عام ١٩٠٠ ولو كانت نبوءة هذه العرافة صحيحة لكان المسيح الدجال الآن يملأ الأرض جوراً وظلماً وظلاماً .

ومهما يكن من الأمر فإنه فى تلك العصور الوسطى قد

اختلطت النبوءات الصادقة بالأخرى الكاذبة حتى كان من الصعب التفرقة بينها . والواقع أن شعور الناس بالإثم والخطيئة والانحلال قد انعكس فى صورة التنبؤ بالعقاب الذى لا مفر منه والنوازل التى سوف تحل بالبشر .

وكان هناك إلى جانب هذه النبوءات العامة التى كان يعتقد فيها المسيحيون بوجه عام نبوءات خاصة بكل دولة من الدول الأوربية .

وكانت الإمبراطورية البيزنطية التى ظلت على قيد الوجود حتى سقوط عاصمتها القسطنطينية فى يد الترك عام ١٤٥٣ غنية بصفة خاصة بهذه النبوءات .

فنى القرن الحادى عشر انتشرت فى القسطنطينية بعض النبوءات التى تنسب إلى متوديوس Methodius أسقف بطراء الذى استشهد فى أوائل القرن الرابع إبان حكم الإمبراطور ديوقلتيان . فنى ذلك العهد البعيد ظهرت بعض التنبؤات تقول إن الإسماعيليين أو العرب سوف يقهرون كثيراً من البلاد المسيحية عقاباً لرجال الدين والعلمانيين على السواء على ما ارتكبوه من خطايا وآثام . وقد ترددت على الألسن هذه النبوءات طوال قرون عدة وتحققت بالفعل بعد ذلك بأربعة قرون . وكانت

هناك نبوءة أخرى تذكر أن الترك سوف يروون ظمأ جيادهم من مياه نهر الرين . والذى حدث بعد ذلك أن المغول بقيادة جنكيز خان قد اجتاحوا آسية وأوربا فى القرن الثالث عشر وسقوا جيادهم من عدة أنهار أوربية وإن لم يكن منها نهر الرين على التحقيق .

وتنبأ الإمبراطور الفيلسوف ليو Leo فى القرن التاسع بفتح المسلمين للإمبراطورية البيزنطية وقد تحققت هذه النبوءة بالفعل بعد ذلك بستة قرون تقريباً . وقد عثر قبيل استيلاء الترك على الدولة البيزنطية فى دير بالقسطنطينية على لوحة تنسب إلى الإمبراطور ليو مبيناً بها فى تعاقب صحيح أسماء الأباطرة والبطارقة فى هذه الدولة طوال ستة قرون انتهت بزوال هذه الإمبراطورية. ويستدل من هذه اللوحة أيضاً أن قنسطنطين سوف يكون آخر أباطرة هذه الدولة . وبالفعل قد تحققت هذه النبوءة وكان الإمبراطور قنسطنطين بليولوجوس الذى لقى حتفه عند ما استولى الترك على مدينة القسطنطينية آخر أباطرة بيزنطة .

والواقع أن النبوءات لم تختفى قط من هذه الإمبراطورية البيزنطية . لقد كانت هناك تنبؤات كثيرة عن حكم الأباطرة ومستقبل الإمبراطورية منها تلك النبوءه التى ظهرت قبل عام

١٤٥٣ بقليل وجاء فيها أن العدو سوف ينقض على المدينة ويقضى على عظمتها وبهائها ويدنس معابدها ونسائها ويجعل مبانيها طعمة للنيران وذلك بسبب الدم الذى يسفك والجرائم التى ترتكب فى بيزنطة . وقد تحقق ذلك كله إبان حصار القسطنطينية ثم وقوعها فى أيدى الترك .

ومن حسن طالع الإمبراطور الفيلسوف ليو أن معظم نبوءاته قد ظهرت وعرف بها الناس بعد وفاته بزمن طويل ولذلك لم يكن هدفاً لتلك المضايقات والاعتداءات التى كثيراً ما كانت تصيب هؤلاء المتنبئين خصوصاً إذا تنبأوا بأشياء لم تصادف هوى فى نفوس الناس . وبهذه المناسبة نذكر حالة نبوءة من النبوءات كان جزاء قائلها الموت حرقاً .

حدث فى ربيع عام ١٥١٧ أن ظهر فى روما — وكانت الأمور فيها تسير على أحسن ما يكون — راهب فقير أخذ يجوب شوارع هذه المدينة العظيمة صائحاً : « الويل الويل لهذه المدينة التى سوف تقع فريسة فى أيدى الأمم فيما وراء الألب لهذه الخطايا المنكرة التى يرتكبها البابوات والأساقفة . »

لقد كانت روما فى ذلك الوقت مدينة مزدهرة يعمها الرخاء والأمن والسلام إذ لم تكن قد تعرضت لأية غزوة خارجية منذ

أكثر من خمسة قرون . وكانت فى ذلك الوقت تزدحم بالسكان والتجار والكهنة وجنود البابا والحراس والأساقفة . وكان البابا كليمنت الثامن يتربع على عرش البابوية فى قصره المنيف والعالم كله فى أمن وسلام . وها هو ، راهب خرب العقل كانت له الجرأة أن يسير فى طرقات هذه المدينة العظيمة وينادى بالويل والثبور ويتنبأ بدمارها والقضاء عليها . وما أن سمع البابا بخبر هذا الراهب حتى قبض عليه وزج به فى السجن ، ثم أفرج عنه بعد فترة قصيرة ولكن على شرط أن يغادر المدينة على الفور بحيث إذا عاد إليها ثانية أغرق فى مياه نهر التيبر .

عاد بعد ذلك الراهب — وكان يدعى بارتلوميو براندانو — مرة ثانية إلى روما وصنع نفس الأمر الذى صنعه من قبل منادياً بانتقام إلهى عادل من المدينة ورجال الدين ناعتاً البابا كليمنت بأحقر الصفات . وكان أن قبض ثانية على هذا الراهب وألقى به فى نهر التيبر ولكنه لم يغرق فأمسك به وزج فى السجن .

وقد حدث بعد ذلك بعشر سنوات أن أغار جماعة من الجنود المرتزقة للإمبراطور شارل الخامس تحت قيادة شارل ده بربون على مدينة روما وقاموا بالكثير من أعمال السلب والنهب والتقتيل . وكان أن اضطر البابا كليمنت إلى عقد

معاهدة تسليم مخزية مع الإمبراطور شارل . وأطلق جنوده سراح الراهب براندانو بعد أن ظل فى سجنه سنوات عدة لقى فيها الكثير من أنواع التعذيب والإرهاق نتيجة لهذه النبوءة التى قال بها، ولعل البابا كليمنت نفسه قد جال فى خاطره ذكرى هذا الراهب عند ما وقعت الواقعة وشاهد مدينة روما نهباً مستساغاً لهذه الطغمة من الجنود المرتزقة .

كانت هناك نبوءات كثيرة مثل هذه تدور على الألسن أكثر من ألف عام وكلها تدور حول مصير روما وأهلها لذلك كان نهب مدينة روما على يد شارل ده بربون أمرًا متوقعاً .

والواقع أن هذه التنبؤات التى صدرت ضد روما إنما كانت موجهة إليها على اعتبار أنها ترمز إلى الكنيسة والبابوية ، ولم تكن هذه التنبؤات تصدر عن عرافين محترفين فحسب بل كانت تصدر أيضاً عن رجال من أهل الكنيسة تنبأوا بما سوف يحل بالكنيسة من السخط والهوان للذنوب والخطايا التى وقع فيها رجالها كالمتاجرة بالرتب الكهنوتية والانغماس فى الملاذ والترف وهى الخطايا التى وقع فيها كثير من البابوات ورجال الدين .

ومن المعروف أن روجر باكون (١٢٦٧) الراهب الإنجليزى والعالم الشهير وكذلك دانتى كان كل منهما يعتقد

فى أن تغيراً مفاجئا سوف يطرأ على الكنيسة يؤدى بها إلى حالة أفضل وأحسن . وقد تنبأ باكون بأن كاهناً ورعاً سوف يقوم بهذا التغيير .

ويغلب على الظن أن معظم العرافين والمتنبئين الذين قالوا بهذه التنبؤات المتصلة بالكنيسة كانوا متأثرين بنبوءات عراف شهير ظهر فى العصور الوسطى وكان له أثر كبير على غيره من المتنبئين ذلك هو العراف جوشم . Joachim

لقد توقف الملك ريتشارد قلب الأسد إبان حملة له على الأراضى المقدسة لمحاربة صلاح الدين الأيوبى ، فى مدينة فيور من أعمال مقاطعة كلابريا بإيطاليا لاستشارة رجل كان يعد فى ذلك الوقت أعظم منبئ ظهر منذ عهد الرسل . لقد كان هذا الرجل على جانب كبير من الورع والتقوى وصفاء النفس وكانت شهرته كمتنبئ قد عمت جميع العالم المسيحى . هذا الرجل هو جوشم وهو راهب بندكتينى انفصل عن طائفته وأنشأ له ديراً خاصاً به فى فيور. وعلى الرغم من أن هذا الراهب قد تنبأ بأشياء كثيرة فى غير صالح البابوية إلا أن البابوات مع ذلك قد بسطوا عليه حمايتهم وجعلوه تحت رعايتهم. وكان هذا الراهب يقول إنه لم يمنح هبة الكشف عن الغيب إنما

منح هبة الفهم والإدراك . وهو يذكر فى إحدى كتبه كيف أنه تاه فى ميدان التأمل والتفكير فى ليلة عيد الفصح فشعر أن شعاعاً من الضوء اللامع قد نفذ إلى أعماق نفسه وأن إلهاماً إلهيا قد حل به فجعل كل أسرار الكتب المقدسة واضحة أمامه كما كانت واضحة أمام الرسل والأنبياء .

لقد تنبأ جو شم هذا بالمسيح الدجال وأخبر ريتشاردقلب الأسد أن هذا المسيح الدجال سوف يعتلى سريعاً الكرسى البابوى .

وبعد وفاة جوشم هذا أخذت الطبقة المثقفة من الناس تستمع إلى الدروس التى تفسر فيها نبوءات هذا الراهب الكبير إذ كانت هذه النبوءات تدرس كما يدرس الكتاب المقدس . وقد ذكر جوشم فى كتبه أن العصر الكبير الأول من تاريخ العالم هو عصر الأب أى ما قبل العهد المسيحى أما العصر الثانى فهو عصر الابن ويمتد حتى عام ١٢٦٠ للميلاد أما العصر الثالث فهو عصر الطيف المقدس ويبدأ من عام ١٦٢٠ ويتضمن تغييرا وتطهيراً شاملا للكنيسة. وكان يرى أن الكنيسة قد انغمست فى الشهوات وغدت وكرا للصوص ومن ثم احتقر الناس رجال الدين .

وكانت هناك غير ذلك نبوءات كثيرة ضد الكنيسة يتداولها الناس فى كل مكان وقد أفصح عنها كل من دانتى ومكياڤلى فى كتاباتهما . ولعل أبرز شخصية ظهرت بعد ذلك فى ميدان التنبؤ بالغيب هى شخصية ساڤونارولا الذى تنبأ بأشياء كثيرة تحققت كلها تقريباً . مثال ذلك أنه تنبأ بطرد أسرة ده مديسى الشهيرة من فلورنسه وقد تحقق ذلك . وتنبأ بالغزو الفرنسي لإيطاليا فى عهد شارل الثامن ملك فرنسا وقد تحقق ذلك ، كما تنبأ أيضاً بدمار روما تدميراً تاماً بالنيران بسبب فسوق أهلها وهذا أمر لم يتحقق اللهم إلا إذا اعتبرنا نهب روما على يد ده بوربون بعد موت ساڤونا رولا بتسع وعشرين سنة تحقيقاً لهذه النبوءة .

لقد كان هذا الراهب الدومينيكى العجيب يرى الرؤى الصادقة ويسمع الهواتف العلوية ، فقد شاهد فى مساء الجمعة الحزينة من عام ١٤٩٢ رؤيا هى عبارة عن صليبين هائلين ورأى سيفاً يتدلى من السماء فوق إيطاليا وغير ذلك من الرؤى . وقد ذاع صيت هذا الراهب حتى أصبح المتسلط على أهل فلورنسه .

غير أن أعداءه وحاسديه قد أخذوا يتزايدون فكان أن

سجن وعذب واستخلص منه عن طريق التعذيب اعترافاً ينكر فيه ادعاءه أن له قوى تكشف عن الغيب فحوكم محاكمة صورية حكم عليه بعدها بالموت حرقاً . فى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ وبحضور مندوبين عن البابا اسكندر السادس الذى نعته سافونارولا بالشيطان جرد سافونارولا من ردائه الكهنوتى وتلى عليه الحكم بالإعدام هو واثنين من أتباعه المقربين إليه . وقد شنق الثلاثة وأحرقت جثثهم وهى معلقة فى المشانق .

ويعد سافونارولا اليوم عند الكثيرين من القديسين والشهداء والمتنبئين الصادقين فى نبوءاتهم .

وقد يكون ميشيل نستراداموس هو أعظم المتنبئين الذين ظهروا فى القارة الأوربية Michel Nostradamus وقد احتل هذا المتنبئ مكانة مرموقة لم يرق إليها أحد غيره من مشاهير القرن السادس عشر عصر النهضة الزاهر ، وكانت له قدرة عجيبة على التنبؤ بالغيب ، فما أن ذاع صيته فى هذا الميدان حتى أخذت أوربا كلها تتحدث عنه وأرسل إليه الملوك والأمراء يدعونه ليقرأ لهم ما يخبئه لهم المستقبل من أحداث ، وحج العظماء إلى بلدته سالون Salon من مقاطعة بروفانس بفرنسا ليكشف لهم ما خفى عنهم من أمور وأحداث .

لقد درس نسترداموس هذا الطب وكانت له مقدرة فائقة فى معالجة المرضى الذين كانوا يقعون صرعى للطواعين التى كانت تجتاح أوربا من حين لآخر إبان القرن السادس عشر حتى كثر حساده من الأطباء فأذاعوا عنه أنه يشتغل بالسحر والعلوم الخفية . والواقع أن نسترداموس كان يقضى معظم أيامه فى الطبقة العليا من منزله وسط مجلدات ضخمة مكتوبة بلغات متعددة وحوله أدوات كثيرة مما يستخدمها المنجمون والسحرة كالأسطرلاب والمرايا السحرية . ويذكر نسترداموس نفسه أنه قد أحرق بعض الكتب المصرية القديمة بعد أن حفظ محتوياتها عن ظهر قلب وقد ورث هذه الكتب عن أجداده وكانت تحوى كثيراً من علوم المصريين والمجوس .

وقد زار نسترداموس كثيراً من البلاد الأوربية واجتمع بمشاهير العلماء والمشتغلين بالكيمياء والتنجيم وتباحث وإياهم فى شتى الموضوعات العلمية .

وحدث أثناء زيارته لمدن إيطاليا أن شاهد فى إحدى القرى الصغيرة راهباً فرنسيسكياً يدعى فيلكس بيرتى Felix Peretti فما أن رآه حتى ركع نسترداموس أمام هذا الراهب بكل خشوع واحترام ولما سأله فى ذلك الرهبان الآخرون أجابهم : إنى أركع

أمام قداسته . غير أن الرهبان لم يهتموا بهذه النبوءة لأن بيرتى هذا لم يكن يمتاز عنهم بشىء البتة ولكن هذا الراهب القروى قد أخذ يرقى المناصب الكهنوتية الواحد بعد الآخر حتى ولى العرش البابوى عام ١٥٨٥ ولقب بـ « سكتوس السادس »

وكان نسترادادموس هذا ينشر تنبؤاته فى شكل رباعيات شعرية وقد نشرت لأول مرة فى عام ١٥٥٥ وتضمنت كثيراً من النبوءات التى تحققت على مر الأيام منها مقتل شارل الأول ملك انجلترا وثورة أوليفر كرومويل ومقتل لويس السادس عشر ملك فرنسا والثورة الفرنسية ومجىء نابليون بونابارت وغير ذلك من الأحداث العالمية الشهيرة .

وقد أصيب نسترادادموس فى أواخر أيامه بمرض الاستسقاء وثقل عليه المرض فاعتكف فى بيته لا يرى أحداً من الناس إلا تلميذه الوفى شافنى Chavigny وإثنين أو ثلاثة من أصدقائه المقربين . وقد أوصى أن يدفن واقفاً فى كنيسة الفرنسيسكان حتى لا يطأ أحد على عظامه .

وفى مساء اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٥٦٦ تركه تلميذه شافنى بعد أن ألقى عليه تحية المساء والعبارة المألوفة : « إلى الغد يا أستاذ » ولكن نسترادادموس هز رأسه بحزن وتمتم

قائلا : فى الغد عند شروق الشمس سوف لا أكون موجوداً .

وفى الصباح كان نستراداموس جثة هامدة فوق مقعده .

ولقد بكاه أهل بلدته طويلا وكانوا يعتقدون أن نستراداموس لم يمت ولكنه اعتزل الحياة ليتابع دراساته ، ونقش على الحائط الذى يضم رفاته هذه الجملة : « لا تعكر سلام الموتى » ثم أضافت إليها زوجه : « هنا ترقد عظام ميشيل نستراداموس الشهير الوحيد فى رأى جميع البشر الذى يسجل بقلمه المقدس أحداث العالم المستقبلة وفقاً لتأثير الكواكب » .

ولقد توفى نستراداموس بالغاً من العمر اثنين وستين عاماً وستة شهور وسبعة عشر يوماً .

الفصل السادس
الأحلام والتنبؤ بالغيب

لقد كثر الكلام عن الأحلام وعلاقتها بالتنبؤ بالغيب وانبرى نفر من العلماء المبرزين لدراسة هذه الظاهرة العجيبة ووضعوا فيها الكتب والمطولات وضمنوها كثيراً من الأحلام التى تحققت عن آخرها .

ولعل أشهر من قام بهذه الدراسة هو الفلكى الفرنسى الشهير « كامبل فلاماريون » فى كتابه « لغز الحياة النفسية » The Riddleof Soul Life إذ كان من المؤمنين بأن هناك رؤى صادقة تتحقق عن آخرها فى العالم المحسوس . ومن الأمثلة التى أوردها فى كتابه المذكور تلك الحادثة التى ذكرها على لسان شاهدة معتمدة موثوق بكلامها إذ قالت :

« حوالى أواخر شهر نوفمبر من عام ١٨٧١ وأعتقد أن ذلك كان فى يوم الأربعاء الموافق الثانى والعشرين من نوفمبر ، كنت فى ضيافة أسرة المستر دافيدسن فى نيوأورليانز ، وقد

حضر لزيارته نفر من الأصدقاء من بينهم مدام ثلتون وقد قصت على الحاضرين عدة أحلام رأتها فى منامها وقالت أن هذه الأحلام قد تحققت عن آخرها ، ولكن الحاضرين لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بالتحقق من صدق ما ذكرته هذه السيدة . وبعد أن أفاضت فى ذكر أحلامها التى تحققت سألها المضيف :

إنى أسألك يا مدام ثلتون هل رأيت فى منامك حلماً يتصل بى ؟

فقالت : « إننى رأيت البارحة فقط يا مستر دافيد سن حلماً يتصل بك » .

وقد سألها الحاضرون بلهفة أن تقص عليهم ما رأته فى حلمها .

فقالت : « لقد رأيت فى منامى أننى سوف أعود لزيارتكم لدعوة عاجلة وذلك بعد ستة أسابيع من اليوم .

فقال المضيف : « إن هذا الحلم من السهل تحققه » ثم مال على أحد الحاضرين وقال : « أرجو أن تذكر لنا متى سيكون ذلك اليوم الموعود ؟ » وعند ذلك أخرج أحد الحاضرين

مفكرته وقال إنه سيكون فى يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير عام ١٨٧٢ .

« حسناً سوف نختبر جميعاً صدق أحلام هذه السيدة .

وعند ذلك تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « مهلا أيها السادة . إننى رأيت فى منامى أيضاً أننى عند ما دخلت البيت وجدته خالياً وبحثت من المستر داڤيدسن ولكنى لم أجده وأخيراً رأيت وسط قاعة الاستقبال تابوتاً معدنياً كبيراً . وكان غطاء التابوت محكماً ولم أر شيئاً آخر إلى جانب ذلك ولكنى أدركت أنك مسجى داخل هذا التابوت » .

وعند ذلك انفجر المضيف ضاحكاً وشاركه فى ضحكه جميع الحاضرين ثم وجه داڤيدسن الكلام إلى زوجه متهكماً :

« إنى أرجو منك تابوتاً غير معدنى لأنى لا أحب التوابيت المعدنية ، إنى أريد تابوتاً بسيطاً من الخشب » .

وقد وعدته زوجه بذلك ضاحكة وقالت إنها سوف تلبى رغبته فى حالة ما إذا كانت ستخلفه .

ثم تابعت مدام ثلتون الحديث قائلة : « إننى لم أشاهد سوى سيدة واحدة فى قاعة الاستقبال فوقفت إلى جوارها . وكان منقوشاً على غطاء التابوت ست ورود فضية . »

وقد ضحك الجميع أيضاً من هذه الحلية العجيبة ولكن مدام ثلتون ظلت على هدوئها وقالت : « ولقد عجبت أنا أيضاً عند ما شاهدت ذلك فى الحلم » .

ولقد تفرقنا بعد ذلك بعد أن تواعدنا على أن نلتقى ثانية يوم الأربعاء الثالث من شهر يناير كما جاء فى حديث هذه السيدة .

وحدث فى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٨٧٢ حادث محزن للمستر داڤيدسن إذ دهمته قاطرة فأزهقت روحه .

وفى صباح اليوم التالى وضع جثمانه فى تابوت . وقد رغبت أسرته فى أن لا يرى أحد وجهه المشوه نتيجة لهذا الحادث . وقد آليت على نفسى أن أمكث إلى جوار هذا التابوت وظللت فى مكانى حتى بعد أن أحكم غلق التابوت .

وقد حضرت مدام ثلتون إلى المنزل فى اليوم الموعود فوجدت التابوت فى قاعة الاستقبال وليس إلى جانبه سواى ، فجاءت ووقفت إلى جانبى وظللنا نحن الاثنتان وقوفاً إلى جانب التابوت دون أن تنظر واحدة منا إلى الأخرى . وفجأة لمست مدام ثلتون يدى وأشارت إلى ست وردات فضية تزين غطاء التابوت المعدنى فنظرت إليها متسائلة فتمتمت قائلة : « ألا تذكرى الوردات الست الفضية التى رأيتها فى منامى بوضوح ؟ »

وبعد ذلك بأسبوعين قالت لى أرملة المستر داڤيدسن :

« ألا تذكرى ذلك الحلم العجيب إن كل شىء قد تحقق كما رأت صديقتنا فى منامها حتى التابوت فانى لم أنس فى حزنى وصية زوجى التى أوصانى بها . ولقد سألت الحانوتى عن السبب الذى من أجله أحضر هذا التابوت المعدنى على الرغم من طلبى إعداد تابوت خشبى فعلمت أنه لم يكن من الممكن العثور على تابوت خشبى بالمقاس المطلوب فلم يجد سوى هذا التابوت المعدنى فاضطر تحت ضغط الظروف إلى استخدامه . » ولقد قام المستر فلاماريون بالتحقق من صدق هذه الرواية بنفسه وكان لا يزال من شهودها الثلاثة عشر تسعة أشخاص على قيد الوجود فأكدوا جميعاً ما سمعوه من مدام ثلتون وما كان من تحقق حلمها عن آخره .

وهناك حادثة أخرى ذكرها هنريش كارل بروش Heinrich Karl Brugsch أحد علماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر فى مذكراته وهى تتصل بحلم رآه الخديو إسماعيل عام ١٨٧٥ حيث قال :

« لقد كنت فى طريقى إلى جوتنجن لتوديع أسرتى التى كانت تعيش هناك على أن أبحر بعد ذلك مباشرة من ميناء بريمن على ظهر إحدى السفن . وعندما كنت فى طريقى إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار الذاهب إلى بريمن تلقيت

برقية ففتحتها على الفور لأرى مضمونها قبل أن أركب القطار . وقد كانت هذه البرقية قصيرة وحاسمة :

« إن الخديو يرجوك العودة إلى القاهرة على الفور » .

فأخذت أول قطار ذاهب إلى تريستا لأركب أول باخرة ذاهبة إلى مصر . ولما كنت لم أقرأ أية صحيفة من الصحف منذ أن غادرت جوتنجن فقد عجبت أشد العجب عند ما أخبرني ربان السفينة التي ركبتها إلى مصر أن آخر سفينة غادرت بريمن وهي التي كنت عازماً على ركوبها لو كنت قد سافرت إلى بريمن قد حدث بها انفجار هائل قتل وجرح الكثيرين من ركابها . فشكرت الله على أن دعوتي إلى الذهاب إلى مصر قد أنجتني من شر كنت معرضاً له من جراء هذا الانفجار .

ولما وصلت إلى القاهرة ذهبت على التو لمقابلة الخديو إسماعيل حسب أوامره وكنت متوقعاً أن أتلقى منه بعض التوجيهات الخاصة التي كان يحب أن يوجهها إلى بنفسه ولكنني لم أسمع منه إلا أنه سعيد أن يراني سليماً معافياً وأنه ليس لديه ما يقوله أكثر من ذلك .

لقد رأى الخديو أن يستدعيني عن طريق هذه البرقية وذلك بسبب حلم رآه ذات ليلة جعله يطلبني على جناح السرعة

وإلا حل بى شر يتربص بى » .

والواقع أن هناك كثيرين من الناس يرون الرؤى فتتحقق كما رؤوها فى منامهم الأمر الذى دعى الكثير من الفلاسفة والمفكرين إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة والإفاضة فى تفسيرها.

ولم يكن حظ فلاسفة المسلمين من هذه المسألة بقليل بل إنهم أفاضوا الكلام فى الرؤيا الصادقة وجعلوا هناك صلة قوية بين الرؤيا الصادقة والتنبؤ بالغيب استناداً على القول بأن الله يطلع عباده على غيبه سواء أكانوا فى يقظة أم فى منام . وهم يذهبون إلى أن الحلم إذا تحقق فى الواقع كان هذا الحلم عبارة عن رؤيا صادقة ، أما إذا لم يتحقق فهو عبارة عن أضغاث أحلام ووسوسة شيطان لا تقبل تأويلا ولا تستحق اهتماماً وهذا هو ما عليه أكثر المفكرين المسلمين .

وقد صنف الفلا سفة والمتكلمون الرؤيا على أصناف فقالوا إن بعضها ما يكون من وحى الله والبعض الآخر من إلهام الملائكة كما أن المرموز منها الذى يعوزه التعبير يكون من الملك أو من الأرواح فيما يقول البعض .

وقد جاء فى الصحيحين عن النبى أنه قال :

« الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا

ما يحدث المرء به نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام » .

وقد عزى رجال الشرع الرؤيا الصادقة إلى الله القادر على كل شيء فهو يخلق فى قلب النائم أو فى حواسه الأشياء ، كما يخلقها فى اليقظان وهو سبحانه يفعل ما يشاء فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره وربما يقع ذلك فى اليقظة كما يتراءى فى المنام.

وذهب آخرون إلى أن الرؤيا الصادقة تقع للمرء وهو نائم ، ذاهل العقل والحس معاً ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذى به يتعقل ويفهم وحسه الذى به يدرك صور المحسوسات فإن نفسه تكون يقظة متنبهة تقوى على التعقل والفهم وتقوم مقام الحواس من سمع وبصر ولمس ونحوه فى نقل آثار الجزئيات . ذلك أن روح النائم تسرح فى الدنيا وتمتد منبسطة خارج الجسد وإن لبث جزء منها على اتصال به فتدرك فى النوم مكنونات الغيب المحجب .

وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب فإن تيقظ النائم فجأة قبل أن تعود من رحلتها أدركه الجنون . وقيل بل تصعد الأرواح إلى السماء السابعة حتى تقف بين يدى الله ويأذن لها فى السجود . فإذا سجدت بشر الطاهر منها بالغيب فيراه النائم بروحه ويتفهمه بقلبه .

أما الصوفية. فعندهم أن النفس من عالم المجردات والمعقولات فهى تستطيع أن تدرك المدركات التى من جنسها إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن فإذا قويت بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية وتلقت عنها المغيبات كما يقع لها هذا فى يقظتها .

وفى الحديث النبوى : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولكن لا يشعرون» ،

وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم ولكن الناس يحسبون وهماً أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من عالم الغيب وما يبصره بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس. واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى لا نكشف فيها صور الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب . وليست المرآة الثانية إلا القلب والحجاب هو الشهوات والحواس . ويتجلى هذا فى اليقظة أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ وتنكشف للنفس آفاق المجهول، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه ولكن الرؤيا

لا تقع لكل نائم ولا تجيء فى كل نوم إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة . فأما المؤمنون فإن نفوسهم قد صفت وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء .

ويختلف الصوفية فى تقدير الرؤيا فهم يضعوها دون الولاية حيناً وفى مرتبتها أحياناً فهى عند بعضهم نوع من الكرامات التى تقع للأولياء . والنفس التى تقوى على إدراكها متى عظمت وترقت فى مجال الروحانيات أضحى صاحبها ولياً وهكذا يدرك فى اليقظة متى قوى الأمر عنده — ما يدركه النائم فى نومه ولئن كان هذا نادراً إلا أنه يقع لأهل الطريق ولا يشمل الناس جميعاً فإنهم يعجزون عن احتمال ملك الإلهام الذى يهبط على الأولياء أيقاظاً فيهبط على سائر البشر نياماً وإن جرت العادة فيما يرى البعض أن يسمى وحى الإلهام رؤيا إن وقع أثناء النوم وتخيلا إن جاء إبان اليقظة .

ولعل ما ذكره ابن خلدون فى هذا المقام يعد نموذجاً لهذا النوع من التفكير فقد ذكر فى مقدمته :

« للعقل نطاق يحسن التفكير فى مجاله ، إنه يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظرى ،

هذه هي مدارك العلماء فإن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ضل سبيلا . ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله بنوع من الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهيأ للأولياء ومع الناس نموذج منه يبتدىء فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير ملكاً بالفعل فى لمحة من اللمحات وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً . وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها فإذا ترقت النفس تجاوزت هذا المجال واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى إدراك الحس فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة حتى يتجاوز الأوليات التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول إلى فضاء المشاهدات الباطنية وتلك هى مدارك الأولياء أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم . وقد تترقى النفس المفطورة على الانسلاخ من البشرية — جسمانيتها وروحانيتها —

إلى الملائكة من الأفق الأعلى لتصير فى لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى فى أفقهم وتستمتع إلى الكلام النفسى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة وتلك هى نفوس الأنبياء فى حال الوحى التى فطروا عليها ولم يظفروا بها صناعة واكتساباً .

فالنفس ذات روحانية مدركة من غير آلات بدنية وأدوات حسية وتكون عندئذ أقل فى الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره . وهذا الاستعداد السالف يقوم فى النفس ما دامت فى البدن وهو على صنفين . صنف يتهيأ للأولياء وآخر عام فى البشر جميعاً وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء فإنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة وهى أعلى الروحانيات . »

ونجد مثل ذلك عند الغزالى فهو يصرح بأن الرؤيا طور ضعيف من أطوار النبوة وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم يقوم فيها إلهام الأولياء الذى يعتبر ضعيفاً بالإضافة إلى الوحى النبوى قوياً بالقياس إلى وحى الرؤيا .

ويذهب الفلاسفة إلى أن الحواس تنقل للنفس صور

المحسوسات فتنشغل النفس بالتفكير فيها إبان اليقظة ، فإذا وقع النوم تعطلت الحواس عن تأدية وظيفتها فتفرغ النفس من هذا التفكر وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية وهى اللوح المحفوظ عند رجال الشرع — وفيها تنقش صور الموجودات كلها ، فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ولا سيما ما كان يعنى النفس منها .

وقد تصدق الصورة الجزئية التى تقع للنفس من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت المخيلة بها مثلا يعوزه التعبير ليتكشف عن حقيقة معناه . وهم يقولون بأن من عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار فى الرؤيا إذ المقصود به أن يستعد المرء لملاقاة المستقبل ويتهيأ لدفع شره ، هكذا أشار يوسف على ملك مصر بأن يستعد للسنين السبع المجدبة بعد أن رأى الملك فى منامه سبع بقرات سمان تأكلهن سبع عجاف مهازيل وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضى والحاضر متى كان مجهولا لنا وهو أكثر ما يكون فى الأمور المستقبلة التى يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية التى تفيد فى

معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور .

والخلاصة أن مفكرى الإسلام قد انتهوا إلى أن للنيام القدرة على الاتصال بالعقل الفعال متى قويت المخيلة عندهم فإن أفرطت المخيلة فى قوتها تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة وكان التنبؤ ويقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء .

ومهما يكن من الأمر فهناك كثير من الناس ممن يوثق فى صدق رواياتهم قد رأوا فى منامهم رؤى كثيرة تحققت فى العالم المحسوس . وقد قيل إن أم الإمام الشافعى قد رأت فى منامها بعد أن حملت به أن المشترى خرج من فرجها وانقض بمصر ثم تفرق فى كل بلد قطعة . فقال المعبرون إن ابنها سيكون عالماً فذاً فى مصر ينشر علمه فى أكثر البلاد طولا وعرضاً فكان الأمر كما قالوا .

وذكروا أيضاً أن السيدة عائشة رأت سقوط ثلاثة أقمار فى حجرتها فعبر أبوها رؤياها بموته وموت الرسول والفاروق عمر بن الخطاب ودفنهم فى حجرتها جميعاً . وقد صح فيما بعد هذا التعبير .

وقد فاخر الشعرانى — وهو من المتصوفة المشهورين — بوقوع كثير من الرؤى له . من ذلك أنه كان وصياً على أبناء

أخيه فحرم عليهم مغادرة حجرتهم ، فرأى فى تلك الليلة الشيخ أمين الدين يفتح لهم باباً فى خلوته ليخرجوا منه فأدرك أنه أخطأ فى أمره السالف وعدل عنه .

وكان إذا اغتاب أحد شخصاً بحضرته وساورته الشكوك فيما سمع رأى فى ليله من اغتيب يلبس البياض فيدرك كذب المغتاب .

وقد روى الرحالة لين Lane فى كتابه «عادات وشمائل المصريين المحدثين» The Manners and Customs of modern Egyptians أن الإمام الشيخ المهدى قد قص عليه قصة خلاصتها أن أحد الأولياء عند العامة وهو الشيخ أحمد البهى — كان يحضر دروس الشيخ الأمير الكبير فسمعه يؤرخ حياة الحسين ويعقب قائلا إن رأسه غير موجود بالمشهد الحسينى المعروف فى القاهرة وكان البهى يعتقد غير ذلك فآلمه ما سمع ولكنه لم يعترض على الشيخ احتراماً لشهرته وتقديراً لغزارة مادته . وعند انتهاء الدرس إنطلق إلى بيته وأقام الصلاة ودعا ربه — وهو جاث على ركبتيه — أن يريه رسول الله فى رؤيا صادقة يعرف منها حقيقة هذه المسألة ، فلما استسلم للنوم رأى أنه فى الطريق إلى زيارة المشهد الحسينى فلما دنا من قبته رأى النور يشع منها فدخل

المزار ، فرأى شريفاً طلب إليه — بعد تبادل التحية — أن يقرىء رسول الله السلام ، فنظر إلى القبلة فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً على عرشه ، وقد وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره فجهر بقوله . السلام عليك يا رسول الله وكررها ثلاث مرات والدمع يجرى على خديه ، وسمع الرسول يقول له : أدن منى فقاده الشريف وأجلسه فى حضرته ، فحياه الشيخ ورد الرسول تحيته ، وقال عوضك الله خيراً عن زيارتك يا بنى . فقال له : يا رسول الله ، هل رأس الحسين موجود هنا ؟ فأجاب الرسول بالإيجاب . فامتلا الرجل غبطة وطمأنينة واستأذن الرسول فى أن يقص عليه ما قرره شيخه الأمير فى درسه . فلما سمع الرسول قصته ، طأطأ إلى الأرض رأسه ، ثم رفعه وقال إن الناقل مغفور له . فأحس الشيخ وكأن كيانه يهتز من فرط الرضا والغبطة فاستيقظ من نومه وانطلق مسرعاً إلى دار شيخه الأمير . فلما بلغ الباب دقه بعنف أفزع سكان البيت . ولما دخل الفناء أخذ ينادى شيخه بأعلا صوته فلما علم الشيخ بصاحب الصوت أدهشه مجيئه فى هذا الوقت المبكر وظن سوءاً . وأخذ البهى من فرط التأثر يحدث شيخه دون أن يقرئه السلام أو يقبل يده كما جرت عادته معه .

وقص رؤياه منبئاً شيخه بأن الشريف الذى كان بالباب هو الإمام على ، والواقف عن يمين الرسول هو أبو بكر . والواقف عن يساره عمر ، وأنهم كانوا فى زيارة الحسين . ولما دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، إنى أومن بأن رأسك الكريم مدفون هنا ، ورؤيا البهى شاهدة على ذلك لأن رؤيا الرسول حق » .

هذا ولم يكن الاعتقاد فى الرؤى وقفاً على العرب أو المسلمين بل شاركهم فى هذا الاعتقاد كثير من الأمم القديمة . فقد كان الإغريق يرون أن الأحلام هى من فعل الإله زيوس كبير الآلهة . وقد ذكر هذا هوميروس فى إلياذته أكثر من مرة ، كما انتشر هذا الاعتقاد فى جميع بلاد الإغريق .

وكان للمصريين القدماء إله للأحلام هو « بس» Bess وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التى يضع المصريون عليها رؤوسهم . وكان للبابليين أيضاً إله الأحلام هو الإله « ماخر » وكذلك كان لمعظم الشعوب القديمة آلهة خاصة للأحلام على اعتبار أن هذه الآلهة هى الباعثة على ما يراه النائم من أحلام .

وكان الحكام فى إسبرطة ينامون عادة فى معبد خاص

اعتقاداً منهم أنهم يرون الرؤى الصادقة إذا ناموا فى ذلك المعبد . وكان لهذه الرؤى أثرها المباشر فى تسيير الأمور وتوجية سياسة إسبرطة . وقد بلغ من اعتقاد أهل أثينا فى الرؤى أن محكمتهم العليا كانت تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئتهم كذلك كان أهل روما يستجيبون لما تشير به الرؤى . وهكذا كانت الأحلام من الأمور التى شغلت بال الناس فى مختلف الشعوب منذ القدم كما كان التسليم بالرؤيا الصادقة جزءاً من عقيدة أكثر المتعلمين والجهال على حد سواء حتى الوقت الحاضر .

ومما يتصل بهذا الموضوع إدراك المجانين والمصروعين للغيب وقد قالوا فى تعليل ذلك أن نفوس المجانين ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم فى أغلب الأحوال ولضعف الروح الحيوانى فيها وبذلك تكون غير مستغرقة فى الحواس ولا منصرفة إلى التفكير فى نقصها ولذلك فالمجنون يكون كالمبهوت الغافل عما يرى ويسمع ومثل هذا قد ينكشف له من الجواهر الروحانية شىء من الغيب فيجرى على لسانه وهو فيما يشبه الذهول .

ومن هؤلاء أيضاً المرضى والمشرفين على الموت فقد يذكر المريض أنه يرى ويسمع أشياء ولا شىء من ذلك فى واقع الحس وقد ردوا هذا إلى فعل المخيلة على اعتبار أنها مصدر الصور

الباطنة . وذكر الأطباء أن بعض المرضى يخبر بالغيب وبالأمور قبل وقوعها فيصدق قوله .

ويذكرون أن القتلى عند ما يشرفون على الموت يلقون أنباء تتصل بعالم الغيب . ويقال إن بعض الملوك الظلمة قد قتلوا بعض المساجين ليتعرفوا من كلا مهم إبان قتلهم على ما خفى عليهم وقد أنبأهم هؤلاء بما يثير الدهشة .

والمعروف على سبيل التحقيق أن الموت متى نزل بالبدن ذهب الحس وزال حجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها وبذلك تطلع النفس على عالم الغيب . وليس عجيباً أن يؤدى الموت إلى كشف الغيب فإن من يموت ، يتحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بعينه الظاهرة بل يرى بالعين التى خلقت فى كل قلب وليس يمنع إبصارها إلا غشاء الشهوات . وبين القلب واللوح المحفوظ الذى نقش فيه كل ما قضى الله إلى يوم القيامة يقوم حجاب قد ينكشف فى المنام أو اليقظة ولكن تمام ارتفاع هذا الحجاب إنما يكون بالموت كما يقول الغزالى فى كتابه كيمياء السعادة .

الفصل السابع

موقف الفلاسفة من التنبؤ بالغيب

لقد سلم معظم الفلاسفة الأقدمين بالتنبؤ بالغيب وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً مع استثناء الفيلسوف اليونانى أكسانوفان فهو الوحيد الذى أنكر التكهن بحذافيره مع تسليمه بوجود الآلهة . فقد كان الفيلسوف سقراط يعتقد بأنه يعمل ويتكلم تحت تأثير إلهام إلهى . وكان على يقين من أن إلهاً خيراً يعين الناس حين يكونوا فى شك من أمر المستقبل ، فالإنسان لا يستطيع بعقله وحده أن يعرف على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه . لذلك كان سقراط يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ويحض أصدقاءه على استشارة الوحى ولا سيما وحى دلفى . ومن هذا نرى أن سقراط كان يتشيع للتكهن أو يرى بتعبير أدق أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة فى الحالات الجدية الخطيرة أما فى الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكماً مسبباً قائماً على العلل التى تبرره فإن سقراط يرى أن استشارة الوحى فى مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

أما أفلاطون فقد كان فن التكهن عنده أجمل الفنون جميعاً وقد وردت فى كتبه كثير من الفقرات التى تقرر اعتقاده فى التكهن بالغيب . وكان من رأى أفلاطون أن القوانين الجميلة المقررة لا ينبغى الإقدام على تغييرها ، فإن كان من الضرورى إجراء تغيير فيها وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب وكل أنواع الوحى حتى إذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الإقدام عليه .

وقد ظفر التكهن بالغيب بمكان مرموق فى الدولة أيام أفلاطون وقد عرض لبيان هذا فى كتبه النواميس والجمهورية والمائدة وطيماوس التى يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الإلهى مستخدماً لغة الصوفية فى اشتراط هدوء النفس التام وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التى تعترى الإنسان .

أما الفيلسوف أرسطو فكان يعتبر التكهن بالغيب الذى يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . إن فلسفة أرسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة وإن كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل إلى تخمينات وأن نبنى آمالا ، ومن

هنا كان فى الإمكان قيام علم للأمل الممكن وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعاً من التنبؤ المعلل الذى يقوم على أسباب ويستند إلى الاستقراء وحساب الاحتمالات . أما عن التنبؤ فى الأحلام فقد وضع عنه بحثاً قال فيه أنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد فى صحته . أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب.

وكان فيثاغورس يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل العيافة . ويدل موقف ديمقريطس إزاء التكهن على إسرافه فى الاهتمام بالصفة الآلية فى مذهبه فليس ثمة شىء عنده إلا الجوهر الفرد والخلاء وكل ما هو موجود وكل ما يقع ينبغى أن يفسر باتصال الجواهر الفردة . وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين الآلية . وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظاً فى القدرة وأطول منه أجلا تتألف من جواهر فردة إلا أنها جواهر لطيفة جداً تتحرك فى الفضاء بسرعة خارقة . كانت تسمى فى بعض الأحايين بالجن سواء أكانت خيرة أم شريرة . وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس وأصواتاً تصل إلى أذهانهم وبهذا يمكن تكشف المستقبل .

وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء

المحيطة بنا فإن الأحلام تحمل أنباء المستقبل . وفى بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعتريهم الجذب أن تتهيأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكويناً . وإن كانت هذه الصور التى تبعث بها الجن قد يشوبها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات فى فصل الخريف كثيرة الأخطاء .

أما الذى عليه رأى أكثر الفلاسفة المسلمين فهو أن الله وحده هو علام الغيوب ولكن ليس معنى استئثاره بالغيب حرمان البشر كافة من القدرة على معرفة الغيب ، بل إن الله يهب لمن يشاء من عباده معرفة الغيب أو هى فطرة يجعلها فى صفوة المؤمنين ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح .

فالله تعالى وإن استأثر بعلم الغيب إلا أنه يهب رسله القدرة على إدراك بعض نواحيه فيكون إدراكهم من خصائص النبوة . وقد يصل بعض المؤمنين إلى مرتبة تدنو من مرتبة الأنبياء فينكشف عنهم الحجاب ويدركون شيئاً من علم الغيب . وهناك غير هؤلاء فئة ثالثة كان لهم من سلامة الفطرة أو معالجة النفس بأنواع الرياضة أوحلول مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد أو نحو ذلك فيدركون شيئاً من علم الغيب .

والسبب فى هذه القدرة على إدراك الغيب تحرر النفس من علائق البدن وانصراف المزاج عن موارد الحس فليس يمنع النفس من تعقل المدارك الغيبية إلا انغماسها فى البدن والحواس فإذا ما تجردت من هذه المحسوسات تطلعت إلى الذوات التى فوقها فى الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من وجوه الاتصال فتقتبس النفس منها علما ومعرفة وعلى هذا جاز وقوع العلم بالغيب لمن استطاعوا أن يزيلوا حجاب الحس فى يقظة أو منام .

والقرآن الكريم قد حصر العلم بالغيب فى الله وحده قال تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » وكرر هذا المعنى فى أكثر من آية ولكن الله يطلع على غيبه من يجتبيه من رسله : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله ما يشاء » . ويقول تعالى كذلك «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

ويتضح من هذه الآيات أن الله وحده هو العالم بالغيب وأنه يجتبى من رسله من يطلعه على الغيب . ولكن أهل السنة يرون أيضاً أنه فى الإمكان إطلاع غير الرسل على الغيب إطلاعاً لا يفيد أكمل مراتب العلم أو قصر إطلاعهم على بعض

ميادين الغيب وبذلك فرقوا بين اطلاع الرسول واطلاع غيره من صفوة المؤمنين .

ولقد أفاض ابن خلدون فى مقدمته الكلام عن المدركات الغيبية ويعتبر كلامه أنموذجاً للتفكير الإسلامى فى هذه الناحية لذلك رأينا أن نختتم هذا الكتاب بخلاصة ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع على النحو التالى .

« إننا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس . ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضيات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على

سبيل الكرامة معروفة . فالنفس الإنسانية ذات روحانية موجودة بالقوة بين سائر الروحانيات وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل فهى توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وما تنزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل طوراً بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة . ولذلك نجد الصبى فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك التى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرها وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد ؛ بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت

عليه أولا من الإدراك الجسمانى ، وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى للإنسان على الإطلاق، مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شىء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ، ثم يراجع الحس ما أدركت إما مجرداً أو فى قوالبه فتخبر به . وهذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبى .

ولبيان أصنافه نقول إن الناظرين فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم لأن الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناه ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدوله مدركه الذى يخبر به عنه . وربما

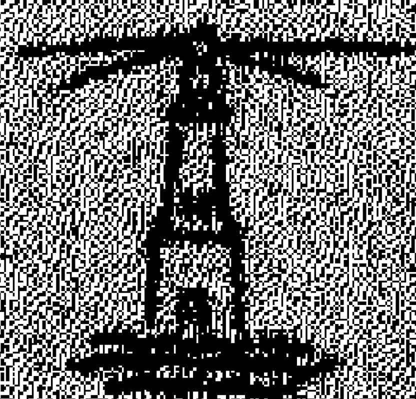
يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو فى سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه . أما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الإدراك وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس . ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ، ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة . وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين .

أما العرافون منهم المتعلقون بهذا الإدراك ، وليس لهم ذلك الاتصال — فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادىء ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة .

اقرأ

نظمي خليل

الإرهاق العصبي



دار المعارف بمصر

الإرهاق العصبي

نظمي خليل

الإرهاق العصبي

اقرأ ٢٠٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٢ – اكتوبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

فهرس

تمهيد

من الغريب أننا نعنى اليوم بطعامنا وشرابنا وملبسنا وقلّما نعنى بأعصابنا ، تلك الأعصاب التى أخذت تنهار تحت ضربات المدنية الحديثة فتسحقها عجلاتها سحقاً . فقد انتزعت الآلة مكان الإنسان فأصبحنا اليوم ننتقل ونصنع ونزرع ونكتب ونحسب بل – بعد قليل – ونفكر ، بالآلة ، حتى أضحى الإنسان عبداً باختياره للآلة .

لقد أخضعنا أخلاقنا وعواطفنا للمدنية الزائفة التى تقدم لنا كل مبتكرات العلم من راديو وتلفزة وطائرات وسيارات وغيرها من وسائل الراحة المادية . بيد أنها لا تزيد فى سعادتنا الروحية شيئاً ، بل إننا دفعنا ثمنها عللاً وأمراضاً واضطرابات عصبية ومخاوف وأوهاماً .

لقد أفسدت علينا المدنية الحديثة حياتنا العقلية وشوهت حياتنا العاطفية فسلبتنا سعادتنا الروحية فى مقابل لذاتنا المنتظمة الموقوتة .

ويقول «الدوس هكسلى» : «لقد أصبحت الساعات اللذيذة فى عصرنا الحاضر مزمنة — كالأمراض تماماً — فهناك حفلات للرقص كل ليلة ، وهناك أفلام تعرض فى جميع دور السينما كل مساء ، وهناك برامج للإذاعة فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار تستطيع أن تستمع إليها إذا أدرت جهاز الراديو كما تدير صنبور الماء أو زر الكهربا . وكلما كان الوقت « لذيذاً » كانت درجة السآمة أكبر» .

إن أفول نجم هذه المدنية الحديثة كما نراها ونعيش فيها لهو أمل الإنسانية الوحيد فى إنقاذ روحها المنحدر .

فإذا أشبعنا أدق رغباتنا وأعمقها ، لم نعد نعبأ بالحياة بعد ذلك ، طالما كان هذا الإشباع إشباعاً للجسم والعقل والروح .

ولكن ما أقل أولئك الذين أدركوا هذه الغاية وحصلوا على هذا الإشباع ، وما أكثر الذين ظلوا بمنأى عن غايتهم ، غير أنهم لم يجدوا فى أنفسهم القدرة على الإفصاح عن هذا الفراغ فى حياتهم ؛ فعمدوا إلى البحث عن سعادتهم فى عملهم ، أو فى العناية بأبنائهم ، أو بالانصراف إلى هوايتهم المفضلة .

والإشباع يأتى عن طريق الحب . فإذا ما أحببنا فقد

عشنا ، وإذا عشنا ولو فترة وجيزة ، كان هذا أكثر مما يتوقعه معظم الناس، فى عالم قَلَّ فيه من فهم معنى الحياة . ومَن لم يفهم معنى الحياة ، غمره الإحساس بالفراغ والعدم ، وعاش فى جو من خداع النفس وصراع العاطفة .

فكلما ارتقينا سلم الحضارة تعذر علينا الحصول على السعادة . ويقول « سمطس » إن أسعد الناس ممن صادفهم فى حياته هم مواطنوه الإفريقيون . فهم يعملون بالقدر الذى يقوم بأود حياتهم ، ثم يقضون بقية وقتهم يستمتعون بالشمس الدافئة والأكل والتناسل .

ولكن الشعوب البشرية بلغت من المدنية حداً تخجل فيه أن تفعل هذا . . وعلى هذا نمضى حياتنا . وما أقل من استمتع بها ، وما أكثر من رانت على قلوبهم السآمة ، وشاع فى نفوسهم الضيق والضجر .

أجل قد يشعر الإنسان أحياناً بوميض من السعادة يشع فى جوانب نفسه المظلمة ، غير أن هذا الوميض سرعان ما يخبو عندما تتقدم بنا الأيام .

ولكن الحياة يجب أن تكون حافلة ، والناس يجب أن يكونوا سعداء ، ولا يتسنى لهم هذا إلا إذا عرفوا كيف ينسجمون

مع الأشياء التى تحيط بهم ووقفوا على دوافعهم الفطرية الأولى .

إننا نسمع صرخات عالية تدوى فى البرية ، من وقت إلى آخر ، تنذرنا بالخطر الداهم وتنادى بالخلاص وتشير إلى جنتنا المفقودة فى عالمنا المادى . ولكن هذه الصيحات لا تصل إلى آذاننا وسط ضجيج الآلات وصخبها .

إننا مخلوقات ذات طبائع متعددة الجوانب ، ويستحيل علينا فى الحياة الواقعية أن نُرْضِيَ كل تلك الجوانب بل إن كثيراً من رغباتنا يناقض بعضه البعض ، فإذا أشبعنا جانباً منها فى الحياة الواقعية بقيت جوانب أخرى من غير إشباع .

لقد نجحت التربية والتقاليد فى أن تجعلنا نسلك سلوكاً يتفق مع العرف السائد ولكن وراء هذا كله لا تزال توجد نفس الدوافع القديمة التى تدفعنا الآن لأن نسلك طريقاً طبيعياً خاصاً .

أجل لقد استبد بنا العرف والمدنية وروّضانا ، فأشبعنا الجانب الأكبر من طباعنا ولكن بقى تحت هذا جزء آخر خاضع مهزوم أو مكبوت ، هو الطفل أو الهمجى غير المسئول ، الذى سكن فى أعماقنا وهو الذى تتاح له فرصة

التعبير عن نفسه عندما نتمثل فى أنفسنا الممثل الهزلى على الشاشة ، فهو يعمل كل الأشياء التى نحب — أو التى تحب تلك الأجزاء الهمجية التى لم تُروّض ولم تُهذّب فينا — أن تعمله .

لذلك كان لابد من وجود توازن دقيق بين القوى اللاشعورية الغريزية غير المهذبة ، وبين أمانى الذات العليا . وإنّا نشاهد اليوم كثيراً من الاضطرابات العصبية التى يسيطر فيها اللاشعور على الذات ، دون أن يقضى على إحساس المريض بالواقع قضاءً تاماً .

هذه الحالات هى التى تخلق الألوف من مرضى الأعصاب الذين يقاسون شتى الآلام والمخاوف والوساوس التى تستبد بعقولهم فيصبحون غير مهيّئين لحياة اجتماعية سليمة بسبب شكاواهم الغريبة وأمراضهم الوهمية كما أنهم لا يجدون إشفاقاً من أحد لأن مرضهم — فى نظر الآخرين — خيالى لا أساس له .

ولكن الحقيقة أنهم مرضى ، ومرضهم هذا ناتج من تغلب الدوافع الفطرية اللاشعورية على الذات .

وهذه الذات — فى الحالات الصحية السليمة — تستطيع أن توفق بين تلك الدوافع اللاشعورية ومطالب الذات المثالية عن طريق الإعلاء . غير أنها تعجز عن القيام بهذا فى حالات

الاضطرابات . فإذا تعقبنا تلك الحالات خطوةً خطوةً حتى وصلنا إلى مصدرها اللاشعورى الأصيل أمكننا أن نعيد لهؤلاء المرضى التعساء صحتهم العقلية ، وأمكننا أيضاً أن ننقذهم من تلك الحيرة النفسية المخيفة .

لقد فتح لنا علم النفس الحديث أعماق النفس البشرية وأتاح لنا دراسةً دقيقةً للعمليات العقلية المتشعبة ، وبيّن لنا كيف أننا جميعاً قد انحدرنا من أصل حيوانى وأننا جميعاً ننتمى لنوع واحد . فالطبيعة كلٌ لا يتجزأ ، وليس هناك فاصل محدد بين العقل السليم والعقل المريض . بل لقد قيل إنه يوجد فى كل منا بعض الجنون ، أى أن هناك لمسة من الطبيعة تجعل العالم كله وحدةً واحدةً .

* * *

إن هذا الكتاب يعالج حالات متعددة من ضحايا الأعصاب ويرسم لهم الطريق العملى الصحيح الذى يكفل لهم الشفاء التام من تلك العلل النفسية التى تبهظ كواهلهم وتكاد تكظم أنفاسهم .

فهناك طائفة كبيرة من ضحايا الأعصاب ممن يعتقدون اعتقاداً جازماً بسلامة أعضائهم الجسمية ويؤمنون أن مصدر

تعبهم وقلقهم يجثم فى عقولهم .

أمثال هؤلاء الناس قد ينعمون بيوم جميل هادئ بعد فترة قاسية من الكآبة والوجوم؛ غير أنهم سرعان ما يرتدّون إلى حالتهم الأولى ، يرددون سابق شكواهم ويظلون على هذه الحالة النفسية التعسة حتى تنقشع عنهم تلك الغمّة التى تلوح كأنها سحابة كثيفة تغشى حياتهم لا يستطيعون أن يتبينوا خلالها وميضاً أو شعاعاً . فقد ران اليأس والقنوط على قلوبهم حتى فقدوا كل أمل لهم فى الحياة ، يقطعون أيامهم التعسة وقد استبد بهم شعور من الذعر والفشل والتفاهة حتى اعتقدوا فى قرارة نفوسهم أن أمورهم لن تستقيم أبداً ، وأن جميع مشروعاتهم مصيرها الفشل الذريع ، وأن ما مِنْ أحد يعنى بهم ، أو يقيم لهم وزناً . فما فائدة صحة الجسم وسلامته متى كانوا على هذه الحالة من اليأس والقنوط ؟

إن الخطوة الأولى فى طريق الشفاء من هذا المرض العصبى هى أن نبعث فى المريض الثقة والتشجيع إذ أن المشكلة كلها تنحصر فى أن هناك شعوراً خاطئاً يسيطر؛ والشفاء منه يقوم على أساس تكوين شعور أفضل يسيطر على الشعور الأول . وهذا يتحقق عن طريق الإيحاء ، فالإيحاء يخلق فى المريض

الإرادة التي كانت تعوزه من قبل .

وعلى هذا يجب أن نضع حداً لهذه المخاوف وهواجس الفشل والعجز والخيبة ونستنجد بحلول اللاشعور العجيبة ، فتكون عوناً حقيقياً لنا ، عوناً يمهد الطريق لسعادتنا ويجعلنا نشعر بوجودنا ، عوناً يملأ نفوسنا أملاً في المستقبل ، فنرى الأشياء براقة لامعة مبهجة .

كما يعالج الكتابُ الكثيرَ من حالات الرجال والنساء ممن يقاسون من أعصابهم في حالات معينة كأولئك الذين يخشون الأضواء تسلط عليهم متى كانوا في مواقف الخطباء والممثلين .

بجانب هؤلاء نجد أناساً لا يقوون على الجلوس في مكان مغلق فيخافون المسارح وصالات الرقص .

وهناك آخرون على النقيض من هؤلاء ، يخشون الأماكن الفسيحة الطلقة .

بل إن هناك مَنْ يخشى الزواج فتنهار أعصابهم ليلة الزفاف . . . وكثيراً ما نجد أن مصدر الاضطراب والقلق عند هؤلاء هو رغبات جنسية مكبوتة .

فالشخص العصبي هو الذى لا يستطيع السيطرة على

غريزته الجنسية إلاّ بصعوبة غير عادية .

واللاشعور هو المستودع الذى نجد فيه المفتاح لجميع الاضطرابات العصبية .

بقيت المشكلة الكبرى وهى المشكلة الجنسية — والذى يجب أن نقرره هنا هو أن الدافع الجنسى هو أحد المصادر العظيمة للطاقة الإنسانية ، فإذا حُرِّمَ على الإنسان المنفذ العادى عن طريق التودد والتزاوج ، فإنه لابد أن يجد له منفذاً عن طريق آخر .

هذه الطاقة أو هذة القوة الحيوية قد تنفس عن ذاتها عن طريق الإجهاد البدنى الشديد ، أو العمل العقلى المبتكر وإن يكنْ أكثر ما تتجلى به هو مظاهر العاطفة .

والتربية الجنسية لا تزال تشغل أذهان المربين لما للمسائل الجنسية من أثر قوى فى حياة الإنسان .

فيجدر بنا أن نعالج هذه المسائل فى كثير من الصراحة مع احترامنا للمبادئ الأخلاقية العامة ، فنحلل للبالغين عاطفة الحب ثم التودد الجنسى وعلاقة الرجل بالمرأة وأهمية كل جنس فى الحياة ، ثم عملية التناسل والتوالد والكبت والإسراف . إذ أليس غريباً حقاً أن نعلِّم الطفل كيف يأمل وكيف يعيش ، ونرسم

له أحسن أساليب الصحة ثم لا نعلمه كيف يحيا كإنسان ، وكيف يقف على تلك المشاعر الغريبة التى استيقظ فجأة على صوتها القوى وندائها الملح ؟ .

هذا الطفل إنْ حرمناه تلك المعرفة الضرورية عمد إلى استقائها من السوقة أو الخدم أو زملائه فى المدرسة المتباينين خلقاً ونشأة ، وعندئذ يتردى فى مهاوى الفساد تستعبده العادات الضارة التى تشوه جسمه وعقله وخلقه . .

فيجب أن يُربى الطفل على قواعد الشرف والصحة لا على التحذير والتخويف . فإن نتيجة التخويف أحد أمرين . فإما أن يسلك الشاب سلوكاً مقلوباً وطرقاً ملتوية فى إشباع هذه الغريزة وإما أن يزنى سراً ، ثم يعود إلى ضميره يؤنبه . حتى إذا ما قوى عنده هذا الندم كوّن فيه ما يسمى « الإحساس بالخطيئة » وهذا من شأنه أن يقتل روحه ويهدم كيانه كما سنرى فى الفصول التالية .

الفصل الأول

الجهاز العصبي

قد لا يكون هناك إجماع في الرأى على أن السيطرة على الجهاز العصبي ربما كانت أكثر أهمية للإنسان من أنواع الطعام والشراب التى يتناولها لتكفل له الحياة .

فإن هذا الضغط الشديد الذى يعيش تحته الرجال والنساء فى المدن التى قطعت شوطاً بعيداً فى الحضارة إنْ هو إلاّ السبب المباشر لمئات الألوف من تلك الحالات المعروفة باسم « إرهاق الأعصاب » .

فإن الصوت المنبعث من نفير السيارة ، أو الضوضاء الصادرة من رصف الطريق ، بل إن عصفة الهواء الخارجة عن صفارة القطار ، وما شابه هذا من أنواع الضوضاء التى كُتِبَ علينا أن نشقى بها ، كل هذه تسبب للجهاز العصبي سلسلة متصلة من الصدمات العصبية لا يقوى على تحملها ، دون أن تنهار طاقته ، إلاّ من وُهِبَ تكويناً بدنيًّا سليماً .

وفوق هذا فإن ظروفنا العصرية التى نمر بها الآن قد قدمت لنا الإرهاق العصبى فى أشكال مختلفة مثل الأفلام الصامتة والناطقة وفرق الموسيقى التوقيعية وصالات الرقص والأندية الليلية ، كما خلق كتاب الرواية نوعاً معيناً من القصص يستهدف الإثارة الجنسية ، هذه القصص التى تنسال اليوم من دور الطباعة كما تنسال الرمال من ثقوب « الغربال » .

ومن هنا يتولد فينا نوع من الإيحاء يؤدى فى معظم الحالات إلى الكبت . وهذا الكبت ، لا سيما الكبت الجنسى ، خطره على الجهاز العصبى كخطر عود الثقاب على البنزين القابل للاشتعال .

وبعبارة أخرى فإن هذه الضوضاء والمؤثرات تأخذ صور التكرار الذى من شأنه أن يؤثر فى الجهاز العصبى كما يؤثر التأنيب الدائم والتقريع المستمر فى صحة الطفل الصغير فيضعفها أو يتلفها ، وسرعان ما يتحول هذان النوعان من الآلام العصبية وهما الضوضاء والتأنيب إلى حالة لاشعورية تكمن فى عقل الإنسان . فإنْ لم يتداركها ويعمل على طرح هذه الأفكار الخبيثة المقلقة أو يتخلص من تلك الحالة العقلية المضطربة ، فإن الجهاز العصبى كله سوف يتأثر لا محالة . وهذا هو السبب

فى تلك الأمراض المتعددة التى يقاسى منها معظم الناس .

فالجهاز العصبى يسيطر على جميع تصرفات الجسم من أفكار وأعمال ، كما يتحكم فى وظيفة كل عضو فى جسم الإنسان ، يتحكم فى عمليات الهضم والتنفس والدورة الدموية والسمع والنظر واللمس . فكل هذه الوظائف تخضع وتتأثر بالجهاز العصبى .

فلا عجب إذن أن نرى هذا الجهاز الذى لا يستريح إلا فى حالة النوم ، وحتى فى هذه الحالة ، قد لا تكون الراحة كاملة .. . لاعجب أن نرى هذا الجهاز يصيبه التعب والانهيار .

ولا عجب أيضاً أن نرى كل فرد آخر غيرنا يقاسى أو قد قاسى فعلاً ، مما نسميه « إرهاق الأعصاب » . فأنت نفسك لاشك تشعر بهذا الانهيار فى كثير من الأحوال ، فقد يخيل إليك أن عضواً أو عضوين من جسمك لا يؤديان وظيفتهما خير أداء ، وقد تتسلط عليك فكرة ملحة أن أحد هذه الأعضاء مريض أو هو فى طريقه إلى المرض . ولكن معظم هذه الحالات مرجعها الأعصاب .

ولكى نبدأ العلاج ونمضى فيه حتى نهايته يصبح من الضرورى أن نلم بعض الشىء بالجهاز العصبى ، فهو يتكون

من الجزء الأوسط ويشتمل على المخ والحبل الشوكى كما يتكون من الفروع الخارجية والأعصاب التى تتذبذب بين المخ والحبل الشوكى .

ولما كان المخ والحبل الشوكى على جانب كبير من الأهمية لسلامة الجسم فقد خلقا مُغَلَّفين بأغطية عظمية قوية ، هى الجمجمة والعامود الفقرى .

وتتكون الأعصاب التى تنتقل بين هذين المركزين العظيمين من ألياف عدة يحمل بعضها الدوافع من المخ وعضلات الحبل الشوكى إلى عضلات الجسم وأعضائه المختلفة

وهناك ألياف أخرى تحمل رسائل من الأجزاء الخارجية إلى المخ والحبل الشوكى ، وبهذه الطريقة تؤدى حواس النظر والسمع واللمس وغيرها من الحواس وظائفها ، كما تحقق القدرة على التوازن واستخدام عضلاتنا .

بل إن أعضاء الحواس الخارجية ــ العين والأذن والأنف ــ قد تخصصت فى هذا الميدان إلى درجة أن الدوافع التى تخرج منها تجرى فى أعصاب معينة إلى أجزاء خاصة من المخ حيث تثير الإحساس الخاص المتصل بها . فالدافع الذى يجرى فى العصب البصرى مثلاً يكون فى مؤخرة العين ــ الشبكية ــ ثم

يمضى فى طريق خاص إلى المخ وهناك يثير الإحساس بالنظر . ولو كان من الممكن أن نلمس الشبكية فى مؤخرة العين ، لما أحسسنا بهذا اللمس . فالشيء الذى يثار هو حاسة النظر وهذا هو الأصل فى « رؤية النجوم » أو رؤية الشرر عندما تصاب العين بضربة قوية .

وبالمثل نجد أن أشعة الضوء التى تؤثر فى الجلد حيث توجد نهايات عصبية خاصة للمس، لا تثير إحساساً البتة، فإن الجلد غير مهيأ للنظر . فإنْ كان الضوء يستطيع أن يثير أى إحساس فى الجلد فإن هذا الإحساس يكون نوعاً من الشعور أو اللمس أو الدفء .

كما أن الجهاز العصبى بجانب قيامه بوظيفة توليد الحركة فى السيطرة على أعضاء الجسم وتسجيل الإحساسات فهو أيضاً مستودع لتلك القدرة العجيبة وهى الذاكرة . فإن الذاكرة الشعورية واللاشعورية تلعب دوراً هاماً فى تحديد الحالة العصبية فى الإنسان .

ويجب ألاّ يغيب عن أفهامنا أن جزءاً كبيراً من الجهاز العصبى له شأن هام بوظائف الجسم ، تلك الوظائف التى لا نشعر بها تماماً فى حالة الصحة . فإن الإنسان السليم لا يدرك

أن له بطناً وأمعاء وكبداً أو كليتين . إذ أن كل هذه الأعضاء تعمل دون أن ندرى أنها تعمل . ولكنها تقوم بعملها هذا تحت رقابة ما يسمى بالجهاز العصبي السمبتاوى .

ولكن هذا الجهاز العصبي السمبتاوى وإنْ يكنْ يعمل فى غفلة منا ، إلا أنه يستطيع أن يختزل الذكريات ويكوّن العادات . لذلك كانت هذه الخاصية فى جهازنا العصبى ، — هذه الخاصية الهامة وهى قدرته على اختزان الانطباعات دون علم منا — تلعب ، كما سنرى فيما بعد ، دوراً هاماً فى إحداث الاضطرابات العصبية .

فعند معالجتنا الاضطرابات العصبية هذه ، يجب ألا نغفل ، لا الجانب الواعى للعقل فحسب ، بل نذكر أيضاً ما يسمى بالعقل الباطن أو اللاشعور . ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن اللاشعور هو المستودع الذى نجد فيه المفتاح لجميع الاضطرابات العصبية . ولكى نوضح هذا الكلام نقتطف ما قاله ذلك العالم الحجة « مكدوال Mc. Dowall

« فى كل لحظة من لحظات يقظتنا ، ندرك فيضا دائماً من المؤثرات المتباينة التى تصل إلينا عن طريق الأعضاء والحواس المتعددة ، فنحن ندرك دائماً ما يحيط بنا ، فنرى ونسمع ونتذوق ،

ونشم ونلمس ، فهناك إحساسات متعددة تقع على أجزاء متباينة من الجسم ، وهناك الأفكار المرتبطة بعضها ببعض والآراء والصور ، كل هذه المؤثرات تتدفق باستمرار وتكوّن الارتباطات والذكريات .

« وكلنا يعلم أننا لا نكاد نخطو عتبةَ الشعور حتّى نجد مستودعاً هائلاً من الغذاء العقلى نستطيع أن نغوص فيه متّى شئنا . وبعض أجزاء هذا المستودع أقرب منالاً من البعض الآخر . ولكنا نشعر أننا نستطيع إذا بذلنا الجهد الكافى أن نستخرج بعض الأشياء من تلك الآراء البعيدة .

« وهذا المستودع إنْ هو إلاّ سجلات لا تُحْصَى للحقائق والمؤثرات والرغبات والأمانى والمخاوف ، فنحن نتوقف لحظة نستطيع بعدها أن نسترجع ما كنا نزاوله فى مساء اليوم السابق . فنتذكر الناس الذين قابلناهم ، وتكون النتيجة أن مجرىً كاملاً من الذكريات المتصلة يُصَبُّ فى منطقة اللاشعور » .

ونلاحظ هنا أن « مكدوال » يستعمل هذه الألفاظ والمؤثرات والمخاوف فى مقاله هذا . لذلك يجدر بنا ، أن نتذكرها إذ أننا سنرى فيما بعد أن هذه المؤثرات والمخاوف يُعْزَى إليها الجانب الأكبر من الاضطراب العصبى .

فالدراسة الطبية الحديثة للعقل تكشف عن ميدان أوسع هو الذى نسميه « اللاشعور » ، ذلك الميدان الذى استقرت فيه جميع شئون حياتنا التى يخيل إلينا أنها نُسِيتْ تماماً مثل انطباعات الطفولة . فإن هذه الانطباعات هى فى معظم الحالات السبب فيما يصيب الشخص البالغ من انهيارات نفسية وإرهاق عصبى .

صحيحٌ أننا لا نستطيع التغلغل فى منطقة اللاشعور . إلا أنه لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن سلوكنا وأفكارنا تتأثر بالدوافع والرغبات التى تعمل فى هذا الجزء من العقل الذى نظل غافلين عنه .

فالشخص العصبى هو فى الغالب شخص جاءت متاعبه نتيجةً لآثار سيئة محزنة مخيفة حدثت له فى سنيه الأولى ، وربما كان إدراك هذه الآثار أو تذكّرها قد أفلت منه منذ زمن بعيد . إلاّ أن أثرها الدفين لايزال يعمل فى داخله مسبباً بذلك اضطرابه العصبى ، وإنْ لم يفطن هو لذلك .

أمثال هذا الشخص ــ وقد تكون أنت أحدهم ــ لا يمكن مساعدتهم إلاّ بالتنقيب عن مصدر هذه المتاعب والقلاقل

والكشف عنها . ومتى تبينها الشخص العصبي واعترف بها أمكنه التغلب عليها .

إن هذه الطريقة العلاجية تُعْرَفُ بالتحليل النفسى أو تحليل اللاشعور بواسطة خبير طبي .

وسنتناول الكشف العظيم عن العقل بشيء من الإسهاب وسنقدم مثالاً أو مثالين لعقل شخص مريض بالاضطراب العصبي .

أجل إنّ هناك بعض الاضطرابات العصبية الناجمة عن نقص فى تكوين بعض أجزاء الجهاز العصبي ، هذا النقص قد يرجع إلى فقر فى كمية الدم أو تسمم فى الدورة الدموية ، أو إلى حادث ؛ هذه الأمراض العضوية للأعصاب أو المخ أو الحبل الشوكى قد تؤدى إلى صور متعددة من الشلل أو أنواع متباينة من الأمراض العقلية . . وفى مثل هذه الحالات يجب ألا نغفل أن هذا الاضطراب العصبي ناتجٌ من تسمم مجرى الدم الذى يغذى تلك الأعصاب . . لذا كان من الواجب عليك متى ساورتك الشكوك فى أنك تقاسى من أى نوع من أنواع التسمم، أن تبادر إلى استشارة طبيبك الذى يسارع فى

إخبارك إذا كانت هذه الشكوك لها ما يبررها أو ليس لها وجود البتة .

فإذا لم يكن هناك ما يبرر هذه الشكوك، تستطيع بعد ذلك أن تتأكد أن اضطرابك اضطراب وظيفى . وهذا هو ما نحن بصدده الآن . فنحن نعالج الاضطرابات العصبية الوظيفية ، أى الاضطرابات التى لا نستطيع رؤية سببها بالعين المجردة . وهذا هو ما يعنينا فى هذا الكتاب .

ولو أننا قمنا بفحص الجهاز العصبى عند شخص يقاسى كثيراً من أعصابه بدرجة يشرف فيها على الموت ، لما وجدنا فى جهازه هذا شيئاً يخالف جهاز الرجل السوى (العادى) تماماً . فمشكلته هى خطأ فى الأداء لا خطأ فى التكوين . وحتى لو كان الخطأ فى التكوين لكان هذا فى التكوين الخفى أى فى الذاكرة التى يُظَنّ أنها قاعدة المخ . وهذا ما لا نستطيع إدراكه بالعين .

وجملة القول، عليك أن تتذكر دائماً أن العقل سواء الواعى أو غير الواعى ، هو القوة التى تستطيع أن تشفى بها نفسك من أى اضطراب عصبى وظيفى . أو من أية إصابة عادية مما يُطْلَق عليه الإرهاق العصبى .

فعلينا أن نتعلم كيف نستخدم هذه القوى الكامنة فينا حتى يكون عندنا العقل السليم فى الجسم السليم . ومن أجل هذا يجب أن توضع تلك القوى تحت الرقابة إذ أنه من المؤكد أنها ستأتى بنتائج معينة ولكنها إذا تُرِكَتْ وشأنها فإن نتائجها لا تكون فى الغالب من النوع المرغوب فيه .

إن العقل فى حاجة إلى تنظيم ، شأنه فى ذلك شأن الشركة أو المصنع ، وما من أحد يستطيع أن يجهر بهذا الرأى ، وهو تَرْك الشركة أو المصنع يدير نفسه بنفسه لأننا نعرف نتيجة هذا . فإن حسن الإدارة والتنظيم يكفلان للشركة أو المصنع نجاحاً كبيراً ووفرة فى الإنتاج . كذلك الحال إذا عملنا على تنظيم أنفسنا ، فإن العقل والجسم سوف يقدمان نفس الإنتاج . فالجسم يقدم لنا صحة موفورة ، كما يريحنا العقل من المخاوف الوهمية التى ترهق أعصابنا ، ويطلق تلك القوى التى نشعر بها كلنا أنها تعمل فى داخلنا ، وبذلك نستطيع ألاّ نظلم أنفسنا على أى حال من الأحوال .

لقد قيل إننا خُلِقْنا على صورة عجيبة جداً . وهذا حق . فلدينا قدرات عجيبة ، بل إننا أكثر تعقيداً من آلة التليفون

الحديثة إذا قارنا أنفسنا بها ، وقد عُينتَ أنت حارساً على تلك الآلة العجيبة المعقدة لترى ماذا أنت فاعل بها : أتنوى أن تدعها وشأنها وتقنع بما يحدث حولك كيفما اتفق ، أم أنك تريد أن تجعل أعصابك تعترض سبيل صحتك وبالتالى تقوم صحتك باعتراض سبيل أعصابك حتى يسوقاك كلاهما فى آخر الأمر إلى مآزق حرجة . هذه المآزق الحرجة هى اختبار بل تحدٍ لذكائنا ، فهى المحك الذى تمتحننا به الطبيعة لترى إذا كنا قادرين على الخروج منها والتغلب عليها .

ما من إنسان رجلا كان أو امرأة ، يقنع بالجلوس وقد طوى يديه وهو يردد هذا الكلام « لا يمكن عمل هذا . الواقع إن هذا يمكن عمله . بل يجب تحمله . ولن تكون سعيداً إن لم تعمله . »

وعلى ذلك إذا امتحنتك الطبيعة فى أعصابك أو حتى ببعض السقم الجسمى ، فإن الطبيعة تريد أن تقول لك « والآن ماذا أنت فاعل إزاء هذه الحالة ؟ أتلقاها مستسلماً مهزوماً أم تقابلها بروح المحارب الشجاع ؟ »

إن أى إنسان يكلف نفسه مشقة قراءة هذا الكتاب سيختار بالطبع الطريق الآخر وهى روح المحارب .

غير أن أساليب الحرب والطعان متعددة الألوان . فمنها

الجيد ومنها الردىء . وفى حربنا مع الأعصاب توجد طرق سليمة وطرق خاطئة .

وفى هذا الكتاب ستعرف ما ينبغى أن تعمله وما لا ينبغى . وكلاهما على درجة واحدة من الأهمية .

ولكن أهم شىء هو أن تدرك ما قاله أحد الأطباء من أن لفظ « عصبى » مرادفٌ للفظ « قابل للشفاء » .

والأمر الثانى هو أن تبحث عن الطريقة الصحيحة للشفاء. فعليك أن تنزل إلى أعماق الاضطراب لتقف على المواطن التى كنت مخطئاً فيها . وفى تلك المواطن ذاتها عليك أن ترسم طرقك .

هناك آلاف الحالات للإرهاق العصبى . ونحن لا نستطيع — بل ولا نريد — أن نعالج كل حالة على حدة . ولكننا نلحظ الشبه التام ونحاول أن نجد المصدر العام له ، لأن المتاعب تنجم فى معظم الحالات من تلك القوى غير المكبوحة التى تُرِكت داخل « المصنع » الذى يدير نفسه . وبمجرد ما نستعيد النظام والقانون والتوجيه الذاتى والسيطرة التامة ، لا تلبث كل هذه الاضطرابات التى نجمت من عدم وجود هذه الأشياء ، أن تسير فى طريق العلاج ، وبذلك نحول تلك الطاقة إلى الإنتاج بدل الضياع ،

٣٠
وسرعان ما نشعر بالتحسن فيبدأ العقل فى استعادة مرحه الطبيعى ، وتتوارى المتاعب وتأخذ الحياة اتجاهاً جديداً . وسبب هذا كله هو أن « المدير المنظم » الذى هو أنت قد بدأ يزاول عمله جاعلاً الأشياء تجرى فى مجراها الصحيح . . .

الفصل الثانى

من هو الشخص العصبى ؟

إن كلمة « عصبى » ربما كانت من أشد الألفاظ اتصالا بسلوك الإنسان ، وهى فى الوقت نفسه أبعدها عن تأدية معناها الدقيق . فربما كانت هذه الكلمة تدخل فى تكوين الجهاز العصبى ؛ وفى هذه الحالة يصح أن يقال إن مرض النوم هو مرض عصبى لأننا نجد فيه التهاباً للأنسجة العصبية .

ومنذ القرن الثامن عشر أصبحت كلمة « عصبى » تُطلَق على الشخص السريع التأثر والانفعال ، الشخص القلق الذى لا ينسجم مع غيره من الناس أو مع بيئته .

ثم مضى الناس فى اعتقادهم هذا حتى أن علماء النفس والأطباء يُعدّون مسئولين عن إشاعة هذا اللفظ على غير حقيقته بين الناس ، إذ أطلقوا هذا اللفظ على كل مريض يحاول أن يعرف طبيعة مرضه . فإن الطبيب يقول لمثل ذلك المريض المتشبث إن تصرفاته الشاذة أو عدم انسجامه مع الجماعة هى أعمال عصبية ، ذلك أنه لا يدرى ماذا يقول له ، أو لأنه يريد

أن يتجنب الدخول معه فى مناقشة طبيعة مشكلته هذه . وعلى هذا استعمل لفظ عصبى فى معان غير دقيقة حتى لم يعد له مدلول معين .

أما فى حياتنا العادية فإننا نستعمل لفظ « عصبى » فى وصف كل اضطراب عضوى ، وقد نطلقه على حالة « عدم الانسجام » أو المرض العصبى الذى هو أمر يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وإن كنا فى معظم الأحايين نجد كلمة « عصبى » تدل على جانب معين من عدم الانسجام .

كما أننا نلاحظ أن الشخص العصبى لا يستطيع الجلوس ساكناً بل نلفاه يلوى يديه أو يطوى ساقيه ، ثم يتحرك يمنةً ويسرةً أو يتململ فى جلسته حتى ولو كان المقعد مريحاً ، وكان هو على جانب كبير من السرور والسعادة .

كما نلحظ أعراضاً أخرى للحالة العصبية كقضم الأظافر أو فرك اليدين أو « نقر » المائدة بأصابعه وغير ذلك من الأفعال المتكررة التى يأتيها الشخص العصبى فى حركات سريعة لا شعورية .

كما أن هناك شخصاً عصبياً آخر نراه سريع التأثر بجميع الأصوات المتصلة أو المتلاحقة كحركة المرور وضجيج

الآلات . كما يلقى المنغصات البسيطة أو المضايقات التافهة فى ثورة انفعالية جامحة لا أساس لها من العقل والمنطق.. ولهذا أطلق على الشخص العصبى لفظ « السريع التهيج » وهو أحد مظاهر الاستعداد للانفعال الشديد بسبب المضايقات التافهة . هذا بجانب الأعراض البسيطة لحالة القلق — التى يتعرض لها الشخص العصبى — كالتردد والخوف من المستقبل .

إن هذه الحالة العصبية التى نَعْرِضُ لها هى نتيجة حتمية لتصرفات شاذة إزاء مشاكل شخصية عجز صاحبها عن حلها . فإن الشخص العصبى لديه دوافع تظل غير مشبعة ، ثم إنه يواجه بعض المواقف التى لا يستطيع أن يتهيأ لها . فتكون النتيجة خلق حالة من التوتر الانفعالى . إذ ما دام هذا الشخص قد اعوزته المخارج المحددة المعروفة سواء فى سلوكه المباشر أو فى الطرق الدفاعية ؛ فإن هذه الحالة ستظل قوية فيه وتدفعه إلى إتيان هذه التصرفات .

وهذا من شأنه أن يفسر سرعة تأثره أو قابليته الشديدة للتصرف السريع ، إذ أن التوتر الانفعالى يسهل مهمة الاستجابة لأى مؤثر قد يصيب الإنسان .

فالسلوك العصبى هو سلوك حاد . فالشاب القادم على

مقابلة رئيسه يكون عصبياً نتيجةً لتوتر خوفٍ فيه سرعان ما يزول بمجرد انتهاء المقابلة .

أما الشخص العصبي « المزمن » فهو يتصرف فى حالة انفعالية شاذة إزاء مشكلة قائمة، هى فى أغلب الأحيان سلوك تجاه عيب شخصى ، وفى هذه الحالة المزمنة تأخذ الاستجابة العصبية طابع العادة فى الإنسان ، وتظل معه حتى بعد أن تكون المشاكل التى أثارتها قد زالت تماماً .

وهناك فهم خاطئ متداول بين الناس عن سبب « العصاب » العادى أو الحالة العصبية ، هذا الفهم يقوم على اعتبار العصاب شكوى عضوية راجعة إلى الأعصاب الضعيفة ، كما أن الشخص العصبي يعتقد أن سبب اضطرابه يُعزَى إلى ضعفٍ عام للجهاز العصبى شبيهٍ باضطراب المعدة أو ضعف القلب . غير أن هذا الاعتقاد خاطئ فى أساسه ، لأن الجهاز العصبى ليس عضواً آلياً كالقلب أو الجهاز الهضمى ؛ فالجزء الضعيف فى الشخص العصبى ليس أعصابه ، ولكن ضعفه منحصر فى تعوّده على مجابهة مشاكله وتكييفه لنفسه على حسب بيئته .

كما أن هناك ملاحظة خادعة مضللة وهى أن حالات الغدد — كزيادة الإفراز فى الغدة الدرقية مثلا — من شأنه أن يسبّب

استجابةً سريعة شبيهة بالحالة العصبية المألوفة .

ولا شك أن كثيرين من الأشخاص العصبيين يقاسون من خَلَلٍ فى الغدد، ولكن معظم الحالات العصبية لا تُعْزى إلى هذا السبب بل ترجع إلى أفعال سيكولوجية .

كما يلاحظ أيضاً أن كثيرين من الأشخاص العصبيين يقاسون من اضطرابات جسمية مزمنة ، قد تكون ناشئة من قرحة فى المعدة أو التهاب فى المفاصل أو حصى فى المرارة وغيرها . . ولكن فى معظم هذه الحالات لا يكون المرض الجسمى هو العامل المباشر فى خلق تلك الحالة العصبية ، بل يكون عاملا غير مباشر . فإن الشخص الذى يقاسى من هذه الأمراض يخشى مستقبَلَه ، لا سيما إذا طال العلاج ولم تظهر له نتائج سريعة ، فنراه يأتى تصرفات شاذة إزاء ما يصادفه من عوائق .

وعلى هذا ، نجد التصرف الانفعالى هو المصدر الأصلى لحالته العصبية وليس المرض ذاته . »

فإذا شُفِىَ الإنسان من ذلك الاضطراب الجسمى ، فإن آثار العصبية تختفى فى العادة تبعاً لذلك .

وهناك سبب آخر للاعتقاد السائد بأن الحالة العصبية هى مرض عضوى ، ذلك أننا نلاحظ أن الحالة العصبية تخف

حدتها باستعمال العقاقير والأدوية ، وعادة ما تكون العقاقير المستعملة في مثل هذه الحالات « مهبطات مخية » Cerebral Depressants تشتمل على مسكنات .

وأثر هذه المهبطات هو الحد من نشاط العضو ، بالتقليل من حدة اندفاع المؤثرات الحركية .

كما أن استعمالها في تهدئة القلق شبيه باستعمال المخدر في تخفيف حدة الألم . ففي كلا الحالتين يظل السبب الأصلي كما هو وإن ساد المريض هدوء ظاهري .

إن المهبطات المخية لا تقوّي الأعصاب ولكنها تهدئها فقط ، حتى تفقد نشاطها .

فإذا نصح بها الطبيب كان لها أثر عظيم الفائدة إذ أنها تخفف من حدة الأعراض العصبية التي هي في ذاتها منغصات ، كما أنها تقنع المريض أنه يتحسن .

كما أن كثيراً من الأدوية المعروفة المقوية للأعصاب تخفف الحالة العصبية — مؤقتاً — غير أنها وخيمة العاقبة . فبعضها ، لا سيما تلك التي تحتوي على المسكنات ، لها تأثير سيئ على الجسم ، حتى الأدوية الأقل ضرراً نسبياً لا تستطيع أن تكفل علاجاً دائماً .

لذلك ليس هناك علاج غير ذلك الذى يهيئ أو يكيف الإنسان ليواجه مشكلته النفسية .

إن التغلب على الحالة العصبية العادية ليس أمراً يسيراً لا سيما إذا كانت مزمنة ، فإذا كانت المشكلة التى تسبب التوتر الانفعالى مشكلة خارجية ، كان فى التخلص من تلك المشكلة شفاء للمريض ،

كما أن التغيير فى أسلوب المعيشة أو العمل أو البيئة أو الأصدقاء قد يكون مفيداً إذا استطاع هذا التغيير أن ينتزع الشخص العصبى من حالة التوتر التى تسبب له تلك الحالة الملحة من عدم الانسجام .

ولكن هناك كثيراً من الحالات لا يتحقق فيها الشفاء لأن المريض يحمل المؤثر معه فى صورة عقدة «نقص». كما أن سلوكه يغشاه الخوف العام من جميع المواقف التى يواجهها .

فإذا أمكن الوقوف على تلك الحالة ، فى وقت مبكر أو قبل فوات الأوان ، أمكن للتكييف الجديد أن يحقق أثره المطلوب ، فيمنح الشخص القوة ليتبصر حاجته ويعينه على أن يتهيأ — فى نشاط — لمواجهة جميع مشاكله والصعاب التى تعترض طريقه .

كما أن نوع العلاج الحقيقي يختلف كثيراً تبعاً لطبيعة المشكلة التى لم يكيِّف الشخصُ نفسَه لها .

أما إذا أزمنت الحالة العصبية واتخذت شكل عادة، تعذر الشفاء الكامل .

ولكن أى تغيير مناسب فى ظروف الشخص أو فى طبيعة تكيّفه، قد يؤدى إلى تحسّن ما .

أما الانهيار العصبى فهو أكثر غموضاً وأقل فهماً من الحالات العصبية بين الناس .

فالانهيار العصبي ليس له مدلول محدد . فهو ليس كياناً نوعياً، كما أنه ليس نوعاً محدداً من السلوك . بل هو تعبير وقائى يستر وراءه جميعَ حالات عدم الانسجام التى بلغت درجة ملحوظة من الشدة .

وقد يكون الانهيار العصبي انهياراً بدنياً . وفى حالات كثيرة يدل الانهيار على حالة عصبية حادة من النورستانيا ، وربما كان هذا هو أكثر أنواع الانهيار العصبى شيوعاً .

كما أنه لا تزال توجد حالات أخرى يكون فيها الانهيار العصبي بمثابة الضيق أو السآمة، ويُستَخْدَمُ كعذر للهروب من موقف غير سار .

وبالرغم من غموض معنى الانهيار العصبى ، بل ربما لسبب هذا الغموض ، أصبح يُشخَّص فى الغالب بواسطة أطباء . كما أصبح المرضى يطلقونه على بعض أنواع الصعاب التى تحتاج إلى تكيّف أو انسجام .

وقد يعزو البعض الانهيارَ العصبى وغيره من أنواع التصرفات الملحّة الشاذة إلى الإرهاق فى العمل . فقد نسمع أحياناً فى وصف أمراض بعض الطلبة هذه العبارة « لقد أرهق نفسه فى الدرس وكدّ ذهنه » .

إن هذه العبارة مضللة وكاذبة فى أساسها . ولكن قد يحدث فى حالات قليلة جداً أن يُضْعِف الإرهاقُ الحيوية فى الإنسان ، فيجعله غير قادر على التكيف أو الانسجام عندما يواجه إحدى المشاكل المحيرة المربكة .

فإذا سبّب الإرهاقَ الأرق أو صرف الشخص عن التمرينات العادية أو أفقده شهوة الأكل فى مواعيده المحددة ، فيجب أن نبحث عن هذا الضعف الجسمى الذى لم يسبّبه الإرهاق بل سبّبه إهمال الصحة الجسمية .

وفى كثير من الحالات ، نجد أن العلاقة بين السبب والنتيجة ذات صفة متباينة .

فعندما يواجه التلميذ الاحتمال الحقيقى أو الخيالى لفشله فى المدرسة ، فإن أول دافع يكيف به نفسه هو أن يعمل بهمة وجد . وفى معظم الحالات يصل إلى نتيجة فعّالة ، ويزول من طريقه هذا العائق .

فإذا لم تستطع المذاكرة الجدية أو العمل المتواصل أن يجتث الخوف من الفشل ، فإنه يستسلم لليأس ويركن إلى نوع من التصرف الشاذ فيصبح شخصاً قلقاً يقال عنه « إنه مصاب بالانهيار العصبى . »

ويُلاحَظُ هنا أن الإرهاق لم يكن السبب فى الانهيار العصبى هذا ، وإنما الانهيار العصبى المزعوم هو رد فعل للفشل فى الحصول على الانسجام .

ومن الطبيعى أن يعتقد الإنسان أن الانهيار العصبى سببه الإرهاق . فإنهذا مَدْعاةٌ للاحترام وإدخال السرور عليه . كما أن تبرير هذا الاعتقاد يساعد كثيراً على دعم هذه الأكذوبة .

وعادة لا يكون الإرهاق بل القلق المتزايد هو سبب الانهيار العصبى الذى هو فى الأصل استجابات أو تصرفات انفعالية مُلِحّة شاذة .

إن جوهر المسألة ينحصر فى الشخص نفسه لا فى

الاضطراب الذى يصيبه . فى كل حالة يحار فيها عقل الإنسان، يمكن أن نوجّه إليه هذه الأسئلة .

- أى المواقف لا يكيف نفسه لها بنجاح ؟
- أى الوسائل يتبعها وهو يقوم بهذا التكيف الجزئى ؟
- أى العوامل التى استمدها من تجاربه أو تعليمه قد قادته إلى السلوك الذى هو عليه الآن ؟
- كيف يمكن أن يصل إلى درجة أفضل من التكيف ؟

فإذا أمكن إجابة هذه الأسئلة، أمكن فهم الشخص وسهُلَ حل جميع مشاكله .

الفصل الثالث

نموذج لحالة عصبية وعلاجها

الآن ، وقد استوعبنا تلك الحقائق التى وردت فى الفصلين السابقين ، دعنا نحاول فهم حالة شخص عصبى عادى وننظر أولا إلى أولئك الناس — الذين قد تكون أنت أحدهم — ممن ليست لديهم أية فكرة عن أن ما بهم هو عيب عقلى وليس نقصاً جسمياً على الإطلاق ؛ إذ أنهم شديدو الاعتقاد فى أن مصدر شكاتهم جسمى محض . فقد يكون هذا المصدر فى اعتقادهم المعدة أو الكبد أو الأمعاء .

وسنورد هنا قصة أحد هؤلاء المرضى كما رواها هو عن نفسه — وقد تجد فيها قصتك أنت نفسك — قال للطبيب : « عندما أهب من نومى أشعر بطعم غريب فى فمى ، كما أشعر بالتعب ، فلا أقوى على هضم شىء . فجميع أنواع اللحوم تتعبنى . لذلك امتنعت عن أكلها . وأشعر الآن أن السمك الذى اعتمد عليه فى غذائى اعتماداً كبيراً يسبب لى نفس الألم . وكل ما أستطيع تناوله هو « الكريمة » وبعض الأشياء الأخرى

كطعام البنجر . كما أنى لا أقوى على مزاولة عملى . وعندما آوى إلى فراشى أشعر بتعب شديد فيستعصى علىّ النوم » .

إن هذه قصة شاب شاحب اللون يشكو الهزال ، ولكن الفحص الدقيق أثبت أن أعضاء الجهاز الهضمى ليس بها أى خلل البتة . فمعدته تفرز العصارات المعدية ، كما أن حركاتها عادية . ومجرى الطعام إلى الأمعاء سليم جداً اللهم إلاّ أن جدران الأمعاء قد تراخت بعض الشيء بسبب عدم قيامها بعمل كاف . أما الكبد وكيس المرارة فهما عاديان . كذلك الكليتان .

وبعبارة أخرى فهو من الناحية العضوية فى حالة صحيحة جيدة . غير أن الشاب يضج بأنواع الشكاوى .

وطبيعى أن المشكلة فى عقله لا فى جسمه .

فأعصابه هى المتعبة . وجوهر هذا التعب راجع إلى عدم الثقة فى نفسه . فالشاب ليس لديه الشعور بالقوة ولا الثقة فى نفسه ولا فى قدرته على القيام بواجباته أو الاحتفاظ بصحته ؛ بل استهدف للقلق واستبدت به الكآبة والحزن . وتدور أفكاره كلها حول الفشل والفقر والمرض . فهو يعجب أحياناً كيف أن إنساناً مريضاً مثله قادر أن يحيا تلك الحياة ؟

فإذا أخبرته بأنه ليس به شيء ، فإنه لا يصدقك ، بل يفقد

ثقته فيك ، ولكن إذا ما أخبرته أنه يوجد شيء فى أعضائه وأن المشكلة كلها تنحصر فى عقله وفى أعصابه التى تحتاج إلى علاج ، فإنه قد ينصت إليك فى شيء من الأمل والاطمئنان .

عليك إذن أن ترسم له طريقاً محدداً من طرق العلاج التى تؤدى إلى تقوية إرادته وتُعَلِّمُه كيف يُقْلِعُ عن تأملاته الكئيبة وكيف ينجو من أفكاره الحزينة ، وسرعان ما تصبح الدنيا حوله أكثر إشراقاً وبهجة .

فالأمل يطرد اليأس ، وتحل البهجة مكان الكآبة . كما يحبّب إليه النوم الصحى فى الليل بعد أن كان يمضى سحابة يومه فى خوف وقلق بالغين منه .

هذه هى الروح التى يجب أن تكون عليها وأنت تقرأ هذا الكتاب ، فارضاً أنك أحد هؤلاء المرضى الذين نكتب عنهم .

فلتستوثق من نفسك ولتتحقق تماماً أنك سليم معافىً من الناحية العضوية ، أو فلتُخْبِر عقلك الباطن أنك سوف لا تقاسى بعد ذلك من تلك الأفكار الحزينة القلقة ، وأن جهازك العصبى كله يفيض قوة وحيوية .

وقد تعجب لمقدار التحسن الذى تشعر به بعد تناولك الجرعة الأولى من هذا الدواء العقلى العجيب .

ومن الطبيعى أنك لا تصل فى الحال إلى درجة الكمال من الناحيتين الجسمية والعصبية . ولكن التحسن يبدأ فى الحال بمجرد ما يستعيد المريض (أو الضحية) ثقته فى نفسه ، وعندما تنجح فى أن تجعله يعتقد أنه سوف يشفى .

فعندئذ سيدرب عقله وإرادته على تهذيب نفسه ، وسيعرف أنه يستطيع السيطرة على عقله ، وسيتحقق بنفسه من سلامة جسمه وسيعلم كيف لا يقيم وزناً كبيراً لطعامه فيأكل هذا وينصرف عن ذاك كما يحلو له مؤكداً لنفسه أن أى طعام سيتناوله سيهضمه بسرعة وليس له أن يقلق إذا كانت أمعاؤه تشتغل أو لا تشتغل ، كما أنه سيعلم أن صحته تتوقف على أفكاره لا على وظائفه الجسمية . علينا أن نرشده إلى الطريق الذى يتخلص به من الأفكار الحزينة بأن نوجهه إلى طريق سهل بسيط يستطيع أن يمارسه فى حياته اليومية ، وسيتعلم شيئاً فشيئاً كيف ينظر إلى نفسه كرجل يجب أن ينجح وأن يتمتع بالصحة والبهجة والمرح .

فإذا استطعت أن تجعله يعتقد أنه رجل من هذا النوع فإنه سيغرس فى عقله الباطن النوازع التى ستقوده حتماً إلى تحقيق ذلك الهدف الأسمى الذى يريده لصحته من القوة والسلامة .

إن الفكر يصبح عادة ، والعادة تعمل بدورها على تحديد السلوك الذى يكشف عن نفسه حتماً فى صور إيجابية طارئة .

إن تحويل كتلة تعسة من الأعصاب إلى شخص سعيد مبتهج ليس بمعجزة ، بل هو النتيجة المنطقية لاستخدام معرفتنا استخداماً سليماً . وهى أن عقلنا الباطن قابل للإيحاء وأن ذاكرته لا تخونه وأنه يمكن للإرادة أن تسيطر عليه ، إرادتك أنت نفسك ، وعلى هذا الأساس يستطيع الطبيب أن يعالج مثل هذه الأعصاب .

وعلى هذا الأساس أيضاً تستطيع أنت متى تعلمت الإيحاء الصحيح أن تشفى نفسك إذا نُكِبْتَ بمثل هذه الحالة التعسة .

فبعد أن تؤكد للمصاب أن أعضاءه سليمة قدِّم له هذه التمرينات العقلية التى تحمل العلاج فى جُمَل بسيطة ... يدع يؤكد لنفسه :

- الآن سأتخلص من إرهاق أعصابى .
- إنى رجل صحيح الجسم .
- ما علىّ إلا أن أقوىّ إرادتى وسرعان ما أتخلص من آلامى وأوجاعى . إنه ليس فى داخلى ما يبرر وجود هذه الأوجاع .

- إنى ناجح وأستطيع أن أكون ناجحاً فى الحياة .
- إنى قوى وواثق من نفسى وسأظفر بما أريد .
- إنى أستطيع أن أظهر تقدماً سريعاً فى عملى .
- أما فى الحياة الاجتماعية فإن النجاح والشهرة فى انتظارى

دعه يفكر فى هذه الكلمات كل يوم ، بل دعه يعتقد بصحتها فى قرارة نفسه ، وعليه أن يطرد أية فكرة حزينة أو غير سارة . وليقرأ كل يوم فى كتاب يجلب له البهجة والسرور ولو بضع دقائق . وعليه أن يمارس فى حياته اليومية التحدث إلى شخص ما فى رقة وعطف .

إذا فعل هذا فإنه سوف يجد أن عمله هذا – لا سيما إذا بذل فيه بعض الجهد – سيكفل له الرضا والإشباع ، وسيقبل على الحياة بعد أن كان برماً بها ، مدبراً عنها .

إن مثل هذا المريض العصبى الذى نحن بصدده الآن يكون عادة مستعداً لأن يصف متاعبه إلى الطبيب . ومن الممكن أن تتحقق أنت بنفسك من صدق هذا القول ، إذ أنه من حسن الحظ لا توجد صعوبة فى حمل المريض على الكلام ، فإذا ما شجعناه على أن يتحدث فى حرية كاملة عما يشعر به وعما يخشاه ، وإذا ما سأله الطبيب – من وقت إلى آخر – سؤالا مباشراً ، استطاع الطبيب أن يكشف عن الخوف الكامن

والقلق الدفين ، وهما السبب الحقيقى فى اضطرابه العصبى .

إن الاعتراف مفيد للنفس . وهو أكثر فائدة لنفس الشخص العصبى ، إذ يستطيع الإنسان عن طريق هذا الاعتراف أن يرى مصدر الاضطراب وأن يدل المريض عليه . فمتى أيقن المريض أن مشكلته عقلية خالصة ، ومتى وقف على الطريقة التى نشأت عنها تلك المشكلة — وستعرف هذا جيداً عندما تفرغ من قراءة هذا الكتاب — انبعث فيه الأمل وأقبل فى حماس على الخطوات التى تمكّنه من التغلب على تلك المشكلة .

فقد يكون الاضطراب العصبى فى بعض الحالات نتيجة مباشرة لحادثة أو صدمة أو مرض حاد . إننا نبشر المريض فى مثل هذه الحالات أن علّة شكواه يمكن أن تُعرض أمامه فى وضوح . وسيتبين هو أنه ما دام السبب بعيد القِدم، فكذلك المرض يجب أن يختفى ويزول .

إن الراحة العقلية التى يمكن الحصول عليها عن طريق تغيير البيئة أو المكان أو الظروف القائمة ، أو عن طريق الحياة الهادئة مع رفيق لطيف هى فى الغالب أفضل أنواع العلاج لمثل هذه الحالات العصبية مع ، الحرص على أن يكون الطعام بسيطاً

مغذياً كافياً . على أن الهواء الطلق المجدّد — مع الإقلال من التمرينات العنيفة — أمر مرغوب فيه .

فإذا كان النوم مستعصياً عليه فيجب أن يستشير الطبيب لينصح له بالجرعة المناسبة التى تعيده إلى حالته الأولى من النوم فى الليل . وعادةً ما يحتاج المريض إلى مقوٍّ عام يثير شهيته ويُبْعِدُ عنه السآمة .

وهذه وصفة مفيدة لهذا الغرض ، إذا تناولها المريض ثلاث مرات يومياً بعد الأكل :

— روح النشادر العطرى	١٢و جم
— روح الكلوروفورم	١٢ و جم
— صبغة الجوز المقيئ	٦ و جم
— ماء الكراويا	١٥ جم

ولكن أفضل أنواع المقويات هو أن نجعل الإرادة تقوم بعملها ؛ فهناك إرادة للصحة كما توجد إرادة للقيام بأى عمل آخر .

والإرادة يمكن استخدامها للعقل والجسم معاً ، فهى ذات قيمة فى الوقت والجهد . ولكن الأقساط التى ندفعها

أبقى وأدوم من غيرها في أية ناحية أخرى . وفوق هذا فإن هذه الأقساط تُدْفَع للشخص الذى يستثمرها . فعليك أن تفكر فيما يحدث عندما تبدأ في تطبيق الاقتراحات التي قدمناها سابقاً . فإنك تحاول إدخالها في عقلك وتقوم الذاكرة بتسجيلها حتى تصبح جزءاً من عقلك فلا يضيع منها شيء . ولكن قد يحدث بعد مضى أسبوع أو أكثر أن تجد أعصابك في نفس الحالة السيئة التي كانت عليها من قبل . فقد تقول إن هذه الاقتراحات لا أثر لها . وعلى هذا يصبح العقل ميدان معركة للآراء المتصارعة ؛ وهى آراء بعضها قوى و بعضها ضعيف. ومن الطبيعى أن يسيطر القوى ويمضى في عمله .

فما من شيء في عقلك إلا وهو حى فيه ، لأن أفكارك قد وضعت هذا الشيء هناك . فلو أنك قمت بتجميع المخاوف والشكوك عدة سنوات ثم وضعت فوقها نوعاً من الأفكار أفضل لمدة أسبوع فقط ، فأيهما أقوى وأيهما أكثر احتمالا بالظفر والغلبة ؟ .

علينا أن نغلب الشر بالخير ونمضى في بث الأفكار القوية المشجعة يوماً بعد يوم أو أسبوعاً عقب أسبوع حتى تصبح في آخر الأمر قادرة بطريقة آلية على السيطرة على الأفكار غير

السارة ، حتى إذا ما أخذت تطفو شيئاً فشيئاً إلى قمة العقل بدأت الصعاب فى الزوال وبدأت القوة يظهر أثرها . . .

إنا لا نقيم أحكامنا هذه على الوهم والخرافة بل على أساس سيكولوجى سليم . فإن كل فكرة نستمتع بها ذات قيمة سواء أكانت تلك القيمة طيبة أم غير طيبة . فإذا لم نقدّر النتائج اليوم فعلينا أن نلوم تفكيرنا السابق الذى بعث بهذه النتائج . ولكن ما دمنا قادرين على تغيير تيار أفكارنا ، فمن الممكن جداً تغيير مكان هذه الأفكار الخاطئة واستبدالها بأفكار أفضل منها . وبذلك تختلف النتائج تبعاً لهذا .

هذه هى النظرية . أما التطبيق فقد أثبت نجاحه آلاف الحالات . ومن الممكن لكل إنسان أن يكلف نفسه بعض العناء فى أن يساعد نفسه .

على أنه يجب أن نستخدم الطرق الصحيحة ، وأن نفهم فى الوقت ذاته الطريقة التى يعمل بها العقل . إذ أن المسألة لا تقتصر على طرح المؤثرات السيئة إذ يقال « إذا ما خرج روح شرير واحد حل مكانه سبعة أرواح » .

فعلينا أن نملأ عقولنا بالشىء المفيد النافع ليأخذ مكان الضار . ومن أجل هذا يجب أن نحتفظ بكمية كبيرة من

الإيحاءات الإيجابية نختزنها فى ذاكرتنا للاستفادة منها عند الحاجة .

إن العقل الواعى قد أعِدّ لمعالجة موضوع واحد فى وقت واحد. وهذا هو معنى التركيز ، أما إذا تطاير العقل ووزع على أشياء متعددة فإنه لا يأتى بنتيجة قط . إن كل تدريب عقلى يؤكد ضرورة تركيز الانتباه على شيء واحد فى وقت واحد . وهذا هو سر النجاح والتفوق .

وعلى هذا يجب أن تمارس فى عملك اليومى أو فى حياتك العادية عملية تركيز الانتباه على شيء واحد مستبعداً ما عداه من الأشياء الأخرى . وهذا من شأنه أن يتيح لك تركيزاً حاداً موجهاً لشيء واحد يساعد على أن يجعل حياتك أفسح مجالا وأخصب مرتعاً .

فعليك أن تقرأ فقرة فى كتاب أو تستمع إلى حديث فى الإذاعة مستخدماً فى ذلك عصارة تركيزك ، ثم تكتب خلاصة ما سمعت أو قرأت ، وبهذه الطريقة تختبر نفسك ، وسرعان ما تكتشف ما إذا كانت قوة تركيزك هذه جيدة أو رديئة . فإذا كانت رديئة فعليك أن تبدأ بأيسر الصعاب قبل أن تحاول التغلب على أضخمها . وعليك أن تمضى فى

هذه الممارسة حتى تتبين أن هذا التركيز قد أصبح عادة مُكْتَسبة وأنه يعمل من تلقاء نفسه .

أما النقطة الأخرى فهى أن تكف عن معالجة الجانب السلبي للأشياء ، فتكف عن علاج أعصابك ومحاربة مخاوفك والتغلب على نزواتك وأهوائك .

قد تلوح هذه نصيحة غريبة فى بادئ الأمر. ولكن سرعان ما تدرك الهدف من وراء ذلك . فبدلا من محاربة حالاتنا العصبية علينا أن نبنى جوانب إيجابية من الشجاعة والراحة والاطمئنان ، ومتى توفر لنا الكثير من هذه الجوانب فإن حالاتنا العصبية تبدأ فى الاختفاء ، كما تختفى الظلمة عندما ندير مفتاح النور. فبدلا من أن نحارب المخاوف نبنى الثقة ، ومتى قويت فينا هذه الثقة لم نعد نخشى الجلوس متى كانت الفكرة الغالبة فينا هى أن نقف . إن المزاج الثائر يهرب من النافذة إذا ما دخل المزاج المنبسط من باب العقل . وإن سيطرة نزوة غاضبة تخلق مزاجاً ثائراً بينما الطبيعة الطيبة تكفل البهجة والرقة ، وجميع الأشياء المسيطرة تتجمع عن طريق الفكر وتُسَجَّلُ عن طريق الذاكرة .

والآن بعد أن مارسنا التركيز على شيء واحد فى وقت واحد

مستبعدين ما خلا ذلك الشيء ، نجد أننا إذا وجّهنا العقل إلى التفكير الإيجابي المحدد فإنه لا يمكن في الوقت نفسه أن ينحرف إلى التفكير السلبي المريض ، وبذلك يقوم العقل بتسجيل تلك الأفكار المتجمعة التي تعمل على فائدتنا والتي ستصبح فيما بعد بعض هذه المسيطرات أو الموجهات . ومتى أصبحت موجهة أمكنها أن تحدد تصرفاتنا ، وسيطرت على حالاتنا العقلية ونزواتنا. فإذا حاولَتْ أيةُ فكرة ضارة أو نوبة خوف أو شك أو فكرة تحمل التعاسة والفشل أن تلج عقولنا سارعنا إلى طردها كما ندير مفتاح النور ، وركزنا انتباهنا على مايناقضها مستخدمين في ذلك إيحاء قوياً وإيجابياً يطرد من تلقاء ذاته كل فكرة عن الصعاب أو الفشل ، ثم نمضي في هذا حتى تَقْوى فينا تلك العادة فتؤدى عملها من تلقاء ذاتها .

فإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى وجدنا أن هذه الممارسة تقدم للتفكير حافزاً قوياً يساعد على التغلب على الكثير من الصعاب الهينة التي كان يمكن أن تقفنا في مكاننا أو تطيح بنا إلى الوراء . هذا الحافز يضفي على العقل إرادة ويعطى الشخصية قوة ويتيح للإنسان حياة جديدة .

إنّا نعرف أولئك الناس السلبيين الذين ليس لديهم حافز

من أى نوع ممن يتراجعون أو ينكصون أمام أتفه الصعاب ، هؤلاء الناس الذين ليست لديهم أية قوة دافعة على الإطلاق تجعلهم يتلونون على حسب الظروف التى يوجدون فيها أو على حسب الناس الذين يتعاملون معهم ، هؤلاء الناس ممن يعوز حياتهم البريق ، ينتهون فى أغلب الظن إلى اضطرابات عقلية أو عصبية لأن الذاكرة تعمل دائماً على اختزان وصنع الموجهات الضعيفة وليدة أفكارهم المريضة .

والآن وقد رأينا أن العقل والجسم يتكونان بدرجة تمكنهما من تكوين عادات متباينة ، يجب أن ندرك أنه إذا لم نسلك بهما الطريق السوى لتكوين العادة الطيبة فإنهما لا شك سيكونان العادة السيئة على أرجح الظنون .

وبعبارة أخرى إذا لم نكف أنفسنا مشقة تنمية السيطرة على أنفسنا وكبح جماحنا ، سيطرت علينا عاداتنا واستعبدتنا أعصابنا ورضخنا كذلك لمن هم أقوى منا إرادة ممن نصادفهم فى حياتنا . ولكننا إذا شحنا العقل بالأفكار الشعورية ذات الطابع المشجع المرغوب فيه فإننا ننمى بذلك الجهاز السمبثاوى ونجعله يسلك السبيل التى تتيح له الصحة والهدوء العصبى . وهذا معناه أننا نحتاج إلى حافز يجرف سريعاً الكثير من تلك

الصعاب الصغيرة ويمكّننا من التغلب على الصعاب الكبيرة . ولكن هذا أمر يختلف تماماً عن مهاجمة ومحاربة المخاوف والشكوك ومظاهر العجز والقصور بطريق مباشر وجعل عقولنا ميداناً لمعركة أشد اختلاطاً وارتباكاً عن ذى قبل .

ما من شيء يمنع هذا البناء الإيجابى الذى لا يحتاج إلا إلى التركيز الذى يأتى عن طريق الإرادة الموجهة . فإذا تأكدنا من أن الذاكرة ماضية فى تحقيق شيء ما عن طريق تجمعها إلى موجهات ، توقعنا أن نحقق شيئاً عظيماً أيضاً عن طريق اختيارنا للنوع المناسب من الأفكار التى تسجلها تلك الذاكرة .

وهذا يصل بنا إلى مستوى جديد من الحياة العقلية يظهر أثره فى ذلك المستوى الاسمى من الصحة العقلية والجسمية وفى التحرر من جميع المشاكل العصبية .

الفصل الرابع

الكبت الجنسى

والآن بعد أن استعرضنا نموذجاً من نماذج أمراضنا العصبية ، تعالوا بنا نستعرض مظهراً آخر من هذه الأمراض هو الكبت الجنسى .

ويحسن بنا قبل أن نمضى فى ذلك طويلا أن نذكر بادئ ذى بدء أن هناك طرقاً متباينة تسلكها الأعصاب لتكشف عن أعمالها .ولقد قدّمنا فقط مثالا واحداً. ولكن لكى يستطيع القارئ تطبيق أية نصيحة نافعة يجب أن نقدم له أمثلة أخرى حتى إذا ما عجز عن رؤية حالته الخاصة فى المثال الأول فقد يجد علامات هذه الحالة فى مثال آخر .

إن الضعف العصبى قد يكشف عن نفسه فى نواح عدة . فبعض الأشخاص العصبيين لا يقوون على الجلوس فى مكان مغلق فهم يخشون « النفق » مثلا كما يخافون المسرح أو صالات الرقص. وهناك آخرون على النقيض من هؤلاء يخافون الأماكن الفسيحة ولا يشعرون بالأمن إلا وراء جدران منازلهم أو داخل

عربة سكة حديدية أو سيارة .

ويشكو البعضُ الصداعَ المستمر ، بينما يتألم الآخرون من أعينهم . ويخشى البعض حقيقة أمرهم من عجزهم عن القيام بالعلاقات العادية بين الرجل والمرأة . وفى مثل هذه الحالات يكون مصير الزواج انهياراً عصبياً كاملا .

فى جميع هؤلاء نجد فى عقل كل مريض سبباً لهذا القلق وإن لم يكن شاعراً به . فمن العبث أن نقول له « لا تقلق » . كما أن واجب الطبيب هو أن يحفر فى أعماق ذلك المريض ليستخرج السبب الحقيقى الدفين للقلق ؛ وعندئذ يتمكن من التحرر منه .

أما أولئك الذين ينهارون تحت حالة الهياج العصبى أو الاضطراب إبان انتظارهم ليوم الزواج ، فليس من الضرورى أن يكون هذا راجعاً إلى نقص فى الناحية الجنسية بأية حال من الأحوال . ولكن المسألة كلها تنحصر فى أن جهازهم العصبى عاجز عن أن يسير فى مستوى معين من الإجهاد أو الضغط مما لم يسبق لجهازهم العصبى أن أُلقى عليه مثله .

إن أول اختبار عصبى واجهوه أو واجهه جهازهم العصبى

كان اختبار الشكوك والمخاوف والهموم التى تُلقى على الرجل ذى الضمير الحى أو المرأة الطيبة عندما يواجه هو (أو هى) الزواج . فإذا تأجلت حفلة الزواج وقام طبيب بمعالجة المريض فأعاد على سمعه الكلمات المشجعة والشروح المطمئنة فسرعان ما يهدأ بال المريض ويستعيد ثقته فى نفسه ويتحقق الزواج الناجح .

وعلى هذا نرى أن الغريزة الجنسية تلعب دوراً هاماً فى حدوث الاضطرابات العصبية . وغالباً ما نجد أن مصدر الاضطرابات هو رغبات جنسية مكبوتة .

وإن تثقيف الأطفال وإلمامهم بالشئون الجنسية قد بدأ يستقر على أساس علمى . فيجب ألا نترك الطفل حتى يعرف هذه الأشياء عن طريق المصادفة أو بوسائل سيئة غير مرغوب فيها . إن حقائق الطبيعة يجب أن تُقدَّم للطفل فى صور بسيطة كريمة طبيعية ، متى اقترب من مرحلة البلوغ .

إن كل إنسان عادى يرث غرائز جنسية ، وهذه الغرائز هى فى الواقع من أقوى ميراثه ، والحياة الاجتماعية المتحضرة تتطلب من هذه الغرائز ألا يمارسها صاحبها على نحو غير لائق بل

يكبحها ويكبتها طبقاً لقوانين المجتمع المتحضر. لذلك نشأ فى كل شخص منا نوع من الصراع بين غريزته الطبيعية والسيطرة المكتسبة المفروضة عليه .

إنا نعيش بالقدوة والمثال ، وبعض هذه الأمثلة التى قدمت للأطفال الصغار عن الأمور الجنسية هى فى أغلب الأحايين السبب فى تلك الحالات العصبية التى يقاسون منها اليوم .

وكلنا يعرف أن تحليل المشاكل الجنسية هو تحليل يجريه داخلياً كلُّ رجل عادى أو امرأة عادية . ذلك لأن الغريزة موجودة فى الغالب من وقت ولادته وأن العقل المتسائل المستطلع عند الطفل الصغير يهوله بل يذهله ذلك الشىء كله إذا تُرِكَ ليعرف الغريزة الجنسية قبل أن يصل إلى المرحلة التى يكون فيها قادراً على فهمها وإدراك أسرارها .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الثقافة الجنسية أمر مرغوب فيه عندما يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ ، وهذه الثقافة مرتبطة بتثقيف العقل صحياً ، وبعبارة أوضح إن هذه الثقافة الجنسية تعين الطفل على أن يفكر ويناقش ويتحكم فى عقله ، وبهذا يطرد الأفكار والرغبات الجنسية المكبوتة .

ولكن المسألة مع الطفل الصغير تأخذ شكلا مغايراً لهذا

كل المغايرة . فإنه من الإجرام أن نسخر من الغريزة الجنسية أمام الأطفال أو أن نعالجها فى شىء من الاستخفاف ، فإن الغريزة الجنسية تستيقظ وسرعان ما يبدأ الفتى فى التفكير فى الفتاة ، كما تبدأ الفتاة فى التفكير فى الفتى ، ثم يبدأ الاثنان يتحدثان عن هذه المسائل أحدهما إلى الآخر ، وكلما تقدم بهما السن اشتدت فيهما الرغبة التى لا يستطيعان لها فهما والتى يكبتانها بطبيعة الأمر. وهنا يبدأ العقل الباطن يعمل . ثم ينتقل الفتى والفتاة من طور الطفولة إلى طور الشباب وأخيراً إلى دور الرجولة أو الأمومة . وهما فى أثناء ذلك تعلق فى أذهانهما صور قديمة وأحاديث عارضة ، وتظل هذه الأشياء مستقرة فى العقل الباطن لا يمكن محوها أو إضعافها .

ثم إن هؤلاء الفتيان والفتيات لا يحظون بالشروح المحددة التى تلقى ضوءاً على مثلهم العليا النامية ، بل هم فى كل هذا الوقت يكبتون بعض الأشياء التى تُعد الأساس الأول الذى تقوم عليه حياتهم ، وذلك لأنهم لم يزودوا بالمخرج الصحيح الذى تتسرب منه تلك الأشياء عن طريق الناصح الأمين الذى يحنو عليهم فى عطف وحدب . فلا عجب أن ينحرف هؤلاء الشبان إلى أناس على جانب كبير من العناد وسوء الطبع ،

ولا عجب أيضاً أن يركنوا إلى العزلة والانطواء على أنفسهم . والسبب فى هذا هو أنهم يخلّفون وراءهم شيئاً يشعرون أنهم فى حاجة إليه ولكنهم لا يستطيعون الحصول عليه بسبب القوانين الاجتماعية القائمة التى فرضها المجتمع ، هذه القوانين الاجتماعية توضع لصالح المجتمع طبعاً وتهدف كلها إلى أن يسلك الجنس طريقه العادى الطبيعى وهو الزواج . ولكن الحاجة لمثل هذه التنظيمات الاجتماعية يجب أن يفهمها الشاب فهما واضحاً .

ولكى نقضى على الجانب الأكبر من الاضطراب العصبى عند الشاب يجب أن نحفظ عقل الطفل بعيداً عن جميع هذه الأشياء حتى يصل إلى السن المناسبة وهى مرحلة البلوغ حين يكون قادراً على الاستماع إلى خير النصائح . وبذا يتعلم كيف يسيطر على عقله الباطن .

يجب أن نشبع حب الاستطلاع الطبيعى فى الطفل بأن نقدم له بعض الحقائق البسيطة عن ذلك التاريخ الطبيعى . أما المرض العصبى الذى سببه الكبت الجنسى فهو حلقة مرذولة بغيضة لأن الشاب العصبى هو الشخص الذى لا يستطيع أن يسيطر على غريزته الجنسية أو يكبتها إلا بصعوبة غير عادية . كما أن جميع أعراض هذا الاضطراب العصبى ترجع فى

الغالب إلى ما يقاسيه من آثار هذا الاضطراب. فإذا ما تكشفت له تلك الحقيقة شعر بارتياح كبير وأصبح الشفاء من هذا الاضطراب مؤكداً وفى متناول يده بعد أن أضحى السبب الخفى الغامض معروفاً لديه .

وفوق هذا فيجب علينا أن نتذكر دائماً أن المدنية ذاتها مرض عصبي أو اضطراب عصبي ، فهى تدفع كل واحد منا فى اتجاه دائم لأن نهيئ أنفسنا أو نلائمها على حسب بيئتنا . ولكن هذه الملاءمة أو المواءمة لقوانين الجنس ليست سهلة دائماً . إن الشخص العصبي هو الذى يصاب بانهيار فى بعض مراحله ولكنه يستطيع أن يُصلحَ هذا الانهيار عن طريق اكتساب فن السيطرة على عقله .

والخطوة الأولى نحو هذه الغاية هى أن يخلِّص عقله من تلك السموم التى تنوش عقله وتفقده صوابه وأن يُجْرِي محادثةً حرةً مع طبيب على جانب كبير من الإدراك والعطف ، وبذلك يستطيع الوقوف على تلك المخاوف والشكوك والرغبات التى كانت السبب فى انحرافه والتى لم يشعر بوجودها شعوراً ملموساً واضحاً ؛ فتطفو تلك المخاوف على سطح عقله بعد أن كانت

مستقرة فى القاع . وسنورد هنا قصة أحد أولئك العصبيين كما رواها للطبيب المعالج . قالت السيدة المريضة :

« كنت دائماً طفلة عصبية تعاودنى دائماً الأحلام المزعجة كما كنت أخشى الذهاب إلى الفراش ، ثم استولى علىّ شعور الخوف من الاختناق ، ولذلك لم أستطع تحمل السفر فى قطار تحت الأرض . كما كنت أخشى أن أموت محترقة ، كذلك كنت أقلق بسبب أشياء كنت قد ذكرتها لغيرى من الناس بينما لم يكن فى هذه الأشياء ما يدعو للقلق البتة . ولطالما استبد بى كابوس بأنى غريقة » .

وإليكم قصة رجل مريض آخر . قال إنه فقد القدرة على استخدام أطرافه بسبب إحدى الغارات الجوية ، إذ أثرت الصدمة فى عضلات بطنه ، كما أصيب بالانفلونزا حوالى خمس عشرة مرة وأصيب بروماتزم عضلى والتهاب فى الأمعاء . كما فقد أعصابه كصبى . وكان أبوه يضربه بالسوط بسبب مخاوفه التى كانت تنتابه كل ليلة . فكان يخشى الذهاب إلى منزلة فى الظلام كما كان يلبس منظاراً بسبب ضعف أعصابه .

والآن نعرض لحالة سيدة كما ترويها بنفسها علّها تفيد قارئات هذا الكتاب فيجدن فى قصتها هذه صورة لحالتهن

العصبية . فبعد محادثة على جانب كبير من المودة والعطف أمكن الكشف لتلك المرأة عن المخاوف الدفينة التى ترجع إلى أمها والتى بدأت تنتابها فى مرحلة البلوغ . وكانت هذه المخاوف أساس اضطرابها العصبى . فبمجرد أن شعرت أنها قد وجدت شخصاً يستطيع فهم شكواها فهماً صحيحاً ، شخصاً تستطيع الاعتماد عليه ، أخذت حالتها تتحسن ، ولم تمض بضعة أسابيع حتى أصبحت شخصاً معافى سعيداً. وإليكم قصتها .كما سجلتها .

« منذ أن تزوجت وأنا أقاسى من أعصابى ، ولو لم يتح لى خير زوج فى العالم ممن يُعْنَى بى أشد عناية ويتحمل جميع شكاياتى من المرض لكنت اليوم بعيدة عنه ، أو كان قد هجرنى . فإن الرجل العادى لا يستطيع أن يتحمل حالتى إذ أن المرض لم يجعل منى زوجه له على الإطلاق .

« وكان أول ما شعرت به هو ذلك الصداع المخيف الذى لا أقوى على وصف فظاعته ، بل يكفى أن أقول إنه حطمنى حتى إنى أحسست أن نهاية العالم قد اقتربت — ولم يتركنى ذلك الصداع الذى لا مثيل له ثمانى سنوات . ولم يقتصر الأمر على هذا بل كنت أحس بنوع من الاهتزاز الداخلى ، نوع من الحالة العصبية الداخلية ، كما كنت أحس أن جميع

أعصابى تهتز .

« فلما ذهبت للطبيب أخبرنى أن أعصابى متوترة . غير أننى كنت قلقة . . . ولم أكن أقوى على تحمل أى شىء . إذ لم تكن لدى القوة الكافية لأن أمشى إلى محطة « الأوتوبيس »، أو أعود منها إلى بيتى . وكنت أحياناً أستيقظ فى الصباح وأنا أشعر ببعض الراحة . ولكنى لا أكاد أفرغ من إعداد الإفطار لزوجى وأبدأ عملى فى الصباح حتى أشعر أن قواى كلها قد خارت ؛ ولا ينتصف اليوم إلا وقد أصابنى الانهيار ، كما كان عندى إمساك شديد لدرجة أنى كنت أعتقد أنى لا أستطيع أن أتبرز أسبوعاً كاملا إن لم آخذ « مليناً » . لذلك جربت جميع المسهلات المعروفة حتى أن زوجى كان يقول لى دائماً « إذا ما اكتُشِفَ نوعٌ جديد من أنواع المسهلات ، أسرعتِ إليه وكنتِ أول مَنْ جرّبه » كما كنت أقوم بعمل « حقنة شرجية » كل يوم أو يومين . فإن تهاونت فى هذا قاسيت من الإمساك فوق ما أحتمل .

« وقد حدث أن اضطررت للنوم على ظهرى مدة ستة أسابيع لا لشىء إلا لأنى أهملت نفسى .

« ويقول لى بعض الأطباء « أن ليس فى الأمر شىء » ،

ولكنى أعرف أن هذا أمرٌ ثقيل لا يُحتَمَل . فقد قاسيته بنفسى ، هذا بجانب العرق الذى يتصبب علىّ ، ثم شعورى بالحرارة ثم بالبرودة . وهل حدثتك عن ذلك الشعور الغريب المثير للضحك الذى يسرى فى جانبى ومنه إلى ساقى ، وقد شعرت يوماً أنه يسرى إلى أعلى العامود الفقرى ؟ . إنى أعتقد أن هناك عصباً منحلا أو شيئاً من هذا القبيل .

« ولم يستطع أحد من الأطباء علاج هذه الحالة. فقدذهبت إلى عشرات الأطباء ، كما حاولت علاج هذه الحالة عن طريق «المجبرين» أوعلاج الداء بنفس الداء (!) . كما أشار على البعض بمحاولة الشفاء بالروحانيات ، ولكنك لا تستطيع أن تقنعنى أن كل هذه الأشياء إنْ هى إلاّ خيالات أو أوهام لا تعيش إلاّ فى عقلى .

« إنى أعترف أنى عصبية . ولكن لابد أن يكون لهذه الحالة سبب ما . وكل ما أدريه أنى لم أشعر بهذه الأشياء قبل أن أتزوج »

إن مثل هذه السيدة يمكن أن تكون مثالاً طيباً للذعر

الذى ينسجه وتصنعه الأعصاب ، فإن هذه المرأة لم تدرك قط أن متاعبها كلها كانت عقلية فى جوهرها ولُبها ؛ وأن هذه المتاعب نبتت وترعرعت وهى تمارس إحدى تجاربها المخيفة المتصلة بالأمور الجنسية التى مرت بها وهى فتاة صغيرة . ولكن هذه الحقيقة لم تتضح تماماً إلاّ بعد التحدث إليها حديثاً مشبعاً بالعطف والمودة؛ وبالتالى أمكن تطبيق العلاج الصحيح . وهذا العلاج ينحصر فى أن نكشف للمريضة كيف أن جميع متاعبها ناتجه من الخوف ، وكيف أن جميع المظاهر الجسمية كانت تحاول بطريقة لاشعورية الهروب من ذلك الفزع أو الخوف الدفين والحصول على العطف والتعضيد .

ثم أخذت الطمأنينة تسرى فيها شيئاً فشيئاً؛ وما لبثت أن استعادت ثقتها فى نفسها . وبعد أن تحدث الطبيب إلى زوجها وبَصَّره بحالتها أخذت الزوجة تستمتع بحياة جديدة تفيض صحة وسعادة ، إلا أن الشفاء الكامل لم يتحقق لها حتى وضعت إبنها الأول .

وإنه لمن العبث أن نحاول علاج هؤلاء الناس العصبيين بأن نقول لهم « لا تقلقوا » أو أنهم لا يشكون من شىء عضوى، إذ أنهم لا يكفون عن الشعور بالقلق بمجرد أن نقول لهم

لا تقلقوا . ولكن متى قدّمنا لهم سبباً يستند إلى المنطق، يبرر قلقهم، وأن هذا السبب لاشعورى، فعندئذ ينظرون إلى المسألة نظرة مخالفة .

إن الإيحاء يستطيع أن يؤثر فيهم ، فهم لديهم القابلية والاستعداد لأن يوحوا لأنفسهم بما يبعث فيهم الثقة والأمل ، وفى نفس الوقت يجب ألا نهمل العلاج الجسمى لأنه لا يوجد حد فاصل للتفاعل بين الحالات الجسمية والعقلية . فإذا طال الزمن بالعقل وهو على تلك الحالة من المرض فإن الجسم لا شك يتأثر تبعاً لذلك حتى يعتل هو كذلك .

وعلى هذا كان مرضى الأعصاب فى حاجة دائمة إلى أدوية مقوية وإلى نظام من التغذية مفيد وممارسة بعض التمرينات الجسمية والاستمتاع بالهواء الطلق .

فمما لا شك فيه أن هذه الآثار الجسمية سيكون لها أثرها المباشر على الناحية العقلية . وهذه الإجراءات المتعلقة بالناحية الجسمية هى بمثابة « الشماعات » التى يعلّق عليها الطبيب إرشاداته وتوجيهاته ، أى أنه يستخدمها كعوامل مساعدة أو وسائل تُعينُه على أن يثبّت فى عقل المريض – وهو يوحى إليه – الإيمان

القوى بالفوائد التى يجنيها من مزاولة هذه التمرينات التى تتيح له الصحة والقوة ، بل إن مجرد الاعتقاد فى هذا فيه نفع كبير له ، إذ يعين المريض كثيراً على زيادة قوة التركيز عنده فيتشجع على أن يوحى إلى نفسه كل يوم ببعض تلك العبارات السالفة التى يصب فيها كل أفكاره وانتباهه .

ثم شُجِّعت تلك المريضة على أن تقول لنفسها كل صباح « لقد ذهبتْ مخاوفى » — « إنى فى صحة جيدة » — « إنى أحب زوجى »— « إنه طيب لطيف معى » . وكان لهذا أثر طيب فيها .

مثل هذه العبارات متى رددها المريض بتفكير عميق وتأمل قوى كفيلة بأن تقدم له من العون والنفع ما لا يقدمه له « جالون » من الأدوية !!

فلو أن حالتك العصبية كانت تُعْزَى إلى خوفٍ جنسى أو كبتٍ جنسى أو أنك وجدت أن الأعراض عندك شبيهة بأعراض تلك السيدة المريضة ، فإنك قد تسلك طريقاً طويلا للشفاء التام؛ فتقوم بتحليل عقلك ثم تتبع هذا بطرد مخاوفك؛ وذلك بطرح جميع المؤثرات السيئة التى تعمل فى عقلك الواعى والباطن .

فعليك أولا أن تنظر إلى الغريزة الجنسية نظرة معقولة

وأن تفهمها كما هى . فهناك غريزتان أساسيتان تشكّلان الحياة وتكوّنان أساساً لنموها وبقائها . الأولى غريزة حفظ الذات والثانية غريزة حفظ الجنس ، ومن أجل هذا ، من أجل الأهمية الأولى لهاتين الغريزتين ، كفلت لهما الطبيعة نفوذاً وأثراً عظيمين . فإن الطبيعة ترى أن أهدافها تتحقق عن طريق أفراد ولو على الرغم منهم . ومن أجل هذا فقد زُوِّدنا بهاتين الغريزتين كميراث من الماضى البعيد . . . هذا جزء مما جَهّزت به الطبيعة العقل الباطن عندما قذفتنا أرحام أمهاتنا إلى هذا العالم . ومع أننا حديثو العهد بالولادة إلاّ أن غرائزنا المتأصلة فينا ضاربة فى العمر . ومن أجل هذا نجد المسرح قد أُعِدّ للمعركة العظيمة بين تلك الغرائز الضاربة فى العمر وبين حاجة الفرد للسيطرة عليها .

إن غريزة حفظ الذات يتهددها عاملان هما الجوع والخطر . فالجوع يدفع الرجل البدائى لأن يبحث عن طعامه . ومن أجل هذا يكتسب مهارة وخفة فى الصيد. ثم ينمّى مهارته . ودهاءه فيما بعد ، بتسليطهما على الصعاب الطبيعية التى تواجهه ، . كما يدفعه الخطر إلى السرعة وحسن التصرف ، ثم تُوقع الشىء والحذر منه مستخدماً فى ذلك عقله وذكاءه على مستوى عال .

هذان الحافزان قُصِدَ بهما تجنيبنا الركود وحفظ حياتنا قويةً دافقةً تهدف دائماً إلى ظفر أكبر ونجاح أعظم .

أما الجنس فهو من الناحية الأخرى عامل إغراء وليس دافعاً ، فهو يقود الإنسان ولكنه لا يدفعه . فقد يكون شبيهاً بالضوء الذى يلمع ليلاً فوق الأرض المبتلة . ولكنه يؤدى غرضه المنشود بنجاح ، فهو يظل يجذبنا حتى تبلغ الطبيعة أهدافها التى رسمتها .

وعلى هذا كنا دائماً خاضعين لعاملى الدفع والجذب.

ويتضح من هذا أنه ليس هناك ما نخجل منه ، من أن يكون لنا مثل هذه الغرائز الأولية لأنها فى الواقع عادية جداً . كما أنها توجد فى جميع الناس سواء تبينها هؤلاء الناس واعترفوا بها أم لم يتبينوها ولم يعترفوا بها .

فهناك جاذبية طبيعية بين الجنسين ، وهذا أمر طبيعى

إن هذه الثنائية الخالدة بين الذكر والأنثى كقطبي المغناطيس ، كل واحد مكمل للآخر ، وليس من صالح الرجل أن يعيش وحده ، كذلك ليس من مصلحة المرأة أن تعيش وحدها .

ولكن يحدث أحياناً أن يضطرا لأن يفعلا هذا . وفى مثل

هذه الحالة يجب أن تُهذَّبَ الغريزةُ حتى تتهيأ لذلك المستوى غير الطبيعى .

ومن ناحية أخرى نرى أن الزواج فى ذاته لا يحل مشكلة الجنس ، لأن الغرائز حتى فى الزواج يجب أن تُنَظَّم وأن تعالج. إن مشكلة الجنس هذه مشكلة يواجهها جميع الناس إنْ عاجلاً أو آجلاً . والناس العاديون يعملون على تهيئة أنفسهم وملاءمتها لها . أما أولئك الذين يعجزون عن أن يكونوا على وفاق مع غرائزهم فإنهم يجدون أنفسهم فى الغالب وقد لفتهم المشاكل العصبية بسبب محاولتهم إهمالها أو كبتها .

إن القوة الجنسية هى دافعٌ خالِقٌ محدَّد ومخرجها الطبيعى هو فى إيجاد حياة جديدة . هذا المخرج يختلف كثيراً تبعاً للرجل أو المرأة ، فقد يأتى هذا الدافع عرضاً فى حياة الرجل بينما نراه فى المرأة قد أكمل دورته فى بضع سنين حتى وصل إلى مرحلة الحمل والولادة والرضاع .

فإذا ما أنكرنا هذا المخرج العادى على الرجل أو المرأة فإن الغريزة تظل بعيدة كل البعد عن أن تخبو أو تنطفئ ، بل كثيراً ما يحدث أن تُفْصِحَ الغريزة عن نفسها فى صورةٍ مقلوبة بدلاً من ذلك المخرج الطبيعى .

ولكى نتجنب هذا ، كان من الضرورى إتاحة الفرصة المفيدة لاستخدام هذا الدافع الخالق . وهذا ما يُطلَق عليه « إعلاء الغريزة » . فإن أى نوع من المجهود الخالق يعمل على امتصاص بعض هذه الطاقة ويبعث نوعاً من الراحة النفسية فى مقابل هذا الامتصاص . فيجد بعضُ الناس خلاصَهم فى القيام بأى عمل بدنى كعزق الحديقة مثلاً . كما أن أى نوع من البناء أو الزرع أو التمريض أو التخطيط يكفل الإشباع المتسامى لذلك الدافع الجنسى الخالق . هذه إحدى الطرق التى تُعالَجُ بها مثل هذه المشكلة الصعبة حقاً .

أما من الناحية الأخرى ، فإذا غذّينا الغريزة الجنسية وانغمسنا فيها بأفكارنا وخيالاتنا ، فإن الذاكرة تختزن كل هذا وتضيفه إلى قوة الدافع الأصلى .

والواقع أنه من الممكن جداً من الناحية العقلية أن نستثير هذه الدوافع فتهب بنفس القوة التى كانت عليها من قبل وتتغلب على ما لدى الإنسان من سيطرة عادية .

وإنّا نقترح — كسياسة عملية — أن نرسم نظاماً ثابتاً للحياة يشتمل على مقدار محدد من التمرينات الجسمية ، كما أن العقل يجب أن يركز تفكيره فى الموضوع الذى يعالجه وألا يُسْمَحَ

له بأن يسرح أو « يشطح » إلى موضوعات غير مرغوب فيها .

فعلينا أن نواجه الغرائز الفطرية كأنها مشاكل ونعالجها بطريقة طبيعية فلا نتجاهلها أو نلفظها بل نستغل قوتها فى القيام بعمل مبتكَر إنشائى وفى اتجاه نافع مفيد . وعلينا أن نستخدم القدرة على التصور ، أى أن تكون هناك صورة واضحة محددة فى عين العقل ، نتخذ منها عاملا من عوامل كبح النفس والسيطرة عليها .

إن الحيوانات تسلك وفق غرائزها ، ولكن الرجل والمرأة يجب أن يتعلما كيف ينظمان هذه الغرائز . إن الحيوانات غير مسئولة ولكن الرجال والنساء مسئولون ، وهذه المسئولية ، أى كبح النفس ، هى إحدى المسائل التى يجب أن يواجهها جميع مرضى الأعصاب . وكلما تمكنوا من كبح أنفسهم وأحسوا بالمسئولية الشخصية ، أخذت متاعبهم الناتجة من فقدانهم هذه المسئولية فى الزوال .

وعلى هذا ، ما دام الكبت الجنسى يؤدى بنا إلى مشكلة ، فعلينا أن نمارس أى فن يتيح لنا إفصاحاً خالقاً بمزاولة عمل أو ممارسة هواية ، على أن نتبع هذا بالإيحاء العقلى والتصور العقلى لنضمن الهدوء والتعقل والسيطرة الموجهة على جميع انفعالاتنا .

ولئن كان « الكبت الجنسى » مجرّد عامل واحد من العوامل التى تستبد بسلوكنا فى فترات معينة ، إلاّ أنه ليس أهم هذه العوامل . فهناك عوامل أخرى هى « الأفكار الثابتة » أو « الوساوس ». . . وهذا ما سنعالجه فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

الوساوس !

إن الغالبية الكبرى من الناس العصبيين ممن عرضنا لهم فى الفصول السابقة ، أولئك الذين يعتقدون أن جميع مشاكلهم تُعْزَى إلى أمراض جسمية كأمراض المعدة والكبد وغيره من سائر أعضاء الجسم ، هؤلاء الناس لا يمثلون وحدهم جميع الحالات العصبية بأى حال من الأحوال . فإن هناك طائفة كبيرة من ضحايا الأعصاب ممن يعتقدون اعتقاداً جازماً بسلامة أعضائهم الجسمية ، ويؤمنون أن مصدر تعبهم يجثم فى عقولهم ، وأن تعبهم هذا لا يقل خطراً بل ربما كان أصعب علاجاً . أمثال هؤلاء الناس تلوح عليهم علائم الصحة اللهم إلاّ تلك النظرة القلقة المهمومة التى تعلو وجوههم . وفوق هذا فإننا نراهم على أحسن حال عندما تعاودهم نوبات المرض ، على خلاف الآخرين الذين يبدون فى حالةٍ من الضيق والقلق وإنْ تفاوتت درجة هذا الضيق وهذا القلق من شخص إلى شخص ومن لحظة إلى لحظة ، فقد ينعمون بيوم جميل هادئ

بعد فترة قاسية من الكآبة والوجوم ولكنهم سرعان ما يرتدون إلى حالتهم الأولى ، يرددون سابق شكواهم .

أمثال هؤلاء الناس الذين نحن بصددهم الآن هم من الناحية الأخرى على خير ما يرام حتى تحل بهم تلك المصيبة التي تسلبهم هناءهم وهدوءهم ، ويظلون على هذه الحالة النفسية التعسة حتى تنقشع عنهم تلك الغمة فيعودون سيرتهم الأولى . وهم يشبهون تلك الغمة التي تنتابهم بسحابة كثيفة تغشى حياتهم لا يستطيعون أن يتبينوا من خلالها وميضاً أو شعاعاً . فقد ران اليأس والقنوط على قلوبهم حتى فقدوا كل أمل لهم فى الحياة ، يقطعون أيامهم التعسة وقد استولى عليهم شعور من الذعر والفشل والتفاهة حتى اعتقدوا فى قرارة نفوسهم أن أمورهم لن تستقيم أبداً وأن جميع مشروعاتهم مصيرها الفشل الذريع ، وأنه ما من أحد يعنى بهم أو يقيم لهم وزناً .

ما فائدة صحة الجسم وسلامته متى كان على هذه الدرجة من اليأس والقنوط ؟

هؤلاء المنكوبون من ضحايا الأعصاب تنتابهم نوبات من الكآبة واليأس لغير ما سبب معروف ، وفى فترات غير محددة ، فتحل النوبة بالمريض وتبقى مدتها المعينة ثم تزايله تاركة إياه

بنفس الحالة التى كان عليها ، وقد شفى منها تماماً وكأن لم يحدث شىء .

ولكن طالما كان ذلك المريض واقعاً ضحية لتلك النوبة فإننا نلقاه يقاسى من تلك الآراء المسيطرة أو الوساوس . وقد تكون تلك الوساوس فكرة أو عملا أو خوفاً قد أقحم نفسه فى شعور المريض بصورة يشعر إزاءها بعجزه المطلق عن مقاومته .

فهذه الآراء هى شىء غير متكامل فى ذاته ، ينظر إليها المريض على أنها بعيدة كل البعد عن ظل الحقيقة والواقع

وفى بعض الأحيان ، نرى تلك الفكرة الملحّة المسيطرة عليه أو الخوف لا يغيب أبداً عن خاطر المريض ، بل يستحوذ عليه ويؤثر فيه طوال أيام حياته .

وإليكم مجمل حالة من هذا النوع .

كان بطل هذه القصة يقوم بإدارة إحدى شركات البيع الناجحة . وكان معروفاً بأنه من أذكى رجال الأعمال فى المدينة وأكفأهم ، وكان يؤخذ برأيه دائماً ، لا فى شركته فحسب بل فى الشركات الأخرى المتصلة به . فكان مديراً لأحد البنوك ولم يخطر ببال أحد ممن عمل معهم مدة عشرين عاماً أن هذا الرجل مريض . ولكنه كان — كما يقول هو عن نفسه — يقاسى من ألم نفسى

منذ طفولته .

قال : « لم أستطع أن أتخلص من ذلك الإحساس الغامر وهو أن جميع الأشياء ليست حقيقية لدرجة أنى كنت أشعر أنى موجود هنا كما أنى موجود فى عالم آخر غير هذا العالم ، ولم أستطع أن أطرد ذلك الشعور الغريب من رأسى ، حتى أصبحت حياتى مليئة بالمخاوف ، فأتوقع الشر فى كل لحظة . بل كنت اكتئب وأخاف من آلاف الاحتمالات التى لم تحدث أبداً . فإذا أويت لفراشى ليلاً لم أكن أنام قبل أن أستعيد فى ذهنى كثيراً من الأشياء التى حدثت فى أثناء اليوم أو أخشى حدوثها نتيجة لتصرفات أتيتها فى ذلك اليوم ، وتكون النتيجة أن هذه الأشياء تسبب لى قلقاً وضيقاً ، فأستيقظ وأنا على هذه الحالة من القلق والذعر .

« كانت كل ليلة مفعمة بأحلامها المزعجة البغيضة التى كنت أشعر فيها بأنواع من الذعر والفزع قد طوتنى وألقت بى فى وسط تلك المخاوف التى لا يمكن أن أصفها والتى خيل إلى أنى كنت السبب فى حدوثها .

« كما كان يراودنى من وقت إلى آخر خاطر مفزع هو أنى سأموت . إنى أدرك تماماً أن هذا كان حماقة منى وجهلاً

ما دامت كل الدلائل تشير إلى أنى فى أحسن حالات الصحة ، وليس هناك أى احتمال للموت . غير أنى كنت ارتعد خوفاً بمجرد أن أفكر فى احتمال الموت من أى شىء تافه ، كما كنت أعتقد أن هناك شيئاً ما فى طعامى يسبب لى عسر الهضم الشديد ، بل كنت أعجب وأنا أغسل وجهى إذا ما تسربت بعض قطرات الماء إلى أذنى أن تسبب لى التهاباً ، كذلك كنت أفكر فى احتمال موتى وأنا فى طريقى إلى عملى كأن ينهار على البناء كله أو أن زلزالا أو برقاً خاطفاً أو أى ضربة أخرى من ضربات القدر قد تضع حداً لهذه الأشياء كلها .

« وكثيراً ما كنت اتفرس فى وجوه الرجال ممن يعملون فى مكتبى وأقول فى نفسى « ربما يطلق على أحد هؤلاء الرجال الرصاص عرَضاً ، إنى أعرف أن مثل هذه الأشياء مستحيلة الحدوث أو على الأقل بعيدة الاحتمال ، ولكن مثل هذه المخاوف كانت تهجم على خاطرى حتى لتكاد تكظم أنفاسى .

« ثم كنت أسائل نفسى عما إذا كنت قد تسببت فى موت أحد فى يوم من الأيام ، بل كنت أرجع بسيارتى إلى ما يقرب من عشرة أميال لأرى إذا كانت سيارتى قد أصابت تلك السيارة التى مررت بها بعطب أو أحدثت بها بعض الخدوش

ثم أني كنت أمضي الساعات الطوال وأنا أحاول التأكد من أني لم أرتكب خطأ قد يسبب أذى لغيري ، وكنت أدرك وأنا أقوم بهذا أنه ليس هناك احتمال لحدوث هذا ، وأدرك أيضاً أني أعذب نفسي بهذه الطريقة وأعاقبها أشد عقاب .

« كما كنت أراجع الصفحات الطوال التي بعث بها إلى وكلاء الشركة لأتحقق من سلامة حكمي الذي أصدرته على هؤلاء الوكلاء . كذلك كنت أضيّع جزءاً كبيراً من وقتي وأنا أفكر في شيء يجب أن أبت فيه في الحال . كما كنت أقوم في كل ليلة بعمل كافة الاستعدادات في حالة الموت المفاجئ الذي كنت أعرف أنه لن يحدث .

« ولم يخطر ببال أحد من موظفي الشركة لماذا لم أتزوج ، وإن كانوا كثيراً ما يمزحون معي بشأن هذا الموضوع . غير أن معظم الناس كانوا يعتقدون أن انشغالي بعملي واهتمامي به لم يترك لي شيئاً من العواطف اللطيفة ومشاعر الحب الرقيقة . والواقع أني فكرت آلاف المرات في الزواج . بل إني أحببت عشرات الفتيات ولكني لم أعْدُ في جميع هذه الحالات مرحلة التمهيد والتعارف ، وإن كنت أعتقد في قرارة نفسي أني إذا ما حاولت أن أتحدث إلى امرأة أو أن أثير اهتمامها فإني لا أشك في أن

أمنى بالفشل الذريع . ويستولى علىّ شعور المذلة والامتهان لدرجةٍ أنى أكاد أموت بسببه . ولكن ما أكاد أركّز تفكيرى فى شئون عملى وأكرس نفسى كلها له حتّى أشعر بالراحة نسبياً . حقاً إنى لا أسمى هذه الراحة هدوء النفس ، غير أنها راحة على أية حال إذا ما قورنت بالحالة السابقة .

« إنى أذكّر نفسى دائماً بضرورة إخفاء تلك الحقيقة ، وهى أنى أقاسى بمثل هذه الشدة والمرارة . وقد أخلفت كثيراً من المواثيق الاجتماعية بدون سبب ، وتركت الناس يعتقدون أنى غير مكترث . كما سخرت من قلق الناس العصبيين ، ولم يفطن أى إنسان إلى أنى فى حرب دائمة للاحتفاظ بذلك الطلاء الذى يخفى تحته تلك الحشرة المعذبة الذليلة ! »

أمثال هؤلاء الناس من الصعب معاونتهم ، فهم لا يتقبلون ذلك النوع من العلاج المنتظم الذى نعطيه لغيرهم من ضحايا الأعصاب الذين يشكون علة جسمية .

إنهم يحتاجون إلى عناية أكبر من مجرد علاج ، لأنهم إذا ما جاءتهم نوبة الكآبة والوجوم أصبحوا فى خطرٍ من أن ينتحروا . لذلك كان من الضرورى أن يكون هؤلاء الناس فى مكانٍ لا يُخْشَى فيه على حياتهم حتّى تزول عنهم تلك النوبة .

ومن حسن الحظ أن نجد هؤلاء الناس مستعدين دائماً للنقاش والاقتناع .

إن العلاج الوحيد ذا الأثر المباشر يجب أن يأتى عن طريق الطبيب الذى يستطيع أن يقوم بفحص دقيق لعقل المريض . فإنه قد يصل إلى سبب دقيق لذلك الخوف أو تلك الفكرة الملحة المسيطرة .، وفى مثل هذه الحالة قد يساعدُ المريضَ على التحرر من ذلك الخوف أو تلك الفكرة ، غير أنه ليس من الحكمة دائماً أن نحاول فحص هؤلاء المرضى فحصاً كاملاً ، إذ يكفى أن نثير فيهم ما يشتت تفكيرهم ، وربما كان الانصراف إلى عملهم خير سبيل لتحقيق هذه الغاية ؛ كما هو شأن تلك الحالة التى عرضنا لها سابقاً .

ولكن قد يوجد فى جميع الناس العصبيين بعض الأمراض الجسمية البسيطة التى تعمل على اختلال الصحة . وعلى هذا يجب ألا نسقط من حسابنا الحالة الجسمية وإنْ لم تكن العامل الأول فى هذا المرض .

إن الخطوة الأولى فى طريق شفاء الرجل العصبى من مرضه هى أن نبعث فيه الثقة والتشجيع ، وفى أثناء هذا يمكن أن ينال بعض العون من الطبيب الذى يستطيع أن يصل به إلى

الشفاء التام من بعض الأمراض الجسمية البسيطة .

لذلك وجب علينا ألا نتغاضى عن أى ألم يشكو منه المريض أو أن نعالجه فى شىء من الاستخفاف وعدم المبالاة ولكن علينا أن نستقصى أثره ونرسم له علاجاً مناسباً .

فمشكلة الأرق مثلا – وهى من المشاكل الشائعة بين مرضى الأعصاب – يجب أن تُعالَج بمثل هذه الروح حتّى أنه قد نلجأ أحياناً إلى استخدام التنويم ليعين المريض على النوم أو إلى قبول الإيحاءات العلاجية التى يكون لها أثر كبير فى شفاء المريض .

فلا العقاقير ولا الكلام بل ولا التنويم يُنْظَر إليها كوسائل غير مشروعة أو مبررة إذا ما استُخدِمت فى علاج الأعصاب التى تكون حالتها أشد وأصعب من مجرد مرض جسمى .

إن الطبيب العاقل يجب ألا يهمل أية وسيلة حتّى ولو كانت تلك الوسيلة الشفاء بالروحانيات أو نوعاً من الدجل والشعوذة مما يثق فيه المريض ثقة عمياء ، بل إن الطبيب نفسه قد يجد من الأسباب ما يجعله يشجع المريض على سلوك هذا الطريق حتّى يتخلص من متاعبه .

أجل هناك بعض أنواع العلاج مما هو أسوأ من المرض

ذاته ، لذلك وجب على الطبيب أن يكون حَذِراً قبل أن يشجع المريض على أن يضع نفسه فى قبضة أحد أولئك الدجالين الذين هم فى الواقع باحثون عن المال فى غير حذر أو مبالاة .

ووراء هذا كله نلمس أثر الذاكرة ، تلك الطاقة القوية التى تختزن كل فكرة يقبلها العقل ثم تنشر سلطانها على هذه الأفكار تدريجياً ، وبذلك تحدد الاتجاه العقلى . فمتى استقرت ودعمت مكانها فى عقل الإنسان أُطْلِقَ عليها لفظ الآراء الثابتة المسيطرة أو الوساوس .

وفى بعض الحالات نجد أن الفكرة الخاطئة التى استقرت فى عقل صاحبها قد تجرفه إلى خارج حدود العقل . وإن أية فكرة تدخل العقل فى شيء من الحدة والتكرار يمكن أن تصبح فكرة ثابتة دون النظر إلى صدقها أو كذبها لأن الذاكرة اللاشعورية ليست عاقلة مدركة ولا هى ناقدة فاحصة . ولكنها مجرد آلة تمتص كل ما يُقَدَّمُ لها من آراء . إن النقد طاقة شعورية ، فى حين أن وظيفة اللاشعور هى التسجيل ، وهو يقوم بهذا فى اتقان تام لدرجة أن الآراء تنبعث فيه ويصبح من الصعب زحزحتها من مكانها .

وقد يحدث أحياناً أن تترك إحدى الصدمات الانفعالية أثراً عميقاً فى العقل الذى يعمل من جانبه على أن يفرض نفسه على الانتباه حتى تكون له السيطرة عن طريق التكرار . وكلما حاول العقل ذلك زاد أثر الصدمة عمقاً ، وهنا يستهدف المريض لذلك الخطر بأن تزداد تلك الفكرة قوةً حتى تتحول إلى فكرة مَرَضية ثابتة.

إن هذه قد تكون ، وقد لا تكون ، مشكلة مشروعة مبرَّرة فى أصلها ، ولكن أثر التفكير المتواصل يجعلها تلوح حقيقية فى عين المريض وإنْ لم تكن فى الأصل كذلك . وبهذه الطريقة ينشأ فى المريض ما يُعْرَفُ بالخوفُ الخيالى الذى يتسلط عليه ويغذيه هو بتفكيره الخاص .

وما دام العنصر الانفعالى يسيطر ، فلا يجدى معه أى نقاش عقلى أو جدال منطقى ، فإن الانفعال والعقل يسيران فى مستويين مختلفين . وإن الشخص الذى سيطرت عليه فكرة ثابتة قلما تجدى معه المناقشة أو تزحزحه عن اعتقاده مهما كانت تلك المناقشة معقولة ومقنعة .

إن المشكلة كلها تنحصر فى أن هناك شعوراً خاطئاً يسيطر ، والشفاء منه يقوم على أساس تكوين شعور أفضل يسيطر على الشعور الأول .

وبهذه الطريقة أيضاً تنشأ تلك المشكلة التى تعرف بعقدة النقص حيث يشعر الإنسان — كما رأينا فى الحالة السابقة التى عرضنا لها — أنه سيمنى بالفشل الذريع لو أنه حاول أن يتحدث إلى امرأة .

إن فكرة النقص أو العجز هذه متعددة الجوانب ، غير أن جميع جوانبها وخيم العاقبة ، ذلك أن هناك فكرة مسيطرة أو ثابتة لها سلطان العادة التى تتصرف من تلقاء نفسها . ولكن المريض يعرف هذا جيداً ، وهو لا يبدى اهتماماً خاصاً لسماع التفاصيل غير السارة التى يدركها فى الحال ، إنما يريد أن يعرف موطن الشفاء . وهذا ما يتبينه بنفسه عندما يدرك الدور الذى لعبته الذاكرة فى تسجيل الأفكار التى قبلها العقل، لأن الأفكار الثابتة إن هى إلا الأثر المتجمع من التفكير المتواصل . ومن أجل تلك الأفكار التى نتقبلها يجب أن نتحمل المسئولية ما دامت الطبيعة قد وهبتنا منذ ولادتنا ، القدرة على الاختيار .

إنه لمن المؤكد أنه إذا ما اعتقد الإنسان فى هذه الأفكار ، أفكار النقص والعجز والتفاهة ، وقام بتحقير نفسه بمقارنتها بغيره ، فإنه لا يلبث إن يجد نفسه يعانى من عقدة النقص الضارة ، ولكنه فى هذه الحالة لا يلومن إلا نفسه . .

فهو الذى سمح بالخوف الخيالى لأن يتسلط على عقله . ومَن ذا الذى يستطيع أن يغير هذه الأفكار إلا هو نفسه ؟ ولماذا لا يبدأ بهذا فى الحال ؟

فلو أنه توقع شخصاً آخر يقوم له بهذا العمل ، فإنه يكون كمن يتوقع الشبع بالنظر إلى شخص يتناول غذاءه . والنتيجة هى أنه يجب أن نتحمل متاعبنا لأن هذه المتاعب هى نتيجة أخطائنا أو نقائصنا . فإذا ما تغلبنا على هذه المتاعب فإنها سرعان ما تذبل وتتلاشى بعد أن تكون قد علمتنا درساً ، ولا يعود الإنسان يشكو منها .

إن العقل الباطن يرسل دوافعه إلى الشعور ولكننا يجب أن نقيم رقابةً يقظةً منتظمةً على هذه الدوافع ، فقد يحدث أحياناً أن يريد العقل الباطن اختبارنا ليرى إلى أى مدى يستطيع أن يقودنا . فإذا ما استسلمنا له وعملنا على تقوية هذه الدوافع الداخلية فإنه (أى العقل الباطن) يقوى ويشتد ويصر على الظهور ، وقد يسيطر علينا فى آخر الأمر عن طريق هذه الأفكار الملحة الثابتة . فقد نكون منتظرين قطاراً حتى إذا ما جاء هذا القطار تسرب إلى ذهننا خاطرٌ يقول : « الأفضل ألاّ نسافر فى هذا القطار ، فقد يقع له حادث » . وقد نكون

جالسين إلى المائدة ويُقَدَّم لنا طبق شهى ثم يهجم علينا هذا الخاطر « إن هذا الطبق قد يسبب لنا عسر الهضم » وهكذا . .

فإذا تساهلنا فى مثل هذه الأشياء فإن حياتنا سوف تستعبدها تلك الأفكار الملحة المسيطرة التى تختفى وتتوارى إذا نحن قاومناها ، فى حين أنها تقوى وتبسط نفوذها إذا نحن رضخنا لها وعملنا على إرضائها .

إن اللاشعور خادم قادر مفيد كما هو سيد مستبد بعيد المنال ، يستطيع أن يسيطر علينا سيطرة كاملة ، كما يمكنه أن يقدم أكبر العون والمساعدة . وإن أية فكرة ثابتة تستطيع أن تعمل فى ناحية ما يمكنها أن تعمله فى الناحية الأخرى . فلماذا لا يعمل الإنسان على أن يغرس فى عقله فكرة الراحة وكبح النفس ؟ فإن هذه الفكرة سوف تصبح على مَرّ الزمن طبيعة ثانية فيه شأنها فى ذلك شأن الفكرة الضارة المسيطرة .

إن المشكلة التى يعانى منها معظم الناس هى أننا لا نسيطر على أنفسنا السيطرة الكافية. بل إننا تقنع بما هو أقل من القليل. إننا نملك جميع الأفكار عن هذا العالم ، ولنا حرية الاختيار ، كما نملك قوة الذاكرة وأثرها المنعكس على حياتنا . ولكن الشيء العجيب حقاً هو أن الكثيرين منا يختارون أفكار المذلة

والشعور بالنقص والعجز والمخاوف الوهمية ، ويعتقدون أنهم قد أجْبِروا على أن يحيوا حياةَ الخيبة والفشل لا لسبب إلاّ أنه ليس لديهم العزم على الشفاء من عللهم بنفس آلة الفكر التي أوجدتها .

وعلى هذا يجب أن نضع حداً لهذه المخاوف وأفكار الفشل والعجز والخيبة وغيرها من الأفكار السلبية ونستنجد بحلول اللاشعور العجيبة ليقدم لنا عوناً حقيقياً ، عوناً يمهد الطريق للسعادة ، ويجعلنا نشعر بوجودنا ، عوناً يملأ نفوسنا أملاً في المستقبل فنرى الأشياء براقةً لامعةً مبهجةً .

الفصل السادس

الإيحاء الذاتى

ليست الحالات التى ذكرناها سوى نماذج للإرهاق العصبي . . . غير أن هناك حالات أخرى لا تندرج تحت ما ذكرنا من نماذج . فمن بين الذين يقاسون من أعصابهم عدد كبير لا يصح وضعه بين تلك الفئات التى نحن بصددها الآن ، لأنهم ليسوا ضحايا أى اضطراب عصبي فى الواقع . أمثال هؤلاء الناس نجد حالتهم أقل خطراً ، كما أن مشكلتهم ليس من الضرورى أن تكون مرتبطة بأى سبب حقيقى مدفون فى العقل الباطن .

أولئك الناس لا تراهم عصبيين فى مجرى حياتهم العادية ولكن جهازهم العصبي يكون من القلق وعدم الثبات للدرجة أنه لا يقوى على تحمل أى ضغط خارجى آخر .

هؤلاء الناس الذين يخشون الأضواء تُسَلَّطُ عليهم إذا ما دعت الظروف لأن يقوموا بأى عمل يُظْهِرهم أمام الناس فتراهم يكادون يموتون خوفاً إذا ما اضطروا فى ظرف مفاجئ

لإلقاء خطبة حتى ولو أمام نفر من الضيوف .

وقد يكون هؤلاء الناس ممن يجيدون العزف على « البيانو » أو أى آلة موسيقية أخرى ، غير أنهم لا يستطيعون العزف طالما كانوا فى حضرة شخص آخر ، أولئك الناس يعانون كثيراً من أعصابهم التى تخونهم فى فترات حرجة وإن لم تظهر عليهم علائمُ العصبية فى الأحوال العادية الأخرى ، إلا أن الإحساس بهذا الضعف الذى ينتابهم فى إحدى الأزمات يؤثر على عقولهم تأثيراً شديداً ، وسرعان ما يدورون فى حلقة مفرغة لأن تفكير الإنسان فى ضعفه يزيد فى هذا الضعف ، كما أن إدراكه لهذا الضعف يدفعه إلى التفكير فيه من جديد .

هذا هو نوع الشخص العصبى الذى يمكن أن يُعالَج بواسطة الإيحاء الذاتى . فهو ليس فى حاجة إلى نصائح الطبيب المتكررة التى هى كبيرة الفائدة بل ضرورية جداً فى حالة الأفراد العصبيين الذين أشرنا إليهم من قبل . ولكن الشخص الذى يصبح عصبياً فقط فى حالة معينة أو أزمة خاصة يمكن أن نرشده فى الحال إلى الطريق الذى يشفى به نفسه . إن مشكلته كلها تتوقف على دعم ثقته فى نفسه ، وفى إدراكه لقدراته الطبيعية الخاصة . وبهذه الطريقة يتعلم كيف يسيطر على

أعصابه ، وبالتالى يتعلم ألاّ يشكو من أعصابه .

إن أصحاب الطبائع الفنية هم أشد الناس عرضةً لهذه الحالة حتى أننا أصبحنا ننظر إلى حالتهم هذه كأنها أمر طبيعى . فيكون الممثل عصبياً فى الليلة الأولى من تمثيله ، كما يصاب المغنى بهذه الحالة من العصبية وهو يخطو على خشبة المسرح .

غير أن هؤلاء الناس لا يحق لهم أن يشعروا بهذا الشعور فى الظروف التى لا تُعْتَبَرُ جديدة تماماً عليهم .

إن ممارسة الإيحاء الذاتى كفيل بانقاذ هؤلاء الفنانين من كثير من « اللحظات المميتة » . فإن أقصى ما يجول فى خاطر أى إنسان من هؤلاء هو وقوفه على المسرح وقد اكتظ بجمهور المتفرجين ، ثم يستولى عليه شعور مفاجئٌ أنه قد نسى ما يقوله ، أو أن صوته قد خانه .

هاتان الحالتان هما فى العادة نتيجةٌ مباشرةٌ لعجز الإنسان عن السيطرة على أعصابه .

كما أن هناك بعض الناس المحظوظين ممن لا يدرون شيئاً عن الأعصاب . على أن هؤلاء الناس ليسوا دائماً أفضل الفنانين إذ أن الأعصاب ليست إحدى المؤهلات الضرورية للممثل العظيم، فلو وجِدَ فى الإنسان نقصٌ أو عجزٌ فى السيطرة على

أعصابه ، فعلينا أن نرشده إلى الطريق ،لنوضح له : لماذا وأين يوجد هذا النقص .

ويجب أن يكون مفهوماً أنه لايوجد إنسان قد وهبته إرادتُه السلطان المطلق الكامل على أعصابه . بل إن مشكلة هذا الشخص قد نجمت من سماحه لضعفه الأصلى لأن ينمو ويزداد ،فترك الضعفَ والاستسلام يأخذان مكان التوجيه والتحكم .

ولكن يجب أن ينقلب الوضع فيقود الذاكرةَ تحت سلطان الإرادة .

كما أن هناك كثيراً من الطبائع التى تميل إلى سلوك الطريق الأسهل أو الأيسر مشقة ، وإطاعة الدافع بدلا من كبحه والوقوف ضده ، وإنْ ندموا بعد ذلك على سلوكهم هذا الطريق بدلاً من ذلك الطريق الذى تجاهلوه .

إن الجهاز العصبي قد كُوِّن بدرجة أنه إذا ما أتى الإنسان عملاً مرةً ،أصبح أيسر على هذا الإنسان أن يسلك نفس الطريق . فيأتى هذا العمل مرة أخرى ، وإنه لأيسر على الإنسان أن يسلك طريقاً مُعَبّداً من أن يشق لنفسه طريقاً جديداً . فإذا سلك دافعٌ عصبيٌّ طريقاً معيناً ، أصبح من السهل أن يسلك

الإنسان هذا الطريق إذا شعر بمثل هذا الدافع العصبى الأول . وهذا فى الواقع هو جوهر تكوين العادات والوسيلة إلى تعلّم الأشياء فى الغالب بطريقة لاشعورية .

لهذا كان من الأهمية بمكان أن نكوّن عادةَ ضبط النفس حتّى إنه إذا ما جاءت تلك الحالة الشاذة فإننا لا نكون تحت رحمة أعصابنا بل نحتفظ بهدوئنا كالعادة ، ونقوم بواجبنا الذى أُلقِىَ علينا فى غير اضطراب .

والطريقة لتنمية عادة كبح الأعصاب والسيطرة عليها تقوم على قوة الإيحاء . فقد رأينا كيف أن الإيحاء يؤثر فى الجانب اللاشعورى من عقولنا ، وكيف أن هذه الإيحاءات التى غُرِسَتْ هناك لن تُنْسَى أبداً .

فالشخص الذى تعوزه السيطرة على أعصابه يتعلم كيف يوحى إلى نفسه . وهذه الإيحاءات من شأنها أن تخلق فيه الإرادة التى كانت تعوزه من قبل .

وهناك طريقان يمكن بهما للإيحاء أن يؤدى عمله ويبلغ تأثيره . الأول بواسطة الإيحاء القوى الحاد ، أو عندما تكون القابلية الطبيعية للإيحاء فى أوجها ، كما هى الحال فى التنويم المغناطيسى .

والطريق الثانى — وهو الأكثر شيوعاً — هو ألا نأتى مثل هذا الإيحاء العنيف ، بل نقوم بتكراره فى فترات متعددة . ومن شأن هذا التكرار الدائم لنفس الشيء أن يعمق أثره فى العقل .

إن هذه الطريقة وإن كانت أبطأ ، إلا أنها أضمن من الأخرى ، وفوق هذا فإنها تلائم علاج النفس بصفة خاصة .

والعلاج بالإيحاء يستهدف انتزاع الذعر العصبى وغرس الثقة بالنفس مكانها ، فيعطى المريض إيحاء بسيطاً أو إيحاءين يقوم بكتابتهما ثم يحفظهما عن ظهر قلب ، ويقوم بترديدهما فى صباح كل يوم وفى غضون النهار . كما أنهما يكونان آخر شيء يفكر فيه فى الليل . وهو فى كل هذا لا يردد هذه الإيحاءات مجرد ترديد ، بل ينظر إلى الورقة المكتوبة ويقرأ سطورها بكل ما أوتى من تركيز . والعبارات الآتية قد تكون مثالاً طيباً .

- « لدى ثقة كاملة فى نفسى »
- « إنى أكون فى منتهى الهدوء عندما أخاطب جمعاً من الناس » .
- « إن أعصابى فى منتهى الهدوء والثبات وما من شيء يقلقنى »

إن إطار العقل الذى تصفه الكلمات يجب أن نتصوره فى درجة من الوضوح كتلك التى يستطيع المريض أن يتصوره

عليها . وعلى هذا يكون تصوره طبيعياً . فالخاطر الذى يخطر فى العقل كفكرةٍ مثلا يترك أثره — بالتكرار — فى اللاشعور . وبمضى الوقت يحصل الإنسان على الشيء المرغوب فيه وفق الإيحاء، وبعد أسبوعين تُغَيَّرُ تلك الإيحاءات المكتوبة. فإن كان هناك ضعف من نوع ما وُجِّهَ إليه الاهتمام الخاص. فإن كان المريض ممثلا أو مغنياً ممن تصيبه نوبات الخوف من أضواء المسارح فيمكنه أن يقول مثل هذه العبارات :

- « إنى أحب التمثيل أمام الجمهور وأتوق إليه . »
- « إنى أشعر وأنا على خشبة المسرح أنى فى منتهى الهدوء كما أنى أعطى لنفسى حقها . »
- « إنى قوى ولا يستطيع الخوف أن يتسرب إلى عقلى . »

ويراعى أن تكون الإيحاءات دائماً فى صورة إيجابية فلا تُعطَى فى شكل نهى (لا تفعل هذه أو تلك) فإن مجرد ذكر الشيء المنهى عنه يُعَدُّ خطأً من شأنه أن يولِّد إيحاء خاطئاً فى الحال .

إن هدفنا كله يرمى إلى أن نُدخِل فى عقل المريض فكرةً إيجابية مسيطرة شبيهةً بتلك الأفكار التى نريدها أن تسيطر على عقله كلما كان عقله عُرْضَةً لمثل هذه النوبات . ففكرة

الخوف أو أية فكرة أخرى—ما عدا الأفكار المشجعة طبعاً — يجب أن تُستَبْعَدَ تماماً من عقل المريض .

إن نجاح العلاج عن طريق الإيحاء الذاتى يتطلب تكراراً وتركيزاً . وهذا التركيز هو فى ذاته تمرين مفيد للعقل والإرادة ، فهو يلوح سهلا ولكنه ليس من السهولة بالدرجة التى يلوح عليها . وهو يتطلب شجاعةً ومثابَرة حتى يؤدَّى على الوجه الأكمل . ولكنه عظيم الفائدة . فإن قوة الإرادة التى تنمو وتشتد لا تحرر المريض من أعصابه فحسب بل تفيده كثيراً فى صحته العامة . فإن تأثير العقل على الجسم لا حدّ له . ولا شك أن الشخص الذى يتعلم كيف يتحكم فى صحته السليمة ينجو من أمراض كثيرة .

الفصل السابع

نماذج حية !

والآن بعد أن وقفنا على طبيعة جهازنا العصبي ، وأنواع الدوافع التي تحدونا إلى السلوك على نحو معين ، وشتى المؤثرات التي تسيطر على سلوكنا ، تعالوا بنا نستعرض بعض النماذج الحية .

١
التهتهة

قد يكشف بعض العصبيين عن مشكلتهم في صورة أفعال أو خصائص جسمية معينة . ومن بين هؤلاء ، المتهتهون .

فالتهتهة تعرف الآن على وجه التحديد على أنها اضطراب عصبي ، وقد أدت معرفتها إلى أنواع من العلاج أفضل كثيراً من تلك التي كنا نعتمد عليها من قبل ، وحتى إلى وقت قريب كانت دراسة التهتهة وعلاجها منحصرة في الطرق الآلية المتعلقة بالكلام . وقد أدت هذه الدراسة إلى علاج ضعيف الأثر

اللّهم إلا فى بعض حالات الأطفال .

فالتّهتهة تختلف أحياناً عن التلعثم على أساس أن التلعثم هو تدخل خارجى فى مخارج الكلمات والنطق بها ، فى حين أنّ التّهتهة يُنْظَر إليها على أنها اضطراب فى جهاز التنفس ، غير أنه يمكننا أن ننظر إلى التلعثم والتّهتهة كأنهما شىء واحد، فلا داعى للتفريق بينهما فالمسألة واحدة سواء أكانت الصعوبة تتعلق بالكلمات الساكنة أو الكلمات المتحركة . إذ أن الحقيقة الهامة الثابتة هى أن السبب الأصلى فى هذا منشؤه الجزء اللاشعورى فى العقل . فإن الكثيرين من المرضى الذين وُجِد أن سبب التّهتهة عندهم راجع إلى تجارب الحرب المخيفة قد ساعدونا كثيراً على فهم هذا المرض فهماً صحيحاً . وأن معظم متهتهى الحرب قد شفوا على أيدى الأطباء الذين استعادوا معهم تجاربهم فى الحرب وفسروا لهم كيف أن هذاه التّهتهة قد نشأت بسبب هذه الحادثة أو تلك .

وفى كثير من الحالات كان إفراغ الانفعال فى أول جلسة يعقبه شفاءٌ مباشرٌ من التّهتهة .

وفى البعض الآخر من مرضى الحرب قامت التّهتهة على ما هو أبعد من الذاكرة المكبوتة ، لذلك كان من الضرورى

القيام بعدة اكتشافات لمجاهل عقل المريض..

ويقتبس كلبن Culpin حالةً يظهر فيها أن تقلصات الفك الأسفل يكفى عنها بلبس القناع الواقى من الغازات السامة، كما أن حركة انحناء الرأس كانت تكراراً لعدة محاولات لأن يزحف من تحت منطاد محطم بينما سعى طيار العدو إلى نسفه. وإمساك المريض بياقة سترته يدل على نفخه المهتز المضطرب فى حالات الطوارئ. أما فى حالات المدنيين فإن الشفاء من التهتهة والتلعثم ليس فى العادة سريعاً كالذى نصادفه فى علاج مرضى الحرب. وتعليل هذا يسير.

فعادةً ما يكون المريض المدنى (غير مريض الحرب) قد مضى عليه وقت طويل وهو يعانى من المرض قبل أن يطلب العلاج المناسب، ومع هذا فإن عملية ارتياد عقل المريض وانتزاعنا من اللاشعور الخوفَ والذعرَ أو الصدمة التى نبتت هناك منذ الطفولة وعرضها أمام العقل الواعى (الشعور) للمريض... هذه العملية قد ساعدت المتلعثمين والمتهتهين إلى حدٍ عجزت معه أنواع العلاج القديمة عن تحقيقه أو الوصول إليه.

وبجانب أمراض الكلام توجد أمراض متعددة كتقلصات الوجه أو الأعضاء التى نراها فى كثير من الناس، والتى هى فى

الغالب الظاهرة العصبية التى يكشف عنها الإنسان . فقد نلحظ تكشيرة فى الوجه أو هزة من الرأس أو الكتف ، هذه التقلصات التى اعتاد عليها الشخص ترجع فى العادة إلى الطفولة الأولى . فإذا لم تُصَحَّح أصبح من الصعب جداً على المريض البالغ أن يتخلص منها .

ومع هذا فإن الارتياد العقلى واستخدام الإيحاء يتيحان أفضل فرص الشفاء .

وفى كل هذه الحالات كما فى غيرها من حالات الشكاوى من عدم تأدية وظائف الجسم وواجبها ، يجب ألا نهمل الجانب الجسمى فى العلاج ، فإن المشاكل الوظيفية تكون دائماً أسوأ حالا إذا كانت الحالة الجسمية سيئة . وعلى هذا كان جميع هؤلاء المرضى الذين أشرنا إليهم فى الصفحات السابقة فى أشد الحاجة إلى التشجيع ليعنوا بصحتهم وحالتهم الجسمية أشد عناية . كما يجب أن يُشَجَّعوا أيضاً على ممارسة قدرٍ معين من التمرين البدنى يومياً فى الهواء الطلق ، وأن يراعوا الاعتدال والبطء فى الأكل . كما يجب ألا يتناولوا اللحوم أكثر من مرة فى اليوم . كذلك ينبغى عليهم أن يأكلوا بعض الفاكهة ولو كمية ضئيلة فى كل يوم ، والأفضل أن يكون هذا فى الصباح . كما عليهم أن يعتادوا الاستحمام بالماء البارد كل صباح ، فإذا لم تقو

الدورة الدموية عندهم على تحمل هذا ، فعليهم أن يدلكوا أجسامهم بأسفنج به ماء بارد عقب الحمام الساخن . كما أن القيام ببعض الحركات الجسمية بضع دقائق أمام نافذة مفتوحة بعد الحمام يُعَد أفضل بداية ليوم صحى جميل .

٢
التبرير الكاذب

إن الشخص العصبى قد يضل طريقه وهو يبحث عن العظمة فيدخل عالم الخيال وهو عالم غير محدود الاحتمالات ، غير أنه قد يلوح فى مظهره الخارجى أنه يحيا حياة عادية جداً كتلك التى يحياها الشخص كعضو فى الأسرة أو فى المجتمع ، وقد يهتم بعمله ويسهم فى أنواع النشاط المختلفة . وهو — دون أن يدرى — يحيا فى عالمين ، عالم حياته الخاصة وعالم حياته العملية أو عالم وظيفته ، وكلا الجانبين لا يستهان به — فالحياة فى نظره مخيفة مليئة بالحقيقة .

أما هذه المزاعم العصبية أو التبريرات الكاذبة التى لا تتمشى مع العقل فإنها حاجات أو مطالب عصبية حولها الأشخاص

إلى مزاعم دون تفكير . وهى لا تتمشى مع العقل لأنها تدعى لها حقاً — هو فى الواقع غير موجود . فالمريض يشعر بأن له الحق فى كل شىء هام له أوهام فى تحقيق حاجاته العصبية الخاصة .

فهو يرى أن العالم يجب أن يكون فى خدمته لا يقف فى سبيله شىء . مثال ذلك قصة تلك السيدة التى كانت تخشى فى قرارة نفسها أن تشك فى نفسها ، فكانت تشعر أنه من حقها أن تتحقق جميع حاجاتها إذ كانت تقول « إنى لا أستطيع أن أفكر فى ذلك الرجل الذى أريد أن يحبنى ولكنه لا يفعل . »

هذه المزاعم قد اتخذت لنفسها فى بداية الأمر صوراً ورموزاً دينية مثل : « إن كل شىء أصلى من أجله ، يتحقق » فالزعم عند هذه السيدة قد اتخذ جانباً آخر . فما دامت ترى أنها لا تستطيع التفكير فى رغبة لا يمكن أن تتحقق ، نراها تكبح معظم رغباتها حتى لا تخاطر بمواجهة الفشل .

كذلك الناس الذين يرون أن حاجتهم هى حق دائم ، تراهم يشعرون أن من حقهم ألا ينتقدهم أحد أو يرتاب فى نواياهم أو يناقشهم فى أمورهم ، فى حين ترى الذين استسلموا لسيطرة الغير يشعرون أنه من حقهم أن يطيعوا هؤلاء الغير طاعة عمياء ، على عكس أولئك الذين يرون أن الحياة

مباراة ، وأن الناس يجب أن يستغلوا غيرهم دون أن يستغلهم أحد .

كما أن أولئك الذين يخشون مواجهة أنواع صراعهم يشعرون أنه من حقهم أن يلفوا ويدوروا حول هذه المشاكل . أما ذلك الرجل الذى يندفع إلى إساءة الغير وهو فى الوقت نفسه محتاج إلى اعترافهم به ورأيهم فيه ، فإنه يشعر أنه من حقه ألا يَغضَب أحد من شىء يأتيه .

أما الشخص المنعزل عن الجماعة ، فإنه لا يطلب شيئاً بل يصر على زعم واحد ، هو ألا يتدخل فى شئونه أحد أو يقلقه ، فهو يشعر أنه لا يحتاج إلى شىء من أحد ، ولذلك فهو يشعر بحقه فى أن يُترَك وشأنه ، ومعنى تركه وشأنه فى زعمه هو أن يُعفَى من جميع أنواع النقد أو بذل أى جهد حتى ولو كان هذا فى مصلحته .

وكثيراً ما يحدث لأحدنا أن يفوته القطار أو لا يجد مكاناً فى الطائرة أو يعوقه عائق فى الطريق ، فيضيق صدره ويشتد حنقه لا سيما إذا كان منهوك القوى قد أخذ منه التعب كل مأخذ ، ولكن سرعان ما تهدأ ثائرته ويأتيه الزعم العصبى هاتفاً فى نفسه « مَن يدرى ! ربما يقع لهذا القطار حادث

أو يصيب تلك الطائرة مكروه ! ! » وكأن العناية الإلهية قد خصته هو دون سائر الركاب، ففوتت عليه موعد قيام القطار أو الطائرة لكى ينجو ! !

وقد نرى حالة عكس هذه الحالة تماماً ، كأن نرى شخصاً ينكر فى نفسه احتمال حدوث أى شىء له ، ومن أجل ذلك نراه مستهتراً فيخرج فى الجو البارد وهو محموم ولا يتخذ أى نوع من أنواع الوقاية من الأمراض ، بل نراه يسلك فى الحياة زاعما أنه لن يهرم أو يموت . فإذا ما أصابه مكروه كان هذا تجربة ساحقة قد تبعث فى نفسه الذعر ، ومهما كانت هذه التجربة هينة أو محتملة فإنها كافية أن تحطم اعتقاده العظيم فى ذاته ، وقد ينقلب نتيجة لهذا إلى الضد فيصبح كَلِفاً بالحياة، شديد الاهتمام بها والمحافظة عليها .

هذه المزاعم بعيدة عن الواقع من ناحيتين ، فالشخص الذى يدّعى تحرره من المرض والشيخوخة بل والموت ، كذلك السيدة التى تشعر بحقها فى أن تُقبَلَ جميع دعواتها فتغضب من أى شخص يرفض دعوتها مهما كانت أسباب هذا الرفض؛ والسكير الذى يشعر أن من حقه على كل إنسان أن يساعده فى محنته المالية فى الحال وبروح طيبة بغض النظر عما إذا كانت

ظروف غيره تمكنه من مساعدته أو لا تمكنه .

أما الناحية الأخرى للمزاعم العصبية أو التبرير الكاذب فهى ما يجعلنا نحكم على صاحبها بأنه ساذج أو أنه شبيه ببعض الأطفال المدللين ، وهذا يجعلنا نُرْجعُ كل هذه المزاعم إلى الطفولة لا سيما عند أولئك الذين لم يستطيعوا أن يشبوا عن طفولتهم .

أما تلك الحالة العصبية التى تجعل صاحبها يتركز ويدور حول ذاته فإنها أكثر تعقيداً وتختلف عن الأولى كل الاختلاف. فالإنسان يستهلك نفسه لأن حاجاته النفسية تمزقها صراعاته الحادة ، كما أنه مضطر إلى التمسك بحلوله الخاصة .

وهناك ظاهرتان طبيعيتان قد تلوحان متشابهتين ولكنهما مختلفتان . فإخبارك المريض العصبى أن مزاعمه طفولية أو أنها أشياء يأتيها الأطفال ليس له فائدة على الإطلاق . . بل إنه لا يتمشى مع العقل ولن يغيِّر من أمره شيئاً ما لم يصحبه عمل آخر .

وكلما قل اتصال الشخص العصبى بالعالم الذى حوله ، قلّ إحساسه بالاخرين واهتمامه بمشاعرهم . ولقد أظهر أحد المرضى احتقاراً شديداً — ولكن فى صورة متسامية — للحقيقة . فقال « أنى أشبه شىء بالشهاب المندفع فى الفضاء» وهو يعنى

أن ما يحتاج إليه هو الحقيقة .

كما أن هناك خاصية أخرى لمزاعم الشخص العصبي وهي أن جميع الأشياء تأتي إليه دون أن يبذل جهداً ، فمتى كان وحيداً ، لا يريد أن يستدعي شخصاً يؤانسه بل يعتقد أن شخصاً ما سيزوره في تلك اللحظة .

وقد يزعم شخص أن من حقه أن يظفر بوظيفة أفضل أو بزيادة في المرتب دون أن يكون قد قام بأي شيء يستحق من أجله هذه الزيادة أو تلك الوظيفة ، بل ربما كان ما يحتاج إليه غير واضح في عقله .

وكثيراً ما نرى مريضاً يبثـلنا حاجته الشديدة إلى السعادة. وقد يفضي إليه بعض أصدقائه أو أقاربه أن ما به من سخط يمنعه من الحصول على هذه السعادة. ومن أجل ذلك يذهب إلى المحلل النفسي فيسأل المحلل النفسي نفسه « لماذا لم تتحقق السعادة لهذا المريض وهو راغب فيها رغبة صادقة ، كما أنه يستمتع بالكثير مما يستمتع به الغير ويجلب لهم السعادة ، فلديه منزل مبهج لطيف وزوجة جميلة واستقرار مالي وطمأنينة ، لكنه لا يستمتع بكل هذا ، بل لا يجد لذة أو رغبة فيما يحيط به ... لماذا يحدث له هذا ؟ » .

فى هذه الصورة كثير من الخمول والانطواء الذاتى . فأمامنا شخص قد كُبِّلت يداه ورجلاه حتى أصبح غير قادر على معرفة قدراته الخاصة بسبب تلك المزاعم القوية الغالبة التى استبدت به ، فجعلته يشعر أنّ من حقه أن يحصل على جميع مطالبه دون أن يطلبها .

وكثيراً ما تقوم المزاعم على أسس أدبية، فتسمع هذه العبارات « لأنى والدك أو والدتك ، أو لأنى رجل ، أو رئيس » ولكن هذه الأسباب لا تقدم تبريراً كافياً لهذه التصرفات .

أما أولئك الذين يعتقدون أن الحب يُحِل كل شىء وأنه يخول لصاحبه عمل كل شىء، فإنهم يبالغون كثيراً فى فهم هذا الحب وقيمته .

كما أن هناك بعض المزاعم التى تقوم على الضعف أو العجز وعدم القدرة على تحمل المكاره أو مواجهة المواقف، كأن يجبن أحدهم عن الاستفسار بالتليفون فيجعل غيره يقوم بهذا ، كما يحدث أن تشعر إحدى السيدات بالكآبة والضعف بدرجة لا تستطيع معها أن تقوم بواجبها المنزلى ، فنجد أن سلوكها هذا يزيد فى كآبتها وعجزها عما كانت عليه . وتكون النتيجة أن آلامها تزداد حدّة وشدّة .

ومن الأسس التى يلذ لأصحاب المزاعم أن يستندوا إليها، العدالة . فكثيراً ما نسمع أناساً يقولون مبررين ما حدث لهم وما صادفهم فى حياتهم « لأنى أعتقد فى الله » . أو « لأنى تعبت كثيراً » ، أو « لأنى أفنيت زهرة حياتى فى هذا العمل » ، أو « لأنى مواطن صادق أمين . »

أو قد تسمع شخصاً آخر يقول فى بساطة « إن المسألة مسألة عدالة ... إن الأمور تسير كما أحب لأنى أستحق هذا » ؛ أو « إن كل مكسب فى هذا العالم، نتيجةٌ مباشرة للطيبة والورع . » ولكن الشواهد تدل على أن الجزاء ليس نتيجة حتمية للفضيلة .

كما أن إحساس المريض بالعدالة ، قد يمتد إلى إحساسه بالعدالة مع الآخرين ، فإذا وقع على أحدهم ظلم أحس به ذلك المريض فى درجات متفاوتة .

غير أن الاعتقاد الشديد فى العدالة من شأنه أن يجعل الإنسان يعتقد أن الناس مسئولون عن جميع العقبات التى تعترض سبيله فى الحياة . وقد ينتج عن هذا الاعتقاد الشديد فى العدالة ستارٌ للانتقام . وكلما زادت مزاعم الانتقام زادت درجة القصور الذاتى فى الإنسان . ولا شك أن مثل هذه المزاعم تجعل حياة الناس أشد عناء وقلقاً .

وقد تستبد المزاعم بالشخص العصبي حتى يقع تحت سيطرة ما يسمى (يجب أن) فيزعم أنه يجب عليه أن يكون على أقصى درجات الأمانة والكرم والاحترام والعدالة والكرامة والشجاعة وإنكار الذات ، كما يجب أن يكون زوجاً مثالياً ومدرساً صالحاً ،. كما يجب أن يحب والديه وزوجه ووطنه وإلاّ فيجب ألاّ يتصل بأى إنسان فى الحياة . كما يجب أن يستمتع بالحياة وفى الوقت ذاته يجب أن يكبح مشاعره ، كما يجب أن يعرف ويفهم ويتنبأ بكل شيء ، كما يجب أن يكون قادراً على حل جميع مشاكله ومشاكل الآخرين . كما يجب ألا يشعر بالتعب أو المرض ، ويجب أن يكون قادراً على الحصول على وظيفة ، كما يجب أن يعمل الشيء — الذى يعمل فى ساعتين أو أكثر فى ساعة واحدة ! ! !

وإذا ألقينا نظرةً على تلك الواجبات التى تمليها عليه ذاته ، نجد أنها صعبة وجامدة معا . فإذا قلنا له إنه يتطلب من نفسه أكثر مما يجب أدركنا أنه يعرف هذا مقدماً . ولكنه يضيف إلى ذلك « من الأفضل للإنسان أن يتطلب من نفسه أكثر مما يجب » .

إن هذه الواجبات الكثيرة البعيدة التحقيق التى يفرضها

الإنسان على نفسه ناتجةٌ من رجوع ذلك الإنسان إلى ذاته المثالية ومن اعتقاده فى قدرته على عمل كل شىء .

إن ما يمليه الإنسان على نفسه من واجبات يشبهُ الحكم المطلق فى سياسة الدولة ، كما أن فيه إهمالا تاماً أو تغاضياً لظروف الشخص النفسية .

وهناك مطلب آخر قد يدفع صاحبه لأن يكون فاهماً لغيره مواسياً له ومعيناً ، قادراً على أن يذيب قلب المجرم كما فعل ذلك القس فى قصة البؤساء لفيكتور هيجو . وقد حدث أن تقمصت إحدى الفتيات شخصية القس وأرادت أن تكون مثله ، ولكن لم يكن لديها الاتجاهات والمواقف التى مكنت ذلك القس من أن يسلك كما سلك مع المجرم « جان فالجان » ـ فقد استطاعت أن تكون مُحْسِنةً لأنها شعرت أنه يجب عليها أن تكون كذلك ، ولكنها لم تشعر بالإحسان قط ، بل إنها لم تشعر كثيراً بالحب أو العطف نحو أى إنسان ، بل كانت فى خوف دائم من أن يستغلها شخص آخر ، إذ كانت تشك وترتاب فيمن حولها . فإذا ما غاب عن ناظرها شىء ، اعتقدت أن شخصاً ما قد سرق هذا الشىء .

إن هذه الحالة العصبية أو « هذا العصاب » جعلها تفكر

فى نفسها وفى مصلحتها ، فكانت كل تصرفاتها تكسوها طبقة من التواضع المتكلف مما كانت مضطرة إلى اصطناعه .

أما تفسير هذه الواجبات العمياء فهو بحث الشخص عن العظمة والتسامى بذاته الحقيقية حتى تبلغ مكانة الذات المثالية . كما أن هذه الواجبات تمتد إلى الماضى البعيد حتى تصل إلى طفولة الإنسان الأولى ، فلو أنه ضيق الخناق على مشاعره فربما شعر أنه لا يحب والديه إلا لأنه يجب عليه أن يفعل هذا .

ولكن الرجوع إلى الطفولة الأولى ليس الميدان الوحيد الذى تعمل فيه الواجبات ، على أن تخدع الإنسان عن مسئولياته خداعاً كاذباً ، فقد نجد شخصاً يعتقد أنه كان من الواجب عليه أن يساعد صديقه عن طريق نقده الصريح ، وقد نجد شخصاً آخر يقول إنه كان واجباً عليه أن ينشىء أطفاله على ألا يكونوا عصبيين .

ومن الطبيعى أننا نأسف لفشلنا هذا العمل أو ذاك ، ولكنا نستطيع أن ندرك لماذا فشلنا ، فنتعلم من هذا الفشل . وكلما عاش الإنسان فى الخيال كان الاحتمال أكبر فى تذليل تلك الصعاب .

مثال ذلك قصة الفتاتين اللتين شعرتا أنه يجب ألا تخافا

أبداً من أى شىء ، كانت إحداهما تخشى لصوص المنازل فأجبرت نفسها على أن تنام وحدها فى بيت مستقل . أما الأخرى فكانت تخشى العوم فى الماء ما لم يكن هذا الماء شفافاً لأنها كانت تخشى أن يعضها أحد كلاب البحر فأجبرت نفسها هى الأخرى على أن تعوم فى خليج مملوء بكلاب البحر .

أما أثر هذه الواجبات فى شخصية الإنسان وحياته فإنه يختلف إلى حدٍّ ما على حسب الطريقة التى يستجيب بها الإنسان لتلك الواجبات وكيفية تنفيذها .

ولكن هناك بضع آثار لابد من ظهورها بانتظام وإن تفاوتت درجة ظهورها ، فإن هذه الواجبات عادةً ما تولِّد شعوراً من الضغط الذى تطّرد شدته بعدد المرات التى يحاول فيها الشخص أن يطبِّق هذه الواجبات فى سلوكه أو ينفذها فى حياته . فقد يحس الإنسان بكراهيته لنفسه لأنه عاجز عن بلوغ ذلك المستوى الذى فَرَضَه على نفسه .

ولكن الأهم من هذا هو أن هذه الواجبات التى يفرضها الإنسان على نفسه تقتل فيه تلقائية المشاعر والرغبات والأفكار والمعتقدات ، أى القدرة على أن يشعر الإنسان بمشاعره الخاصة وأن يفصح عنها بحرية ، إذ أن الإنسان أمام هذه الواجبات

يفرض على نفسه ما يجب أن يشعر به ويميل إليه أو يعتقد فيه .

وهناك حاجز كبير بين ما يجب أن نشعر به وما نشعر به فعلا . والنتيجة هي خلق المشاعر الإيهامية عند أولئك الذين يوجّهون ذواتهم المثالية في طريق الخير والحب ؛ فإذا عجز الإنسان عن أن يسمو إلى مستوى هذه الواجبات التي يفرضها على نفسه فإنه يضيق بنفسه بل يحتقرها .

٣
القلق النفسي

مهما تكن الظروف التي ينمو فيها الطفل ، فإنه يشب — إن لم يكن متأخراً عقلياً — على اكتساب بضع مهارات بطريقة أو بأخرى .

ولكن هناك بعض القدرات لا يقوى على اكتسابها أو حتى تنميتها عن طريق التعلم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل من الشجرة الصغيرة شجرة ضخمة كشجرة الجميز مثلاً . ولكن متى أتيحت لهذه الشجرة الصغيرة فرصة النمو المناسبة لها فإن قدراتها الكامنة سوف تنمو وتتفتح ، كذلك الإنسان إذا

ما أتيحت له الفرصة ، فإنه يميل إلى تنمية قدراته الإنسانية الكامنة فيه والخاصة به ، أى أنه ينمّى القوى الحية الناشطة الخاصة به لتحقيق ذاته . فإن وضوح مشاعره وعمقها وأفكاره ورغباته وميوله والوقوف على قدراته الابتكارية الكامنة كقدرته على الإفصاح عن نفسه والكشف عن مشاعره التلقائية ، كذلك قوة إرادته ، كل هذه تمكّنه فيما بعد من العثور على قيَمِه وأهدافه فى الحياة ، وبعبارة أخرى ينمو نمواً متكاملا فى الطريق الذى يوصّله إلى تحقيق ذاته .

ومن أجل هذا سنتحدث هنا عن الذات الحقيقية على أنها القوة المركزية الكامنة الموجودة فى جميع الكائنات الحية ، إلا أنها تتميز فى الشخص الواحد عن الآخر ؛ هذه الذات هى المصدر العميق للنمو .

إن كل فرد يستطيع أن ينمّى قدراته التى وُهِبها ، غير أنه — شأنه فى ذلك شأن كل كائن حى — فى حاجة إلى الظروف المناسبة التى تمكّنه من هذا النمو ، فهو فى حاجة إلى مَن يزوّده باطمئنان النفس والحرية الداخلية ، التى من شأنها أن تعينه على تكوين مشاعره الخاصة والإفصاح عن أفكاره ، فهو محتاج إلى حسن نية الآخرين ، لا لتساعده على سد حاجاته الكثيرة

ولكن لتقوده وتشجعه ليصبح فرداً ناضجاً واعداً ، كما يحتاج إلى الاحتكاك الصحى السليم برغبات الآخرين ونواياهم ، فإذا ما استطاع أن ينمو مع الآخرين فى جو من الحب والمودة فإنه سينمو فى الوقت ذاته فى الطريق الذى يوصله إلى تحقيق ذاته .

ولكن هناك عوامل متعددة تحول بين نمو الطفل وفق حاجاته الفردية وإمكانياته ، هذه الظروف المعوقة كثيرة جداً ولكننا إذا أردنا حصرها أو إجمالها فإننا نراها تتبلور فى تلك الحقيقة وهى أن الناس فى بيئة ما ، ينطوون فى أمراضهم العصبية الخاصة بالدرجة التى لا تمكنهم من حب الطفل أو فهمه على الأقل كفرد له ذاتية وله كيان . بل إن سلوكهم نحوه أو موقفهم منه تحدده حاجاتهم واستجاباتهم العصبية .

هذه العوامل مجتمعة تؤثر تأثيراً مباشراً فى نمو الطفل ، وتكون النتيجة أن الطفل لا ينمى فى نفسه شعور انتمائه إلى الغير ولكنه ينمى بدلا منه شعوراً من عدم الاطمئنان الداخلى العميق والخوف الغامض الذى يمكن أن نطلق عليه القلق النفسى ، فيشعر بالعزلة والعجز فى عالم يشعر فى أعماق نفسه بالعداء له .

إن الضغط الناتج من هذا القلق الداخلى يمنع الطفل من

أن يكشف عن نفسه للآخرين أو يفصح عن مشاعره الحقيقية في صورة تلقائية ، كما يجبره على البحث عن طرق يتعامل بها معهم ، إذ يجب عليه — بطريقة لاشعورية — أن يتعامل معهم بطرق لا تزيدُ قَلَقَهُ الأصلي بل تسكِّنه وتهدئه ، وتكون النتيجة أن يحاول التعلق بأقوى الأشخاص ممن يحيطون به أو قد يثور ويناضل أو قد يُبْعِد الآخرين من حياته الداخلية فيبتعد — عاطفيًا — عنهم ، أي أنه يدنو من غيره من الناس وينأى عنهم أو يندفع إلى الثورة أو العزلة دون الإشارة إلى مشاعره الحقيقية وعدم ملاءمة سلوكه لذلك الموقف المعين ، على أن درجة تمسكه بسلوكه هذا تتوقف على حِدة أو شدّة هذا القلق الأصلي الذي يعمل في داخله .

وعلى هذا نجد الطفل تحت هذه الظروف مدفوعاً إلى تنمية اتجاهات متناقضة في أساسها حيال الآخرين ، هذه الاتجاهات الثلاث التي تجعله يدنو منهم أو ينأى عنهم أو يقف ضدهم من شأنها أن تشكِّل فيه صراعاً هو الأساس الذي يقوم عليه صراعه ضد المجتمع . وبمضي الزمن يحاول التغلب على هذا الصراع بأن يجعل أحد هذه الاتجاهات الثلاث سائداً مسيطراً ، أي أن يجعل اتجاهه الغالب أو السائد

هو التوافق أو التنائى أو التعادى .

هذه المحاولة الأولى لحل أنواع الصراع العصبى ليست سطحية الأثر ، بل على النقيض من هذا لها أثر قوى مسيطر على الطريقة التى يسلكها نموه العصبى فيما بعد ، كما أنها لا تقتصر على اتجاهاته نحو الآخرين . بل لا بد لها من أن تجر وراءها تغييرات معينة فى الشخصية كلها . وعلى هذا الاتجاه الأساسى الذى يسلكه الطفل ، ينمى حاجاته المعينة التى تتفق معه ، وكذلك الميول الحسية والقيود التى هى بداية تكوين القيم الأخلاقية .

فالطفل الخاضع المسالم لا يخضع للآخرين أو يعتمد عليهم فحسب ، بل يحاول أيضاً ألا يكون أنانياً أو سيئاً . وبنفس الطريقة يحاول الطفل المهاجم المعادى أن يعطى للقدرة على الصراع وتحمل المكاره قيمة كبيرة .

ومع هذا ، فإن الأثر المتكامل للحل الأول هذا ليس من القوة والشمول كغيره من الحلول العصبية التى سنعالجها فيما بعد ، مثال ذلك قصة تلك الفتاة الصغيرة التى سيطرت عليها اتجاهات التوافق والمواءمة فظهرت هذه الاتجاهات فى صورة عبادة عمياء أو تقديس لبعض الشخصيات ذات النفوذ القوى ، كما ظهرت

فى ميلها القوى فى أن تنال رضا الغير وتبعث فيهم البهجة والسرور . كما ظهرت فى الخوف من الإفصاح عن رغباتها الدفينة ، كما ودت أن تَعَرِض لُعَبها فى الشارع العام لعل بعض الفتيات الفقيرات يجدنها ــ دون أن تفضى برغبتها هذه إلى أى إنسان . وفى سن الحادية عشرة حاولت ــ كما يفعل غيرها من الأطفال ــ أن تستسلم للصلاة فى صورة غامضة عميقة ، كما كان يحوم فى عقلها شبح الخوف من بعض المدرسات ممن كانت تخشاهن وتضيق بهن . . .

وفى التاسعة عشرة من عمرها انضمت إلى بعض الفتيات ممن كن يدبرن الحيلة للايقاع بإحدى المدرسات ، كما أنها تزعمت وهى لا تزال ، كالحمل الصغير ، بعض أعمال العصيان والتمرد فى المدرسة ، ولما خاب أملها فى رجل الدين ، انصرفت من العبادة الدينية العميقة إلى نوع من النقد اللاذع المرير .

إن أسباب تفكك التكامل الذى ظهر فى قصة تلك الفتاة يرجع فى بعضه إلى عدم نضج الفرد النامى ، كما يرجع فى بعضه الآخر إلى تلك الحقيقة وهى أن الحل الأول يستهدف فى أساسه توحيد العلاقات مع الآخرين وتوافقها . وعلى هذا نجد

فراغاً أو فى الواقع حاجة إلى تكامل أدق وأرسخ .

فإذا ما عاش الإنسان فى مجتمع يتسابق ويتنافس وشعر فى قرارة نفسه بالعزلة والعداء له ، فإنه يستطيع أن ينمّى فى نفسه الحاجة الماسة العاجلة لأن يسمو بنفسه فوق الآخرين .

على أن هناك ما هو أعمق من هذه العوامل ، ونعنى به بداية الابتعاد عن النفس ، فنجد ذاته الحقيقية ليست عاجزة فقط عن أن تنمو نمواً مستفيضاً كاملاً ، بل إن هذه الذات أو النفس تلجأ إلى تنمية طرق مصطنعة تتعامل بها مع الآخرين. ومن شأن هذه الطرق أن تكبح مشاعره الحقيقية ورغباته وأفكاره إلى درجة تصبح فيها سلامته هى كل شيء ، كما تأتى مشاعره وأفكاره الدفينة فى المرتبة الثانية ، بل الواقع أن هذه المشاعر والأفكار يخفت صوتها ويختفى أثرها فيه ، فلا يهمه ما يشعر به طالما أنه آمن مطمئن ، بل إن هذه المشاعر والرغبات تكف عن أن تكون عوامل مسيطرة ، أى أنه لم يعد الموجّه لها المسيطر عليها ، بل أضحى التابع لها المدفوع بها .

على أن هذا الانقسام الذى يحدث فى نفسه لا يضعفه بوجه عام فقط ، بل يقوّى فيه الانفصال عن نفسه ، ويُدخِلُ فيها الارتباك والحيرة حتى أنه لا يعرف أين يقف ، بل مَنْ هوا

إن الشخص الذى يبتعد عن نفسه أو ينأى عنها يحتاج إلى بديل لذاته الحقيقية ، ولكن من الحماقة أن نقول هذا ، لأن هذا البديل لا يُوجدُ أبداً ، بل هو يحتاج إلى شىء يجعله يدرك ذاته ، فإن هذا يُشعِره أن لذاته قيمة ومعنى .

فإذا لم تتغير ظروفه الداخلية بدرجة يستطيع فيها أن يستغنى عن حاجاته هذه فلا يصبح أمامه إلا طريق واحد يكفل له تحقيق هذه الرغبات ، بل قد يحققها دفعة واحدة ، هذا الطريق هو الخيال . وعلى هذا يأخذ خياله فى العمل تدريجياً وبصورة لا شعورية ، فيخلق فى عقله صورة مثالية لنفسه ، وبهذه الطريقة يضفى على نفسه قدرات غير محدودة ، متسامية ، فيتوهم نفسه بطلاً أو عبقرياً أو عاشقاً مثالياً أو قديساً أو إلهاً

إن التسامى بالنفس يجر وراءه دائماً الشعور بتمجيدها الذى من شأنه أن يزوِّد صاحبه بما هو شديد الحاجة إليه من الإحساس بأهميته والتسامى على الآخرين والسيطرة عليهم .

إن كل شخص يبنى صورته الشخصية المثالية من مواد تجاربه الخاصة وخيالاته الأولى وحاجاته المعينة ، كذلك من قدراته الموهوبة . وقد تصل الدرجة بالشخص إلى أن يتقمص صورته المثالية المتكاملة التى لا تظل صورة فى خياله يحتفظ

بها فى نفسه ، بل سرعان ما يصبح هو هذه الصورة ـــ دون أن يشعر ــ أى أن الصورة المثالية تصبح شخصاً مثالياً أو ذاتا (مثالية) وهذه الذات المثالية تصبح أكثر حقيقة فى نظره من ذاته الأصلية لا لأنها تستهويه أكثر فحسب ، بل لأنها تحقق جميع حاجاته الدقيقة .

هذا الانتقال فى مركز الجاذبية هو فى الواقع عملية داخلية محضة ، فالتغير فى أساسه ينشأ فى شعور الإنسان بنفسه؛ فهو عملية عجيبة وشخصية محضة . وهذا الانتقال يحدث فى الإنسان لأن ذاته الحقيقية قد أصبحت غير واضحة بينما يأخذ هو فى الابتعاد عنها من أجل الذات المثالية التى أخذت تمثل له حقيقته كما هو ؛ أو قدرته الكامنة كما هى ؛ ماذا يستطيع أن يكونه وما يجب أن يكون عليه ، أى أن هذه الذات تصبح المرآة التى يتطلع فيها إلى دخيلة ــ نفسه والقياس الذى يقيس به نفسه .

إن التسامى بالنفس والبحث عن تمجيدها هو حل عصبى . والواقع أن الإنسان الذى يندفع فى طريق البحث عن العظمة أو تمجيد نفسه يتجاهل ذاته تماماً من أجل مصالحه ورغباته .

كما أن هناك مقياساً آخر للعظمة هو عدم التمييز ، فما دام ميل الإنسان الحقيقى فى متابعة الشىء لا يهم ، بل المهم

هو أن يكون هو مركز الانتباه فيكون أذكاهم وأعظمهم ، سواء أكان الموقف يستلزم هذا أو لا يستلزم ، فالذى يهمه هو أن يخرج منتصراً فى كل مناقشة بغض النظر عن الحقيقة والواقع .

إن البحث عن العظمة قد يصبح فكرة مسيطرة تلتهم صاحبها ، وقد يكون لها صدى بعيد فى صور الذعر والكآبة واليأس والغضب التى تغشى حياته كلها .

وإن الخوف من السقوط من شاهق هو إفصاح فى الغالب عن القلق والخوف من السقوط من مرتفعات عظمته الموهوبة :

وإذا فحصنا حلم أحد المرضى ممن كان يخاف المرتفعات وجدنا أن هذا الخوف قد استولى عليه فى الوقت الذى استحوذ عليه الشك فى قدرته على السيطرة ، تلك القدرة التى لا تقبل نزاعاً ، فرأى نفسه — فى الحلم — واقفاً فوق قمة جبل ولكنه كان يخشى السقوط فظل متعلقاً بحافة القمة وهو يقول « إنى لا أستطيع أن أصعد إلى أعلى من هذا . لذا كان كل ما يجب أن أعمله فى حياتى هو أن أحتفظ بمكانى . »

غير أنه فى حالته الشعورية كان يشير إلى مركزه الاجتماعى ولكن فى إحساس أعمق وكأنه يقول فى نفسه « إنى لا أستطيع

أن أرقى أكثر من هذا » ، أى أنه لا يستطيع أن ينال أكثر مما يجول فى عقله من سلطة وعظمة .

أما الدور الذى يلعبه الخيال فى البحث عن العظمة ، فقد يظهر فى صورة صادقة ومباشرة فى أحلام اليقظة ، مثال ذلك قصة طالب الكلية الذى — رغم خوفه وانطوائه — تراه يعيش فى أحلام اليقظة كأنه أعظم رياضى أو عبقرى أو عاشق .

ولكن أحلام اليقظة ، وإن كانت مهمة وكاشفة لمشاعر الإنسان عندما تحدث ، إلا أنها ليست أخطر أعمال الخيال ، لأن الشخص يكون فى غالب الأحايين مدركاً لتلك الحقيقة ؛ وهى أنه يعيش فى أحلام اليقظة ، أى أنه يتخيل أشياء لم تحدث فعلا أو أشياء ليس من المحتمل أن تحدث بالطريقة التى يمارسها فى خياله . وهو — على أى الحالات — ليس من الصعب عليه أن يدرك وجود أو عدم وجود الشخصية التى يتمثلها فى أحلام اليقظة . أما العمل الأكثر خطراً على الخيال فإنه يوجد فى التشويهات الدقيقة الشاملة للحقيقة التى لا يدرك فعلها أو أثرها تمام الإدراك .

كما أن الخيال يعمل على تغيير معتقدات الشخص العصبى . فهو فى حاجة إلى أن يعتقد أن غيره من الناس غريب أو

سيئ ، كما يغيِّر مشاعره أيضاً ، فيشعر أو ــ إنه يحتاج إلى أن يشعر ــ أنه مُستهدفٌ دائماً ، كما أن خياله لديه القوة الكافية التى تدفع عنه الألم أو التعب. فهو يحتاج لأن تكون لديه مشاعر عميقة كالثقة والحب والعطف والصبر على المكاره إذ أنه يأخذ هذه المشاعر فى صورتها المكبرة .

ولكن أين يقف خيال الشخص العصبى ؟ الواقع أنه أولاً وأخيراً لا يفقد إحساسه بالحقيقة تماماً ، فإذا كان هناك حد فاصل فيما يتعلق بمخاوف الخيال فإن هذا الحد غير ثابت .

والفرق بين دوافع العظمة ودوافع الإنسان الصحيحة قد لا يظهر واضحاً . فإنهما يلوحان متشابهين فى الظاهر ، وربما كان الاختلاف فى الدرجة فقط ؛ حتى أن الشخص العصبى قد يلوح لنا أشد طموحاً وأكثر اهتماماً بالسلطة والمكانة الاجتماعية والنجاح فى الحياة من الشخص السليم ، كما لو كانت مستوياته الأدبية أسمى من مستويات الناس العاديين أو أنه أكثر طموحاً وأكبر شأناً من أولئك العاديين من غمار الناس . فمن هو ذا الذى يستطيع أن يرسم خطاً محدداً فاصلا ويقول « هنا ينتهى الشخص السليم ويبتدئ الشخص العصبى ».

إن التشابه بين الدوافع السليمة والدوافع العصبية موجود لأن هذه الدوافع لها اتصال أساسى بالقدرات الإنسانية الخاصة ، إذ أن الإنسان — عن طريق قدراته العقلية — يستطيع أن يصل إلى أبعد من نفسه ، كما يستطيع — بخلاف أنواع الحيوان الأخرى — أن يتخيل ويخطط ؛ وفى أحيان كثيرة يوسع مدى هذه القدرات تدريجياً .

إذن ليست هناك حدود ثابتة يقف عندها الإنسان فيما يفعله بحياته ، أى القدرات يستطيع أن ينمىّ ؟ أو ماذا يستطيع أن ينمىّ ؟

إذا أخذنا هذه الحقائق بعين الاعتبار وجدنا أن الإنسان ليست لديه صورة دقيقة عن حدوده ، وعلى هذا كان من السهل عليه أن يضع أهدافه إمّا إلى أعلى أو إلى أسفل .

إن هذا الشك القائم أو القلق وعدم التثبت هو الأساس الذى يقوم عليه البحث عن العظمة .

فالبحث عن العظمة ينبع من الحاجة إلى أن تصبح الذات المثالية حقيقة واقعة . وبما أن الشخص العصبى كثيراً ما يتعلق بأوهامه عن نفسه ، فهو لا يستطيع أن يتبين الحدود ، وبذا يتمادى البحث عن العظمة إلى الشىء غير المحدد .

وما دام الهدف الأصلي هو الظفر بالعظمة ، فهو بذلك لا يجد ميلاً للتعلم أو العمل أو التقدم خطوة خطوة ، فهو لا يريد أن يصعد الجبل ، بل يريد أن يتربع فوق قمته ، وعلى هذا لا يفهم معنى التطور أو النمو وإن تحدث عنها كثيراً .

إن خلق الذات المثالية يكون دائماً على حساب حقيقة الإنسان عن نفسه ، كما أن تحقيق هذه الذات يستلزم أنواعاً شتى من تشويه الحقيقة ، وهنا يلعب الخيال دور الخادم الأمين الذى يستعد دائماً لتحقيق هذا الهدف .

وتكون النتيجة أن يفقد الإنسان ميله للحقيقة واهتمامه بها ، ومن هنا تنشأ تلك المشكلة ، وهى صعوبة التمييز بين المشاعر الصادقة والمعتقدات والدوافع غير الصادقة أو المزاعم اللاشعورية المستقرة فى نفسه وفى غيره .

غير أن الاختلاف بين الشخص السليم والشخص العصبى من هذه الناحية، هو اختلاف فى الدرجة فقط ؛ اختلاف بين الدافع الحقيقى والدافع المفروض ، هذا الاختلاف رغم أوجه الشبه الظاهرة بينهما هو اختلاف فى النوع لا فى الكم .

٤
السلوك المنحرف

عليك أن تلقى نظرةً على ذلك الصبي الذى لم يناهز العاشرة من عمره ، ومع ذلك فهو مشكلة لنفسه ولأسرته ولمدرسيه وللمجتمع . وسوف يكون فى يوم ما مشكلة للبوليس . فعليك أن تأخذ بيده وتقوده فى الطريق السوى حتى يبدأ صفحة جديدة فى سجل حياته .

والدان سيئان :

انحدر هذا الصبى من أسرة هى خليط عجيب من الرجال والنساء ، بعضهم كان حميد الصفات وبعضهم كان سيئ الخلق ضعيف الإرادة . ولم يكن لهذا الصبى حَوْلٌ أو قوة فيما صار إليه أمره . فهكذا وجد نفسه بين والدين سيئين .

لذلك نراه منذ اللحظة الأولى يشق طريقه مكافحاً فى سبيل الحصول على ما يريد ، فكان عليه أن يستخدم ذكاءه وسعةَ حيلته . وسرعان ما تعلّم كيف يقف فى وجه السلطة مهما كان نوعها ، ومهما كان مصدرها ، فنشأ وهو يضمر الكراهية

لأنه لم ير ولم يسمع ولم يشعر فيما حوله إلا بالكراهية العميقة ، فكان يثور على جميع نظم الفصل والنادى وأثاث المدرسة . كما كان يثير حوله ضجة كبيرة تقرب إلى الشغب .

وجملة القول أنه لم يكن على خلق طيب فى المدرسة ، مما جعل المدرسين ينفرون منه ويضيقون به .

كما كان يسكن فى حى فقير من أحياء المدينة ، وكان يقيم فى جحر لا يمكن أن يُطْلَقَ عليه لفظ بيت ، أما والداه فقد كانا أى شىء إلا أن يكونا والدين صالحين .

كان ذلك الصبى مُشْكِلا يضم بين جوانحه جميع المشاكل الشخصية ، كذلك جميع المشاكل التى يموج بها عالمه الذى وجد نفسه مضطراً لأن يحيا فيه .

قد تُصَادِفُ مثل هذا الصبى فى المدرسة أو فى النادى أو فى الملعب ، وعليك أن تفعل شيئاً لإصلاح أمره ، بل قد يكون لديك ثلاثة أو ثلاثمائة تعنى بأمرهم وتوجههم الوجهة السليمة .

عليك — أو على القادة — محترفين كانوا أو هواةً — أن تحاول الكشف عن مشكلته وتقدِّم له العلاج لينشأ مواطناً كريماً . ومَنْ يدرى ، فإن هؤلاء الأطفال الذين ننتشلهم اليوم

من مهاوى الفساد التى ترددوا فيها ربما أصبحوا مواطنين صالحين ، يلعبون دوراً هاماً فى حياتنا الاجتماعية . ولربما جاءنا الأطفال العاديون فى صور خارقة كما يقول بلوتارك « قد ينتج خير الجياد من صغارِ الخيل الجامحة » .

أنواع المشاكل :

وهناك ألوف من الأطفال يولدون — من سوء حظهم — على جانب كبير من الضعف العقلى أو الجسمى أو العاطفى أو الاجتماعى ، وهذه مشكلة شخصية قد تصل بذلك الطفل الذى يصبح فى حاجة مُلحّة إلى مَنْ يعينه على أن ينشأ نشأة كريمة مستقيمة ، إذ أن ضعفه هذا قد يجعله مستهدفاً للخطر والضغط من جيرانه ومن البيئة التى يحيا فيها . فإذا لم يجد العون الصادق الحقيقى منذ البداية ، فلا عجب بعد ذلك إذا رأيناه يعجز عن أن يكون مواطناً قوياً مسئولاً .

البيئة السيئة :

وعادةً ما تبدأ البيئة بالمنزل ، وأقوى عوامل المنزل أثراً هو الأم التى تلعب دوراً هاماً فى حياته لا سيما فى سنيه الأولى ،

ثم يأتى دور الأب بعد ذلك ، ثم دور الأخوة والأخوات ثم رفاقه وجيرانه وما يأتونه من أنواع النشاط والعمل ، كذلك الجو الثقافى والاجتماعى لتلك البيئة التى ينشأ فيها . كل هذا يترك أثراً قوياً فى الطفل الناشئ . غير أن هناك بعض الأطفال ممن يولدون بمشاكلهم كالضعف الشخصى ومقر البيئة الثقافى ، فتكون هذه المشكلة عبئاً على الطفل ينوء بها كاهله ، هذه المشكلة تقف فى طريقه عقبة كأداء ، فأنى لطفلٍ لم تتوفر لديه القوة والمعرفة أو الخبرة أن يتغلب على كل هذه الصعاب ؟ ! إنه فى الواقع فى حاجة إلى مَنْ يشد أزره ويأخذ بيده .

نوع الوالدين :

فإذا وُلِدَ الطفلُ ضعيفاً وكان له والدان صالحان ، استطاع هذان الوالدان التغلب على الصعاب وعوّضاه بعض هذا النقص ، ولا نعنى بالوالد الصالح الوالد الغنى فكم من والدين أثبتا صلاحيتهما على الرغم من أن دخلهما محدود ، وكم من آباء يعيشون فى أفقر الأحياء ينشئون أبناءهم تنشئة سليمة ممتازة ، فيسلكون سلوكاً مرضياً فى المدرسة كما يبزون غيرهم من أقرانهم . ذلك لأن هؤلاء الآباء يغرسون فى أبنائهم المثُلَ العليا والصفات

الحميدة ، فيشبون مفخرةً لأسرهم ولمجتمعهم ووطنهم أيضاً .

الرجل الغنى لايعنى الرجل الصالح :

ومن الناحية الأخرى ، نجد آباء على جانب كبير من الثراء ، إلا أنهم أنانيون لا يكترثون كثيراً لأبنائهم ؛ هؤلاء الأبناء كثيراً مايسببون للمجتمع ما يُعْرَفُ بالابن المشكل أو الشاذ ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة ، وهى كثرة عدد الشواذ فى الأسر الغنية لا الأسر الطيبة ، كما يفسر أيضاً ظاهرة أخرى وهى كثرة عدد المواطنين الصالحين الذين نشأوا فى الأحياء الفقيرة .

القدوة السيئة :

وقد يولد أطفال عاديون أقوياء غير أنهم قد يُنْكَبون بآباء سيئين ، سواء كانوا فقراء أو أغنياء فيكون هؤلاء الآباء قدوةً سيئة لأبنائهم ، إذ قد يهملونهم أو يتجاهلون رغباتهم ويقدمون لهم كل يوم نوعاً خاطئاً من فلسفة الحياة ، فلا عَجَبَ إذا رأينا هؤلاء الأطفال يصادفون مشاكلَ عدة فى حياتهم . لذا يمكن أن يقال إن مفتاح الشذوذ فى الأطفال لا يزال فى يد الآباء . فإن هؤلاء الأطفال المنكوبين بآباء سيئين سيصبحون

مشكلةً لأنفسهم ولمجتمعهم . وفى هذه الحالة لا نلوم هؤلاء الأطفال إذا ما بدأوا حياة سيئة .

إن مثل هؤلاء الأبناء يصبحون مشكلة يستعصى علينا حلها .

الطفل ضحية وليس مذنباً :

إن الولد المشكل هو ضحية وليس مذنباً ، فهو محتاج إلى مساعدة غيره ، وقد تكون هذه المساعدة من جانب الإشراف اللطيف والتوجيه السليم والتهذيب الكامل . فهو لا شك يحتاج إلى حبِ ورعايةِ شخصٍ قريب منه يعنى به ويقف على مراحل نموه ، لأن كثيرين من الآباء قد فشلوا فى القيام بهذا الدور لهم .

بقيت المشكلة الكبرى وهى أنى لنا تدبير العدد الكافى من المشرفين الأكفاء الذين يستطيعون القيام بهذه المهمة قبل أن يستفحل الأمر ويَعْبُرَ الصبي طريقه إلى مركز البوليس أو محكمة الأحداث ؟

علينا أن نتذكر دائماً أننا عونٌ لهؤلاء الأطفال ولسنا قضاة لهم ، علينا أن نقى هؤلاء الأطفال من ضعفهم ونعتمد على مصادر قوتهم حتى يتخطوا الحواجز والصعاب .

٥

صبي مشاغب

وإليكم حالة أخرى ، هى حالة صبى نطلق عليه نحن فى لغتنا الدارجة اسم «صبى مشاغب» وقد عرض لها L.F. Shaffer فى كتابه The Creative power of Mind قال :

اسمه جيمس ، أرْسِلَ إلى إحدى العيادات السيكولوجية بسبب سوء سلوكه فى المدرسة حتى أن ناظر المدرسة ضج من اعتداءاته المتواصلة على الأطفال الأصغر منه سناً ، كما شكا من سرقاته فى بعض الأحيان .

وظل جيمس على هذه الحالة الشاذة أكثر من عامين ، فلما بلغ منتصف الثالثة عشرة من عمره وُضِعَ تحت إرشاد ثلاث مدرسات تناوبن علاجه الواحدة بعد الأخرى ، ففشلت معه الأولى ، ولم تكن الثانية أوفر حظاً من سابقتها ، غير أن الثالثة استطاعت أن تجعله يقلع عن أساليب الشغب ويمتنع عن السرقة سالكةً معه بعض طرق القمع والكبت .

كان يأتى فى الفصل ما يأتيه غيره من الشواذ ، كما كانت

تصدر عنه تصرفات شبيهة بتلك التى تصدر عادةً عن أصحاب الطبائع الجامحة المسيئة ، فإذا مشى ، دقّ أرض الفصل بقدمه بينما يسير زملاؤه فى هدوء بين الصفوف ؛ كما كان يتلفت يمنةً ويسرةً ويتحدث مع هذا وذاك إذا ما أدار المدرس ظهره ؛ كما كان يشغل نفسه بأنواع من الشجار مع زملائه لاسيما مَنْ كان أصغر منه سناً .

غير أن الشىء الوحيد الذى أثار مدرسيه وخيّب أملَهم فيه كما أثار اهتمام علماء النفس فى الوقت ذاته هو طبيعة جيمس وميله القوى للخروج على القانون والعبث بنظام الفصل ، فقلما كان يلعب مع تلميذ أو تلاميذ فى سنه ، بل كان فى معظم الأحيان ينصرف إلى مَنْ كان أصغر منه سناً من التلاميذ ، يضرب هذا ويدفع ذلك دون سبب معلوم ، واجداً فى ذلك لذةً لا تفوقها لذة ، وهو يطارد ضحيته البريئة حتّى باب البيت .

أما السرقات التى كان يرتكبها ، فقد كانت سطواً على زملائه الصغار ، ينتزع منهم بعض الأشياء ويقوم بتوزيعها على غيرهم من التلاميذ ، كما كان يسطو على مخازن الفاكهة و « الياميش » ليُشْرِكَ غيرَه فى الغنائم والأسلاب .

فلما جِيء به إلى العيادة السيكولوجية ، لم يظهر فى سلوكه نوعٌ من أنواع الشغب ، بل لاح صبياً شاحباً نحيلاً بالنسبة لعمره ، كما كان سلوكه مع غيره على جانب من المودة والتعاون .

أما الفحص الطبى فلم يكشف عن نقص أو عيب يتطلب علاجاً ، فحالته العامة جيدة ، كذلك كان سمعه وبصره عاديين ، كذلك لم تظهر عليه أية علامة لاضطراب الغدد .

أما فى اختبار الذكاء ، فقد سجل جيمس عمراً عقلياً لصبى فى ١٣ سنة و ٣ شهور . وكان مُعَامِل الذكاء ١٠٧ أى فوق السوى قليلا ، فى حين أن الاختبارات المدرسية سجلت نتائج خيراً من هذه ، أما عمره التعليمى فكان ١٥ سنة وشهر ومُعَامِلُ التعليم ١٢١ ، كما أظهر تفوقاً فى جميع المواد لا سيما فى القراءة والإملاء . أما فى مادة الحساب فقد كان فوق العادى قليلاً .

أما أسرة جيمس هذا ، فكانت تعيش فى ظروف مادية ميسرة ، فوالده يعمل بائعاً ، له دخل كافٍ ، يسافر فى معظم الأيام ، وأثره فى جيمس ضئيل .

أما والدته فقد كانت سيدة قوية البنية ضخمة الجسم ، وُلِدت فى النرويج وهاجرت إلى أمريكا فى طفولتها مع شقيقتها الكبرى ، أما جداه لوالده فكانا قد ماتا من زمن غير قصير ، فى حين أن جديه لوالدته لم يذهبا قط إلى أمريكا .

وكان لجيمس شقيق أصغر منه عمره ١٠ سنوات و ١٠ أشهر اسمه تشارلس ، كان الرفيق الملازم لجيمس ، وكان يحاكيه فى كثير من تصرفاته .

أما السجل الصحي لجيمس فقد بيَن أنه كان دائماً نحيلاً ضامر العود ، سيئ التغذية ، أصيب بالحصبة والجديرى والسعال الديكى قبل أن يبلغ السادسة، وكانت هذه الأمراض كلها شديدة الوطأة على جيمس ، كما كان السعال الديكى سبباً فى تأخره ستة أشهر فى دراسته . كذلك أجريت له عملية إزالة « اللوز » وهو فى الثامنة .

أما أبرز الجوانب فى تاريخ جيمس ، فهو سجل الحوادث التى ألمتّ به، إذ كُسِرَ ذراعه الإيمن مرتين فى السابعة والثامنة من عمره . كما صدع ساقه الأيسر وهو فى منتصف العاشرة ، وقد حدث له كل هذا إبّان لَعِبه الخشن مع الأطفال الآخرين .

وكان جيمس ينام بانتظام فى التاسعة مساء حتى منتصف الثامنة من صباح اليوم التالى ، وكانت مواعيد أكله عادية ، كما أنه اعتاد على أن يرتدى ملابسه بنفسه وهو فى الرابعة . ولا يعرف والده أو مدرسوه شيئاً من عاداته الجنسية .

وفى معظم الأحوال كان يلعب منفرداً أو مع شقيقه الأصغر منه ، كما كان يفضّل الألعاب المنزلية أو الورق على الألعاب الرياضية ، ولكنه نال قسطاً وافراً من ألعاب الانزلاق والجرى ، كما كان شغفه بالسينما شديداً ، غير أنه لم يكن يُسْمَحُ له بالذهاب إليها إلا مرةً واحدةً كل أسبوع ؛ ولكنه كان يتحدث عن كل فيلم يراه عِدّة أيام ، وكانت أحب الأفلام إليه أفلام المخاطرات حتى أنه كان يتمنى أن يصبح فيما بعد أحد أبطال رعاة البقر ، ولم تكن عنده مطامع أخرى .

أما ألهيته الأخرى فقد كانت القراءة ، إذ كان يقرأ كتابين أو ثلاثة فى الأسبوع ، تدور كلها حول حياة الأبطال.

وعندما سئل لماذا لا يلعب كرة القدم أو كرة السّلة لم يُبْدِ سبباً معقولاً فى أول الأمر ، غير أنه تشجع أخيراً وقال إنه يعزو هذا إلى إصاباته السابقة .

كما أن والدته لم تكن لتشجعه على اللعب مع صبية آخرين خوفاً من أن يصاب من جديد ولعدم قدرته على الانسجام مع فريق اللاعبين .

إن مثل هذا السلوك يعزى — إلى حد كبير — إلى حالته الجسمية ، فإن تعدد إصاباته وكسر ذراعه مرتين وكسر ساقه مرةً ، كل هذا بجانب ضعفه الجسمى ، جعل جيمس يتجنب مشاركةَ غيره فى اللعب الخشن .

إن هذا الخوف وهذا التجنب للمخارج العادية للنشاط دفَعَه للبحث عن حاجته إلى بديلٍ يتيح له الإشباع لأنواع نشاطه ، فهوى بدوافع السيطرة وكسب رأى المجتمع وجعلها دوافع تبحث عن إشباعها بمعاكسة غيره وضربهم والمباهاة بالسرقة وتوزيع ما يسرقه على غيره .

كذلك نجد تكييفاً لحالته عن طريق الإشباع الخيالى وذلك بقراءة القصص ومشاهدة الأفلام ، وما دامت هذه الوسائل تقلل عنده حِدّةَ التوتر ، فقد أصبحت عادات لاصقة به .

كما أن حالة جيمس ترتبط بعوامل أخرى ، فإن حاجته لصداقة والده وحدب أمه الزائد وإسرافها فى المحافظة عليه من شأنه أن يجعل من الصعوبة بمكان ، أن تتكون فى

جيمس صفات الرجولة ، فيحصل على الانسجام العادى .

كما أن سوء وضعه فى المدرسة بتركه مع أطفال أقل منه عقلياً حال دون أن يكون تحصيله العلمى فى المدرسة مخرجاً كافياً لحاجياته .

أما العلاج الذى اقترحه الخبراء فكان يرمى إلى إبعاد السبب الرئيسى لعدم انسجامه وإبعاد بعض العوامل التى تساعد على هذا . فشُجِّعَ جيمس على اللعب مع صبية فى سنِّه كما وقفت والدته على حاجته إلى ذلك .

ولكى تُنمّى فيه العادات الاجتماعية المرغوبة ، انضم إلى فريق الكشافة وجمعيات النشاط المدرسى ، كما أحيط رئيس الكشافة والمشرف على الألعاب علماً بمشاكله وشجعاه على الانضمام إلى جماعات النشاط المختلفة . كما نصحاه أن يتعلم أصول الملاكمة لتدعم فيه ثقته فى قدرته الجسمية . كما أشادت المدرسة بتفوقه العلمى وبحاجته إلى مستويات علمية أعلى .

فانتقل نتيجةً لهذا إلى فصل أرقى فى الحال ، حيث وجد العمل فى هذا الفصل حافزاً له ، كذلك أتاح وجوده بين فريق جديد الفرصة لأن يغيِّر من عاداته لوجوده مع تلاميذ لم يتوقعوا منه شراً .

إن هذه الإجراءات العلاجية تختلف كل الاختلاف عن الطريقة القديمة التى كانت تلجأ إلى العقاب .

إن العلاج الذى يقدِّم دروساً فى الملاكمة لصبى محب للضرب والمشاكسة ، العلاج الذى يشجع التلميذ المشاغب المتعب بدلاً ممن أن يثبط همته ويعمل على فشله ، هذا العلاج له تأثير قوى لأنه يقوم على فهم حاجات الصبى الأساسية ومحاولاته السابقة الفاشلة لأن يكيِّف نفسه مع الجماعات التى يعيش معها .

من ذلك نرى أن مشاكل سلوك جيمس من ضربه لزملائه وإثارة اهتمام الغير والسلوك الشاذ وأنواع السرقة ، كل هذه أمثلة للطرق الدفاعية التى تعمل على تلطيف حدة التوتر . فمتى حصل صاحبها على إشباع ، وهو فى صورة عنيفة أو سلوك هجومى ، فإنه لا يلبث أن يلجأ إلى هذه الطرق العنيفة كمخارج لما فى نفسه من دوافع قوية .

من هذا نرى أن جميع الأشخاص لديهم عيوب متفاوتة . فالسلوك الدفاعى هو صفة طبيعية شائعة بين جميع الناس ، ولا يصبح السلوك الدفاعى مشكلة نفسية تحتاج إلى علاج إلا عندما يأخذ شكلاً فيه إسراف كبير . كما أن طرق التكيّف

والمواءمة هي عادات مكتسَبة يلجأ إليها الناس لإشباع دوافعهم؛ إذ أن جميع الناس يمرون بتجربة الحرمان . وقلما نجد شخصاً أوتيَ من القدرات أو الصفات ما يمكّنه من حل جميع مشاكله . لذلك كانت هذه الطرق الدفاعية أمراً طبيعياً وضرورياً في كل فرد .

والإنسان يقوم بعملية التكيّف هذه كما يقوم بعملية الأكل والنوم ، إذ أن الأكل والنوم لا يخرجان عن كونهما ألواناً من التكيّف .

على أن هذه الطرق الدفاعية لا يكتنفها الغموض أو تحيط بها الأسرار ، إذ ليست اضطرابات أو مظاهر اضطرابات عصبية ؛ بل هي مجرد صور أو أشكال لردود أفعال يأتيها الأشخاص وهم في موقف يهيئ لهم الفرصة للتكيّف .

وإن دراسة أنواع طرق التكيّف إنما هي دراسة لسلوك الإنسان العادى ، كما هي دراسة للسلوك الشاذ . كما أن معرفة الطرق التي يسلكها الناس ليكيفوا أنفسهم ذات قيمة كبيرة لفهم الطبيعة الإنسانية على وجه العموم وعلاج اضطرابات السلوك كذلك .

علم النفس

فى مطبوعات دار المعارف مجموعات شيقة نفيسة تشتمل على دراسات عميقة وأبحاث قيمة فى مختلف ميادين علم النفس الذى شق طريقه إلى شتى مناحى الحياة وامتزج بها، يجد فيها المتخصص والهاوى كل ما يناسبه من الموضوعات فى أسلوب واضح جلى يجعل هذا العلم فى متناول فهم الجميع.

لا يفوتنك قراءة هذه الكتب.

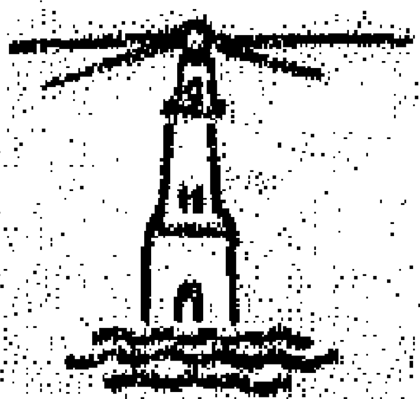
- السينما والمسرح وأمراض النفس
- اتجاهات فى التربية والتعليم
- مشكلات الأطفال اليومية
- التربية الجنسية
- الشباب الجامح
- مبادئ علم النفس العام
- اللغة عند الطفل
- ما فوق مبدأ اللذة
- التحليل النفسى والسلوك الجماعى

دار المعارف للطباعة والنشر

اقرأ

دكتور محمد زغلول سلام

القومية العربية
فى الأدب الحديث



دار المعارف بمصر

القومية العربية

في الأدب الحديث

دكتور محمد زغلول سلام

القومية العربية

فى الأدب الحديث

اقرأ ٢٠٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٣ — نوفمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

تقديم

. . . كان الأدب العربى فى جميع أطوار الأمة العربية باعثاً قويا من بواعث النهضة والتطور ، ولا غرو فقد بدأ تاريخ الأمة العربية بالقرآن الذى شحذ همم العرب وبصرهم بالقيم الإنسانية وبالحياة ، ونظم صلاتهم فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين بارئهم ، وفتح أمامهم آفاق العيش الكريم ، وأكسبهم القوة ودعاهم إلى الوحدة والعزة ، وحملهم رسالة السماء إلى الناس من حولهم ، فاندفعوا فى جحافلهم تحت راية القرآن تسلم لهم البلاد المكدودة من ظلم الطغاة قيادها ليرسوا بها حكم العدل ، وليشيعوا لغة العرب وحضارة الإسلام والسلام . . .

. . . ثم ظل القرآن يرفد الأدب العربى فى معركة العروبة من أجل البقاء ، وظل الأدب والأدباء روحا تشب القبس كلما أمعنت يد الزمن فى إخماد الجذوة القومية فى نفوس العرب ، أو كلما تكالبت صروف الدهر فلعبت بمصائرهم وحاولت أن تفرق بينهم وتشتت شملهم . . .

فلا زال الأدب العربى داعية وحدة وتآلف . . . لأنه يخاطب القلوب والعواطف ويخاطب العقول والبصائر ، ونعقد عليه الأمل فى تدعيم القومية العربية وإرساء قواعدها بين أبناء الأمة العربية .

عناصر القومية ومقوماتها

أولا — العروبة :

والعروبة مجموعة من الخصائص والخصال انطبع بها الجنس العربى ، بعضها خَلْقى ، وبعضها الآخر خُلُقى نفسى ، ونحن أحرص على بيان الخصائص الخلقية والنفسية لأنها أقوى أثراً فى تطور الأمة العربية وفى تفاعل العرب مع الأمم والشعوب الأخرى التى اتصلوا بها وجرت دماؤهم فيها ، وأبين دليل على سيرتهم فى التاريخ الطويل الذى كتب معهم سطور المجد تلك القرون الطويلة التى عاشتها دولتهم وحضارتهم .

أول تلك الخصائص التى نلاحظها فى العرب جماعات وأفرادا خاصية ظاهرة لمن يتتبع أحوالهم ، وحركاتهم ، وأساليبهم فى العمل وفى سلوكهم فى السلم والحرب ، ونعنى بها الانفعال والسرعة .

فالشعب العربى منفعل سريع الحركة ، لعله من أكثر الشعوب تميزاً بهاتين الصفتين ، وكثيرا ما يبدو الانفعال مقدمة للعمل السريع العاصف . ويظهر هذا الطبع فى صورته الواضحة

فى عصر ما قبل الإسلام ، والعرب فى طفولة حضارتهم ، ونفوسهم لا تزال بكراً لم تغلفها الحضارة بلفافاتها التى تحجب ما يعمل داخلها ، وسلوكهم لايزال فطرياً لم يهذب منه التطور والتحضر ، ولذا نرى الانفعال والسرعة متمثلين بصورة مادية فى حياتهم ووقائعها اليومية ، وفى آدابهم وما تحمله من انعكاسات لتلك الوقائع اليومية ، وما تكشفه من دفائن نفوسهم الخفية التى تثور وتنفر كالزبد فى أوقات الانفعال والعمل .

وقد كان الانفعال بادياً فيما طبع حياتهم من عنف ، فالقتل كان وسيلة يسيرة يلجأ إليها لبلوغ غرض ، أو للتخلص من عائق ، أو لمجرد التنفيس والتشفى ، كذلك كانت حياتهم تدور حول سرعة التأثر وسرعة الانقضاض ، وسرعة الكر والفر . فكانت حياة غير مستقرة ولا منظمة التنظيم الإنسانى الذى يسوده الإيمان بالحقوق والواجبات ، لذلك ضيعهم الشقاق والاختلاف زمنا ، ولكن هذين العنصرين وإن كانا مدعاة لما دب بينهم من خلاف ، وسبباً فى ضيعتهم تلك الحقبة من الزمان إلا أنهما كانا كذلك سبباً فى خشية من حولهم من الطامعين فيهم ، المتربصين بمصايرهم الحين لانقضاض يغنمونهم فيه . فقد كان انفعالهم وسرعة عملهم دافعا لرد كل عدوان بسرعة وقوة وحسم ،

مهما كان ذلك العدوان ومهما كانت القوى التى تحركه . ردوا عدوان الفرس والروم ، وأين كانوا هم من الفرس والروم ؟ . . وردوا عدوان جيش الحبشة فى تصميم وعزم .

ووقائع التاريخ تروى لنا فصولا مسهبة ، ولسنا بصدد السرد ، إنما تكفى الإشارة للدلالة، وحسب الأدب معبرا عن هاتين الخاصيتين ، إذ يقول شاعرهم :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم
فى النائبات على ما قال برهانا

كذلك تروى قصصهم وأساطيرهم ضروبا من الأحداث التى كان فيها الانفعال عملا حاسما ، ورووا تلك القصص والأساطير وخلدوها ، ورددها خاصتهم وعامتهم ، دلالة على تجاوبهم معها ، وتقديرهم لأحداثها وسلوك أبطالها . ولعل أكمل تلك القصص قصة « حرب البسوس » ، فهى تمثل الانفعال والسرعة فى الانقضاض فى أعنف صورة ، إلى درجة أن يقتل الرجل ابن عمه وزوج أخته وزعيم قبيلته انفعالا ، فجساس

ابن مرة يقتل كليباً زوج أخته جليلة إثر انفعاله لقتل كليب ناقة جارة له عجوز ، ومهلهل أخو كليب يشنها حرباً شعواء لا تبقى ولا تذر ، وتعصف بقبائل كثيرة ، وتبقى طويلا وكأن لم يكتب لها نهاية : أربعين عاماً متواصلة لا يخلع مهلهل ورجاله لباس الحرب ، ويقتل الرجال وتسبي النساء من أبناء العمومة ومن القبائل الأخرى المحالفة ، كل ذلك انفعالا وغضبا لمقتل أخيه كليب ظلما ، وانتقاماً عارماً لا يشفى غليله سيل الدماء الذى أراقه ، وغضباً مؤقتاً لا يطفئ لهيبه تلك النفوس التى اختطفت... وقد تغنوا بقوة الانفعال وبسرعة الرد ، وسموا ذلك كله جهلا ، ولم يكن خلقاً سيئاً ينفر منه الناس بل كان شيئاً من دواعى فخرهم ومباهاتهم . يقول شاعرهم :

ألا لا يجهلنْ أحد علينـــا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولا يكون الجهل إلا فى الثورة ، وليست كل حياتهم جهلا وانفعالا ، بل كان يحكم شخصيتهم صفات تأخذ بزمام ذلك الطبع المتمرد ، ومنها صفة الحلم ، وهى خاصية معارضة للجهل ، والجهل يبدو فيه عدم التحكم فى النفس ، والاندفاع وعدم التعقل أو البصر بالعواقب ، لذلك غلب على عامتهم ،

والحلم بعكس هذا كله ، فيه تحكم وتعقل وتبصر ، لذلك كان خصيصاً بالصفوة والسادة ، وكان هذا الخلق ضابطاً لصمام حياتهم ، وكان المتحلى به مرموقاً لديهم لأنه الموئل إذا حزب الأمر ، فمجدوا الحليم ، ووصفوا أحلام سادتهم بأنها « تزن الجبال رزانة » .

يقول شاعرهم :

وفى كثرة الأيدى لذى الجهل زاجر
وللحلم أبقى للرجال وأعود

ويقول الآخر :

وأبذل معروفى وتصفو خليقتى
إذا كدرت أخلاق كل فتى محض
ويغمره حلمى ولو شئت ناله
قوارع تبرى العظم عن كلم مض

الشجاعة :

ولكن الحلم لا يكون إلا مع القدرة ، وإلا كان ضعفاً وجبناً ، وهذا بعيد عما عرف به العرب وتخلقوا ، فهم قوم

عرفوا بالشجاعة إلى حد الاندفاع ، وبالبأس إلى حد الظهور بمظهر القسوة ، وتمدحوا فى حروبهم بضروب من الشجاعة والبطولة ، تتجلى كلها فى مغالبة الصعاب والمخاطر ، واقتحام الشدائد مهما بدت مهولة مروعة ، وتتجلى كذلك فى مغالبة صعاب الحياة ، وما تضعه فى طريق الناس من عقبات ، وتتجلى فى صراع الطبيعة ومظاهرها المختلفة .

وهذه الخصال المتكاملة جديرة بمن يسكن صحراء متقلبة ، تضرب بينها النهود ، ويمتد التيه ، ويحكمها جو غير محتمل صيفاً وشتاء ، وتتعذر فيها الحياة المستقرة ، ويكثر النزاع على الكلأ حول عيون الماء .

ويصور الشاعر العربى تلك الشجاعة مطبوعة بالتصميم والعزم الذى لا يلين فيقول :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وتقتضى هذه الخصال جميعاً القوة ، فالقوة فى كل منها واضحة ، والحلم والشجاعة يحتاجان للقوة فهى ترفدهما ، فالحلم دون القوة لا معنى له ، والشجاعة والقوة صنوان لا يفترقان . وبجد العربى القوة فى شتى صورها . صورها المادية فى قوة الرجال الجسدية ، وقوه الحيوان الذى يشاركه فى حياته ، وتبدو فى صورها المعنوية متمثلة فى قوة الاحتمال لا الجزع والهلع .

وساد منطق القوة ، وأصبح قانونها القانون السائد المقدر من الجميع ، وسيطرت شريعة القوة على مجتمعهم . كذلك صبغت القوة أذواقهم ، فكان الجمال المفضل لديهم هو الجمال الممترج بالقوة أو الذى ينم عنها .

ونرى نماذج لهذا كله فيما نطالعه من أدبهم ، فالرجل القوى ، هو المتكامل البناء الصلب المتماسك فى نحافة تمكنه من السرعة فى الحركة والخفة ، ويتمثل المعنى فى قول زينب بنت الطثرية تصف أخاها :

فتى قُدّ قَدّ السيف لا متضائل
ولا رهــــلٌ لباته وأباجله[1]

(١) الأباجل : العروق . تقول إنه نحيف صارم كالسيف ليس مترهلا منتفخ الصدر والعروق .

والرجل السمين الثقيل الجسم ، مدعاة لسخرية أهله والناس من حوله ، لأنه يصور لهم الكسل وعدم القدرة على الحركة ، والنهم بالطعام ، والاستئثار به لنفسه دون صحابه ، أو دون ضيوفه وعفاته . يقول الأعشى مادحا قيس بن معد يكرب :

ولم تسع للحرب سعى امرئٍ
إذا بطنه راجعتـــه سكن
ترى همه بطراً خصره
وهمك فى الغزو لا فى السمن

ويقول عروة بن الورد :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى
بجسمى من الحق والحق جاهد
لأنى امرؤ عافى إنائى شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

ويتطلبون عكس هذه الصفة فى المرأة ، لأن دورها فى الحياة غير دور الرجل ، فهى ربة البيت وأم الولد ، وينبغى أن لا تتبذل فتخرج إلى الأسواق لقضاء الحاجات ، بل ينبغى

أن تبقى فى البيت ترعى أموره وتقضى حاجة الأبناء . فأحبها إليهم المصونة المكنونة . ولتلك سماتها الجسدية التى تنم عليها فهى البيضاء السمينة ، لا الرفيعة السوداء المعروقة .

فهى هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يشد المؤتزر
يبهظ المفضل من أردافهـــا ضفر أردف أنقاء ضفر
وإذا تمشى إلى جاراتهـــا لم تكد تبلغ حتى تنبهر

والعربى مشبوب العاطفة ، رقيقها ، يتدله فى حبه ، ويذيب نفسه فتذهب حسرات إثر من يحب :

هواى مع الركب اليمانين مصعد
جنيب وجثمانى بمـــكة موثق

. . .

ألمت فحيت ثم قامت فودعت
فلما تولت كادت النفس تزهق
فلا تحسبي أنى تخشعت بعدكم
لشيء ولا أنى من الموت أفرق

وهذا الإحساس الرقيق والعاطفة الجياشة ، تمتزج بخاصية الشجاعة والانفعال فيتكون من هذا كله شخصية مشهورة فى الأدب العربى هى شخصية « عنترة » . وتصور قصته شجاعة

فائقة وقوة فى مغالبة الأبطال تصل للدرجة القسوة أحياناً ، هذا كله مع حب رقيق وتدله ، وتعجب لتجاور هاتين الخصلتين فى نفس بشرية ، لكنها شخصية بطولية تصور جانبين بارزين من جوانب الشخصية العربية أصدق تمثيل . يقول عنترة :

إن طيف الخيال يا عبل يشفى
ويداوى به فؤادى الكثيب
وهلاكى فى الحب أهـــون عندى
من حياتى إذا جفانى الحبيب
يا نسيم الحجاز لولاك تطفى
نار قلبى أذاب جسمى اللهيب
لك منى إذا تنفست حـــر
ولرياك من عبيـــلة طيب

ويقول ـــ ولم يشغله القتال والضرب عن حبها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهـــل
منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـــا
لمعت كبـــارق ثغرك المتبسم

ويقول الآخر فى المعنى نفسه :

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقّفة السمر
فوالله ما أدرى وإنى لصادق
أداء عرانى من حبابك أم سحر
فإن كان سحرا فاعذرينى على الهوى
وإن كان داء غيره فلك العذر

وتتمثل العاطفة المشبوبة والتدله فى الحب فى أقوى صورها عند شعراء بنى عذرة ، وتروى كتب الأدب طرائف وشعراً كثيراً تدل أبين الدلالة على تأصل هذه الظاهرة فى النفس العربية بشكل يندر أن تجد له مثيلا .

وهذا الحب المشبوب والعاطفة العارمة نحو المرأة تحكمها خاصية القوة التى طبعت عليها النفس العربية ، فهذه المرأة التى يهواها ويتدله فى حبها ، ويحرص عليها الحرص كله يرى بعضهم أنها لا تنجب الولد النجيب الشجاع إلا إذا غشيها كرها ، أو خائفة متوجسة مروعة ، وهذا ما يعبر عنه الشاعر بقوله :

حملت به فى ليلة موءودة
كرها وعقد نطاقها لم يحلل

فأتت به حوش الفـؤاد مبطنا
سهدا إذا ما نام ليل الهوجل

وعجيب حقًّا أن تمتزج الخلتان : حب إلى درجة التفانى ، ورغبة عارمة فى إرغام من يحب على ما لا يحب ، وقد يفسر لنا هذا التصرف ــ كما قلت ــ أن نأخذ بعين الاعتبار بخصائص الانفعال والقوة التى غرست فى النفس العربية .

ومع ذلك فإن العاطفة الصادقة حقيقة كامنة فيها ، لا تتمثل فيما بين الرجل والمرأة فحسب بل تتمثل كذلك فيما بين الرجل والرجل من عاطفة صادقة باقية ، تقوم على الإخلاص والوفاء ، والمناصرة والتغاضى عن الهنات :

وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن
أبزك خصم أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى عداوة
وأحبس مالى إن عزمت فأعقل
وإن سؤتنى يوما صفحت إلى غد
ليعقب يوما منك آخر مقبل

وتستمر هذه الصداقة طالما كان التبادل العاطفى والمودة

رائديها ، ولكنها تنقض إذا لم يتوفر هذا التبادل ، أو إذا أساء طرف للآخر إساءات متوالية متتابعة ، ولم يبق أمل فى رتق الخرق وإعادة الصفاء ، عند ذلك تكون الجفوة ويكون الانقطاع والقطيعة ، وهى عندئذ قطيعة لا رجعة فيها :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكد
إليـــه بوجـــه آخر الدهر تقبـــل

السخاء :

ويتمثل سخاء النفس العربية واضحاً فيما طبع عليه العرب من عادة الكرم والإيثار ، وهذه الخاصية إنسانية فى دوافعها ، وتكاد أن تلزم العروبة وتختص بها ، وتصبح سمة باقية من سماتها تتناقلها أخبارهم عبر الزمن . ولذلك كان السخاء الممدوح ، الذى ينبع عن طبع أصيل وحقيقة باقية أصيلة ، لا نزعة طارئة عارضة ، وهى كذلك عاطفة تنم عن الإحساس بالرغبة فى إعانة الغير ، واقتطاع جزء من القوت أو النفس لذلك العون . لذلك نجد أن الكرم الذى يخرج عن فضل وغنى أقل فى عرفهم من الذى يخرج عن حاجة وضرورة . كذلك الكرم الذى يشوبه التفاخر والتباهى ، فهو عندهم ناقص غير حميد .

والسخاء فى سنوات الشدة وأوقات الضيق حيث يحرص كل إنسان على ما عنده حفاظاً على الرمق بالغ ذروته .

والكرم بهذه الصورة التى عرضناها صفة إنسانية نبيلة تنبع عن حب للإخاء والتعاون والتعايش ، وفضيلة عظيمة مصدرها التعاطف والإحساس بالرابطة بين الإنسان وأخيه ، رابطة عمادها حق كل إنسان على أخيه فى كفالته وعونه ، لأن الحياة التى تبذل خيرها لواحد وتحرم الآخر منه لا ينبغى أن تكون حقًّا للمحظوظ دون المحروم ، فالإنسان غير الحيوان ، رزقه ميسر للقادر ، ولغير القادر فى أخيه حق العون وحق الإنسانية . فدوافع العون المتمثلة فى خاصة السخاء سمة إنسانية ، وليست مجرد مظاهر مادية من طعام وشراب ، وإيواء . . ونجدة . . . .

يقول الشاعر القديم :

وما أخمدت نار لنا دون طارق

ولا ذمنـــا فى النازلين نزيل

وتمدحوا بصفة الكرم ، حتى اعتبروا خير المديح قولهم « جبان الكلب » ، و « كثير الرماد » يعنون كثرة ما يغشى

من الضيفان حتى يعتاد الكلب فلا ينبح ، وكثرة إيقاد نيران الطعام للمعتفين .

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبـــل

ولما أن كان الكرم بهذه المنزلة فى نفوسهم ، صار البخل من أبغض الأشياء وأذمها لهم ، واعتبروا البخل طبيعة غير عربية ، لذلك رموا بها غيرهم من الأمم وتندروا بذكر الطرائف يسخرون فيها منه ومن معتاديه . وهجوا بالبخل فاعتبر أشد الهجاء ، وقديما قالوا إن أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم بولى على النار

صلة القربى والنسب :

والعربى حساس جداً لصلة الدم ، لأنه إنسان عائلى ، يحب أن يحيا فى عائلة ، وفى جماعة ويحافظ بقدر ما يستطيع على القربى ويدافع عنها بكل ما يملك . لذلك اشتدت النزعة القبلية فى نفوس العرب بصورة قد تبدو غريبة شاذة ، كما يبدو تمسك العرب بالأنساب وتسلسلها بصورة فريدة كذلك ،

ونرى العربي دائما يعتز بأصله ودمه ، يفخر بنسبه ونقائه فخره بأعز ما يملك فى الحياة :

علونا إلى خـــير الظهور وحطنا
لوقت إلى خـــير البطون نزيل
فنحن كماء المزن ما فى نصابنا
كهام ولا فينا يعد بخيـــل

ولعب النسب فى حياة العرب أدوارًا عظمى ، كيّف نشاطهم الاجتماعى والسياسى وأثر فى الأدب وقيم الحياة ، والفضائل والرذائل ، والنظرة إلى الشعوب الأخرى غير العربية التى لا تولى النسب تلك الأهمية .

واهتمامهم بالأنساب جعلهم حساسين شديدى الحساسية من ناحية المرأة ، العار كل العار إذا ما مس شرفها أو عرضها ، وإنه لأشد وقعا على نفس العربي من وقع الأسنة أن تسبي أو تتهم . وما دفعهم دفعاً إلى وأد البنات تلك العادة الذميمة البعيدة عن الإنسانية غير الحفاظ على نقاء الأصول وخلوص الروابط الأسرية ، وإن بدا أن الحاجة أيضًا من الدوافع إلى تلك العادة، إلا أن الأصل فيها هو الحفاظ على المرأة من أن تبتذل

بسبب الفقر . كذلك دفعهم الحفاظ على الأنساب إلى فرض الحجاب وخاصة فى العصور التى تُخشى فيها من الاختلاط لكثرة الإماء والجوارى . وأطلقوا اسم المصونة والمكنونة نعوتا لكمال المرأة ، وجاءت هذه النعوت فى القرآن الكريم ، وفى الشعر وما يروى من الأخبار والقصص . وكان الرجل يتخذ لنفسه امرأة من الحرائر يجعلها مصونة فى بيته ، تنجب له الولد الذى يخلفه ، وله مع ذلك أن يلهو ويتخذ لنفسه الإماء والسرارى .

الواقعية والبساطة :

ونظرة العربى للحياة نظرة واقعية حسية لا تهويم فيها وراء الخيال ، لهذا لا نجد عند عرب الجاهلية آثارا تنم عن التأمل فى عوالم خفية غامضة كالأساطير التى نجدها عند كثير من الأمم الأخرى كاليونان والهنود والفرس ، ولا نجد عندهم أنماطا معقدة من الديانات مثلما نجد عند المصريين القدماء، وحياة العرب موكلة بواقع حياتهم ، ووقائع أيامهم قبل الغد المرتقب . لهذا نجد أن الوثنية ظهرت عندهم متأثرة بوثنيات الأمم المجاورة ، لا وثنية أصيلة نابعة عن مشاعرهم وحاجاتهم وفلسفتهم فى الحياة والكون . لذلك كانت وثنية سطحية غير عميقة الجذور فى

نفوسهم . واتخذوا الوثنية وسيلة للحياة الواقعية المادية ، للتجارة والكسب .

كان الجانب الروحى عندهم غير مستقر ، لانشغالهم بالواقع ، وبقسوة العيش فى الصحراء ، وضيق الأرض التى يسكنون بهم وبمعاشها . شغلهم البحث عن القوت عن البحث فى الخالق والخلق ، عن التأمل والتفكير والعبادة المستقرة ، عن تكوين فكرة راسخة عن الوجود كله وصلات الكائنات فيه .

كذلك كان لوضوح الحياة فى الصحراء وصراحتها أثر فى سلوكهم وطباعهم وميلهم إلى البساطة ، فكل شىء أمامهم جلى لا يدعو إلى التفكير الطويل ، والظواهر الطبيعية التى تشاركهم فى الصحراء ظواهر مكررة معتادة ليست مفاجآت غير منتظرة ، وليس فيها عنف ، أو اختلاف ، فليست هناك الجبال الشاهقة ، ولا البحار الزاخرة الهادرة ، وليس بها الصواعق المهلكة ولا الرياح العنيفة العاصفة ، ولا الزلازل المدمرة والبراكين التى تقذف بالحمم ، ليس فيها هذا كله ، فلم يسع العربى فى حياته إلى جهاد الطبيعة ومغالبة عناصرها أو الاستعانة عليها بقوى خفية ، أو التقرب إلى قوى ورموز لقوى يعتقد أنها تصرفها أو لها شأن عليها .

البيـــان :

وللعرب البيان الفصيح الذى يميزهم ، والذى يعتقدون أنه خاصية لهم دون البشر جميعا ، وأن الله تعالى قد حباهم به وجعل معجزته فيهم على لسان النبي العربى معجزة بيانية هى « القرآن » وهى معجزة دالة على مكانة العرب فى البيان ، كما كانت معجزة عيسى عليه السلام « إحياء الموتى » فى قوم اشتهروا بالطب ، وكما كانت معجزة موسى عليه السلام شق البحر وإحالة العصا حية فى قوم عرفوا بالسحر .

وافتخر العرب بالبيان واهتموا به أشد الاهتمام ، وأى اهتمام أكثر من أن الشاعر العربى كان الزعيم والحكيم وصاحب الأمر والمشورة ، وأن الشعر والخطابة كانا ميزتين يمتاز بهما الرجل بينهم ، ويحتفل بها القوم أشد الاحتفال فيعرسون إذا نبغ فيهم شاعر أو خطيب ويهنئ بعضهم بعضا ، وتغبطهم القبائل وتحسدهم ، لأن الخطيب أو الشاعر بينهم كان بمثابة اللسان الناطق بالفضائل ، الذاب عن التهم التى يوصمون بها .

وقد أدى البيان للعرب خدمات جلى ، منها أنه وحد بينهم فى الجاهلية وقرب بين نفوسهم ، وعطف أفئدتهم . يقول الدكتور طه حسين :

« إنما الذى استطاع أن يؤلف شيئاً ما بين هذه القبائل المتفرقة هو الشعر الذى لم يكد ينشأ حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية. فكان الشاعر العربى إذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى ناد من الأندية فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لغاتهم الخاصة ، ثم لم يكتفوا بفهمها وإنما كان الرواة يتناقلونها عن الشاعر ، وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرة العربية . . . فأول توحيد للعقل العربى إنما جاء من هذه الناحية ، فالمكون الأول لإيجاد وحدة بين هذه القبائل العربية إنما هو الأدب والشعر بنوع خاص »[1].

ثانيا ــ التاريخ والحضارة :

ويختلف التاريخ العربى عن غيره من تواريخ الأمم الأخرى بعنصر هام وطابع واضح يميزه ويدفع الحضارة العربية ويصبغها بصبغته ، ذلك العنصر هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. والإسلام هو دين العروبة

---

(١) من خطبة له عن « القومية العربية والأدب » فى مؤتمر الأدباء العرب الثالث بالقاهرة سنة ١٩٥٧ (مجلة أعمال المؤتمر ص ٦٠) .

المنبثق من صميم حياتها ، وهو الذى أتم صقلها وتهذيبها وأودع فى الشعب العربى طاقات جديدة ، وصفى طاقاته الموروثة ، وشذب خصائصه التى أشرنا إليها ، فاستأصل منها الشاذ النافر الذى كان من أسباب الضعف ويستهدف المصلحة الفردية أو المحدودة ، واحتفظ ببعض تلك الخصائص ونماها ، وعدل فى بعضها الآخر وطوره ، وأدخل فى الشخصية العربية عنصر الروح وقواه إلى جانب عنصر الواقع والمادة ، ونظم للعرب حياتهم ، وجعل لها هدفاً تسعى إليه ، وغاية سامية من وراء ذلك السعى . فبعد أن كان سعى العربى بدءاً لا هدف له غير ما يحصل عليه لشهوة بطنه أو فرجه ، أصبح يسعى لشىء آخر وتتعلق نفسه بعالم آخر وراء المادة ، بعد هذه الحياة الدنيا ، ويتعلق قلبه ببارئ كريم عادل قوى قادر ، تتمثل فيه الصفات المثلى التى ينشدها الإنسان . وهكذا دعا الإسلام العربى ليسمو عن واقعه وحسه ، ويصفى أكدار حياته بحياة قلبه .

ولم ينسخ الإسلام النظرة المادية والواقعية ، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس إلى الاهتمام بدنياهم إلى جانب الاهتمام بدينهم ، كذلك وجه عنايته إلى رفاهية العرب ، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد ، فسعادتهما مكفولتان فى الإسلام ، ولا يطغى

حق واحد منهما على الآخر . وهذه المعادلة بين المادة والروح ، بين الدنيا والآخرة ، بين العقل والقلب ، مسايرة لطبيعة الإنسان وخلقه ، فهو مادة وروح ، جسد وقلب ، كان المجتمع العربى قبل الإسلام يحيا على واحدة منهما ، ويهمل الأخرى ، فكانت النتيجة الانغماس فى تلك الفوضى ، وعدم الاستقرار ، والإخفاق فى الوصول إلى غاية .

ويكفل التعادل بين القوتين فى الناس البقاء للإنسانية والسير قدماً ، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفى برفاهية الخلق ، ولا تنهض وحدها بحل مشكلاتهم .

وقد سن الإسلام القانون الصالح لسعادة البشر : السلام ، والمساواة ، وتعادل الفرص بين الناس جميعا . فالسلام رسالة الإسلام للبشرية ، السلام من اسمه ، من التحية التى سنها ، من افتتاحاتهم فى القول والعمل ، من تردد اسمه فى الصلاة . . . السلام أنشوة الإسلام تتردد على لسان كل مسلم تذكرة وإقراراً له فى القلب .

والسلام ، والإخاء ، والمساواة معالم بارزة فيه ، فالدعوة إلى الإخاء والتعاون واضحة لا تحتاج إلى دليل ، والله تعالى يقول فى كتابه (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا

نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) . وفى الحديث الشريف : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . فقد فرض على الناس الاجتماع وضم الصفوف بصورة عملية متكررة كل يوم ، بل فى اليوم مرات بما فرض عليهم فى العبادات من صلوات الجماعة فى دائرة الحى ، والاجتماع كل أسبوع فى صلاة الجمعة فى دائرة البلد ، مدينة أو قرية ، والاجتماع كل عام فى مكة حول البيت العتيق فى موسم الحج فى دائرة العالم الإسلامى والعربى .

ودعا الإسلام إلى التعاطف وحسن الجوار ، وخاطب فى العرب خلق النجدة ، ووصاهم بالجار والعون ، خالصاً لا افتخاراً ولا عصبية ، بل إخاء ومودة .

كذلك ذم التحاسد والتنافس والتباغض ، ودفع الشرور الناجمة عن الاستغلال لمواطن الضعف فى الناس ، الضعف فى البنية ، أو الضعف بسبب قلة المال والفقر ، أو الضعف للضعة وتخلف النسب . فكفل للضعاف البنية الحماية ، فالطفل يحميه الإسلام ويحمى حقه ، والرجل الضعيف مقدم

على الرجل القوى ، لأن الأول غير قادر ، فولى الأمر يتولى عنه أمره وتحصيل حقوقه بين الناس . وقد قال أبو بكر رضى الله عنه قولته المشهورة : « الضعيف عندكم القوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى عندكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

والضعيف بفقد العائل ، اليتيم ، مقدم فى الإسلام ، ملحوظ مكفول الرعاية . نص القرآن على مراعاته فى مواضع كثيرة : (وأما اليتيم فلا تقهر) . كذلك الفقير يحتفظ له بحقه فى العيش الكريم لا يزحمه الغنى ولا يغصبه ، ويستأثر بالعيش وطيب الحياة دونه ، بل يكفل الإسلام له الحياة العزيزة، فالإنسانية عزيزة فى الإسلام ينبغى أن تكرم ، ولا يصح أن تهان . وعلى الغنى ضريبة يؤديها للفقير من ماله هى الصدقة والزكاة ، وليست تفضلا ولا هبة من الغنى ، كما أنها ليست تسولا ولا ضعة من الفقير ، بل حق معلوم مفروض لا تملص منه ولا فرار : (فى أموالكم حق معلوم للسائل والمحروم). والصلاة مقرونة دائما بالزكاة ، فهى فريضة ، تبدو قيمتها ، وخطورتها من اقترانها بحق الخالق ، فالصلاة حق لله على الناس ، والزكاة حق للإنسان على أخيه الإنسان للفقير على الغنى ، وهو حق

يعدل فى أهميته حق الخالق على خلقه لقاء ما وضع بين أيديهم من النعم وييسر لهم فى الحياة الدنيا من سبل العيش . فالصلاة شكر على تلك النعم ، والزكاة كذلك اعتراف بفضله تعالى وتحديث بنعمه .

وضروب الحماية التى سنها الإسلام للفقير ضد الطغيان من أصحاب المال – كثيرة ، منها ذلك الجزء المختص بالصدقة والزكاة ، ومنها ما يؤديه كل مرتكب مخالفة لأوامر الدين وشرائعه من فداء مالى فى صور مختلفة ، كتقديم المال للدولة اعتذاراً عن المخالفة ، أو التعهد بإعالة جماعة من الفقراء . كذلك حرم استغلال رأس المال للمحتاج عن طريق الربا الفاحش ، لأن الربا كسب غير مشروع ، واستغلال سيئ للحاجة ، وهو فى الوقت ذاته إعطاء رأس المال الحق فى الكسب دون نظر للجهد البشرى ، والإسلام لا يعترف بحق للمال منفصلا عن صاحبه الإنسان ، فالإنسان بسعيه لا بماله .

والحقير الوضيع اجتماعيًا فى الإسلام غير موجود ، ليس فى الإسلام إنسان حقير وآخر شريف ، ليس فيه من هم من نسل الآلهة ، وآخرون من البشر ، أو من هم أبناء الشمس وآخرون أبناء الطين . فالناس جميعا سواسية خلقوا من نطفة واحدة ، كلهم

لآدم وآدم من تراب ، وكلهم من ذكر وأنثى . والأنساب فى الإسلام موضوعة ، ليس فيه شرف راجع للدم وعراقة الآباء والأجداد ، ليس للعنصرية دخل فى تميز جنس عن جنس : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، الشرف فى الحياة بالسعى والجهد ، وبالكسب الشخصى ، وفى الآخرة بالعمل الطيب وتقى الله ، والسيرة الحسنة بين عباده .

وهكذا نجد أن القوة لم يعد لها تلك القيمة القديمة التى برزت فى مجتمع عرب الجاهلية بل حل محلها شيء آخر هو الحق ، حق المصلحة العامة ، حق الإنسانية ، حق الخالق سبحانه . وأصبح هناك شيء اسمه الخير ، وآخر اسمه الشر فى ميزان العدل ، وميزان الصالح الإنسانى ، ولم يعد للقوة اعتبار فى هذا الميزان الذى وضعه الله للناس :

(والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان)

وهذا الميزان دقيق ، جانباه الخير والشر ، لا توسط بينهما : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية) .

والإنسان المثالى الكامل ليس ذلك الإنسان الذى تتمثل فيه خصائص القوة ، والعنف ، والقدرة على أخذ حقه قسراً ، والقدرة على الكر والفر والمبادرة والقتال فحسب ، بل جدت فضيلة أخرى هى الإيمان وهو مجموعة الخصال الإسلامية ، وعلى رأسها الاعتقاد فى الله الخالق والقوة المهيمنة على الكون ، الرقيب العادل القادر ، قدرته فوق كل قدرة ، وقضاؤه فوق كل قضاء .

وصار طريق الخير هو العمل الصالح للفرد ، لنفسه وجماعته ، والإنسانية جميعا ، يتصل فيه بالله صلة قلب وروح وعمل.

وطريق الشر عمل طالح وتحطيم للفرد ، لنفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء ، وقطع للصلة بينه وبين ربه .

كذلك دعا الإسلام العرب والناس جميعا إلى ترك الانفرادية والانعزالية التى كانت مسيطرة من قبل ، وأصبح الإسلام يعتز بالجماعة ، الرأى للجماعة ، والصلاة للجماعة ، والحج للجماعة.

وصار العمل الموحد فى سبيل الغاية المشتركة هدف الناس جميعا ، فكلهم عباد الله ، وكلهم مشتركون فى هذه الصفة ، متساوون فيها ، ليس لأحدهم فضل ولا تقديم إلا بمقدار ما فى قلبه من الإخلاص وفى سعيه من عمل مثمر يعود على البشر بالخير والسعادة .

الإسلام وبناء القومية العربية :

إلى جانب هذا التطهير والتهذيب للنفوس ، وتحرير المجتمع العربى من الشوائب والمفاسد المتمثلة فى تقاليدهم وعاداتهم ، وفى قيمهم ونظرتهم للحياة ، والصلات المختلفة بين الناس ، وطرق العيش وتحصيل الكسب ، كذلك تحرير معتقداتهم وإرسائها على قواعد ثابتة مكينة ، إلى جانب هذا كله نجد الإسلام قد وضع الأسس للتاريخ المجيد للأمة العربية ، وهو الذى شيد على تلك الأسس « القومية العربية » بمفهومها الذى نعرفه الآن ، متمثلا فى اللغة والتاريخ والحضارة ، كذلك كان الإسلام سببا فيما نحيا فيه الآن من ثمرات تلك القومية . فقد دعا العرب المتباعدين المتنافرين إلى تكوين أمة مترابطة متجانسة موحدة الأهداف والآمال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) و (كذلك جعلناكم أمة وسطا ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

فهذه الآيات واضحة الدلالة على أن الإسلام خلق هذه

الأمة العربية ورفع مكانتها بين الأمم وشرفها بهذه الرسالة السامية، وأعطاها من تراث العلم والمعرفة ما تستطيع أن تقف به بين الأمم مفاخرة معتزة .

وخلق الإسلام الأمة العربية بتوحيد قبائلها وفض منازعاتها، وتوحيد جهادها ، ورسم أهدافها لخير العرب وخير البشرية ، فخرج العرب من الشقاء والتخلف والضياع إلى النعيم والمجد والسؤدد والازدهار وبعث فى نفوسهم العزة القومية ، ومحق العزة القبلية الفارغة ، فأصبحوا فى أمتهم وقوميتهم الجديدة موضع الاحترام والتقدير والإجلال ، بعد أن كانوا موضع الاحتقار والازدراء ، مستضعفين فى الأرض تتنازعهم الأمم بين روم وفرس .

وبعد أن أتم الإسلام توحيد جبهته الداخلية فى بلاد العرب فى الجزيرة ، وبعد أن وحد أطرافها ، وقضى على الحواجز التى كانت تحجز بين قبائلها ، وأزال العصبيات بينها ، وبنى على أنقاض نظمها القديمة نظاما جديدا موحدا ، له دستوره ، وتشريعه وأهدافه ، أطلق تلك القومية الناشئة ، وفتح أمامها الطريق لإبلاغ الرسالة للناس جميعا فى أقطار الأرض ، وهكذا كل أمة تنبعث فى داخلها ثورة « تقدمية » ترى فيها تخليصا

للبشر مما يسوده من فساد ، تحاول أن تبسط دستور هذه الثورة وقيمها على مستوى عالمي شامل . كان هذا حال المصريين القدماء فى أوج حضارتهم ، أرادوا أن ينشروا تلك الحضارة فيمن حولهم من الأمم ، وكان هذا حال اليونان بعد أن بلغوا أوج ازدهارهم الفكرى فى عصر الإسكندر المقدونى ، وكان هذا أيضا حال الرومان حين بلغوا درجة من الرقى الدستورى والحضارى أرادوا أن يبسطوه على دول الشرق والغرب وكذلك الحال فى دول التاريخ الحديث وثوراته وحركة النهضةالأوربية الأخيرة والثورة الفرنسية والتوسع الأوربى ، ثم التوسع الأمريكى كل هذه شواهد مكررة .

ويختلف الإسلام عن الحركات التحررية السابقة واللاحقة بأنه سن دستورا الحياة للناس جميعا منذ بدء الدعوة ، لم يكن دستوره مختصًّا بالشعب العربى وحده بل كانت الدعوة للناس كافة . وهكذا تحركت القوى العربية للتوسع فيما حولها من البلاد .

وبدأ التاريخ العربى الإسلامى يكتب سطور المجد ، فكان للأمة العربية ذلك السجل الحافل المليء بالمفاخر العربية والتجارب . وكان دور الإسلام فى هذا التاريخ هو الروح

والدافع ، أو القوة الكامنة ، وكان العرب الأداة المنفذة ، أو الصورة المادية للحركة . لقد سن الإسلام الجهاد وأثاب عليه ، فاستعذب الناس بذل النفس فى سبيل الغاية الجماعية ، فى سبيل الرسالة التى يحملونها للبشر . وبهذا بدأت حركة الغزوات الكبرى والفتوح العربية فى عهد الخلفاء الأربعة ، وعهد بنى أمية ، والعباسيين . وامتدت رقعة العالم العربى من بلاد الهند وحدود الصين إلى المحيط الأطلسى ومن تركيا شمالا إلى السودان جنوبا .

وقامت الدول والإمارات هنا وهناك فى مختلف العصور منذ القرن الأول إلى القرن الرابع عشر اتصلت فيها الأمة العربية بكثير من الدول والأجناس . فاختلطت وتعاونت ، واصطدمت وتعاركت وتصارعت صراعا شديدا ، صراع حياة وموت ، واستطاعت الأمة العربية خلال هذه الاتصالات والاصطدامات أن تنمو وتزدهر ، واضطرت أحيانا أن تغلب على أمرها إذ تتألب عليها عناصر البغى والعدوان ، ولكنها كانت تعود ، وتبعث من جديد أشد عودا وأقوى عزيمة .

ولعل أخطر العناصر التى تألبت على الأمة العربية فى تاريخها الطويل: الشعوبية ، والعنصرية الفارسية ، ثم الترك ،

والمغول ، والصليبيون ، والعثمانيون .

أما الشعوبية والعنصرية الفارسية فقد هاجمت القومية العربية عقب حركة الفتوح وتكوين الأمة العربية الكبرى ، وقد عز على الفرس أن يخلفهم العرب وينتزعوا منهم ملك تلك البلاد الواسعة ، التى كانوا هم سادتها ، والتى كانوا فى صراع مع الروم من أجلها . كذلك عز عليهم أن يصبح العرب ذووالمجد الحديث والتاريخ القريب سادة الفرس ذوو المجد العريق والتاريخ التليد ، وعرف الفرس أن وراء الثورة العربية والمجد الذى أحرزوه ذلك الكتاب « القرآن » الذى رسم لهم طريق الحياة الكريمة ودفعهم دفعا إلى تحقيق غايات نبيلة وهمم واسعة فى العالم من حولهم ، كذلك عرفوا أن الشخصية العربية تتمتع بمجموعة من الخصائص هى التى أشرنا إليها ، وأن هذه الأمة الفتية لم ينخر فى عظامها هرم الحضارة وداء الأمم فحاولوا جهد طاقتهم أن ينفذوا إلى العروبة فينفثوا سمومهم فى عقيدتها وقيمها حتى تهتز تلك العقيدة وتتخلخل ، وتتحطم القيم ولا يبقى بين أيدى العرب ما يعتزون به ، ويحافظون عليه . وهكذا تدخلت عناصر منهم فى صفوفهم فبعثوا الاضطراب وأدخلوا فى عقائدهم البسيطة السمحة أمشاجا من العقائد القديمة استطاعوا أن يخلطوها

بالعقدية الإسلامية ، وأن يموهوا على العرب ويزينوها لهم ، فقامت المذاهب والشيع ، والملل والنحل ، وكانت تصطبغ الصبغتان السياسية والدينية معا ، وهكذا شاهدنا طوال القرنين الثانى والثالث ، بل ابتداء من النصف الثانى من القرن الأول صراعا قويا عنيفا بين المذاهب السياسية التى لونتها صبغات عقدية وافدة ، بين الأموية والمروانية ، والشيعة العلوية ، والخوارج ، والمعتزلة ، والصابئة والمرجئة . . .

ولم يقتصر عمل الشعوبية والعصبية الفارسية فى هدم القومية العربية على التداخل فى الصراع السياسى لتفتيت وحدة الصف العربى ، وتأليب أبناء العروبة بعضهم على بعض حتى يختلفوا فيفترقوا وتذهب ريحهم ، بل وجهوا همهم ناحية القرآن ، فحاولوا أن يدسوا فى أذهان العرب الشكوك والمطاعن فيه ، بل دسوا الأحاديث لخدمة أغراضهم ، وامتد عبثهم إلى اللغة والشعر فانتحلوا فيهما الشىء الكثير . وحملوا على العروبة باعتبارها عنصرا ممتازا كما كان العرب يعتقدون فى أنفسهم ، فطعنوا فى التقاليد العربية ، هاجموا النسب ، ودسوا الأنساب لمن ليس له فى النسب نصيب ، وجمعوا المثالب وشهروها على الملأ حتى يقف العرب على عيوبهم ومخازيهم فيستخزون ، ولم

يتورعوا عن أن ينشروا لقريش موضع التقديس والقيادة مخازى اصطنعوها .

كذلك أشاعوا فى المجتمع العربى الانحلال بضروب اللهو بالجوارى ، والخمر ، وبالتحلل الدينى ، فأشاعوا الزندقة وصارت هذه آفة المجتمع العربى الإسلامى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . وكانت النتيجة طبيعية بعد هذا ، أن ينصرف العرب عن أهدافهم ،عن الجهاد والدعوة إلى تحصيل المال ، والعبث، واستولى الفرس على ناصية الأمور ، وكانت لهم القيادة الفعلية والرأى والمشورة ولم يعد للعرب غير المنزلة الثانية ثم الثالثة . . .

وشارك الفرس الأتراك فى التآلب على الدولة العربية ، وقد بدأ هذا التآمر بعد تكاثرهم فى قصر الخلافة العباسية فى صورة حريم وخدم وقادة وجند ، وعبث الأتراك بالخلفاء ومصاير الخلفاء حتى صارت الخلافة ذات المنزلة المقدسة بين المسلمين أضحوكة ولعبة يستخزى منها المسلمون والعرب وكان تآمر الترك أشد سفوراً وقحة ، لأنهم لم يملكوا من الثقافة والمجد ما كان يملكه الفرس .

وجاء المغول من الشرق كالريح العاصفة ، يزحفون فى جحافل عديدة حانقة غاضبة ، بربرية تكتسح المدن العربية

الإسلامية ، وتحطم فى طريقها كل شىء من معالم الحضارة ، حتى الكتب ودور العلم أحرقوها وداستها أقدام الخيل ، وبعثرت الكتب التى تحمل خلاصة الثقافة العربية فى دجلة وعبر عليها المغيرون .

وقابل الزحف المغولى من الشرق زحف آخر حانق ساخط من الغرب ، حيث تدافع الصليبيون من دول أوربا ، دفع بهم إلى أرض العروبة أيضا الحسد والحقد والطمع والرغبة فى امتلاك ما فى أيدى العرب من ثمار حضارتهم الزاهرة ، فأقبلوا فى جحافل متتابعة كأرجال الجراد ، أهاجها القحط والجدب فى بلادها إلى أرض العروبة الخضراء الزاهرة ، فجاءوا يدمرون ، ويرثون ، ويقيمون فى قلب الأمة العربية فى الشام والأندلس الإمارات الصليبية ، ويحاولون فى مصر ولكنهم يبوءون بالفشل ويرتدون خائبين .

وكان الأتراك العثمانيون خاتمة المطاف ، وكانوا أشد العناصر خطورة على الأمة العربية ، لأنهم كانوا مسلمين ، لأنهم كانوا يشتركون مع العرب فى الإسلام ، واغتصبوا الخلافة لأنفسهم ، واغتصبوا معها كل مقومات الحضارة ، فانتهت الحضارة الزاهرة إلى خراب فكرى وموات سياسى . وظلوا طوال حكمهم الطويل

الذى امتد طوال خمسة قرون ، يستنزفون دم العروبة، فجفت عروق الحياة فى شجرتها النضيرة، ولم يبق فيها غير هيكل قائم بلا روح . وقد سلطهم الله على القومية العربية ، فصاروا لها حربا ، وأسكتوا لها كل لسان ، وحطموا كل جارحة . . .

ولم يخفت صوت العروبة مع ذلك فى النفوس ، بل ظلت القومية مشتعلة فيها فى أشد الأوقات ظلمة ، وكان الأدب دائما المتنفس ، يذكر الناس ويجدد حيويتهم ، ويسرد الأمجاد الطويلة ، ويبث العزة ، ويحمل على التخاذل والهون ، ويحطم العناصر المخربة المتطفلة . وهذا المتنبى شاعر العروبة الكبير الذى عاش فى القرن الرابع فى الوقت الذى ساد فيه الترك يحمل على الأوضاع الشاذة فى الدولة العربية ، حيث يحكم الأغراب من العجم والترك ويسودون أصحاب الدولة الحقيقيين العرب فترى فى شعر المتنبى ثورة عارمة ، ونفسا عربية شامخة تسخر بانقلاب الأوضاع وتملك الخدم والعبيد ، لقد كان شاعرا ثائراً يمثل صحوة الروح العربى، ونذكر بعض ما قال فى هذا الموضوع ، فمنه :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر

فالآن أقحم حتى لات مقتحم

ولأتركن وجوه الخيل ساهمة
والحرب أقوم من ساق على قدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها
حتى كأن بها ضربا من اللمم
قد كلمتها العوالى فهى كالحة
كأنما الصلب معصوب على اللجم
بكل منصلت ما زال منتظرى
حتى أدلت له من دولة الخدم

ويعنى دولة الخدم الأتراك الذين تملكوا الدولة فى بغداد .

وقال :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

ويقول :

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وهؤلاء أيضا جماعات من الشعراء فى العصر الذى غلب فيه السلاجقة والصليبيون ، نذكر منهم الأبيوردى الشاعر العربى الذى رثى بيت المقدس بعد سقوطه ، واستنهض الهمم لاستخلاصه فقال :

مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم
وقائع يلحقن الذرا بالمناسم

. . .

أرى أمتى لا يسرعون إلى العدا
رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
وتغضى على ذل بأيدى الأعاجم

لئن أذعنت تلك الحياشيم للبرى
فلا عطست إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب تدعو ملحة
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية
تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه
رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وكذلك كان الحال فى عصر الحكم العثمانى فقد انطلق الشعراء يحملون على مفاسد العثمانيين ويستنهضون همم العرب كما سنرى بعد قليل .

ذلك هو تاريخ الأمة العربية قبل بعثها الحديث ، تاريخ ملىء بالأحداث والأمجاد والبطولات ، والأبطال الذين ما زالوا يحيون فى قلوبنا ووجداننا ، ويتمثلون فى خواطرنا ، وتتجسم لنا فى حياتهم وأعمالهم مثلنا العربية الإسلامية ، وخصائص العروبة والإسلام ، وما زال أولئك الأبطال يضربون للإنسانية المثل على صفاء العنصر العربى ، وقوته عبر الأزمان . كان

لنا فى هذا التاريخ محمد صلوات الله عليه بطل القومية وزعيمها الأول ، وأبو بكر وعمر بن الخطاب فيلسوف التشريع والحكم العربى ، وعثمان ، وعلى البطل العف ، وخالد بن الوليد المظفر عبقرى الفتوح ، وصلاح الدين الأيوبى الزعيم والقائد الإنسانى النبيل الذى وحد جهود الأمة العربية وقادها قيادة مظفرة للوقوف فى وجه الأطماع الصليبية ، وضرب أروع الأمثلة على سلوك العرب حيال أعدائهم ساعة النصر سلوكا إنسانيا .

هذا تاريخنا المشترك الذى تحيا الأمة العربية على تجاربه ، ونستعيد فى دعوتنا القومية ذكراه العطرة ، لنحيا بنفحاتها ، ونشد عودنا فى مواجهة الصعاب فى زحفنا نحو أهدافنا المنشودة .

ثالثا — اللغة والثقافة :

وتعتبر اللغة العربية عنصرا هاما فى تكوين القومية ، ويعتبرها بعض المفكرين على رأس العناصر جميعا ، والحق أن هذه اللغة العربية التى تربط العالم العربى من شرقيه إلى غربيه لم تنتشر هذا الانتشار ، ولم تحظ بهذا الخلود والبقاء الذى استمر ثلاثة عشر قرنا وأكثر إلا بفضل الإسلام . ونعرف أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل متفرقة بعضها يسكن شمال الجزيرة وبعضها

الآخر ينتشر فى وسطها ، وجزء منهم يستوطن اليمن والسواحل الجنوبية ولم تكن لهجاتهم كلها واحدة ، بل الاختلاف بين تلك اللهجات كان شديدا أحيانا لدرجة أن تصير بعضها لغات منفصلة ، وليست مجرد لهجات من لغة واحدة . وقد ذكر كثير من الباحثين فى تاريخ العرب واللغة العربية أن لغة الجنوب كانت تختلف عن لغات الشمال ، بل إن العرب أنفسهم ذكروا ذلك . ذكر ابن سلام مثلا عند حديثه عن الانتحال فى الشعر العربى أن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : ما لسان حمير بلساننا . أى أن لغة حمير الجنوبية لم تكن هى اللغة التى نتكلم بها والتى نزل بها القرآن . كذلك كانت للعرب الملاصقين لبعض الأمم الشمالية لغات تختلف عن الحميرية ، وعن العربية الحديثة لغة القرآن كما كشفت بعض النقوش والخطوط التى عثر عليها فى أجزاء متفرقة من شمال الجزيرة ، وتوفر على دراستها جماعة من علماء اللغة الغربيين .

واللغة التى نزل بها القرآن عاشت فى وسط الجزيرة فى الحجاز ونجد وبعض المناطق شرقى الجزيرة العربية ، ثم انتشرت بعد ذلك فى سائر أنحائها نتيجة انتقال القبائل وتفرقها من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب . . . وقد لعب الشعر

العربى الذى بدأ يظهر بصورة ناضجة قبـــل الإسلام بمائتى عام أو أكثر قليلا دورا هاما فى انتشار اللغة الفصحى ، وذلك لأسباب منها أن الشعر كان مظهر النشاط الفكرى والفنى للعرب الذين لم يكن لهم أى نشاط فنى آخر يجتمعون إليه ويقضون أوقاتهم ، كما كان لليونان مثلا مسارحهم وملاعبهم التى يزاولون فيها نشاطهم التمثيلى والرياضى ، وكما كان للرومان من مجتمعات وأندية سياسية . وقد قام الشعر بدور الصحافة هذه الأيام إلى جانب دور التمثيليات ، فقد كان العرب يجتمعون فى مواسم كبيرة فى « عكاظ » و « ذى المجاز » وغيرهما من أسواق العرب المعروفة ، يتاجرون ، ويعقدون المؤتمرات يفضون ما بينهم من نزاع وخلافات ، ويستمعون إلى الشعراء والخطباء وما جددوا من قصائد ذات شأن ، ويعقدون المسابقات فيقدمون من الشعراء من يرون فى شعره التقديم ويؤخرون من يستحق التأخير ، وكان العرب يولون نتائج تلك المسابقات أهمية بالغة ، ويحفلون لها أشد الاحتفال . وكانت سمعة القبيلة تتوقف إلى حد كبير على ما يقدمه شعراؤها فى المواسم من شعر يحوز القبول ، ويسمو على غيره من شعر القبائل . وهكذا كانت مواسم الشعر تنعقد مرات كل عام فى أماكن مختلفة من الجزيرة ويفد إليها العرب من

كل مكان من الشمال والجنوب ، من الشرق والغرب . وساعدت هذه الحركة ، التجمع فى مواسم متقاربة كل عام ، والتنقل من مكان لمكان ، وسماع الشعر إلى تقارب اللهجات واندماجها شيئا فشيئا ، حتى صارت لغة الشعر والخطابة لغة موحدة تقريبا بين جميع القبائل ، وصارت هى اللغة الفصحى التى روى لنا بها كل تراث الشعر العربى قبل الإسلام ، وإنا إذا استعرضنا شعر الفحول قبل الإسلام لا نكاد نجد اختلافا كبيرا بين شعر امرئ القيس الشاعر الكندى (الجنوبى القبيلة) الذى عاش قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين عاما وبين شعر الأعشى الذى أدرك الإسلام ، أو زهير وابنه كعب الذى أسلم وصار أحد شعراء النبى وكل منهما ينتمى إلى قبيلة شمالية الأصل ، فالأعشى قيسى وزهير ذبيانى .

إذاً فقد مهد الشعر العربى لظهور لغة موحدة أدبية راقية ، ينظم فيها العرب إنتاجهم شعرا ونثرا ، وكان لقريش أثر كبير فى هذه اللغة الجديدة ، ومعروف أن قريشا كانت تسكن مكة وتسيطر إلى حد كبير على طرق التجارة عبر الجزيرة ، كذلك كان نفوذها الأدبى واسعا بين القبائل ، وكانت مكة موطن قريش بمثابة العاصمة التجارية والسياسية للعرب قبل الإسلام ،

كما كانت أيضا العاصمة الدينية وكان اجتماع العرب كل عام في موسم الحج لتبادل التجارة وقضاء الأعمال الهامة ، وزيارة الكعبة ثم الانصراف إلى عكاظ قرب مكة للاستماع إلى الشعر ، من أسباب سيادة لغة قريش ، فقد كان في يدها الثروة ، والنفوذ ، والدين ، لهذا حرصت القبائل على تعلم لغتها ، وهكذا سادت لغة قريش ، وليس ذلك بغريب ، فنحن نلاحظ في عصرنا الحديث كيف تسود لغة أمة من الأمم أمة أخرى أو مجموعة منها إذا كان لها من النفوذ والسلطان عليها ما يمكن لتلك السيادة ، فقد سادت اللغة التركية طوال الحكم العثمانى وأصبحت اللغة الرسمية لكثير من البلاد العربية ، كذلك سادت اللغة الإنجليزية في كثير من البلدان التي احتلها الإنجليز ، وكان لهم من نشاطهم التجارى الواسع أثر كبير في انتشار لغتهم .

وجاء القرآن بلغة هي ذروة ما وصلت إليه اللغة الأدبية ، وكان بلغة قريش ، ولكنه مع ذلك لم يخل من لغات بعض القبائل ، وهذا معنى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، وليس المقصود بالعدد سبعة هنا التحديد ، بل القصد التعدد ، أى أن القرآن جمع في لغته لغات القبائل مندمجة في لغة قريش ، فاختار أفصحها وأقربها تلاؤما مع لغة قريش ، وقد وردت في

القرآن ألفاظ ذات أصول نبطية ، أو فارسية أو يونانية ، وهذا له دلالتان ، إما أن لغة قريش نفسها قد تسرب إليها بعض تلك الألفاظ نتيجة تنقلهم بالتجارة فى بلاد فارس أو العراق والشام ومصر ، أو أن القبائل العربية المتاخمة لتلك البلاد قد دخلتها ألفاظ من لغاتها ، ومن ثم تسربت إلى لغة قريش ولغة القرآن . وقد نزل القرآن بلغة القوم وبلسانهم الذى يتكلمون .

وبعد نزول القرآن ، انتشرت اللغة التى نزل بها بين القبائل انتشارا واسعا ، لأنه الكتاب الذى حمل تشريع الدين الجديد وقوانينه ، ولأن سوره تتلى فى الصلوات ، وهو بعد هذا كله لغة الدولة الناشئة فى مكة والمدينة .

وبدأت حركة الفتوح وخرجت الجيوش من المدينة تحمل القرآن واللغة العربية إلى البلاد والأمصار فى الشرق والغرب ، وتغلغل العرب بعد الفتح فى تلك الأمصار ، وأقاموا ، واختلطوا بأهلها فانتشرت معهم اللغة بالاختلاط والإسلام ، فمن لاصق العرب من أبناء البلاد ، تعلم اللغة ، ومن أسلم وجب عليه تعلمها لقراءة القرآن والصلاة وأداء الفروض . إلا أن الذى أسرع بالتعريب ، ذلك الأمر الذى أصدره الخليفة عبد الملك ابن مروان بتعريب الدواوين فى جميع البلاد المفتوحة، وكانت

الدواوين تعمل بلغة تلك البلاد ، فى العراق وفارس بالفارسية ، وفى مصر بالقبطية واللاتينية . وهكذا اضطر الناس إلى تعلم اللغة العربية من أسلم منهم ومن لم يسلم وبذلك سادت العربية وصارت اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية .

ودخلت أمم كثيرة فى العروبة بتعلمها اللغة العربية ، وانصبت فيها ثقافات تلك الأمم فورثتها ، وأشركت العربية مع العرب الشعوب الأخرى فى اللسان والعواطف والآمال .

وفتح الإسلام للعرب نوافذ العقل وشجعهم على العلم ، وكانوا من قبل أمة أمية ، جاء فى الكتاب الكريم : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوعليهم آياته و يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

ودعا الفكر العربى إلى ثورة ، وحفزه على التأمل والتبصر فى الخلق والكون ، وفى قدرة الله خالق الكائنات ، وفى لطائف صنعه ، وعجائب خلقه ، دعاه إلى التأمل فى السماوات والأرض وإلى خلقهما ، والبحث فى أوليات الخلق فى السماء والأرض كيف تم تكوينهما ، فى الشمس والقمر والنجوم ومسار كل منها فى أفلاكها ، والليل والنهار وتعاقبهما ، وحساب الشهور والسنين . ثم خلق الحيوان والنبات والماء وما يحويه من أحياء ،

والإنسان وصلته بتلك الأحياء جميعا وبالكون، وتميز الإنسان بالعقل واللسان، وما تؤول إليه الحياة الإنسانية بعد الموت، ثم ما تؤول إليه حياة الكون: أيظل هكذا سرمدا، أم له نهاية؟ وعلى أية صورة تكون تلك النهاية؟ لقد فتح القرآن الباب أمام هذا كله للبحث والتأمل.

وبدأ الفكر العربى بتفسير القرآن، فكان القرآن إذًا نبعا للثقافة العربية، منه انبثقت فروعها المختلفة، ومن التفسير خرج التشريع والفقه، وللتفسير اهتم العرب بدراسة النحو واللغة، وجمعوا الشعر ودونوه واستشهدوا بالشعر وبعلوم البيان على إعجاز القرآن، فنمت دراسات الأدب والنقد وتطورت.

ومن القرآن خرجت الفلسفة الإسلامية، ودارت مسائلها الكبرى حول حقائق الإسلام الكبرى، حول الله وصفاته، والخير والشر، والجبر والاختيار فى أعمال الإنسان، وغاية الحياة الإنسانية... وما إلى ذلك، ونشأت المدرسة الفكرية الأولى متمثلة فى جماعة من علماء المسلمين الذين أعملوا العقل فى مسائل الدين، ونعنى بهم جماعة «المعتزلة» الذين كان من بينهم، واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، والجاحظ، والزمخشرى.

وخرجت لنا المدرسة الفكرية العربية الإسلامية كبار

الفلاسفة الذين ما زالت كتاباتهم عنوان التطور الكبير الذى انتهى إليه العقل العربى الإسلامى ، خرجت لنا الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فى موازاة كبار الفلاسفة اليونانيين أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطاليس . وقد حفظت الفلسفة الإسلامية التراث الإنسانى فى فلسفة اليونان ، وحملته وزادت فيه طوال خمسة قرون ، وبلغته للفكر الأوربى عن طريق كتابات ابن سينا وابن رشد وغيرهما . وكان لفلاسفة العرب والإسلام أثر كبير فى النهضة الأوربية .

واهتم العرب والمسلمون أيضا بالنظر فى العلوم الطبيعية والرياضية ، وكان حافزهم كذلك تشجيع القرآن لهم فى البحث والتحقيق ، والكشف عن أسرار الحياة فى الأرض والحيوان والنبات . ودرس العرب والمسلمون كل ما استطاعوا التوصل إليه من دراسات قدماء اليونان والفرس والهنود ، وكانت لهم جهود موفقة اشترك فيها جماعة من العلماء الخالدين كالخوارزمى ، وابن الأنبارى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وعمر الخيام ، وجابر ابن حيان .

وكان لهم فى الطب آثار مذكورة ، واشتهر عدد كبير من الأطباء وعلماء الأدوية ، نذكر منهم ابن البيطار ، ابن ميمون ،

وابن سينا بطبيعة الحال ، وداود الأنطاكى .

وتقدم العرب فى العلوم الإنسانية ، فكانت لهم الأعمال الكبيرة فى علوم التاريخ والبلدان والعمران . واشتهر من المؤرخين المسعودى ، والطبرى ، وابن الأثير ، وابن تغرى بردى ، وابن خلدون ، ومن علماء العمران والبلدان الإصطخرى ، وابن خرداذبه وابن مسكوية ، وياقوت الرومى ، والمقريزى ، ومن الرحالة المشهورين ابن جبير ، وابن بطوطة .

كذلك اتجه الفن العربى وجهة كان للإسلام إلى جانب الذوق العربى أثر واضح فيها ، فلم تهتم مدارس الفن العربى الإسلامى بالتشخيص أو الكائنات الحية فى أعمالها ، صرفت اهتمامها إلى العناصر النباتية ، والأشكال الهندسية . كذلك لم يهتم المصور الإسلامى العربى بالتعمق فى الصورة وإظهار الظلال والأبعاد المختلفة بل جل همه إظهار التفاصيل ، ولو كان ذلك على حساب نسب الأشياء ، فى الحجم أو البعد .

ولا شك أن نظرة التحرج التى كان ينظر بها المسلمون إلى رسم الأشخاص أو الحيوان ، أو نحتهما بسبب الوثنية وعقائدها واستكثارها من رسوم الأشخاص وتماثيلهم ، وخاصة فى الكعبة وأصنامها ، دعت إلى الابتعاد بقدر الإمكان عنها ، والإكثار

والتفنن فى الزخرفة الهندسية أو البناتية « الأرابسك » وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن العرب لم يكن لديهم رسم أشخاص ، بل إن ذلك وجد قليلا وفى أعمال متأثرة بالفن الفارسى أو البيزنطى وفى عصور متأخرة إلى حد ما .

ويظهر الذوق العربى فى الفن فى الميل إلى تكرار الوحدات ، وإبراز الخصائص الفرديـــة لتلك الوحدة المكررة ، والتماثل الشكلى ، واللونى ، ثم محاولة إرضاء الحس ، أكثر من إعطاء الفكرة ، أو إعطاء الموضوع الدرجة الأولى فى الأهمية . وينسحب هذا الطبع على الأدب ، فنجد الاعتماد على الوحدات المنفصلة واضحا فى الشعر وإعطاء الأهمية للبيت ، وللجرس ، وللفظ ، كذلك الحال فى النثر ، وميله أحيانا إلى السجع وترديد فقرات متساوية الطول ، أو متوازنة فى النفس والجرس بصورة تشبه الأبيات فى القصيدة ، والوحدة فى الشكل الزخرفى .

وهكذا نجد أن تراثنا اللغوى والثقافى ، قد نما وتطور خلال تاريخنا الطويل ، وأصبحت لنا شخصيتنا الثقافية المستقلة ، التى تتميز بخصائص تبرزها عن غيرها ، ولا نقول إن الصلة مقطوعة بين ثقافتنا العربية وغيرها من الثقافات الإنسانية قديمها وحديثها ، بل على العكس ، ربما كانت الثقافة العربية أكثر

الثقافات جمعا للثقافات ، وأقربها وشائج لكثير منها ، فطبيعة الأمة العربية ووجودها وسطا بين أمم الشرق والغرب مكنها من أن تجمع نفائس ما حوت كل منها ، جمعت ذخائر الهند والفرس وتراث اليونان والرومان ، ثم كان زمان الحضارة العربية وسطا بين الحضارات ، فقامت بدور الوسيط الذى انتقلت خلاله حضارة العالم القديم إلى العالم الحديث ، فأخذت أوربا فى عصر الحروب الصليبية وما بعدها ، عن طريق اتصالها بالعرب فى سوريا ومصر وإسبانيا وإيطاليا وتركيا ، كثيرا من الفكر العربى وما أبدعه فى ميادين الثقافة المختلفة .

واستمر الاتصال بين الثقافتين ، الغربية والعربية، إلى عصرنا الحديث ، فقد ازدهرت الثقافة العربية مرة أخرى عن طريق اتصال مصر والشام بأوربا ابتداء من القرن الثامن عشر ، وقد زاد هذا الاتصال واشتد فى القرن التاسع عشر ، إذ أقبل المستشرقون على الدراسات العربية يحيونها ، فيطبعون الكتب القديمة القيمة ، ويخصصون للدراسات العربية أقساما خاصة فى الجامعات الأوربية . وربما كان الدافع وراء هذه الحركة هو الاستعمار ، ولكن مهما كان ذلك الدافع فقد أدى اهتمام المستشرقين بالدراسات الشرقية والعربية خاصة خدمات جلى

لعصر ازدهارنا الثقافى الحديث ، وكان الدور التالى على أبناء الأمة العربية أنفسهم ، فقد قاموا بنقل كثير من التراث الغربى فى العلم والأدب ليطعموا به الثقافة العربية القديمة ، وسرت فعلا تلك الدماء الجديدة ، فكان لنا هذه الثقافة التى نعيش فى ظلها الآن والتى نحاول أن نسبق بها الزمن ، وأن نلحق ركب الحضارة الذى خلفنا وراءه سنين عديدة .

رابعا — الوطن الجغرافى :

ينبسط الوطن العربى فوق وحدة إقليمية مترابطة فيما بينها بروابط طبيعية ، وهو ينقسم فى صورته العامة إلى مجموعتين كبيرتين ، المجموعة الآسيوية ، وتشمل العراق وسوريا (الإقليم الشمالى للجمهورية العربية المتحدة) ، ولبنان ، والأردن ، وفلسطين ، والعربية السعودية ، واليمن ، وإمارات الخليج العربى ، وإمارات الجنوب العربى ، ثم المجموعة الأفريقية وتشمل : مصر (الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة)، والسودان ، وليبيا ، وتونس والجزائر والمغرب . وتتصل كل مجموعة فيما بينها بروابط طبيعية هامة ، فيرتبط العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين بما يعرف باسم « الهلال الخصيب »

كذلك ترتبط مجموعة « الهلال الخصيب » بالجزيرة العربية (اليمن والعربية السعودية وإمارات الخليج والجنوب) بالخليج العربى والبحر الأحمر ، وهما طريقان مائيان هامان منذ أقدم العصور .

كذلك ترتبط المجموعة الآسيوية كلها بالمجموعة الأفريقية كلها عن طريق شبه جزيرة سيناء ومصر ، ويرتبط الساحل الأفريقى الشمالى فى وحدة جغرافية متجانسة تضم دول ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وترتبط مصر بالسودان بالنيل النهر الخالد .

وللعالم العربى حدود مشتركة طبيعية تحيط به وتفصل بينه وبين البلاد الأخرى غير العربية ، ففى الشمال جبال طوروس ، وفى الشرق الخليج العربى والهضبة الإيرانية ، وفى الجنوب المحيط الهندى وبحر العرب وهضبة البحيرات والصحراء الكبرى فى أفريقيا ، وفى الغرب المحيط الأطلسى .

ولا يعد البحر الأحمر الذى يفصل بين القسمين الشرقى والغربى من الدول العربية فاصلا حقيقيًّا لأنه أشبه ببحيرة داخلية ، لم يعق تحرك الهجرات البشرية من الجزيرة إلى السودان ومصر ، وكانت أظهر تلك الهجرات أثرا هى الهجرات العربية قبل الإسلام وبعده .

ومن هذا العرض المبسط للوطن الجغرافى يتضح أن العالم

العربى يتكون من وحدات متماسكة مترابطة من الناحية الطبيعية والبشرية . ويكاد التقارب والتناسق المناخى بين أجزائه أن يكون تاما ، فالاختلاف بين درجات الحرارة ، وبين ظروف البيئة ليس بعيدا ولا واسعا ، فأكثره يعيش فى إقليم « بحر متوسط » فيما عدا السودان وجنوب الجزيرة تقع فى الأقاليم المدارية ، والتدرج مع هذا موجود بين الإقليمين

كذلك نجد أن أكثر بلاده تعيش على سهول نهرية كما هو الحال فى مصر والسودان والعراق ، أو سهول ساحلية كما هو الحال فى البلاد الواقعة على البحر المتوسط ، أو سهول صحراوية كما هو الحال فى الجزيرة العربية .

وقد مكنت هذه الطبيعة المتجانسة للقبائل العربية من الانتشار فى أنحاء العالم العربى والاستقرار واستطاعت أن تتكيف بسرعة مع ظروف البيئة فى كل إقليم نزحت إليه ، وبقيت لها مع ذلك خصائصها الأصيلة لم تتغير: اللغة ، والدين ، والدم العربى ، وبعض الطباع العربية التى أشرنا إليها .

واتصل تاريخ هذه المنطقة من آلاف السنين ، فصلة وادى الرافدين بالشام وبالجريرة العربية قديم قدم بابل وآشور ، والهجرات مستمرة من قلب الجزيرة إلى العراق والشام والعكس ، كذلك صلة الجزيرة والعراق والشام بمصر قديمة قدم الفراعنة ،

خرجت جيوش الفراعنة من مصر وجابت هذه البلاد وعقدت الصلات ووثقتها ، كذلك وفدت جموع كثيفة من تلك البلاد إلى مصر ممثلة فى الهكسوس أحيانا ، وفى أمم أخرى سامية وعبرية بدوية ومتحضرة .

وربطت بينها الرسالات السماوية ، فبعث على أرضها الأنبياء والرسل ، ولذلك سميت أرض النبوات . وحفظت الكتب السماوية سيرة أولئك الأنبياء وطوافهم ببلاد العروبة ، فإبراهيم جاء من العراق إلى مكة فى قلب الجزيرة ، إلى الشام فمصر ، ثم رجع إلى بلاد فلسطين ، وكذلك أبناؤه وبقية أنبياء بنى إسرائيل ترددوا بين مصر وفلسطين ، يعقوب ويوسف وموسى .

وتبع هذه الروابط الجغرافية روابط اقتصادية ، فالطرق المائية والبرية مشتركة بين كثير من تلك الدول ، فالفرات يربط بين الشام والعراق ، كذلك يربط بينهما الطريق التجارى الشمالى القديم الذى يصل الشرق بالغرب ، والذى تقع الموصل على بابه الشرقى ، وحلب على بابه الغربى ، كذلك يربط الشام باليمن عبر الحجاز طريق التجارة المشهور الذى ينتهى فى الشمال بمدينة بترا « بطرة » القديمة ، وفى وسطه مكة المدينة ، وفى جنوبه صنعاء .

ويربط مصر بالشام والحجاز الطريق التاريخى عبر سيناء

فى محازاة ساحل البحر مارا بالعريش ورفح ، ويربط بينهما طريق البحر الملاحى القديم الذى استخدمه المصريون القدماء والفينيقيون وسيروا تجارتهم وجيوشهم عبره . ويربط مصر بدول المغرب ذلك الطريق الساحلى الذى عبره الرومان وسلكه العرب فى فتوحهم إلى الأندلس .

ويربط مصر بالسودان الشريان المائى وطريق المواصلات العتيد « النيل » ، وسهولة الملاحة فيه يسرت الوحدة والتماسك بين أجزاء شمال مصر وجنوبها منذ أيام التاريخ الأولى ، كذلك ربطت بين سكان الوادى كله مصر والسودان .

وتعتبر الثغور فى بعض البلاد العربية المنفذ الطبيعى للبلاد الأخرى إلى العالم والنافذة التى تطل منها على الدنيا وتصرف تجارتها ، فثغور لبنان مثلا تعتبر المنفذ الطبيعى للعراق وسوريا والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط وبقية العالم الغربى ، كذلك تلعب ثغور مصر على البحر المتوسط الدور نفسه بالنسبة للسودان .

خامسا — المصالح المشتركة :

هذه الشعوب التى تعيش فى وطن متقارب الصلات ، وتتفاهم بلغة واحدة ، وتعيش على ماض مجيد مشترك ، وتشترك

فى صفات إنسانية وعقائد واحدة ، وتجمعها كذلك مصالح مشتركة ، مصالح مادية ومعنوية وسياسية — هذه الشعوب العربية إما شعوب زراعية ، أو تجارية ، أو رعوية رحالة . وتختلف ثرواتها الطبيعية وتتنوع ، ولكنها مع ذلك تشترك فى بعض ما تملك من ثروة . فالإنتاج الزراعى يجمع المحصولات الرئيسية لطعام الناس كالقمح والشعير والأرز والفول والعدس ، كما تجمع كذلك محصولات إنتاجية اقتصادية تعتمد عليها بعض تلك الدول كمورد للثروة ، كالقطن طويل التيلة ومتوسطها وقصيرها ، والدول الثلاث بين المجموعة التى تنتج القطن وتعتمد عليه : مصر والسودان ويشتركان فى الطويل التيلة ، وسوريا (الإقليم الشمالى) ويشترك مع (الإقليم الجنوبى) فى متوسط التيلة وقصيرها .

وينتج الإقليم الجنوبى الأرز ويشترك مع العراق فيه، إلا أن النوعين مختلفان ، ولكل نوع سوقه العالمى؛ وتعتبر الثروة الحيوانية فى السودان أهم مورد لاقتصادياته بعد القطن ، الذى وصل إلى الدرجة الأولى فى صادرات السودان فى السنوات الأخيرة . بينما نرى فى مصر نقصا فى الثروة الحيوانية ، عن كفايتها مما يضطرها إلى استيراد كثير من حيوان اللحوم (الماشية ، والضأن)

وتعتمد فى ذلك على الفائض من جاراتها العربيات .

كذلك الثروة المعدنية نجدها متنوعة إلى حد ما ، وإن اشتركت أحيانا فى بعض مواردها ، فالبترول هو العنصر الرئيسى فى الثروة العربية ، وتمتلك الجزء الأوفر منه المجموعة الآسيوية (العراق والكويت والسعودية وإمارات الخليج) ، وتملك مصر نصيبا لا بأس به ، ولا تزال البلدان الأخرى كالسودان والشمال الأفريقى تأمل فى نصيب يكشف عنه المستقبل .

وتمتلك بعض البلاد خامات أخرى ، كالحديد والنحاس والمنجنيز والفوسفات وغيرها . ولكنها لا تبلغ درجة اقتصادية ذات قيمة كبيرة ، باستثناء الإقليم الجنوبى حيث اكتشف الحديد ويجرى استثماره محليًّا .

وهكذا نجد أن هذه البلاد لا تزال تعتمد إلى حد كبير على الزراعة أو الرعى ، وتتخلف الصناعة فيها ، فيتخلف الدخل القومى ، ويهبط مستوى المعيشة إلى أدنى الدرجات مما يجعلها فى حاجة دائمة إلى الاعتماد على الدول المتقدمة اقتصاديًّا وصناعيًّا ، وتضطرها أحيانا إلى قبول المعونات تحت شروط فى مصلحة الدول المعينة ، أو تضطرها إلى الخضوع لإشراف مباشر أو غير مباشر من بعض الدول الرأسمالية .

وتستطيع هذه الدول أن تحقق تعاونا كبيرا فى الميدان الاقتصادى يؤدى إلى تنسيق موارد الإنتاج وزيادة الإنتاج برفع مستوى الاستغلال بتدبير الكفاية والخبرة الفنية ورأس المال ، ثم تنسيق التسويق فيما بينها حتى لا يحدث التضارب بينها فى الأسواق العالمية ، خاصة فى الخامات التى تحتكرها ، أو تملك نصيبا عالميا ممتازا فيه -كالقطن طويل التيلة والبترول .

ويمكن عن طريق هذا التعاون أن تستفيد البلاد المتخلفة فنيا بالأيدى العاملة والخبرة الفنية من البلاد التى تتوفر فيها هذه العناصر ، فلا تلجأ إلى الأجنبى الذى يملى شروطه ، ويوجه الاقتصاد العربى توجيها يرى فيه فائدته وربطه الدائم بعجلة بلاده . كذلك تستطيع البلاد العربية التى تملك فائضا فى رأس المال أن تستغل فائضها فى صورة قروض للبلاد التى تفتقر للمال وتملك الخامات . وهكذا يمكن أن ينتج التعاون المشترك فوائد مشتركة ويعود على المصالح العربية بأجل الفوائد .

ولا تقتصر المصالح المشتركة على الميدان الاقتصادى ، بل تمتد إلى غيره من الميادين ، إلى الميدان الثقافى مثلا ، حيث نجد بعض الدول لا تزال تحبو فى الناحية الثقافية ، بينما بلغ بعضها درجة ثقافية ممتازة ، والتعاون فى هذا الميدان واجب ،

لرفع الإمكانيات البشرية ، والنهوض بالمستوى الحضارى ، ونستطيع أن نقول إن التعاون الثقافى الآن يسير فى طريقه ، وإن لم يبلغ بعد الدرجة المرجوة ، لكنه مع الزمن ، واستمرار التقارب سيصل بإذن الله إلى ما نريد .

وينبغى فى مجال الحديث عن المصالح المشتركة أن نضع فى اعتبارنا عاملا هاما يؤثر فى اتجاهات الدول العربية وسياساتها فى ميادين الاقتصاد والسياسة والثقافة ، وهذا العامل الهام هو أن كل هذه الأمم كانت إلى وقت قريب خاضعة لنفوذ الدول الكبرى : العثمانيين ، أو الإنجليز والفرنسيين . وحصل بعض هذه الدول على استقلاله عقب الحرب الكبرى الأولى ، بينما حصل بعضها الآخر على استقلاله بعد الحرب الثانية ، ولا يزال بعضها ، وهو قليل ، تحت نفوذ مباشر أو غير مباشر للدول الاستعمارية ، إنجلترا وفرنسا وأمريكا .

ومشكلة الدول التى حصلت على استقلالها حديثا : الشك والريبة ، الشك فى كل عون خارجى ، أو كل تقارب ، إذ يفسر ذلك العون والتقارب تفسيرا يرجع إلى الأذهان الصور السوداء لعهود الخضوع والاستعمار ؛ ويحكم هذا الشك كثيرا من علاقات الدول العربية ، مع كل ما أشرنا إليه من عناصر

تدفع إلى هذا التقارب ، ومع أنه لا يتصور إطلاقا قيام التقارب المنشود على صورة من صور الخضوع أو الاستعمار ، فلم تبلغ دولة من الدول العربية درجة تستطيع أن تفرض نظاما استعماريا على الدول الأخرى ، فالاستعمار يحتاج إلى طاقات كبرى لم تتوفر إلا لبعض الدول الأوربية فى القرن التاسع عشر ، وقد بدأت موجة الانحسار لهذا الاستعمار ، ليقظة الشعوب المستعمرة ، ولن تعود من جديد تلك الموجة .

وكل ما يرجى للدول العربية لكى تصل إلى مستوى معقول ، ولكى تحافظ على كيانها فى ميدان الصراع الدولى أن تصل إلى درجة من الاتحاد أو الوحدة ، كما حدث بالنسبة لكثير من الدول الحديثة ، التى تكونت من قوميات كانت تتفرقها دويلات أو ولايات تحدها ، وتفصلها بعضها عن بعض حدود وفواصل مصطنعة . مثل إيطاليا ، وألمانيا ، والولايات المتحدة . وقد تغلبت تلك القوميات على ما يفصل بينها واستطاعت أن تكون دولا واتحادات قوية لعبت أدوارا هامة فى التاريخ . وتستطيع القومية العربية بوحى من وحدة مصالحها وثقافتها وتاريخها وموطنها ودمائها وتقاليدها أن تحقق مستقبلا مرموقا .

الفصل الثانى
بعث القومية العربية
ودور الأدب فيه

١

مقدمات البعث والأسباب الممهدة

نستطيع أن نرجع بحركة البعث العربى الحديثة إلى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تريد أن تحتلها ، بحجة تخليصها من الفوضى التى كانت تعيث فيها تحت حكم المماليك والأتراك العثمانيين ، ولتقف حجر عثرة فى طريق الإمبراطورية البريطانية . وكانت هذه الحملة أول من نبه الشرق العربى وفتح عيونه على معالم النهضة الأوربية الحديثة بما حملته معها من آثار فكرية واتجاهات ثورية فى الحياة ، بعد الثورة الفرنسية . وحاول بونابرت أن يعطى شعب مصر نماذج من الحريات الدستورية والفردية التى حققتها الثورة الفرنسية ، بعد أن كان الشعب واقعا تحت الكبت المملوكى ، والظلم والاضطهاد العثمانى .

وخلفت الحملة آثارا علمية واجتماعية هائلة فى نفوس المصريين والعرب عامة ، وبدأت مصر تأخذ طريقها منذ ذلك التاريخ إلى التحرر ، والوصول إلى ما وصلت إليه من حضارة ، فأخذت تتطلع إليها لتقتبس منها عناصر التطور والحضارة .

واستطاع الجيش المصرى أن يحطم الفكرة السائدة بأن الأتراك العثمانيين خالدون ، لا تستطيع قوة أن تزحزهم عن البلاد العربية التى تنطوى تحت نفوذهم باعتبارها ولايات تابعة ليس لها كيان ذاتى . فاستطاعت مصر أن تنفصل ، وأن تبنى ذاتها ، وتكون شخصيتها المستقلة بعيدا عن دائرة الدولة العثمانية وكان لهذا أثر كبير فى تحرك بقية الولايات العربية وتنبهها إلى ضرورة اكتساب شخصيات ذاتية والانفصال عن العثمانيين ، وبدأت النظرة لمصر باعتبارها قائدة لواء التحرير العربى تأخذ طريقها إلى الولايات العربية منذ ذلك التاريخ .

ومما ساعد على زعزعة مكانة العثمانيين أيضا قيام الثورة الوهابية فى الحجاز ، وهى ثورة دينية ترمى إلى تحرير المعتقدات من مخلفات عصور الضعف الإسلامى والرجوع بالدين إلى الكتاب والسنة ، وهى فى الوقت نفسه ثورة على الحكم العثمانى بكل مفاسده .

وقد كانت حركة مصر فى عصر محمد على ثورة سياسية وفكرية وصناعية ، دعت الشعوب العربية الأخرى إلى الاقتداء بها ، وشجعت المفكرين ودعاة الإصلاح والزعماء على الدعوة للحصول على حريات أوسع ، وإصـــلاحات أساسية فى نظم الإدارة والحكم والتعليم ، بالنسبة للشعوب العربية فى الدولة العثمانية . وبدأت توجيهات المفكرين الدينيين والسياسيين تدعو الناس إلى أن الخلافة العثمانية لا تمثل الخلافة الإسلامية الشرعية ، وأن خلفاء بنى عثمان لا يمثلون إلا جانبا واحدا من الخلافة وهو الجانب الدينى باعتبارهم مسلمين ، والجانب الآخر الحتمى فى الخلافة وهو العروبة غير متوفر ، ولا يكفى الإسلام وحده ، لهذا كانت خلافتهم فى عرف أولئك المفكرين باطلة لأنها أخلت بشرط العروبة ، ولأنها مع ذلك اغتصبت اغتصابا من آخر خلفاء العباسيين أو من يمثلهم شرعا . ولذلك دعوا إلى استعادة العرب للخلافة من الترك . ومن هنا نمت فكرة استعادة العرب لسلطانهم .

وقد انقسم العرب المسلمون داخل الدولة العثمانية إلى جماعات :

جماعة تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق لأصحابه .

وجماعة تطالب الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جديدة فى البلاد العربية مع إعطائها شيئا من الاستقلال الذاتى أو الحكم المحلى فى نطاق الدولة العثمانية .

وجماعة تطالب بإصلاحات دستورية عامة ، وتشترك مع أحرار الأتراك فى الدعوة لتلك الإصلاحات وتشمل جميع بلدان الخلافة على حد سواء .

وجماعة تطالب بمراعاة حقوق العرب خاصة وإشراكهم فى مختلف شئون الدولة .

ذلك موقف العرب المسلمين ، أما العرب المسيحيون فقد اختلف موقفهم فى الفترة الأولى من الحركة العربية ، إذ كانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولة إسلامية ، ولذلك فإنهم لم يشاركوا فى الحياة السياسية إلا مشاركة اضطرارية ، وكانت أهواء أكثرهم مع الغرب لأنهم يشتركون معهم فى الدين . وكذلك كان بعض هؤلاء يعتبر التاريخ العربى الإسلامى تاريخا إسلامياً وحسب ، وهو لذلك لا يعنيهم ، وأمجاده لا تدخل ماضيهم أو تتعلق بوجدانهم .

وساعد على هذا الموقف السلبي أن الدولة كانت لا تجند منهم فى الجيش، ولهذا كانوا لا يبالون لانتصاراتها أو انكساراتها، بل ربما تطرف بعضهم نتيجة الحركات العنصرية والاضطهاد الدينى الذى شنه العثمانيون فى سوريا إلى النقمة على الدولة وتمنى انكسارها على أيدى أعدائها ، والإشادة بانتصارات أولئك الأعداء ، كما نجد فى بعض قصائد إيليا أبو ماضى حيث يشيد بانتصار الروس على الأتراك ، فى شبابه وفى أدوار الاضطهاد العنصرى ، الذى فر إيليا بسببه إلى مصر ثم إلى أمريكا .

ولكن هذه النزعات كانت شاذة وقليلة ، وكانت فى الوقت نفسه تعبيرا عن السخط على تصرفات الدولة العثمانية والفوضى التى آلت إليها . والدليل على أن تلك النزعات كانت عابرة غير أصيلة فى نفوس العرب المسيحيين أنهم تفانوا فى الدعوة لقيام الدولة العربية ، وأنهم أشادوا بدور العرب والإسلام فى الحضارة، بل إن إيليا أبو ماضى نفسه ، أشاد بالعروبة التى تظل برايتها المسلمين والمسيحيين جميعا وتؤلف بينهم فى إخاء تام ومحبة وعمل مشترك فى سبيل مجدها . فنراه يخاطب إخوانه فى قصيدة يدعوهم إلى نبذ الخلاف الدينى ، وإلى التآلف فى

الحياة ، فالأصل واحد هو العروبة والانتماء إلى شجرتها العتيدة :

أتباع أحمد والمسيح هـوادة
ما العهد أن يتنكر الأخوان
الله رب الشرعتين وربـكم
فإلى متى فى الـدين تختصمان
مهما يكن من فارق فكلاكما
ينمى إلى قحطان أو غسان

وقد أشرت إلى أن هذا النزاع العنصرى الذى ظهر فى الأمة العربية فى مطلع حركة البعث العربى فى أواخر القرن التاسع عشر كان نتيجة سوء الحكم العثمانى ، وعدم التفهم الصحيح لروح الإسلام ، فالإسلام لم يترك المواطنين المسيحيين قط يعيشون على هامش الحياة ، بل دعاهم إلى المشاركة الإيجابية الفعالة ، وقد قرر القرآن الكريم حق كل فئة فى الجزاء المنصف على السعى فى الدنيا بغض النظر عن الدين الذى يدينون به فى قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند

ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

والعمل الصالح هنا هو العمل لخير المجتمع والناس ، وما نفع الناس كان موضع رضى الخالق عز وجل . فالدعوة للعمل إذاً مقسمة للمواطنين جميعا ، وقد خص الله المسيحيين بالقربى من المسلمين بقوله :

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) ، وقال : (وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) . ولم يؤثر أن أحدا من خلفاء المسلمين الأولين اضطهد النصارى أو نقص من حقوقهم ، بل على العكس سمح لهم بكل ما للمسلمين من حقوق ، فزاولوا نشاطهم وعبادتهم فى حرية تامة ومراعاة من الدولة. وقد تمسكت قبائل عربية قوية بدينها المسيحى ، مثل قبيلة تغلب ، فلم تضطهد ، ولم تعامل إلا معاملة غيرها من القبائل العربية فكان منها الزعماء والشعراء المقربون فى الدولة الأموية ، مثل الأخطل ، فهو خير مثال لمدى ما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، إذ كان جليسا للخلفاء وشاعر الدولة المقدم على غيره ، ولسانها المنكل بأعدائها ، بل لقد سمح للأخطل أن يتعرض

للأنصار ولهم ما لهم من المكانة الدينية .

ولم تقف الطائفية حاجزا فى سبيل التئام عناصر القومية العربية ، بل سرعان ما أدرك مفكرو الإسلام والمسيحيين خطورة النعرة الطائفية على الدعوة القومية ، فأصبحنا نجد الدعوة عامة الى اعتبار التاريخ العربى تاريخا مشتركا للأمة العربية ، واعتبر محمد بن عبد الله صلوات الله عليه نبي الإسلام زعيما للعرب ، وصار المسيحيين متحمسين للعروبة تحمس المسلمين أنفسهم وأشد وظهر من بينهم شعراء كبار وكتاب أعلام وعلماء أفذاذ دافعوا عن العروبة عنصرا ولغة وقومية ، وظهرت فى أفق العروبة أسماء إيليا أبو ماضى ، ونجيب الحداد ، والأب أنستاس الكرملى ، وجورجى زيدان ، والأب لويس شيخو ، ولمعت تلك الأسماء وخلدت بما أدته للعروبة من خدمات فى ميادين الأدب واللغة والتاريخ .

لقد كانت الطائفية إذاً أولى الصعاب التى قامت فى طريق البعث العربى ، واستطاع المتنورون والمخلصون الواعون من مفكرى العرب التغلب على هذه الصعوبة بالدعوة إلى التآلف بين الطوائف فى ظل العروبة والقومية العربية . ولعب الأدب

الدور الأول فى هذه الدعوة للتغلب على النزعات الطائفية .
ويقول الشاعر سابا رزيق ، ناطقا بلسان أولئك الدعاة القوميين .

الدين للديان جل جلاله
والدين أن تبنى الإخاء بناته

ويقول الشاعر أحمد شوقى :

الدين للديان جل جلاله
لو شاء ربك وحّد الأقواما

وهكذا انطوت الدعوة إلى بناء القومية العربية على نبذ الخلافات الطائفية فى سبيل هذا الهدف القومى الذى يرنو إليه جميع العرب بقلوب خافقة وآمال عريضة وهو بناء الدولة العربية الكبرى .

واختلفت صور هذه الدولة وألوانها عند دعاة القومية ، فحاول بعض الكتاب أن يدعو إلى قيام دولتين إحداهما إسلامية ومقرها الحجاز ، والأخرى عربية عصرية تشمل العراق وسوريا ولبنان . ومن دعاة هذه الفكرة نجيب عازورى ، فقد ألف كتابا بعنوان « يقظة الأمة العربية فى آسيا » دعا فيه إلى

توحيد الكنائس الكاثوليكية فى العالم العربى تحت اسم « الكنيسة الكاثوليكية العربية » ، ودعا إلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا لخلافة إسلامية عربية ، وأن تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية .

كذلك تولى خطباء العرب مسلمين ومسيحيين جلاء القومية العربية التى تتضامن فيها الطوائف تحت راية العروبة ، فقال الشيخ أحمد طبارة فى خطاب له بمؤتمر باريس العربى سنة ١٩١٣ :

« نحن نعنى بالعرب كل ناطق بالضاد ، لا فرق فى ذلك بين المسلم وغير المسلم » . وقال ندرة مطران فى المعنى نفسه : « إذا كانت النعرة الجنسية فضيلة فى النفس ، فلست أدرى أمة أشد تأثرا بعواملها من الأمة العربية . لما قدم أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام وجدوا حارسا على أبوابها من الغسانيين ، وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم المسيحى جبلة بن الأيهم إلا أن هؤلاء بدلا من قتال المسلمين والوقوف فى وجوههم عطفوا عليهم عطفة

الأخ ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بموالاة الروم ، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم من بنى أمتهم العرب ، فمهدوا لهم السبل ، وفتحوا الطرق ، ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد . إن لعمرى فيما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية فى هذا الشأن الخطير لأعظم شاعد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ، وهى فضيلة الشعوب الحية ، فضيلة الشعوب التى لا تريد أن تموت » . وقال فى هذا الخطاب كذلك : « الدين لا ينفى المصلحة الشخصية ، ولا يقوم مقام العوائد والتقاليد واللسان والوطنية » .

العثمانية

وكانت العثمانية من أشد العقبات فى طريق البعث العربى ، والخلاف بينها وبين الطائفية ، أن العثمانية كانت تغذى الطائفية ، لأنها تقوم على أساس دينى ، ومنه تستمد سلطانها ، وليست على أساس قومى ، فكانت العثمانية من أشد أعداء القومية

العربية ، وكانت تملك فى يدها السلطان والقوة المادية التى تبطش بها بكل من يرفع رأسه بالدعوة القومية . وقد آمن بعض المجددين من مفكرى الإسلام بضرورة بقاء الخلافة العثمانية لأنها مظهر قوة الإسلام ولكنهم طالبوا بتجديدات دستورية تمكن الشعب الإسلامى من الاشتراك اشتراكا فعلياً فى الحكم ، وتحد من السلطات الاستبدادية لخلفاء العثمانيين .

وقد انقسمت الدعوة القومية نتيجة لنشاط هؤلاء المفكرين إلى محبذين لبقاء الخلافة العثمانية للإبقاء على كيان الدولة العربية الإسلامية إلى جانب المسلمين غير العرب ، فى ظل الخلافة ، ولقيت فكرة الإبقاء على الخلافة العثمانية تأييد كثير من العرب المسلمين . وقد ساعد هذه الدعوة العثمانية ما رآه المسلمون والعرب جميعا من تكالب الدول الغربية على الخلافة العثمانية للنيل منها ، وتقسيم البلدان التابعة لها بينها . وشعور العرب المسلمين بأن هذا التكالب إرهاص بحرب صليبية جديدة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى . لهذا بدأ الشعور الإسلامى يتهيأ ويتجمع لذلك الخطر المتجمع فى الأفق ، وكانت الدعوة إلى الالتفاف حول الدولة العثمانية لإنقاذها وإنقاذ الشرق الإسلامى ، وكانت مصر من أشد أنصار هذه الدعوة ،

لإحساسها المبكر بوطأة العدوان الغربى فى صورة العدوان الإنجليزى ، والاحتلال الغادر بالجند والمال .

وظهرت مع ذلك اتجاهات مناصرة للعثمانية فى سوريا والعراق ، وكانت تفيض بها المقالات الطويلة ، والقصائد الطنانة التى ترددت على صفحات الجرائد والمجلات فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والعشر الأولى من القرن العشرين .

ففى الإسكندرية كانت جريدة « العروة الوثقى » توالى سنة ١٨٨٤ م مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، ومنها مقال عنوانه « الجنسية والديانة الإسلامية » جاء فيه :

« وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع الجنسى أدنى امتياز عندهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها » .

وكذلك كتب عبد الرحمن الكواكبى كتابه المشهور « أم القرى » يدعو إلى مؤتمر إسلامى مكانه مكة ليتشاور فيه زعماء المسلمين ، ويرسمون خطط الإصلاح ، وذلك للنهضة

بالأمة الإسلامية لاستعادة مجدها القديم .

وقد عبر كثير من الشعراء عن ضرورة الرابطة الإسلامية ، وضرورة دعمها وتقويتها حتى تقوى معنوية الشعوب العربية ، ونذكر من هؤلاء الشاعر أمير ناصر الدين (لبنان سنة ١٩١٠) يقول :

نحن الألى بنت العروبة بيننا
ذاك البنـــاء فأزهر الإســـلام
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت
آى الكتاب وذلك الإلهام

وفى مصر كما قلت كان الميل إلى الرابطة الإسلامية أشد من الميل للرابطة العربية ، كما اعترف بذلك كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ، وقد أشار فيه إلى تحمس المصريين للرابطة الدينية الإسلامية وتقديمها على الوطنية الإقليمية . كذلك دعا أدباء مصر وشعراؤها وخطباؤها إلى الرابطة الإسلامية بحرارة موضحين مدى ما للعثمانيين من فضل فى حماية العرب والإسلام . يقول حافظ إبراهيم :

ما للخـــلافة إلا الترك تحرسها
الله يحرسهم فى آل ياسين

وللأعاريب حق لا نضيعه
وإن رمينا بتفريط وتهوين
بنو أبينا وإخوان الزمان على
ما كان من شدة يوما ومن لين

ولشوقي قصائد إسلامية مطولة يتغنى فيها بالإسلام ، وأمجاد الأمة الإسلامية ، وأبطالها ، وينظم السيرة النبوية والمدائح التي تعيد إلى الأذهان المدائح الرائعة لكبار الشعراء المسلمين . كذلك أشاد بخلفاء العثمانيين وقادة الترك المظفرين ، وقارن بينهم وبين زعماء الإسلام وقادته :

« يا خالد الترك جدد خالد العرب »

وقام جمال الدين الأفغاني بالدعوة لتجديد الدولة الإسلامية وظل يعمل فى خطبه وتعاليمه لتلاميذه بالأزهر على توحيد كلمة المسلمين وجمع شتات الدول الإسلامية ، والربط بينها فى دولة إسلامية قوية فى ظل خلافة عظمى .

وكان مصطفى كامل الزعيم الوطني المصرى ، ورئيس الحزب الوطني يردد فى خطبه دائما ضرورة الالتجاء إلى العثمانيين والالتفاف حول الخلافة للتحرر من ربقة الأطماع الاستعمارية الغربية . يقول فى إحدى خطبه : « حقا إن سياسة التقرب من

الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها فضلا عن الأسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب ، فإن العدو واحد ، ولا يليق بنا أن نكون فى فشل وشقاق فى وقت يعمل فيه أعداؤنا على تجزئة دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لتألم الدولة العلية ، فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف ، المجتمعون تحت رايتها » .

وكان من أنصار هذا الاتجاه أيضا من أرباب القلم سليم تقلا صاحب الأهرام ، وخليل مطران .

وعارض العثمانية كثير من أدباء العرب وشعرائهم خارج مصر ، وكانت معارضتها شديدة ، تفيض بالنقمة على الظلم العثمانى ، وعلى ما يعتمد عليه العثمانيون من تفتيت القوى العربية ، وتحطيم معنويات العرب بالطرق المختلفة ، بمحاربة اللغة رسمياً فى الدولة ، وعدم تعليمها فى المدارس باعتبارها لغة البلاد ، وعدم السماح باستعمالها فى دواوين الحكومة باعتبار اللغة الرسمية هى اللغة التركية ، فكان تحتيم تعليمها فى الولايات العربية أمراً لا مفر منه . ولم يستثن فى تعليم اللغة العربية واستعمالها فى الدواوين غير مصر ، ولهذا ظروفه الخاصة ، فالأزهر كان قائما على تعليم اللغة العربية ، كذلك حرص المصريون على أن تبقى العربية لغتهم القومية على الرغم من استعمال الطبقة الحاكمة للتركية للتفاهم بينهم .

ولم يسمح العثمانيون للنعرة العربية بالظهور ، ولم يسمحوا كذلك للولايات العربية أن تتمتع بنوع من المركزية ، بحيث يشترك العرب من أهل البلاد فى إدارة شئونها ، أو على الأقل المشاركة فى تقرير مصائرها .

ودفع كل هذا الكبت إلى التذمر فى صفوف العرب ، وإلى قيام الشعراء بالتنديد بالترك والحكم التركى ، ولسانهم يزبد ، وقلوبهم تفور من الغيظ . ونمثل هنا بقول الرصافى :

حتـــام نبقى لعبـــة لحكومة
دامت تجرعنا نقيع الحنظل
تنحـــو بنا طرق البوار تحيفا
وتسومنا سوء العذاب الأهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن
قمنا أما سنموت إن لم نقتـــل

ودفعت هذه النقمة على الحكم العثمانى بعض الأدباء والمفكرين إلى إظهار مفاسده والتشهير به ، فكتب عبد الرحمن الكواكبي كتابه « طبائع الاستبداد » وهو دعوة جريئة إلى الحرية والتخلص من قيود الأتراك وحكمهم الظالم ، كذلك ألف كتابه « أم القرى » (صدر سنة ١٣١٦ هـ) يدعو فيه إلى

خلافة عربية إسلامية مركزها مكة ، ويتكلم فيه عن العوامل التي أدت إلى انحطاط المسلمين على شكل مؤتمر يجرى فيه مناقشات بين مفكرين منتسبين إلى مختلف البلاد الإسلامية . ونزعاته الدينية في الكتاب ظاهرة ، إلا أنه يتطرق إلى قضايا الأمة العربية في عصره ، لأنه يرى أن العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . وينتقد العثمانيين انتقادا مرًّا ، ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة فى دولتهم .

واستتبع الهجوم على العثمانية الهجوم على مؤيديها والداعين لها ، وتعرضت مصر لجانب من هجوم أدباء العروبة ، وكذلك تعرض الأدباء والشعراء المصريون ، يقول سليم سركيس فى جريدة البشير :

« لم أجد فى حياتى ، ولا قرأت فى مطالعاتى عن أمه تريد الانتقال من نور الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثمانى » .

وخفت حركة الهجوم على العثمانيين بعد حركة الإصلاح التى أطاحت بعبد الحميد ، وأعلنت الدستور سنة ١٩٠٨ ، فبدأ الكتاب والشعراء يؤملون خيرا من وراء ذلك الدستور الجديد ، يظهر هذا واضحا من قول الزهاوى :

البرق أهدى لنا بشرى بها هدأت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بشرى كما تبتغى الآمال صادقة
أجلها الناس من قاص ومغترب
لقد أقر لعمرى أعينا سخنت
ما ناله فئة الأحـــرار من أرب

وهلل كتاب مصر وشعراؤها بهذه الحركة الجديدة فى الدولة العثمانية ، وأملوا من ورائها الإصلاح والرشاد وقوة الدولة وعزها. يقول شوقى :

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها
أسدى إلينا أمير المؤمنين يداً
جلت كما جل فى الأملاك مسديها
وليس مستعظما فعل ولا كرم
من صاحب السكة الكبرى ومنشيها

فشوقى يطنطن للخليفة أمير المؤمنين ويرجع له الفضل فى منح هذا الدستور للناس ، ولا يقرر أن الدستور نتيجة لضغط الشعب عن طريق بعض دعاة الإصلاح . ويقول حافظ :

أثنى الحجيج عليك والحرمان
وأجـــل عيد جلوسك الثقلان
أرضيت ربك إذ جعلت طريقه
أمنـــاً وفزت بنعمة الرضوان
وحميت بالدستور حولك أمة
شتّى المذاهب جمة الأضغان

ولكن هذه الخطوة الإصلاحية لم يكتب لها التوفيق ، بل انتكست ، فلم يحصل العرب من إعلان الدستور على ما كانوا يطمعون فيه من اعتراف بحقوقهم ، وقد ساعد على هذه النكسة قيام الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ، وإعلان الأحكام العرفية فى سائر البلاد التابعة للخلافة العثمانية ، وتطور الأمور الى أسوأ بعد تعيين جمال باشا حاكما عاما وقائدا عسكرياً للقطاع السورى ، وكانت عصبيته التركية وكرهه للعرب دافعا له على ارتكاب كثير من أعمال العنف ضد العرب ، وخاصة الزعماء الذين كانوا يدعون إلى القومية العربية ، والمطالبة بحقوق العرب ، فقد علق منهم عددا كبيرا على أعواد المشانق فى دمشق بتهمة خيانة الدولة .

وقامت حالة توتر شديد بين العرب والدولة العثمانية انتهت بقيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين فى الحجاز .

ومهما اختلفت الأقوال فى هذه الثورة ، فهى على أية حال تعبير عملى عن مدى ما كان يشعر به العرب من ضيق فى ظل العثمانيين ، ومن رغبة شديدة فى بناء كيان عربى مستقل ، ودولة عربية توحد شملهم وترفع رايتهم . إلا أن الثورة العربية انطلاقة كبيرة ، أساء الغربيون استغلالها بتدخلها فى أحداثها وتآمرها مع بعض رجالها بحجة المعاونة فى التحرر من العثمانيين . وقد شوه هذه الثورة فى عيون كثير من العراقيين المخلصين قيامها فى الوقت الذى شنت فيه دول الغربية الحرب على الدولة العثمانية الإسلامية ، مما اعتبر خيانة وتآمرًا ، وساعد على هذا الاعتقاد تدخل تلك الدول فى شئون العرب تدخلا سافرا انتهى بإعلان الانتداب أو الاحتلال.

القوميات الإقليمية

تنازعت النهضة العربية نوازع إقليمية محدودة ، وخاصة بعد انفصال الولايات العربية عن الخلافة العثمانية بعد الحرب ، وقد ذكى المستعمرون روح الإقليمية ، واعتمدوا على بعض العناصر الوطنية ، وعلى الطائفية فى التمكين لهذه الدعوة ، لكى يفصلوا أجزاء الوطن العربى بعضها عن بعض .

وكان هدف الثورة العربية التى قادها الشريف حسين وابنه فيصل الأول إقامة ملك عربى موحد لا إمارات منفصلة ، إلا أن الدول الاستعمارية إنجلترا وفرنسا رأتا تقسيم بلاد العرب إلى مناطق نفوذ ، فقامتا بتقسيم سوريا إلى أقسام : سوريا ولبنان وفلسطين وإمارة شرق الأردن، وأقامت ملوكا ورؤساء ووزراء ، وبذلك خفتت نداءات الوحدة ، وتحولت شيئا فشيئا إلى الدعوة إلى اتحاد عربى ، ثم إلى مجرد تحالف عربى ، تحالف دول ، بعد أن تعددت الدول العربية وأصبحت كل دولة تسعى للمحافظة على كيانها الجديد .

وأشد ما كان يهدد القومية العربية فى تلك النزعات الإقليمية هى الدعوة إلى بعث الماضى غير العربى لكل إقليم ، وإحياء النعرات القومية فى صورة بعث للتاريخ المجيد فى كل إقليم ، فكانت الدعوة للفينيقية فى لبنان ، والفرعونية فى مصر . كذلك دفعت خيبة الأمل بعد إخفاق الثورة العربية فى تحقيق أهدافها إلى أن تنطوى كل دولة عربية على نفسها وتحاول أن تبنى نفسها وشخصيتها من وحى بيئتها الخاصة ومصالحها الذاتية بغض النظر عن الحركة العربية .

وكان بعض دعاة لبنان من كتاب وأدباء جادين فى بعث الفينيقية ، والابتعاد عن العروبة والعرب ، وفصل لبنان عن

ظهيره العربى ، معتبرين أن الالتفات إلى هذا الظهير يؤخرهم دائما عن مسايرة ركب الحضارة ، وكان لبنان من أسبق الدول العربية وأسرعها اتصالا بحضارة الغرب . وتزعم جماعة من أدباء لبنان المهاجرين إلى أمريكا الشمالية حركة الدعوة الفينيقية ، أو بناء شخصية ذاتية ، والتحرر من قيود العروبة ، واتهموا الثقافة العربية والدعوة القومية العربية اتهامات شعوبية مما كانت تردده ألسنة الشعوبيين من الفرس فى مطلع القرن الثالث للهجرة .

كذلك حاول بعض أدباء المصريين أن يدافعوا عن الشخصية المصرية ، على أن تستمد مصر هذه الشخصية من تاريخها القديم ، تاريخ الفراعنة الذى استمر قرابة خمسة آلاف سنة ، وساعد على بث هذه الدعوة فى نفوس المصريين ، ظهور كثير من الكشوف الأثرية الفرعونية التى بهرت الناس ، واهتمام علماء الغرب بالدعاية لتلك الكشوف ، وإظهار مدى ما كان عليه المصريون من تقدم وازدهار .

وقام بعض المفكرين المصريين بتبنى هذه الفكرة، والدعوة لها فكتبوا عدة مقالات تدور حول هذا الموضوع وحاولوا أن يبرزوا شخصية مصر على أساس من تاريخها القديم ، وبينوا أنه ينبغى ألا تستمد مصر عناصر شخصيتها من العروبة

وحدها ، بل من ماضيها القديم إلى جانب العروبة فكلاهما متمم للآخر .

وترددت هذه الدعوة فى مصر فترات من الزمن ، كانت تشتد وتخبو ، وكانت كلما خبت وتغلبت عليها عناصر القومية العربية عادت فأيقظتها من غفلتها بعض الأحداث فى العالم العربى.

وساعد على انتشار الدعوة القومية بين المصريين شعراء العروبة وكتابها ، بينما شجع على الإقليمية المصرية رغبة مصر فى التمسك بالإسلام مظهرا لحياتها ، والارتباط بالخلافة ذلك الارتباط الدينى على أساس أن فى ذلك تقوية لها ضد المستعمرين الإنجليز ، فلما قامت الثورة العربية وخذلت الخلافة العثمانية ، قام دعاة مصريون بالدعوة إلى خلافة إسلامية موطنها مصر ، باعتبار أن ثورة الشريف حسين كانت من أهم أسباب هزيمة تركيا فى الشرق ، ومن ثم إعلان الحماية البريطانية الأمر الذى كرهه المصريون وناضلوا من أجل التخلص منه .

كذلك كان لأحداث فلسطين وإخفاق الدول العربية فى أن تقف موقفا موحدا قويًّا من قضيتها، وانتهاء ذلك الموقف المائع بالخذلان المخزى فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٧ م ، كان لهذا أثره البالغ فى ارتفاع صوت الدعوة الإقليمية .

وظهرت الإقليمية فى غير مصر ولبنان من الدول العربية ، فظهر لها دعاة فى السودان بعد استقلاله ، ودعاة الإقليمية يجدون الأرض ممهدة فى الدول التى تحصل على استقلالها بعد احتلال طويل ، حيث يكون الناس حريصين أشد الحرص على ذلك الاستقلال شاكين أشد الشك فى كل ارتباط مع دولة خارجية مهما كانت . وقد ظهرت القومية الإفريقية فى السودان شبيهة بالقومية الفرعونية والفينيقية ودعا بعضهم إلى القومية السودانية المستقلة عن القومية العربية ، المنبعثة من التاريخ السودانى القديم أيضا ، ولكن هذه الدعوة الإقليمية أيضا لم تجد أرضا ثابتة للوقوف عليها مثلها مثل الدعوتين الأخريين فكل الوقائع والحقائق تنكرها . وإنما ساعد على ظهورها كثرة ما كتب الإنجليز عن السودان وتاريخه وديانته ، ويحاولون فيما كتبوا أن يبرزوا ذلك الطابع الإقليمى ، فكان طبيعيًّا أن يتأثر بعض الأدباء والمثقفين بتلك الآراء وينادى بها . إلا أن السودان مع ذلك لم يتخل عن ركب العروبة ، وإن منعته ظروف الاحتلال الإنجليزى من الاتصال مبكرا بالحركة العربية ، ويحاول الآن اللحاق بالركب العربى والعمل الجاهد على التمكين للعروبة ، بانضمامه للجامعة العربية ، وتبنيه للقضايا العربية وحرصه على وحدة الصف العربى ، وإظهار هذا الاهتمام فى مناسبات كثيرة .

٢

الدعوة للقومية العربية

وعلى الرغم من تلك العقبات التى وقفت فى طريق القومية ، وفى نضالها فى سبيل التحرر وإثبات كيانها ، نجدها تستمر فى طريقها المنشود ، فلا تنكث ، وإن كانت تخبو جذوتها وتضعف أحيانا تحت ثقل الأحداث ، إلا أنها لا تنطفىء أبدا ، بل لاتلبث أن تعود متأججة كما كانت ، بل أشد تأججا وازدهارا .

وإن الذى حفظ للقومية العربية تلك الحيوية إنما هو ما انطوت عليه من عناصر أصيلة حية واقعية متطورة ، وليست مفتعلة مصطنعة . هذه العناصر الأصيلة التى تستمد قوتها من واقع الكيان العربى والتى أشرنا إليها فى بدء كلامنا ، تغلبت بسهولة على العقبات التى اعترضتها . وقد أبلى كتاب العرب وشعراؤهم بلاء حسنا ، وقاموا بجهود ضخمة متواصلة لإقرار عناصر القومية وتثبيتها فى نفوس العرب ، وتفتيح عيونهم عليها ، وتنبيه أذهانهم إلى ضرورة تحقيقها وتحقيق أهدافها ، ليصبح للعرب أمتهم ذات الكيان الضخم ، ليطمئنوا على مستقبلهم ، وليحصلوا من الكسب والازدهار مالا تستطيعه دولهم الصغيرة المتفرقة .

وأهم ما اعتمد عليه الأدباء دعاة القومية من عناصرها التاريخ المشترك الحافل بالمفاخر والأمجاد والبطولات التى تعتبر مآثر كبرى لأمة العرب لا يمحوها الزمن ، وهى ألصق وأقرب من المآثر الأخرى الإقليمية . واعتمد الأدباء على التاريخ لبث الثقة فى النفوس ، ولتحريكها بعد فترات الجمود الطويلة واستمدوا من وقائعه قوى لدفع الأمة العربية إلى استعادة المجد الغابر والحضارة الماضية .

وهكذا استغل الكتاب والشعراء ذلك التاريخ استغلالا كبيرا قويًّا لنشر الوعى العربى ، وكان الشعر وسيلة فعالة لنظم مفاخر التاريخ ، نظرا لما للشعر من أثر فى نفوس العرب من قديم الزمن ، ولما له من الخصائص الفنية التى يستطيع عن طريقها التأثير القوى فى النفوس ، ومخاطبة المشاعر دون حجاب . وتناول الشعر ضمن ما تناول الحديث عن زعماء العروبة وباعثيها ، وكانت شخصية النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه نبى العروبة وباعث نهضتها من أول ما أولاه الشعراء اهتمامهم مسلمين ومسيحيين فقد نظم الشاعر أحمد شوقى فيه القصائد الطويلة التى تعتبر دررا رائعة يتغنى فيها بمآثر النبى وبأعماله الخالدة ومبادئه ، وجوانب شخصيته ، وماله من الأيدى على الأمة

العربية وقيادتها إلى طريق العزة والكرامة . ومن أكثر هذه القصائد شيوعا نهج البردة :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

والهمزية النبوية :

ولد الهــدى فالكائنات ضياء
وفم الزمــان تبسم وثنــاء

والبائية :

سلو قلبى غــداة سلا وتــابــا
لعل على الجمــال له عتابا

كذلك فعل شعراء العرب الآخرون ، ونمثل لهم بالشاعر الفلسطينى إبراهيم طوقان . يقول فى قصيدة له مشيدا بالنبى والقرآن ، مستمدا من ذلك الوحى لاستعادة مجد العروبة ورفع الظلم عن أمة العرب :

نزل الكتاب على النبى محمد
ما يصنــع الشعراء والخطباء

سحر القلوب فراح يقذفها على
نار الجهـــاد أولئك البسلاء
هيهات ما نكصوا على أعقابهم
حتى انجلت عنهم وهم شهداء
حـــرية آى الكتاب وسؤدد
وعزيمـــة وكرامـــة وإبـــاء
ناديت قومى لا أخصص مسلما
أبناء يعرب فى الخطوب سواء
إن الكتـــاب شريعة استقلالكم
فتـــدبروه فأنتم الخلفـــاء

ونظم الشعراء كذلك فى أبطال العروبة والإسلام ، واستلهموا بطولاتهم وأمجادهم ليستنهضوا العرب فى كل مكان ، فنظم الشعراء فى بطولات أبى بكر وعمر وخالد بن الوليد ، وغيرهم من القواد والخلفاء الذين كان لهم شأن عظيم ودور كبير فى أمجاد العروبة وانتصاراتها فى الماضى . نظم حافظ إبراهيم عمريته الطويلة فى نحو مائة وتسعين بيتا ، عرض فيها مناقب عمر بن الخطاب وديمقراطيته ، وحرصه على رفاهية الرعية من المسلمين ، وبدأها بقوله :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها
أنى إلى ساحة الفاروق أهديتها

. . . .

هذى مناقبه فى عهد دولته
للشاهدين وللأعقــاب أرويها
لعل فى أمة الإســلام نابتــة
تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت أوائلها
من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبها أن ترى ما كان من عمر
حتى ينبه منهــا عين غافيهــا

وعلى غرارها علوية عبد المطلب فى على بن أبى طالب ، وبكرية عبد الحليم المصرى فى أبى بكر ، وخالدية عمر أبو ريشة فى خالد بن الوليد ، وكذلك موشحة صقر قريش عبد الرحمن الداخل .

واهتم الكتاب اهتمام الشعراء بالشخصيات العربية الإسلامية يجلون تاريخها ويبصرون الناس بمآثرها وأعمالها ، فظهرت تراجم وقصص ودراسات عن تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم مثل

كتاب الدكتور هيكل « حياة محمد » ، وكتاب توفيق الحكيم « محمد » على صورة مسرحية ، ودراسة طه حسين على هامش السيرة عن المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية ، ومحمد المثل الكامل ، وعبقرية محمد للعقاد ، وغيره من الكتب الكثيرة التى ظهرت فى النصف الأول من هذا القرن .

كذلك ظهرت كتب فى سيرة الخلفاء ، ومنها كتب العبقريات للعقاد ، وكتب الدكتور هيكل عن أبى بكر الصديق وعمر الفاروق ، وطه حسين عن الفتنة الكبرى « عثمان » ، و « على وبنوه » ، وكذلك كتب محمد فريد أبو حديد « سيرة صلاح الدين » .

وظهرت قصص ومسرحيات تتناول حياة أبطال العرب والمسلمين ، ومنها قصص جورجى زيدان : فتاة غسان ، وعذراء قريش ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين ، وكتب كثير من الأدباء فى سير عظماء الإسلام مثل كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » ، ومسرحيات عزيز أباظة الشعرية فى فترات من تاريخ العرب الزاهر فى بغداد والأندلس . وبعض مسرحيات باكثير ، ومحمود تيمور حول شخصيات إسلامية مشهورة ، مثل « وا إسلاماه » لباكثير ، « وابن جلا » لتيمور .

وتعرض الشعراء للبطولات العربية بصفة عامة ، ولما فى تاريخ العرب والإسلام من شواهد عديدة على أصالة الأمة العربية ومتانة عنصرها . يقول الشيخ إبراهيم اليازجى :

سلام أيها العرب الكرام
وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا
مضت قدما فلم يضع الذمام

ويقول :

وما العرب الكرام سوى نصال
لها فى أجفن العليا مقام
لعمرى نحن مصدر كل فضل
وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم
وإن جحدت مآثرنا اللئام

ويقول فى قصيدة أخرى ، يذكر العرب بفتوحهم التى امتدت من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب :

ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزّوا أينما ذهبوا

ويقول مصطفى صادق الرافعى :

شنف بذكر مفـــاخر العربان
سمعى وأنعش خاطرى وجنانى
فحديث آباء الفتى ينشى بـــه
عزما لنفخ الروح فى الجثمان
ولرب آثـــار لهم تذكارهـــا
يهب الضمائر قوة الإيمـــان
تتفاخر الأجيال فى أخبـــارهم
والشمس لا تحتـــاج للبرهـــان
أهل الشجاعة والبراعـــة والوفا
والصـــدق والإيثـــار والإحسان
جعلوا الممالك تحت ظل سيوفهم
متظللين ذوائب المـــران

ويقول إلياس فياض فى قصيدة عنوانها « وفاء » :

تلك آباؤنا وذاك تـــراث الـ
ـمجد باق فيهم إلى الأبنـــاء
مشرف فى سماحـــة وذكاء
فى وقار وقـــدرة فى وفـــاء

ويقول الشاعر السودانى عبد الله عبد الرحمن :

تنكر من وادى العـــروبة مورد
فلا الزهر مفترّ ، ولا الغصن أملد
ولا ماؤه ينساب بين رياضـــه
ولا الطير فى أفنـــانهن تغـــرد
وقفت على الوادى مليـــاً فهزنى
وبدد شملى شمله المتبـــدد
مضى متنبيـــه وحسان بعـــده
وغاب معـــريه الحكيم المجـــدد
أسائله أين الذين تحـــدثوا
إليك وفى هذا المكان ترددوا
على ظله الصافى جلوسا وكلما
أهاب بهم داعى السماحة أنشدوا

ويقول الشاعر السودانى الشيخ عبد الله البنا أيضا :

وارمق بطرفك من بغداد داثرها
. واندب بها كل ماضى العزم ميمون
سل دار عاتكة ما شأن عاتكة
فيها وعن سائل فيها لهـــارون

وسل زبيدة عن قصر تبــوأه
بعد الأمين حسام الشهم مأمون
ساها عن الجيش جيش الله أين مضى
وكيف جرد من ماض ومسنون
وقبلها ابك دمشقا إنهــا فجعت
بسادة غزوا الدنيا أساطين
وسل معاوية عن شاتميه فكم
عفا وأعطى برأى منه مرصون
وعهد طيبة فاذكر فيه كل فتى
جم الأيادى من الشم العرانين
واذكر ليالى للفاروق أرّقه
فيها التـّقى وحنــان للمساكن

* * *

وشارك النثر الشعر فى التذكير بذلك المجد القديم واستنهاض الهمم ، لاستعادة ما ضاع منه ، ودبجت يراع الكتاب مقالات رائعة فى استنهاض الهمم ، نذكر مثالا لها ما كتبه عبد الرحمن الكواكبى فى « أم القرى » :

« إن الدين الإسلامى قد نشأ فى العرب وبلغتهم ، فهم أهله وحملته وحافظوه » ، ثم يذكر أن العرب هم أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق ، وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية وهم أعرق الأمم فى أصول الشورى ، وأهداها لأصول المعيشة الاشتراكية ، وأحرصها على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة الإنسانية ، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة .

ويقول أديب إسحاق فى الموضوع نفسه « من الدرر » :

« شعلة العرب التى سرت من الحجاز ، فأنارت الشام والعراق ومصر والمغرب والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نورا » ويشيد بفتوح العرب الكبرى ، ويوازن بينهم قديما ، وبين أحفادهم الآن داعيا إلى استعادة المجد القديم .

وصحبت هذه الدعوات الحارة للتأمل فى التاريخ العربى المجيد اتجاهات إلى الدعوة لضم الصف العربى والتآلف بين أبناء الأمة العربية فى الأقطار المختلفة ، فإن قوه العرب فى الماضى كانت نتيجة انضمام أجزاء العالم الإسلامى العربى تحت راية واحدة ، وإن ضعف العرب بدأ منذ أخذت الفرقة تدب فى أوصالهم ، والانقسام يقطع أوصال دولتهم الكبرى .

وظهرت مجموعة من كتب التاريخ العربى الإسلامى ، بعضها يتولى عرض جوانب خاصة منه ، وبعضها الآخر يتناول التاريخ العربى كله ، ومن أشهر ما ألف فى هذا الموضوع كتاب الدكتورحسن إبراهيم حسن « تاريخ الإسلامالسياسى »، وكتاب « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » للشيخ محمد الخضرى من قبله ، وكتاب الدكتور جواد على « تاريخ العرب قبل الإسلام » ، و « تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان »، و« بناة النهضة » له أيضا، و « أشهر مشاهير الإسلام » لرفيق العظم وغيرها ، كما تم نشر كثير من كتب التاريخ القديمة مثل تاريخ الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير، وفتوح البلدان ، وتاريخ ابن خلدون . . . إلخ .

٣

دعوة الأدب إلى التحرر
ومناهضة القوى الخارجية

واتخذ الأدب من التاريخ كذلك مادة للتحريض ، وإيقاظ العرب من رقدتهم ، ولما أخذت أمتهم تفيق وترفع عنها غبار الهون ، كانت لها بالمرصاد قوى ترقب حركاتها ، وتنهز

الفرص لتخمد نبضاتها وكان أول تلك القوى العثمانية كما أشرنا ، وقد صارع الأدب العثمانية صراعا مريرا ، وتمثل بعض الشعراء طغيان الترك كطغيان المغول وتخريبهم الحضارة العربية كما خرب أسلافهم مجد العباسيين . يقول الشيخ فؤاد الخطيب ناعتا إياهم بآل جنكيزخان :

يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم
على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذى سنة
ما كان ينهض لولا أنه ظلما

ويقول الشاعر السورى خير الدين الزركلى :

عتى أحفـــاد جنكيز فساقوا
سلائل يعرب سوق العبيـــد

وبعث إبراهيم اليازجى صيحة مدوية فى قصيدة نظمها سنة ١٨٩٦ م يخاطب العرب ويبصرهم بماضيهم ، ويدعوهم إلى التأمل فى حاضرهم الأليم حيث يسومهم الترك ألوان المذلة والهون :

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم
تستغضبون فلا يبـــدو لكم غضب

لأنتم الفئة الكثرى وكم فئة
قليلة تم إذ ضمت لها الغلب

ويقول فيها :

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم
فكم تناديكم الأسفار والخطب
ألستم من سطوا فى الأرض واقتحموا
شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويلكم أصبحتم هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

وتكاد هذه الأبيات أن تصرخ فى العرب بضرورة القيام والثورة لتغيير الأوضاع التى هم عليها فقد بلغت الروح الحلقوم، ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، فآن أن تفيض بالغضب النفوس، وأن يهب العرب ، ويثبوا الوثبة الكبرى ، ليديلوا من دولة البغى

وليرسوا قواعد دولتهم . وها هوذا معروف الرصافى الشاعر العراقى ، يدعو قومه العرب فى كل مكان إلى الانتفاض ، والخروج على الأتراك ، وإلقاء رداء المذلة جانبا :

حتـــام نبقى لعبـــة لحكومة
دامت تجرعنا نقيع الحنظل
تنحو بنـــا طرق البـــوار تحيفـــا
وتسومنا ســـوء العذاب الأهول
ما بالنا منها نخاف القتل .إن
قمنـــا أما سنموت إن لم نقتـــل

وكانت نتيجة هذا التحريض المستمر من الأدباء شعرائهم والكتاب قيام الثورة العربية الكبرى وانطواء الشعوب العربية تحت لوائها تنشد التحرر وبناء دولة جديدة . وأعقب الثورة ما أعقبها من خذلان وضياع لآمال العرب بسبب تدخل قوى جديدة غير العثمانيين ، هى قوى الاستعمار الغربى ممثلة فى دولتى إنجلترا وفرنسا ، وبدأ تدخل هاتين الدولتين تدخلا سافرا فى البلاد العربية بعد الحرب الأولى ثم انتهى بالانتداب فكان عنوان الغدر والتآمر على مصير العرب . وغضب العرب لهذا

الغدر ، فكانت ثورات وثورات ، لأنهم لم ينادوا بالتحرر من الأتراك لكى يخضعوا للإنجليز والفرنسيين .

وشهدت سوريا أحداثا دامية ، وتحملت من الاستعمار ضربات باطشة عنيفة حاقدة ، لأنها قلب العروبة النابض ، ومبعث الحركة العربية الفكرية والثورية ، وصمدت سوريا ولم تتخاذل ، وسقط شهداء وشهداء رووا بدمائهم شجرة الحرية التى تمتع العرب من بعد بظلالها وسيتمتعون بمرور الزمن كلما تمكنت تلك الشجرة ، ومدت بفروعها على أقطار العرب جميعا . وكانت وقعة ميسلون وقعة لا تنسى فى تاريخ البعث العربى ، وكان استشهاد يوسف العظمة وزملائه مثلا خالدا للفداء . ويخلد لنا الشاعر خليل مردم ذلك الحدث الجلل فى قصيدة عصماء بعنوان « ذكرى يوسف » يقول فيها :

مصيبـــة ميسلون وإن أمضَّت
أخف وقيعة مما تلاهـــا
فـــا من بقعـــة بدمشق إلا
تمثـــل ميسلون ومـــا دهـــاها
فسل عما تصبب من دماء
تخـــبرك الحقيقـــة غوطتاها

ولم أر جنـــة أمسى بنـــوها
وقـــود النـــار فائرة ســـواها

وشهد الأدب العربى شعراً ثوريًّا من الطراز الأول تفور به قرائح الشعراء ، ويتلون بألوان فنية مختلفة ، فمنه المتأجج تأجج النار ،ومنه النفاذ نفاذ النبال،ومنه الساخط المتبرم، ومنه المتوعد المتربص .

ولشوقى قصيدة رائعة ، تعد من أجمل قصائد الثورة السورية ، فيها الألم المرير ، والدعوة الجادة إلى اقتحام أبواب الحرية بعزم وتصميم ، يقول فى مطلعها :

ســـلام من صبا بردي أرق
ودمـــع لا يكفكف يا دمشق
ومعـــذرة اليراعـــة والقـــوافى
جـــلال الرزء عن وصف يدق

يقول فيها :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يـــدق

ويقول الغلاييني فى شعر ثورى يدعو العرب إلى طرد

المستعمر الغاصب فى كل أرض عربية حتى يتم تحرير الوطن العربى جميعه :

هبــوا فأمتكم أمست على خطر
جار الأعادى عليها جور منتقم
حتى تسيل ربوع الشام مفعمة
دما يسيل الردى فى سيله العرم
وذمـــة العرب والأيام شـــاهدة
لنضرمن الوغى فى السهل والظلم
حتى يخلوا بلاد العـــرب أجمعها
من ساحل الروم حتى ساحل العجم

ويقول الشاعر عمر أبو ريشة ، وقد امتلأ سخطا على أولئك الغربيين الذين كانوا فى القديم سبايا للعرب ينزلون منزل الذلة والهوان ، وقد دارت الأيام فأصبحوا الآن يشهرون على العرب سيوف الحرب ، ويحاولون استعبادهم :

ما لأبنـــاء السبايا ركبـــوا للأمانى البيض أشهى مركب
ومتى هـــزوا علينـــا راية ما انطوت بين رخيص السلب

يا روابى القدس يا مجلى السنا
يا رؤى عيسى على جفن النبى
دون علياثك فى الرحب المـدى
صهلة الخيـل ووهج القضب
لمت الآمـال منـا شملنا
ونمت ما بيننـا من نسب

ويصف خليل مردم تلاعب المستعمر ، وخيانته العهود وحنثه فى الوعود فيقول :

أتى ضيفا فأصبح رب بيت
يحـكم بالقطين وبالعيـال
وسمى نفسه قسرا وصيـا
على مفوضا فى كل حـال
ومنتـدبا على برغم أنفى
ولست بقاصر يـوم النزال

ويقول فيها :

دعانى للتفاهم بعـد أخـذ
ورد واختـلاف وافتعـال

وعاهـــدنى وسمـــانى حليفـــا
فلم أشفق عليـــه ولم أغـــال
لقينـــا فى سبيل العهـــد ما لم
نلاق من انتـــداب واحتلال
فكم من حـــاذق فطن تغـــابى
وداهيـــة تظاهر بالخبـــال
وكم من ضابط أو مستشار
تحـــذلق بالتحيز والـــدلال

كذلك دوى النثر بصرخات ثورية ، ومن أولى هذه الصرخات ، صرخات الكواكبى فى « طبائع الاستبداد » .

« يا قوم سامحكم الله لا تظلموا الأقدار وخافوا غيرة المنتقم الجبار ، ألم يخلقكم أحرارا لا يثقيلكم غير النور والنسيم . . . يا قوم كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا لله ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين مغموسة بدم الإخوان ، وأجدادكم ينامون الآن فى قبورهم مستوين أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء ، البهائم تود لو تنتصب قامتها ، وأنتم تطلبون الانخفاض » .

الفصل الثالث

الأدب يخوض معارك العروبة ويسجل انتصاراتها

١

فى معركة فلسطين

كانت كارثة فلسطين وضياعها من الوطن العربى إلى شراذم الصهيونية سببا فى انتباه العرب إلى ضرر الفرقة ، وما تجلبه عليهم من ضياع ، فقد سببت ضياع فلسطين وتشريد سكانها من العرب على تلك الصورة المشينة التى قاساها هذا الجيل من أبناء العروبة .

وكانت الكارثة سببا فى التجمع والانطلاق ، والدعوة إلى تقوية القومية العربية ، فهى الأمل المنشود والمنقذ المأمول الذى يستطيع أن يقف أمام أطماع الطامعين من الصهيونيين والاستعماريين ، وقد أسهب الأدباء فى شرح مأساة فلسطين ، والضعف الذى واجهتها به الدول العربية . وكانت هذه المأساة مادة لأدب حى ثائر مرير . ولعل من أبرز من أولى فلسطين

من نفسه أدباء فلسطين نفسها ، وشعراء الأردن لأنها جزء منها ونذكر على رأسهم الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان ، والشاعرة فدوى طوقان ، والشاعر هارون هاشم رشيد ، وغير هؤلاء ممن حفلت مجلات العروبة بقصائدهم الفياضة بالأسى ، الحافلة بالآمال فى العودة . . . وشاركهم شعراء العروبة فى سوريا والعراق ومصر والمغرب والحجاز .

وتناول شعر فلسطين أطوار النكبة منذ ظهورها فى أفق السياسة العربية بعد وعد بلفور المشئوم ، ثم ابتياع اليهود أرض العرب لقاء دراهم معدودات ، أو لقاء متاع عرض زائل ، وقد لعبت حسان صهيون فى هذا الشأن أدوارا ، ولعب العملاء الخونة المرتشون ، ولعبت الفرقة والضعف والأنانية ، ونبهنا الأدب إلى هذا كله ، فترى الشاعر إبراهيم طوقان يذكر هذه المساخر فى أسى ولوعة ، ويحس بوخيم العواقب ، فيقطر شعره مرارة وحسرة على أولئك الذين يبيعون أرض الوطن للغرباء الدخلاء ، يقول فى قصيدة سنة ١٩٢٩ :

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعا

بالمال ، لكنما أوطانهم باعوا

قد يعذرون لو أن الجوع أرغمهم
والله ما عطشوا يوما ولا جـــاعوا

وبلغة العار عند الجوع تلفظها
نفس لها عن قبول العار رداع

لكنهـــم وعذاب الله يمحقهم
للبطن والفرج دون الخـير نزاع

تلك البلاد إذا قلت اسمها وطن
لا يفهمون ودون الفهم أطماع

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة
ولا تذكرت أن الخصم خـــداع

لقد جنيت على الأحفـــاد وا لهفى
وهم عبيد وخـدام وأتبـــاع

وغرك الذهب اللمـــاع تحرزه
إن السراب كما تدريه لمـــاع

فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضا طولها بـــاع

والعبرة التى جناها العرب من بيع أرضهم بفلسطين بالذهب

والنساء والأطماع والفرقة والأنانية عبرة مكتوبة بالمر على القلوب المفجوعة ، عبرة مريرة ، خلفت أسى وشقاء كثيرا ، ومئات من البائسين من الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة من اللاجئين ، لا يجدون ما يلتحفون به تحت السماء سوى القرشتاء والقيظ صيفا . وقد ذكر الشاعر إبراهيم طوقان فى شعره ضروبا من التحذير وجهها إلى وطنه فقال لهم إن الذى ينعم بثراء المال الذى باع به أرض وطنه اليوم سوف يشقى غدا إذ ينبذ بالعراء وهو ذميم فقير ضعيف مهين . . . وسيجر الهون والذلة والتشريد لأبناء وطنه ممن لم يجنوا جنايته يقول : -

هيهـــات ذلك إن فى   بيع القرى بيع الـــثراء
فيه الرحيـــل عن الربو   ع غدا إلى وادى الفناء
فاليوم أمـــرح كاسيا   وغدا سأنبذ بالعـــراء

وكشف شعره عن سياسة العملاء ، الذين أضاعوا فلسطين ، هذه السياسة التى نقاسى منها فى بلادنا العربية كثيرا ، فهؤلاء العملاء الذين يتشدقون بشعارات مختلفة ، كلها أباطيل وضلال أضاعوا من قبل فلسطين ، وندد بهم طوقان فى أبيات تفيض مرارة وسخرية ، وتكشف عن خدعهم يقول :

أيهـــا المخلصـــون للوطنيـــه
أنتم الحاملون عبء القضيـــه
أنتم العاملون من غـــير قول
بارك الله فى الزنـــود الفتيـــه
و « بيان » منكم يعـــادل جيشا
بمعـــدات زحفـــه الحربيه
و « اجتماع » منـــكم يرد علينا
غابر المجـــد من فتوح أميه
وخلاص البـــلاد صار على البا
ب وجاءت أعيـــاده الورديه
ما جحدنا أفضالكم غير أنا
لم تزل فى نفوسنا أمنيـــه
فى يدينا بقية من بـــلاد
فاستريحـــوا كى لا تطير البقيه

ويقول أيضا فى أولئك العملاء ، وقد سماهم « سماسرة البلاد » :

أما سماسرة البـــلاد فعصبـــة
عار على أهل البلاد بقاؤها

إيليس أعلن صـاغرا إفلاسه
لمـا تحقق عنـده إغـراؤها
يتنعمـون مـكرمين كأنما
لنعيمهم عم البـلاد شقاؤها
هم أهل نجدتها وإن أنـكرتم
وهم وأنفك صـاغر زعمـاؤها
وحماتهـا. وبهم يتم خرابهـا
وعلى يديهم بيعها وشراؤهـا

وعرض فى هذه الأبيات الأخيرة لمكانة فئة العملاء فى بلادهم بما نالوا من المناصب الهامة التى وضعتهم فيها ظروف البلاد البائسة ، وطالع النحس ، فصاروا زعماءها وقادتها فى وقت محنتها على الرغم من أهلها ، وصاروا يتنعمون بخيرها ، وإن عاد على البلاد الشقاء والخراب ، نتيجة إهمالهم وأنانيتهم وبيعهم لها فى سوق الاستعمار مزايدين بين الدول لمن يدفع الثمن الغالى ، ولا هم لهم غير نفع وقتى ، مال ، أو جاه ، أو سلطان ، وشهوة عارضة ، ولا يحسبون حساب الوطن أو أهله ، أو شرف البلاد وعزها . . .

ثم وقعت الواقعة ، واجتمعت جيوش العرب السبعة على رقعة فلسطين الصغيرة ، فهزمت وتراجعت أمام شراذم اليهود وعصاباتهم ، ولم يكن تراجعهم عن جبن ، أو قلة حماسة وفداء ، بل كانت هزيمتهم عن خيانات وخلافات . وكانت نكبة ، وكانت عارا ، وكانت سهاما من نار نفذت فى صدور العرب فى كل مكان ، فخلفت جراحا لا تلتئم إلا بالعودة ، عودة الغرباء ، عودة البلد الحبيب إلى أهله .

وصار شعر النكبة مقسم الموضوعات بين بكاء على ذلك العار ، وبكاء على الشقاء الذى جرته ، ثم آمال واسعة تبدو فى الأفق يتعللون بها ، وتفتح أمام نفوسهم طاقات من الرجاء ، ويرون فى القومية العربية ذلك الرجاء المقبل الذى سيحقق الآمال .

يقول الشاعر هارون هاشم رشيد فى قصيدة بعنوان «غريب» :

سار عن أرضـــه غريبا طريدا
وقضى دون أن يرى النصر عيدا

كان يرنو لهـــا فتدمع عينـــاه
وتهمى على الخـــدود صديـــدا

كان يهفو إلى لقاء ثراه
فيرى حلمه عزيزا فريدا
وإذا رفرفت أمام رؤاه
صور الأمس راح يبكي الحدودا

* * *

يا فلسطين لن ننام عن الحق
ولو حولوا الوجود حديدا

ويقول من قصيدة أخرى بعنوان « لماذا » :

لماذا أظل بلا موطن
أحوم كالطائر المثخن
لماذا وبيتي وراء الحدود
وكرمي وذكرى شبابي الهني
أليس حراما لعمر الكرامة
أن يحرموني من قريتي
وفيها طفولة عمري الخصيب
وفيها منابت حريتي

* * *

وداری هنـــاك وحـــق السماء
أجـــل دار أهلى وأجداديه
وزيتونتى . . وبيـــوت الدجاج
وناعـــورتى . . وفم الساقيـــة

* * *

سلوهم بحق الذى يعبـــدون
بأى الشرائع هـــذا يـــكون
نشرد فى كل صقع بعيـــد
ونفـــنى ليستمتع الآخـــرون

* * *

سنرجع إنا غـــدا راجعـــون
إلى وطن العز جنبا لجنب

ويقول الشاعر عادل الغضبان فى وصف تلك النكبة ورجاء النفوس بنصرة الحق على الباطل بأيدى العرب الأشاوس :

حمى لا يزال البغى يجتاح أرضه
وتعثو به ذؤبانـــه وكـــواسره
ويعشو إليـــه كل علج وآبق
ويطرد منـــه أهـــله وعشائره

بكى «المسجد الأقصى» وماجت بشجوها
محـــاريبه ملتـــاعة ومنـــابره
وناح بأنحاء « القيامة* » هيكل
حزين ولاحت بالحـــداد ستائره
ودقت نواقيس الهدى نغم الأسى
وبثتـــه فى سمع السماء منـــائره
على كل بيت للعـــلى مقدس
غدا الدين فيـــه لا تقام شعائره
على كل كرم ذل فى قبضة العدى
وأصبح مقصيًّا عن الكرم عاصره
على شجر الزيتون وشحه الأسى
وأينع مغبرًّا من الحـــزن ثامـــره
ولو أنصف الزيتون كانت ثماره
رصاصاً وأشواك القتـــاد غدائره
فيا وطنى صبراً على البغى إنـــه
يزول وإن الله لا بـــد قاهره
غداً تتهادى راية العدل فى الورى
فينصر مـــوتور ويخـــذل واتره

وتضرب أسد العرب ضربة غالب
تهيج لها من كل غاب قساوره
وتزهى بنصر كالربيـــع ملألىء
تكلل هامات الرجـــال أزاهره
ويهنـــأ من ولى ولم يشهد الحمى
محـــررة أرباضــــه وجزائره

وللشاعرة عزيزة هارون أبيات (مجلة الآداب مايو ١٩٥٦) تخاطب فيها ضمائر الناس بعيدا عن ضجيج السياسة ، فتقول فى نشيد مؤثر قوى :

لا وحق الحب لن أخلف وعدا
وحنين رف ريحانا ووردا
أنا للثأر وللطفل المفدى
فارس فى حومة الحب تردى
إنه للغمرة الحمراء يهدى
ولدى بين اليتامى وغدا يشتد زندا
قال يوما يا رفاق الصف إنى أتحدى
إن أمى صقلتنى ، وأعدتنى فرندا

أنا للثأر ولن أخلف عهدا
ألف بركان بقلبي ليس يهدا
إنما الظالم فى الدار استبدا
أنا لا أعرف يافا بلدتى بالروح تفدى
إنها فى قلب أمى عبقت طيبا وندا
وهيام فى مداه الطلق لن يعرف حدا
وهى فى مقلة أمى بحنان الحب تندى
واجبي بالروح يا أم يؤدى
عربى كأبى يقحم الساحات فردا

وهذه النماذج من شعر فلسطين تمثل أكثر ما يدور فى شعر النكبة من المعانى ، التى تمثل وصف بؤس اللاجئين وظلم الإنسان والاستعمار ، ثم الأمل فى العودة ، والإعداد لها بين صفوف العرب وصفوف شعب فلسطين فى كل بلد عربى .

كفاح الجزائر

انطلقت حركة التحرر فى الجزائر بعد نكبة فلسطين ، فتلفتت آمال العرب إلى ذلك البلد العربى الذى سلبه الاستعمار وفصله عن بقية الوطن العربى دهرا طويلا ، وتآمر على عروبته وحاول أن يصبغه الصبغة الغربية ، فكانت الهبة الرائعة تمثل الروح العربى الذى يكمن لينطلق عملاقا جبارا ، وشغل كفاح العرب فى الجزائر نفوس العرب ، وأثارت قرائح الشعراء والأدباء فجادت بشعر جزائرى مفعم بالفداء ، وصور البطولات التى يمثلها إخواننا بالجزائر إذ يكافحون فى الجبال والسهول قوى المستعمر الغاصب ، وهى قوى تفوق قوى الوطنيين أضعافا .

وتشبه معركة الجزائر معركة فلسطين ، فقد شردت كذلك آلافاً من العرب ، وحكمت عليهم بسكنى المعسكرات لاجئين ، بعيدا عن أرضهم وزرعهم ، كذلك يتمسك المستعمر الغاصب فى تصميم بالأرض التى غصبها ، ويقاتل من أجلها قتالا مريرًا وحشيًّا ، ويتآمر على مصير البلد العربى وأهله .

وصور الكتاب والشعراء فى سطور من نار قصص الكفاح

المرير ، وصار لدينا فى الأدب العربى الحديث ذخيرة غنية ، وملاحم فياضة بضروب البطولة ، والمشاعر الحية المضطرمة . ونقتطف نماذج مما جاد به الشعراء فى المجلات العربية عن معركة الجزائر . فيقول الشاعر كاظم جواد فى قصيدة بعنوان « رسالة إلى صديقتى . . . من سجين عربى فى الجزائر إلى رفيقته المناضلة » ، يصور فيها آمال محبين من مجاهدى الجزائر ، وقد تحطم السجن عن البطل ، فانطلق يلحق برفاقه وبينهم حبيبته وزميلته فى الكفاح ، لينعم معهم بالنصر الذى يراه قريبا أكيدا :

سينهار هذا الجدار الكبير
ويندك سور الشقاء المرير
ويحدو قوافلنا المقبلات
مع الشمس صوت الرجاء الأخير

ويقول الشاعر فارس قويدر :

يا نفحة التاريخ لن تنطفى
ويا حروفا بعد لم تكتبا
ويا شموخا لم يزل صامدا
يعلم الأجيال معنى الإبا

لن تهـــدأ الثـــورة فى أرضنا
تبـــارك الدم الـــذى خضبا
وفجـــر الأجيـــال حقدا على
أحفـــاد مـــيرابو الذى أذنبا
جـــزائرى لا نارهـــا أخمدت
كلا ولا شعبى انطفا أو نبـــا
وحـــق قتـــلانا لنـــا جولة
يذهل فيهـــا الظالمين النبـــا
لن تعدمى الأيدى التى تعتـــنى
بالزهـــرة الحمراء كى تخضبا

واستشهد فى المعركة كثيرون من أبناء العروبة ، وأسر كثيرون وعذبوا ، ولكن خلد حادث جميلة بوحريد المجاهدة العنيدة إصرار المجاهدين لتحقيق استقلال الجزائر ، وهز ضمائر العرب وأدمى قلوبهم فتاة منهم يكيل لها ذئاب المستعمرين ضروب العسف والتعذيب ، فانطلقت الأقلام العربية تكتب المقالات الطوال ، تنعى على الإنسانية الغاشمة ممثلة فى جنود فرنسا وجلاديها ، وتنبه ضمير العالم الغافى أو الذى طمسته

المصالح ، وغلب الحديث عن جميلة على صفحات الجرائد والمجلات ، بل شغلت به إذاعات الدول العربية وفنانوها ، وظهر « فيلم عربى » فى حياة المجاهدة البطلة . وشارك الشعراء الركب فصوروا ما يرمز إليه حادث جميلة من تصميم الشعب الجزائرى على الحرية مهما كان الثمن . وكثر الحديث فى هذا الموضوع ، فرأينا الشاعرة العراقية نازك الملائكة تخرج علينا بأبيات تقول فيها :

ونحن منحنا لوصف جراحك كل شفه
وجرّحنا الوصف ، خدّش أسماعنا المرهفه
وأنت حملت القيود الثقيلة
وحين تحرقت عطشى الشفاه إلى كأس ماء
حشدنا اللحون وقلنا سنسكتها بالغناء
ونشدو لها فى الليــالى الطويلة
وقلنا لقد أرشفوها الدماء ، سقوها اللهيب
وقلنا لقد سمروها على خشبات الصليب
ورحنا نغنى لمجد البطولة
وقلنا سننقذها ، سوف نفعل ثم عزفنا
وراء مدى سوف ، بين الحروف النشاوى..
وصحنا . . . جميلة

وتتحرق الشاعرة فى هذه الأبيات مرارة من عذاب جميلة وزملائها ، فهى ترسف فى الأغلال وتدمى يداها ورجلاها من القيود ، ونحن بقية أبناء العروبة ننعى حظها ونسود الصحف فى النوح ، ووصف بطولتها وتحملها للآلام وننعى حظها قولا . . كلاما . . وهى تنزو دما وآلاما . . فوا خجلتا بجميلة ، لأنا لم نقدم لها سوى الشعر . . والكلمات . .

هم حملوها جرح السكاكين فى سوء نيه
ونحن نحملها فى ابتسام وحسن طويـــه
جراح المعانى الغلاظ الجهولا
فيا لجراح تعمق فيهـــا نيـــوب فرنسا
وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى
. . . فواخجلتا بجميله

فهنا شعور عميق بوجوب النهوض والعمل لإنقاذ جميلة ، وإنقاذ زملائها ، دعوة للمشاركة الفعالة بالنفس والمال ، بكل ما نملك لإنقاذ إخواننا بالجزائر ، حتى تتحرر جميلة ، وحتى يبلغ إخواننا بالجزائر أهدافهم التى ثاروا من أجلها ، وليحققوا لبلدهم العربى عروبته ، التى أرادت فرنسا أن تطمسها وتخفيها إخفاء . . ولكن هيهات . . .

معركة القناة

وكان من أعمق المعارك أثرا فى نضال القومية العربية وكفاحها فى سبيل الحياة معركة القناة وجهاد بورسعيد حين تآمرت قوى العدوان الثلاثى ممثلة فى فرنسا وإنجلترا وإسرائيل فى أكتوبر ١٩٥٦ فشنت هجومها الغادر على منطقة القناة وسيناء ، لتحطم مصر ، وتحطم بذلك القومية العربية فى عشها ، فلاينطلق لسان ، ولا يجرؤ إنسان على تحدى الاستعمار ، أو معاونة حركات التحرر العربى ، والمناداة بالقومية ، وقد رأت هذه القوى ذات المصالح الحيوية فى بلادنا العربية أن مصر مأوى الأحرار من العرب ، وأنها تتولى القيادة ، ولا تبخل بجهد أو مال ، أو مصلحة خاصة بل تضحى بهذا كله فى سبيل تحقيق أهداف القومية العربية ، وضم الشمل العربى ، وتحرير الوطن من الخليج إلى المحيط . أراد أولئك المعتدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الحاقدون الحانقون .

وجاهد الشعب العربى فى معركة القناة ، وفى بورسعيد جهادا رائعا خالدا ، فخرجت مصر قوية الأزر ، شديدة التصميم ، وحفظها الله للعروبة ، فخرجت القومية بنصر القناة رافعة الرأس خفاقة اللواء واثقة فى المستقبل ، وفى أن الجهاد

سبيل التحرر . لقد أظهرت معركة القناة أصالة جوهر القومية العربية ، وكشفت للعالم الغطاء عن القوى الكامنة فى الوطن العربى عن روح الفداء والتضحية ، من أجل الإخاء ، ووحدة الكفاح ووحدة الهدف والتصميم لبلوغ النصر ، على الرغم من الخلافات المصطنعة التى يبثها دعاة الفرقة وغربان البين من الزعماء المزيفين .

لقد أظهرت معركة القناة الوحدة العربية فى أروع صورها ، قطع البترول عن الغرب ، فكانت ضربة سديدة ، وتضحية عزيزة ، لتثبت الشعوب العربية أن المعركة معركة العرب جميعا وليست معركة شعب مصر وحده . وقد سجل الأدب فى أنصع صفحاته صورا رائعة للكفاح العربى فى بورسعيد ، سجلها شعراء العرب فى كل مكان .

فى مصر صدر كثير من شعر المعركة ، نذكر منه على سبيل المثال كتاب « شعر المعركة » وهو مجموعة من الشعر الذى قيل فى هذه المناسبة ، جمعته وطبعته وزارة الثقافة والإرشاد ويضم عددا من قصائد شعراء العرب فى مصر والشام والعراق ، من أمثال سليمان العيسى ونزار قبانى وعادل الغضبان وعلى الجندى ومحمد التهامى وخالد الجرنوسى ومحمود غنيم ؛ ومنها ديوان « من وحى بورسعيد » للشاعر الضابط حسن فتح الباب ، وديوان من الشعر الشعبى لصلاح جاهين ، غير كثير من القصائد نشرت فى

المجلات والجرائد، وكانت صدى خالدا، وأثرا باقيا فى أدبنا الحديث.

ويشترك هذا الإنتاج الشعرى فى خصائص واحدة تجمع بين أبناء الشعب العربى فى حقيقة مشاعرهم تجاه الأحداث التى مرت بمصر ، ويمكن تلخيص هذه الخصائص فى أن الشعب العربى شعر بأن الضربة التى كانت موجهة إلى مصر فى بورسعيد لم يكن المقصود بها مصر وحدها ، بل المقصود بها حقيقة العالم العربى كله والقومية العربية ، تلك القومية النامية المتفتحة فى الشرق الأوسط ، والتى أضحت بالنسبة للاستعمار شبحا مخيفا ، وعملاقا هائلا يفزعه ، ويقطع أحلامه ، ويقلق مضاجعه ، ويهدد مصالحه ، وخاصة فى اقتصادياته المتصلة بالبترول العربى ، وطرق تجارته ، ومراكزه الحيوية للدفاع .

وصور شعراء العربية هذه الضربة الثلاثية ضد مصر ضربة موجهة لكل فرد عربى وكل قطر عربى ، لذلك نجد الثورة ضد المعتدين ، والرغبة فى الفداء، وإلقاء كل الثقل فى المعركة ، ومشاركة المصريين وأبناء بورسعيد فى شرف القتال ، وتمثلت بورسعيد فى هذا الشعر رمزا للتصميم والتضحية والمصابرة والاستبسال فى سبيل رد القوى الغاشمة .

ويعبر الشاعر السودانى عن وحدة الكفاح ، وعما ذكرنا

من معان بقوله :

إذا ما طوتك غيوم الزمـــان طوتنى دياجـــيرها والظلم
وإن سقط الدمع من مقلتيك بكيت بقلبى دموعا بدم
وتأسى روافد بحـــر الغـــزال إذا ما بدمياط خطب ألم

وكذلك يقول الشاعر السودانى الآخر :

لما أتت أنبـــاء حـــربك فى الدفاع وفى الإغاره
هتف الجنوب وأرعـــدت فى الجو أضواء الشراره
لبيـــك يـــا دار العـــلا لبيـــك يا مهـــد الحضاره

كذلك عبر الشعر عن مكانة مصر بين الدول العربية ، تلك المكانة التى احتلتها باعتبارها الأخت الكبرى عن طريق الحب والتقدير ، والنضال عن أخواتها العربيات ، ومساعدتها فى نضالها التحررى ومعاونتها فى نهضتها الفكرية والحضارية . وهى مكانة تكمن فى أعماق الصدور ، لا تزعزعها أهواء السياسة ولا زيف المزيفين .

كذلك ظهر فى أدب المعركة دعوة إلى المضى قدما فى سبيل إتمام تحرير الوطن العربى بسرعة وعزم ، شد من أزره كشف الاستعمار عن نواياه ، وعمده إلى طرق الغدر المفضوح والقوة الغاشمة . وهى دعوة لأبناء العروبة لمواصلة الكفاح برغم كل ما يقف فى الطريق من المشاق والأهوال . وهذا المعنى يتردد

كثيرا فى شعر الشباب ، ويمثله قول الشاعر السورى سليمان العيسى :

أبصرت دربى لا وقــوف ولا التــواء عن المسير
لى أن أحس شموخ رأسى ناسجا بيــدى مصيرى
لى أن أشم شذا الحيـــا ة مللت أنفاس القبور
لى أن أبيت وليس فىْ أذنى صرخــة مستجير
لى مــوطنى لا للدخيــ ل ولى بأزهارى عبــيرى

كذلك يظهر اتجاه آخر يختلف عن الاتجاهات السابقة ، ينظر فى هذا الصراع الغشوم ، والقتل والاغتصاب ، فيرمى بآمال بعيدة إلى عالم يرفرف عليه السلام بأجنحته ، عالم يحترم فيه الناس إنسانيتهم ، ويتعايشون فى تعاطف وتسامح ، ويرى هذا الاتجاه فى القومية العربية الأمل المنشود ، بما تنطوى عليه من دعوة للسلام والإخاء ، وعدم تشجيع دعاة الحرب بالدخول فى الأحلاف ، بل الوقوف موقف الحياد لزيادة فرص السلام .

وقد رأى الشعر فى الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا تحت راية الجمهورية العربية المتحدة تحقيقا عمليًّا للحلم الكبير للقومية العربية فى سبيل وحدة الوطن ، لذلك ترنم الشعراء بيوم الوحدة ، واعتبروا هذا الحدث الجليل بعد معركة بورسعيد

إرهاصا بإشراق شمس العروبة من جديد يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وإذا راية تمس يد الشمس وتمضى لسدة النيرات
نفضت عن جبينها حسرة الذل وداست على جبين الطغاة

قلت من أنت فانبرت تحصد الصمت
وتروى العظائم الخالدات
أنا بنت الوليد بنت صلاح الدين
بنت الملاحم الداميات
البطولات نورت بين كفى
وشع الضياء من عتباتى

. . .

آذن الله وانتهت غبشة الليل
وثارت على عميق السبات
وعلت وحدة العروبة كالطود
فبادت عصائب السافيات
راية العرب رفرفى فى سماء البعث
وامضى خفاقة فى الحياة

الأدب والدعوة لبناء الكيان المعنوى للقومية العربية

خاض الأدب الحديث المعركة لبناء الكيان المعنوى الاجتماعى ، والثقافى ، والأخلاقى إلى جانب معركته ضد الاستعمار وفى سبيل تحقيق التحرر السياسى ، فالقومية العربية حركة بناء ، وتجديد لتحقيق الرفاهية للشعب العربى ، ولتحقيق ذاته وكيانه ، بعد أن ظل كيانه ضائعا فى غيره من الدول والشعوب دهورا طويلة . وخشية أن يضيع أيضا فى زحمة التيارات الجديدة فى حضارة القرن العشرين .

وقد وقف الأدب يناضل فى سبيل تدعيم قيمنا العربية فى نفوس المواطنين ، وهى قيم منبثقة من تاريخنا وتقاليدنا ، روحنا ووعينا وواقعنا ، لا مستوردة أو مهجنة مولدة .

وأول ما خاض الأدب من معارك فى هذا المضمار معركة اللغة العربية ، وقد حاول دعاة التفرقة والإقليمية ، ودعاة التفرنج والثقافة الغربية أن يحطوا من قدر اللغة العربية ، وأن يفتتوا من كيانها الكبير ، وأن يبعثوا على أنقاضها اللهجات الإقليمية لكى تتم الفرقة الثقافية والوجدانية بين أبناء الوطن العربى ، وليتم

الانفصال بين الشعوب التي وحدت بينها تلك اللغة قرونا . ولكن اللغة صمدت مع ذلك أمام هجمات شديدة شنها بعض الأدباء والنقاد فى مطلع هذا القرن ، فى المراحل الأولى من الانتفاضة العربية ، وكانت الدعوة فى كل مكان إلى إحياء اللغة الفصحى قوية كما كان أجدادنا يستعملونها فى عصور الازدهار ، وإحياء التراث الفكرى العربى ، وإعادة مجدنا الحضارى حتى يصبح لنا زاد فكرى نستطيع أن نعتمد عليه ونبنى أسس نهضتنا المقبلة ، حتى لا نلجأ إلى تأسيسها على أسس مستعارة مجتلبة ، غريبة عن واقعنا ووجداننا .

وتصدى المخلصون من أدباء العرب للحرب التي شنت على اللغة ، فعارضوا إحلال اللهجات الإقليمية مكان الفصحى فى الأدب ، بل هاجموا مجرد التحرر من قيود الفصحى وقواعدها ، لتظل اللغة كما هى ، كما كتب بها أجدادنا ودونت بها معالمنا الفكرية الخالدة ، وكما نزل بها القرآن سليمة صافية قوية ، تربط بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .

وقد نظم حافظ إبراهيم فى الدفاع عن العربية قصيدة طويلة يبدؤها بقوله :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى

وناديت قـــومى فاحتسبت حياتى

يقول فيها :

أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادى بوأدى فى ربيـــع حياتى
ولو تزجـــرون الطير يوما علمتم
بمـــا تحتـــه من عثرة وشتات

ويقول إن كل أناس يعتزون بلغاتهم ، ويعتبرونها عنوان مجدهم ورمز عزتهم ، وإن الدعوى بهجر لغتنا الفصحى والإقلال من شأنها إنما هى دعوى شعوبية من شأنها تحقيرنا نحن والنيل من كياننا .

أرى لرجال الغرب عزًّا ومنعـــة
وكم عز أقـــوام بعـــز لغات
أيهجرنى قـــومى عفا الله عنهمو
إلى لغـــة لم تتصـــل بـــرواة
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى
لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

فهذه اللهجات العامية التى يدعو الداعون إلى كتابة الأدب بها ، وتدوين نتاجنا الثقافى إنما هى لغة قاصرة ، خليط ، سرت فيها ألفاظ غير عربية من كل جنس ، فإذا سهلت على لسان العوام فلن تصلح لتدوين محاصيل الفكر .

كذلك يشرح مصطفى صادق الرافعى ما يترتب على دعوى إضعاف اللغة العربية الفصحى وعدم الأخذ بها فى آدابنا وعلومنا من إضعاف لكياننا ، وإهدار لمقوماتنا ، فإنما هذه اللغة أمٌّ لنا :

أمٌّ يكيد لها من نسلها العقب
ولا نقيصة إلا ما جنى النسب
كانت لهم سببا فى كل مكرمة
وهم لنكبتها من دهرها سبب

. . .

أنترك الغرب يلهونا بزخرفة
ومشرق الشمس يبكينا وينتحب
وعندنا نهر عذب لشاربه
فكيف نتركه فى البحر ينسرب
وهل نضيع ما أبقى الزمان لنا
وننفض الكف ، لا مجد ولا حسب
أنا إذا سبة فى الشرق فاضحة
والشرق منا وإن كنا به خرب

وينعى الشاعر سابا رزيق فى قصيدة (ديوانه المطبوع سنة ١٩٥٥) — ينعى على أولئك الذين تركوا لغة الأجداد إلى

اللغات الأجنبية يتقنونها ويولونها جل اهتمامهم ، ويهملون اللغة التى حفظت تراثنا :

أرى لغة الأجداد فى عقر دارها
تسام الأذى من كل أحمق أهوج
يطلقها أبناؤها وبناتها
لخطب ولاء الأعجمى المدبج
أنقضى عليها وهى آخر درة
بأجيادنا فى عقدنا المترجرج
جنينا على أم اللغات جناية
ستترك روض العز غير مسبج
وتجعلنا مثل اليهود خرائقا
مضيعة الأوطان تبكى وترتجى

فاللغة هى الرابطة التى تجمع الأمة العربية ، وتوثق بينها الصلات ، وتؤلف القلوب فى الوطن العربى الكبير ، ففى أى بلد عربى يستطيع المواطن العربى أن يخاطب أخاه العربى دون أن يحس بغربة أو فرقة . فاللغة العربية لسان القومية الحى ، ورسولها إلى العرب فى كل مكان ، تحمل الأمانة ، وتنشر مقوماتها ودعوتها كما حملتها أول مرة فى عهد النبوة ، كلمات منزلات من لدن اللطيف الخبير :

لهذا ينبغى أن تظل العربية لساننا القوى ومفخرتنا الباقية على الزمن ، وينبغى أن نؤمن كما آمن آباؤنا وأجدادنا بأنها أم اللغات ، وهى اللغة الوحيدة التى تنزل بها كتاب من السماء ، نصًّا لا معنى ، لذلك جاء الكتاب المنزل أسمى ما يمكن أن تصل إليه اللغة من ناحية البيان والتعبير الأدبى الفصيح البليغ . وقد حاول أحد علماء المسلمين أخيرا أن يثبت أن اللغة العربية أقدم اللغات الحية ، بل أراد أن يبرهن على أنها أم اللغات كلها فى صورتها الأولى[١] .

وما زالت هذه اللغة إلى الآن حية متطورة تعى وتتسع لكل شىء جديد ، تتكيف مع الحياة لتساير حاجاتها ، وتستوعب كل ما يصل إليه العقل البشرى . كذلك تمتاز هذه اللغة بين سائر اللغات بأنها احتفظت لنا بالقرآن فى تلك الصورة الرائعة من البلاغة التى هى مرجع كل بليغ ، ومورد كل أديب ، والقرآن مقروء مدروس يتلى ليل نهار ، ويحفظه المسلمون ويسمعون آياته فى كل مناسبة ، ويتعدد هذا السماع فى اليوم والأسبوع والشهور والسنين ، ولا ينقطع . وهذا الترداد خلود للغة وتجديد على مر السنين .

إذا فلغتنا ليست كما يرميها به بعض الرامين من أن بها

(١) راجع هذا المقال فى عدد فبراير ١٩٥٩ من مجلة «Islamie Review»

قصورا ، وتخلفا عن الوفاء بمستلزمات العصر والحضارة الحديثة، فهذه كلها دعاوى فارغة عارية ، مرجعها الجهل باللغة والتكاسل عن التعرف إليها والأخذ بأسبابها .

وقد دارت مناقشات طويلة فى الكتب وعلى صفحات المجلات والجرائد حول هذا الموضوع ، وتجدد القول فى الموضوع أكثر من مرة خلال النصف الأول لهذا القرن . وحاول بعض العلماء والأدباء أن يخرجوا بالدعوة القديمة وهى تطوير اللغة الفصحى وتطعيمها بالعامية ، أو إنهاض العامية وتقويتها على حساب العربية ، للنهوض بالأعمال الفنية وخاصة فى القصص والمسرح والسينما والإذاعة . . . وما شابهها . ولكن هذه الدعوات سرعان ما خفتت لأن العلماء العارفين تصدوا لها ، ولأن الوعى العربى النامى لم يستجب لها ، وأحس بالأخطار المحدقة بالقومية إذاساير تلك الاتجاهات فقاوم الدعوة للعامية فى الأدب مقاومة شديدة عنيدة .

وناقش الأدباء عناصر مقوماتنا الأخرى ، فدافعوا عن تقاليدنا وأخلاقنا ضد تقاليد الغرب التى أخذت تتسلل إلى المجتمعات العربية مع فجر النهضة الحديثة ، وكانت هذه التقاليد والعادات الغربية تصدم المجتمع العربى بما تحمله من بذور التحلل والتحرر والأخلاق التى لا يقبلها الطبع العربى .

وبدت العادات والتقاليد الغربية لعيون بعض شبابنا العربى فى صور براقة خلابة فتنتهم فمالوا إليها ودعوا لها وإلى اتباعها فى مجتمعاتنا دون تحفظ . ولكن الدعاة من المصلحين وقفوا لهذا التيار بالمرصاد ونبهوا الناس إلى ضرورة التمسك بعقائدنا وتقاليدنا لنحتفظ بشخصيتنا متماسكة لا تذوب وتتلاشى فى تيار الحضارة الغربية . ونبه أولئك الدعاة المصلحون كذلك إلى خطورة هذه التقاليد الغربية على مقوماتنا العربية . وكان الأدب لسان هذه الدعوة الصارخ . من ذلك ما قاله السيد رضا الشبيبى ينعى على هذه المدنيات الغربية الوافدة ، ويسمى الزمن التى وفدت إلينا فيه زمن الضلالات :

تظنون هـــذا العصر عصر هداية .

وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات

ويقول جورجى زيدان مبينا السبب فى اقتران اسم التمدن فى مصر بالفساد الاجتماعى :

« واتفق أن التمدن جاء هذه البلاد (مصر) وهى فى مهاوى الانحطاط ، على أثر استبداد المماليك ومن جرى مجراهم ، ولكنه لم يتناول فى أول عهده إلا التعليم والتربية مع المحافظة على الحشمة الشرقية . وأما التهتك أو خرق الحجب فلم يظهر إلا فى أواخر القرن الماضى لما كثر تقليدنا للإفرنج حتى فيما ينافى فطرتنا» .

وندد الأدب بنوعين من المفاسد الاجتماعية الوافدة مع مدنية الغرب ، أحدهما المحرمات الدينية والأخلاقية كالقمار والمسكرات بأنواعها والمخدرات والتهتك الجنسي والاختلاط ، وثانيها بعض العادات المستهجنة كالرقص والسباحة المختلطة والتطرف فى بعض الأزياء . . . وما إلى ذلك .

وكثرت كتابات الأدباء فى هذين الموضوعين ، وللمنفلوطي فى النظرات كثير من الآراء فى دعوة الناس إلى الفضيلة والبعد عن مهاوى الرذيلة . كذلك فعل الشعراء فى كل بلد عربى . وقد أكثر الشاعر الكبير أحمد شوقى من ذكر الأخلاق والتذكير بها فى شعره حتى عد ذلك من سماته البارزة ، وكان ذلك لأن شوقى عاش فى هذه الفترة التى بدأت فيها الحضارة الغربية تغزو المجتمع العربى .

كذلك رأى الشعراء أن يدعموا للأمة العربية كيانها الاجتماعى ببعث المجد الثقافى والتذكير بأخلاق العرب وفضائلهم . يقول الشاعر المهجرى أبو الفضل الوليد :

ســـلام على العرب الخالدين	ســـلام العلا وسلام الكرم
وإنى لأقــرأ تاريخهم	ومـــا ســـطروه بحبر ودم
بنى أم هل من نهوض لنـــا	وهل من هيام بتلك الشيم
لقد فقـــد العرب أخلاقهم	فسادت زمانا جموع العجم

فالشاعر يدعو إلى نهضة العرب وتمسكهم بأخلاق أسلافهم وشيمهم الكريمة التى كانت سببا فى بعث حضارتهم العظيمة وسيادتها جميع البلاد التى غمرتها . وكانت أخلاقهم تلك سببا فى تقدمهم على سائر الأمم ، فجدير بهم أن يتمسكوا بها ليحافظوا على كيانهم ولا يغلبوا على أمرهم . كذلك قال الشاعر رشيد أيوب :

فنحن بنو الأعراب كنا ولم نزل
بما خصنا المولى نفوق الأجانبـــا
ألسنا الألى سادوا العباد ودوخوا
البلاد وأبدوا فى الحروب العجائبا
كذاك بنينا للعـــلوم معاهـــدا
وشدنا لأهل الأرض فيها مكاتبا
فما روت الأيـــام من عهد آدم
إلى اليوم من شعب يفوق الأعاربا
فيا وطنى لا زلت أول بقعـــة
من الأرض أبدت للبرايا عجائبا
طويت من الآثار ما لو نشرته
لضاقت به الدنيا حجا ومواهبا

كذلك لم يكفوا عن ترديد وجوب التمسك بتلك الأخلاق العربية ، وقد اتضح هذا الجانب الأخلاقى عند شوقى كما ذكرنا وهو القائل :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت　　فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأراد الأدب العربى أن يقوم المجتمع العربى الحديث على عنصريه معا المرأة والرجل ، ولم تكن الدعوة إلى رفع شأن الرجل العربى وحده وتحريره من أوهام الماضى وحبائله وتزويده بسلاح العلم والفهم الحديث للحياة وحقوقه باعتباره إنسانا يحيا ويشارك فى رفاهية إخوانه من المواطنين وبنى البشر أجمعين ، لم تقتصر الدعوة على الرجل العربى وحده ، بل إن بعض المصلحين وقفوا جهودهم للدعوة لنهضة المرأة العربية وتحريرها من الرق والظلم والخوف والتقاليد والجهل والحجاب الصفيق الذى ظل زمانا يحجزها عن مسايرة التطور ، ومشاركة الرجل فى بناء مجتمع صالح . وكان قاسم أمين على رأس أولئك المصلحين ، فقد وقف حياته للدفاع عن قضية المرأة فى وقت كان التزمت فيه على أشده ، وقد كتب كتابه « المرأة الجديدة » وجعله دستورا لتحرير المرأة من الحجاب والتقاليد والعادات البالية . . وطالب بتعليمها ، وتنظيم مسائل الزواج والطلاق ومنحها الحقوق

الاجتماعية مستندا فى هذا كله إلى النصوص القرآنية والنبوية ، محاولا تفسيرها بما يلائم روح العصر .

وشارك الشعراء فى هذا الاتجاه ، فنظم حافظ إبراهيم قصيدة يقول فيها :

من لى بتربيـــة النساء فإنها فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرســـة إذا أعــــددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وإن كانت دعوة حافظ دعوة متحفظ متمسك بالتقاليد إلى حد ما ، ويظهر هذا فى قوله :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع
يحــذرن رقبتـــه ولا من واق
كلا ولا أدعــوكم أن تسرفوا
فى الحجب والتضييق والإرهاق
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا
فالشر فى التضييق والإطــلاق

وظلت الدعوة لنبذ الحجاب فى مصر وغيرها ، فنى العراق نجد الشاعر العراقى معروف الرصافى يدعو إلى إطلاق سراح المرأة بعد ما قضت من زمن طويل وعمر مديد فى العبودية والظلام ، فأخرجت لذلك أبناء عبيد أذلاء ، وقد آن لها أن تتحرر لتنتج لنا أعزة يتطلعون إلى مستقبل كريم :

ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم
على الذل شبوا فى حجور إماء

وكذلك يقول الزهاوى :

مزقى يا ابنة العراق الحجابا   واسفرى فالحياة تبغى انقلابا
مزقيه وأحرقيه بلا ريث   فقد كان حارسا كذابا

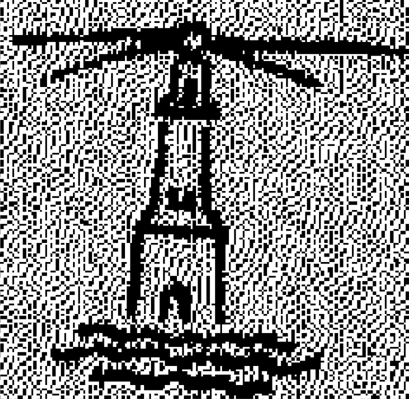
وقال إيليا أبو ماضى يدعو المرأة السورية إلى الخروج عن عزلتها ، والكفاح مع الرجل العربى جنبا إلى جنب لبناء مستقبل عزيز سعيد :

قد مشى الغرب على هام السها   ومشينا فى الحضيض الأسفل
سجل العار علينا معشر   سجلوا المرأة بين الهمل
فهى إما سلعة حاملة   سلعا أو آلة فى معمل
أرسلوها تذرع الأرض خطا   وتبارى كل بيت مثل

دكتور جورج زايد

ڤيكتور هوجو

حياته وآثاره



دار المعارف بمصر

ڤيكتور هوجو

حياته وآثاره

دكتور جورج زايد

ڤيكتور هوجو

حياته وآثاره

اقرأ ٢٠٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٤ — ديسمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

فيكتور هوجو

(١٨٠٢ – ١٨٨٥)

كانت حياة ڤيكتور هوجو ملحمة عنيفة اصطرعت فيها آراؤه الفنية واتجاهاته الاجتماعية والسياسية وآراء العصر التى تواضع عليها النقاد وأرباب الفكر وأقطاب الاجتماع ؛ فلا عجب إن كابد هوجو فى أثنائها كثيراً من الهزء والسخرية وتحمل مرارة النفى فى مصابرة ورضاء حتى ارتفع إلى ذروة المجد والفخار إبَّان حياة قطعها فى كد وعمل متصلين ، فلم يترك عقله الجبار فى كرّه وإقدامه باباً من أبواب النشاط إلا طرقه ، فمن شعر إلى تاريخ ، ومن قصص إلى نقد فنى وسياسى ، ومن مسرحيات إلى فلسفة ، كل أولئك كان يعبر عن بداهته الفنية ويشف عن إحساسه العريق وشعوره العميق ؛ مما جعله يسود بعبقريته وشخصيته جميع أدباء القرن التاسع عشر إلى حد يصح معه أن يسمى ذلك العصر بعصر ڤيكتور هوجو .

وقد عاصر إبان حياته الطويلة مختلف أنواع الحكم فى فرنسا ، فمن إمبراطورية إلى ملكية مطلقة ، ومن ملكية دستورية

إلى جمهورية ؛ ومرت مراحل حياته طوراً بين الحرب والسلم ، وطوراً بين الحرية والنفى ، وأحياناً بين الثورة وقصف المدافع ، تشجيه الأناشيد القومية والمناداة بهدم الأنظمة القائمة . فلا غرو إن جاءت آثاره الأدبية مرآة لنشاط أمّة فى مدى قرن يعدّ من أهم القرون التى مرت بها ، وقد لمعت فى فجره شخصية من أعظم الشخصيات التاريخية التى كان لها أبلغ الأثر وأعمقه فى نفس هوجو ألا وهى شخصية نابليون .

نشأة هوجو

لم يكد « ينسلخ من عمر القرن التاسع عشر إلا سنتان » حتى ولد ڤيكتور هوجو ، كما ذكر فى قصيدة له من مجموعته الشعرية الثالثة « أوراق الخريف » . وكانت ولادته فى السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٠٢ ، فى مدينة بيزانسون ، « الإسبانية الطابع » ، التى تقع فى جنوب شرق فرنسا .

أما أبوه « ليوبول سيجسبير هوجو » فكان جندياً ، وأمّا أمّه « صوفى فرانسواز تريبوشيه » فابنة بحار . وقد زعم ڤيكتور هوجو فى أحد مؤلفاته أنه من أسرة أرستقراطية عريقة يرجع أصلها النبيل إلى القرن السادس عشر وراح يدلل أيضاً على صحة انتسابه إلى طبقة الأشراف — كما جاء فى رواية « البؤساء » — بأن أحد أفراد أسرته كان أسقفاً لمدينة عكّا ، وأن الرومان قد سمّوا المزرعة المجاورة لواترلو ، ساحة القتال الشهيرة التى انهزم فيها نابليون لآخر مرة ، باسم « هوجومنت » أى جبل هوجو ، وقد وجد فى ذلك دليلا قوياً يستند إليه فى الرجوع بأصله العريق إلى عشرين قرناً .

ورغم أن هوجو قد زجّ بأسرته بين طبقة الأشراف إلا أنها في الواقع كانت في مرتبة دون الطبقة الوسطى . حيث إن جدّه « چوزيف هوجو » كان نجاراً في نانسي ؛ وجدّ والده كان مزارعاً في مدينة بودريكور بجبال الڤوج، وليس ثمة دليل واحد يثبت عراقة هذه الأسرة غير مزاعم ڤيكتور هوجو التي ساقها والتي لا يمكن اتخاذها دليلاً قاطعاً فوق أنها لا يمكن التعويل عليها بوجه من الوجوه .

ولا يزيد ڤيكتور هوجو رفعة في حلبة الافتخار ضخامة أسرته بأصلها الأرستقراطي ونسبها العريق ، فحسبه من المجد ما بلغه بعبقريته التي سحرت البصائر والنهى ، وحسبه من الفخر ما أبلاه والده المجيد في ساحات الوغى والحروب .

فوالده هو ذلك الجندي الباسل الذي أبان عن نفسه في الثورة الفرنسية ببطولة رائعة ؛ ولد عام ١٧٧٣ وألحق في بدء الأمر بجيوش الملك ، وما لبث أن أظهر من المهارة والحنكة ما رفعه إلى رتبة « كابتن » ولما يتجاوز من سنه العام التاسع عشر. ولم تكد تشب نار الثورة الفرنسية حتى اختطفته إليها فألحق بهيئة أركان حرب جيش الراين ؛ وقد وقع عليه الاختيار بعدئذ ليكون سكرتيراً للجنرال ألكسندر دي بوهرنيه . ولما

اعتصم بعض الملكيين بمقاطعة الڤانديه وكرّوا على الثوار وحكومة الثورة مصابرين صامدين فى عناد وجرأة ، لم تر الحكومة بدّاً من أن توفد هوجو على رأس فرسانه لإخمادها والقضاء على الملكيين فيها فما زال بعدوّه ينافحه ، ومرامه مما يكابد معه أعزّ مرام ، حتى كان نجاحه فى مهمته مثار إعجاب رؤسائه به وتقديرهم لبسالته .

وقد اتفق أن تعرف مصادفة فى إحدى جولاته فى تلك المقاطعة إلى ابنة ربان سفينة تجارية بمدينة « نانت » تدعى « صوفى تريبوشيه » ، وكانت وسيمة رائعة القسمات ، فهزمت بسحرها قلب ذلك البطل المغوار الذى لم تعرف الهزيمة إلى قلبه سبيلا ؛ وما لبثت هى أيضاً أن شغفت بحب ذلك الجندى المقدام ، السبط القامة ، العريض الكتفين ، الأحمر الوجه ، البراق العينين ، الغليظ الشفتين ، وقد وطن نفسه ، بعد أن استقر بينهما من أسباب الحب ما استقر ، على أن يتخذها زوجاً له .

ثم نقل بعدها إلى هيئة أركان حرب الجنرال « مورو » ، وألحق بجيش الراين بمدينة « بال » ؛ فحارب فى « إنجن » و « بيبراش » و « ممنجن » بشجاعة فائقة ، وكان أول من عبر

نهر الدانوب مستعيناً بساق شجرة من الأشجار غير عابئ بما كان يصليه به العدو من نيران حامية . فكوفئ على شجاعته بترقيته إلى رتبة قومندان .

وكان يجمع إلى البطولة سعة الصدر ، ونبل النفس ، ورقة الحس . وقد روى ڤيكتور هوجو فى قصيدته الشهيرة « بعد المعركة » أن أباه عندما كان قائداً فى إحدى المعارك التى كتب له فيها النصر على العدو ، وقع بصره ، فى أثناء طوافه بساحة القتال ، على جندى جريح من جنود الأعداء يطلب جرعة من الماء ، وقد أشرف على الموت . فأهاب القائد هوجو توًّا بأحد أتباعه أن يجيبه إلى طلبه ، ثم اقترب منه مسعفاً ومواسياً ، فما كان من الجندى إلا أن ثارت حفيظته وأطلق على هوجو النار من مسدسه ، بيد أن القذيفة لم تصب منه مقتلاً . فلم يضطرب ولا غضب ، بل التفت إلى تابعه وقال له : « اسقه رغم ما فعله » .

وقد ورث ڤيكتور هوجو عن والده أخلاقه الكريمة وشجاعته النادرة ، كما ورث عنه أيضاً قوة البنية ، إذ أنه اشتهر بصحته وصلابة عوده مما لم يعرف به أى شاعر آخر فى تاريخ الأدب الفرنسى . كما ورث عنه حبه لأفراد الشعب ، وكثيراً ما سجل

ذلك في شعره وقصصه .

وقبل أن ينجب ليوبول هوجو ڤيكتور رزق ولدين ؛ ورُوِيَ عنه أنه حين كان يقيم مع زوجه في باريس ، تعرف إلى صديق لأسرة تريبوشيه يدعى « بيير فوشيه » ، وكان مشرفاً على سجلات المحكمة ؛ وقد توثقت بينهما من أواصر الصداقة والود ، ما جعل بيير فوشيه يطلب إليه أن يكون شاهده في الزواج ، فقبل . وفي أثناء مأدبة العرس قال ليوبول لصديقه مازحاً : « أرجو أن أرزق صبياً ، وأن ترزق أنت طفلة ، فتكون زوجة له » . ولم يكد يمضي طويل من الوقت حتى كان ما تمناه ، فأنجب هو ڤيكتور ؛ كما رزق صديقه بنتاً أسماها « أديل » ، فكانت زوجة ڤيكتور المحبوبة .

طفولته وسفره إلى إيطاليا وإسبانيا

وما كاد ڤيكتور هوجو يقطع من حياته نحو ستة أسابيع حتى أبحر والده إلى جزيرة كورسكا على رأس كوكبة من الجند ، وقد اصطحب زوجه وأولاده . وشاءت الظروف أن ينقل إلى جزيرة « إلبا » ، ومكث فيها حتى عام ١٨٠٥ . ومن تلك الجزيرة نقل مرة أخرى إلى جيش الجنرال « ماسينا » بمدينة « جنوا » ، فسافر إليها وحده ، وعادت أسرته إلى باريس .

وتتسم هذه الفترة من حياة والده بكثرة الحروب وبما قام به من مأثرات البطولة وبما أنجزه من جليل الأعمال ، فقد حارب في عدة مدن بإيطاليا ، وكان في مقدمة الذين دخلوا مدينة نابولى ، تلك المدينة التى أصبحت فيما بعد مقر عرش « چوزيف بونابارت » شقيق الإمبراطور نابليون . فأنعم عليه چوزيف بونابارت برتبة كولونيل بالجيش الكورسيكى ، ثم عينه حاكماً لولاية « أڤيلينو » . ومما يؤثر عنه من أعماله المجيدة آنئذ أنه قبض على اللص الشهير « فرا دياڤالو » الذى كان يترأس عصابة تسلب وتنهب وتثير الرعب فى نفوس سكان المنطقة جميعاً .

ولما خيـّل إلى الكولونيل هوجو أن إقامته فى إيطاليا قد تطول ، استدعى أسرته من باريس سنة ١٨٠٧ . وكان ڤيكتور لا يتجاوز الخامسة من عمره ، فسحرته فى أثناء سفره مناظر الطريق الرائعة واستقرت فى مخيلته قمم جبال الألب ، ومياه بحر الأدرياتيك وروما ، ونابولى وبركان ڤيزوڤ .

ولم تطل إقامة أسرة هوجو فى أڤيلينو لكثرة الاضطرابات ، ولأن الأحوال دائماً كانت تنذر بعدم الاستقرار ، إذ ندب هوجو للسفر مع چوزيف بونابارت لحراسته فى الطريق بعد أن أصدر نابليون أمراً بتعيينه ملكاً على إسبانيا . فرأى هوجو من الحكمة ألا يصطحب أسرته إلى بلاد هى مثار القلاقل والفتن والثورات مفضلا أن تعود إلى باريس .

وهكذا عادت الأسرة إلى باريس مرة أخرى ، وأتخذت لها مسكناً فى الطبقة الأرضية بمنزل كان قبل الثورة ديراً للراهبات « الفيـّانتين » ، أقامت فيه زهاء ثلاث سنوات ؛ وتعد هذه الفترة للطفل ڤيكتور من أجمل فترات طفولته . فقد كان المنزل متسعاً ، تحيط به حديقة كبيرة ملأى بالأزهار المتنوعة وبكثير من أشجار الفاكهة ، التى ذكرها فى قصيدة له بقوله :

« كانت الحديقة كبيرة فسيحة ذات غور وأسرار

يحيط بها سور مرتفع يردّ عنها نظرات الفضوليين . »

واعتاد ڤيكتور أن يقضى فى هذه الحديقة الساعات الطوال يلهو مع أخيه « أوچين » طيلة أيام الأسبوع ؛ وفى أيام الآحاد ينضم إليهما « أبيل » شقيقهما الأكبر وقد كان يتلقى دروسه فى مدرسة داخلية . وفى بعض الأحايين كانت تشركهم فى لهوهم « أديل » ابنة بول فوشيه ، إذا اصطحبتها والدتها لزيارة الأسرة . كانوا جميعاً يلهون ويلعبون وينعمون بقطف عناقيد العنب ، وقد أباحها لهم صاحب المنزل « لالاند » العالم الفلكى الشهير .

أثّرت هذه السنوات الثلاث فى نفس ڤيكتور أجمل الأثر وأعمقه ، وبقيت ذكراها عالقة بذهنه ، يردّدها فى شعره ونثره ، ويحنّ إليها كلما تذكر أوقاتها السعيدة وهو بين أخويه وأديل فوشيه

ولم تكن أمهم لتغفل عن تربيتهم وتثقيفهم . فاختارت لهم مدرساً يدعى « الأب لاريڤيير » ، كانت له مدرسة أولية لتعليم الصغار . فكان أولاد هوجو يدرسون فيها مبادئ اللغة اللاتينية واليونانية .

وفى أحد أيام عام ١٨٠٩ استغاث الجنرال « لاهورى »

بمدام هوجو أن تحميه من رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه لإقحامه نفسه فى مؤامرة الجنرال « مورو » ضد نابليون فأخفته فى منزلها ولم تطلع أحداً على أمره . وقد أفاد ڤيكتور من وجود هذا القائد بينهم فائدة عظيمة . فكان يلقنه اللاتينية ويشرح له مؤلفات « تاسيت » متعمقاً فى اللغة متبسطاً في الشرح . وبعد مضى عام ونصف عام فشا سر الجنرال ، وعلمت الشرطة بمخبئه ، فاعتقلته وحاكمته ، ثم أعدم رمياً بالرصاص . فحزن عليه ڤيكتور حزناً شديداً ، وأخذ يكثر من قراءة الكتب التى تركها له ، وأهمها مؤلفات « تاسيت » وكتاب « ألف ليلة وليلة » مشروحاً بالصور ، وهو من الكتب التى كان يعتز بها ڤيكتور اعتزازاً كبيراً لما كان يجده فيها من اللذة كلما تصفحها فى الفينة بعد الفينة .

توالت الأحداث بسرعة خاطفة وأصبح الكولونيل هوجو جنرالا ، ومنح لقب « كونت » ، وعين مرشالا للقصر الملكى فى إسبانيا ، ومحافظاً لأڤيلا وسيجوڤى ، وحاكماً لعدة ولايات ؛ وأغدق عليه الملك المال بسخاء . ولما استقرت الحالة فى إسبانيا بعض الشىء فى ربيع ١٨١١ ، أرسل هوجو يستدعى زوجه وأولاده من باريس للإقامة معه . فبارحوا باريس فى طريقهم

إلى مدريد فى رحلة شاقة استغرقت ثلاثة أشهر تقريباً ، عبروا فيها فرنسا من الشمال إلى الجنوب حتى مدينة « بايون » ، ومروا بعدّة مدن إسبانية، ك « هرنانى » و « تركويمادا » تركت كل منها أثراً فى ذاكرة ڤيكتور .

لم تتمتع مدام هوجو طويلا برؤية الجنرال ، فقد كان بطبيعة عمله فى تنقل مستمر . أمّا أولاده فقد عين أكبرهم ؛ أبيل ، حاجباً فى خدمة الملك ؛ وأدخل الآخرين ، أوچين وڤيكتور ، مدرسة الأشراف فى القسم الداخلى . وقد عدّ ڤيكتور تلك الأشهر التى قضاها فى هذه المدرسة من أشقى أيام دراسته ، لما عاناه فيها من قسوة أستاذيه « الدون بازيل » و « الدون مانوويل » ، ومن « كركوڤيتا » ، ذلك الأحدب المكلف إيقاظ التلاميذ كل صباح ؛ وقد كان لذكرياته فى نفس ڤيكتور من الأثر أن خلق منه بعد ذلك شخصيتى « كازيمودو » أحدب « نوتردام » فى رواية « نوتردام دى باريس » ، و « تريبوليه » أحدب الملك فى مسرحية « الملك يلهو » . كان ذلك إلى جانب نفور التلاميذ الإسبان وكرههم لهؤلاء الفرنسيين الغزاة الذين انتهكوا حرمة بلادهم وثلوا عرش ملوكهم . وقد امتاز من بين هؤلاء التلاميذ اثنان ، « ألسبرو »

١٧

و « فراسكو » . بسوء أخلاقهما وبشدة حقدهما على أوچين وڤيكتور ، فكانا يضربانهما كلما وجدا إلى ذلك سبيلا ؛ فنقم منهما ڤيكتور إلى حد أنه اتخذ فيما بعد من الأول شخصية مجنون كرومويل فى مسرحية « كرومويل » ، ومن الثانى شخصية « جوبتّا » الممقوت فى مسرحية « لوكريس بورجيا » .

العودة إلى باريس

كان تغير الأمور فى إسبانيا عام ١٨١٢ من حسن حظ ڤيكتور ، فقد اشتعلت فيها الثورة من جديد بصورة تدعو إلى القلق ، مما أدى بالجنرال هوجو إلى إعادة أسرته إلى باريس ، ما عدا ابنه أبيل الذى أصبح ملازماً فى الجيش . فعاد ڤيكتور إلى منزله القديم المحبوب بالفيانتين ، واستأنف دراسته مرة أخرى عند الأب لاريڤيير . وقد كانت والدته من ناحية مولعة بالقراءة ، تدمن على الاطلاع ؛ ومن ناحية أخرى تميل إلى الحرية فى تربية أطفالها ، تمشياً مع مبادئ « چان چاك روسو » ؛ فشجعتهم على قراءة الكتب على اختلاف مشاربها ، معتقدة بأن الكتب لن تفسد الأولاد أيًّا كان لونها ، حتى إنها كانت تحملهم على مطالعة المؤلفات التى تريد قراءتها ليبدوا لها رأيهم فيها قبل أن تقرأها ، خوفاً من أن تكون مملة . وبهذه الطريقة أتيح لهم قراءة كثير من الكتب الجيدة وغير الجيدة قراءة غير منتظمة ، ومن أهمها مؤلفات « روسو » و « ڤولتير » و « ديدرو » ورواية « ڤوبلا » ورحلات « الكابتن

كوك » والتوراة وغيرها ، فأعدّ منها ڤيكتور ذخائر وأهباً لشاعريته التى بدأت تظهر منذ نعومة أظفاره .

وكان ڤيكتور عند رحيله إلى إسبانيا قد ترك أديل فوشيه طفلة ؛ فلما عاد وجدها قد أصبحت شابة وسيمة جذّابة ، لها عينان واسعتان ، وخدان ورديان ، وفم مغر ، وشعر أسود مسترسل ، يشبه جمالها الشرقى جمال الشابة پيپيتا الإسبانية التى تعرف إليها فى مدريد . فعاد لا ينظر إليها نظرة الطفولة كما كان يفعل بالأمس ، بل وجد نفسه مدفوعاً إليها بعاطفة لا يدرى كنهها . كان يجد السعادة فى قربها ، ويشعر بالزهو يستولى عليه إذا اتكأت على ذراعه وهما يتمشيان فى الحديقة أو يتحادثان . وقد وصف ڤيكتور فى رواية « آخر أيام المحكوم عليه » ، بعبارات رقيقة وبأسلوب عاطفى جميل ، كيف تطوّر شعوره نحوها ، وكيف بدأ الحب بينهما يوم أن خرجا يتنزهان فى الحديقة وسط أشجار الكستناء .

لم تستمر فترة الهدوء هذه طويلا ، فسرعان ما تغيّرت الأحوال فى فى فرنسا والبلدان الخاضعة لها ، وإذا بنابليون يضطر عام ١٨١٣ إلى سحب قواته من إسبانيا وعلى رأسها أخوه الملك چوزيف ؛ فعاد الجنرال هوجو إلى فرنسا ، وأعيد إلى

رتبته الأصلية فى الجيش الفرنسى ، أى إلى رتبة الكولونيل . وعهد إليه فى الدفاع عن مدينة « تيونڤيل» فى يناير سنة ١٨١٤ .

وقد استولت الحكومة فى ذلك الوقت على الفيانتين ، فأخلته أسرة هوجو ، وأقامت فى منزل بشارع « شرشميدى » . ولم يمض زمن طويل حتى دخل الروس والبروسيون فرنسا واحتلت قواتهم باريس ، فرأى ڤيكتور من نافذة منزله خيل القوزاق ترعى الحشائش فى فناء دار المجلس الحربى . ولما نزل نابليون عن العرش استسلمت حامية تيونڤيل مع قائدها هوجو .

وفى السنة التالية ، عندما عاد نابليون من جزيرة « إلبا » ، أرسل ليوبول هوجو إلى تيونڤيل مرة أخرى للدفاع عنها ، ولكن سرعان ما قُهر نابليون وأعيد النظام الملكى فى فرنسا . فأقيل الكولونيل هوجو وأحيل إلى المعاش ، ثم نفته الحكومة إلى مدينة « بلوا » . ولما كان الشقاق قد تفاقم ما بينه وبين زوجته فقد آثر تركها ، وعاش فى منفاه مع خليلته سيسيل توما.

الطفل النابغة

كان الكولونيل هوجو بعد عودته من إسبانيا قد أدخل ولديه مدرسة يديرها « كورديبه » و « ديكوست » ؛ فظل ڤيكتور فى هذه المدرسة ثلاث سنوات ، مسه فى أثنائها شيطان الشعر وولّد فى نفسه شوقاً شديداً إلى نظمه . فعالجه طويلا ونظم عدداً من القصائد فى الغزل والهجاء والفخر ، وكتب عدة مسرحيات وتراجم ؛ ولكنه كان يخفى ذلك ولا يظهره .

وكان والده يريد أن يلحقه بكلية الهندسة ، فأدخله تمهيداً لذلك مدرسة « لوى ليجران » ليتابع الدراسات الرياضية والعملية ، ولكنه رغب عن هذا النوع من الدراسات ولم يصبر على حفظ هذه القوانين المعقدة المملة ، ولم يكن كباقى الطلبة يستخدم قوة إدراكه فى دراسة الرياضة بل كان يتبع طرقاً خيالية وغير مألوفة فى حل نظرياتها ، فيجد لكل مسألة حلاً مبتكراً يكون أحياناً صواباً وفى أغلب الأحيان يكون خطأً .

وقد حملت عليه ثورة الشعر وطغت على مشاعره ، فنفر من

الرياضيات ولم يعرها شيئاً من اهتمامه ، وثارت به رغبة شديدة في أن يصبح يوماً ما شاعراً عظيماً ، حتى إنه كتب في مذكراته يوم ١٠ يوليه عام ١٨١٦ : « إمّا أن أكون مثل شاتوبريان وإلاّ فلا » .

كان حينذاك في الرابعة عشرة من عمره . وفي السنة التالية أرسل إلى الأكاديمية الفرنسية قصيدة من ثلثمائة بيت من الشعر عنوانها « السعادة التي تنجم عن الدراسة في جميع مراحل الحياة » . فاستحسنت الأكاديمية شعره ، ولكنها استصغرت سنه وظنتها خدعة منه ، فلم تجزه عليها واكتفت بتسجيل اسمه بين الشعراء . فشجعه هذا النجاح على إرسال غيرها من قصائده إلى أكاديمية الشعر بتولوز ، ونال عليها عدة جوائز ؛ وقد فازت آخر قصيدة منها وعنوانها « إعادة تمثال هنري الرابع » بجائزة الزنبق الذهبي .

فأخذ اسم ڤيكتور هوجو ينتشر في البيئات الباريسية . وطفق الناس يتحدثون عن هذا « الطفل النابغة » ، كما قال « شاتوبريان » حين هنأه بفوزه على حداثة سنه . ولم يكتف ڤيكتور هوجو بنظم الشعر بل طرق باب القصص وألف « بوج چرجال » في مدة لم تتجاوز الخمسة عشر يوماً .

ثم ترك ڤيكتور المدرسة وعاد وأخاه يقيمان مع والدتهما ، التى كانت تسعى إلى الطلاق من زوجها ، فاضطره سوء الحال إلى أن يعتمد على قلمه ليعيش . فكتب قصيدة شديدة الهجاء أظهر فيها ميله للملكية ، رفعت مقامه فى الأوساط الأرستقراطية فى باريس . وأتبعها عام ١٨٢٠ بقصيدة أخرى عن وفاة الدوق « دى برّى » حازت استحسان الملك لويس الثامن عشر ، فكافأه عليها بخمسمائة فرنك ، فشجعه ذلك على نظم ثلاث قصائد أخرى أرسلها إلى أكادمية تولوز . فأجازته عليها بأن عينته عضواً فيها ومنحته لقب أستاذ فى الشعر .

وقد أسس مع أخيه أبيل بعد ذلك مباشرة جريدة « المحافظ الأدبى » ، نشر فيها قصائد عديدة وكثيراً من الدراسات التاريخية والفلسفية ، كما أفرد فيها فصولا للنقد الأدبى ؛ وقد جمع كل ذلك فيما بعد فى مجلد عنوانه « مزيج من الأدب والفلسفة » . وقد كان فى جريدته محافظاً من الوجهة الأدبية ، ولم تكن بعد قد تملكته ثورته الشعرية التى اشتهر بها فيما بعد .

عاشت جريدته سنتين نمت فيهما ملكته الأدبية وزادت مقدرته على الإنتاج ؛ وقد تعرف خلال هذه الفترة بكثير من

الشعراء والكتاب وتوطدت بينه وبينهم أواصر الصداقة ، منهم « لامرتين » و « ڤينيي » و « ديشان » و « لامنيه » . ولما أنشئت « جمعية الآداب الجميلة » انضم إليها وأنشد أمام أعضائها بعض قصائده ، فظفر بإعجاب الجميع .

وقد كان ڤيكتور هوجو إذ ذاك فى ربيعه التاسع عشر ، وسيم الطلعة جذّاباً ، آية فى الجمال ، طويل القامة ، حسن الهندام ، له جبهة عريضة بيضاء تلفت سعتها الأنظار ، يكلل رأسه شعر كستنائى ناعم ، وله عينان واسعتان عميقتان ، تنعكس فيهما عبقريته ونبوغه ، دقيق الأنف ، قوى الذقن ، ترى فى وجهه قوّة إرادته وشدة شكيمته .

سنوات عسيرة

برز ڤيكتور هوجو فى المجتمع وارتقى سلم المجد وثباً ، فأنساه نجاحه كل شىء حوله إلا حبه لأديل فوشيه ولما علمت أسرتاهما بما بينهما من حب ، رأتا ألا سبيل إلى زواجهما لصغر سنهما ، ففضلتا التفريق بينهما قضاء على تلك العاطفة .

فكان وقع الفراق أليماً عليهما ، ولما كانا أعجز من أن يثورا على هذا الحكم تعاهدا على أن يظلا مخلصين مهما طالت الأيام .

وتلا ذلك الفراق فراق آخر كان أشد إيلاماً لقلب الشاعر ، وهو موت والدته فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٢١ . فكانت صدمة رهيبة أثرت فى نفسه كل التأثير . أما والده فلم يجزع لذلك كثيراً ، بل سرعان ما اقترن بسيسيل توما التى كان يعيش معها فى المنفى .

وساءت العلاقات ما بين الوالد وولديه ، فلم يرضه أن يحترفا الأدب وأن يعدلا عن دراسة الهندسة كما أراد ، فحرمهما ما كان يمنحهما من الراتب المألوف . فضاقت الحياة فى عين

ڤيكتور هوجو ، وذاق مرارة الفقر سنة كاملة لم يكن دخله فيها أكثر من سبعمائة فرنك .

وكان يسكن غرفة صغيرة فى وسط باريس ، فأخذ يجدّ ويجتهد ، ويعمل بلا كلل ولا ملل ، لايدع لليأس إلى نفسه سبيلاً ، يقاوم الفقر ويناضل من أجل الحياة بكل شجاعة وإقدام ، وقد وطّد العزم على النجاح . فانتعش بالأمل وعدّ نفسه غنيًّا بشجاعته وأمله ، فتقدم إلى والد أديل يطلب إليه يدها . ولم يكن هذا الوالد ممن يؤمنون بالوعود ، بل كان يؤمن بالواقع ، والواقع فى نظره هو حالة الشاب حينئذ ، وهى حالة لا تسرّ ڤيكتور هوجو نفسه ولا من يطلب منه يدها . فرفض طلب الشاعر ، وكان ذلك صدمة أخرى زادت آلامه وكادت تضعف ثقته بنفسه وبمستقبله ، لولا عزيمته الجبارة التى أوحت إليه أن يتخذ من الكتابة لخطيبته سلوى لنفسه ووسيلة لتهدئة ثورته القلبية . فأخذ يراسلها شارحاً لها ولعه وغرامه وعذابه ؛ وقد جمعت بعد ذلك رسائله لها فى كتاب سمى « رسائل إلى الخطيبة » .

ولما انتقل الأب فوشيه وابنته بعد ذلك إلى « بلوا » ، وهى تبعد عن باريس حوالى الثمانين كيلو متراً ، تعذّر على ڤيكتور

هوجو مراسلة حبيبته بانتظام ، فلم يجد أمامه سبيلا إلا جريدته « المحافظ الأدبى » ؛ فأخذ يكتب فيها مقالاته الغرامية الطويلة ، وكانت أديل وحدها — وأحياناً والدها — تدرك من يقصده ، إذ كانت فى الواقع موجهة إليها . وقد دفعته يوماً شدة شوقه لرؤيتها إلى السفر إلى بلوا مترجلا ، إذ لم يكن يملك أجرة سفره . ولما لم يجد شفاء كافياً لغليله كتب عام ١٨٢١ رواية « هان ديزلاند » التى نشرها تباعاً بجريدته ، وجعلها صورة حية له ولأديل ، وصف فيها شدة حبه وغرامه وعذابه على لسان بطل الرواية « أوردنير » لحبيبته « إيتيل » . وقد كان لهذه الرواية وللمقالات الأخرى أثرها المحمود فى نفس الأب فوشيه ، الذى لمس منها حب ڤيكتور لابنته على حقيقته وشدة ما يعانيه الفتى من آلام الفراق . فأخذ قلبه يميل شيئاً فشيئاً إليه ، حتى سمح له أخيراً ، بعد عودتهما إلى باريس ، برؤية الفتاة مرة فى الأسبوع والتحدث إليها فى صحبته ، ووافق على تزويجه إياها ، إذا تحسنت حالته المالية ، وإذا حصل على موافقة والده على هذا الزواج .

سنوات التمرين

أكبّ ڤيكتور هوجو على العمل ونشر في يونيه سنة ١٨٢٢، بعد أن أوقف إصدار جريدته ، أول مجموعة شعرية ، سماها « أغانى وقصائد مختلفة » ؛ وهى مجموعة قصائد كانت قد نشرت من قبل تباعاً فى جريدته ، طالب فيها بشد أزر الملكية وبتثبيت دعائم العرش والدين فى فرنسا . وكان أسلوبه فى هذه القصائد لا يختلف كثيراً عن الأساليب المألوفة عند « چان باتست روسو » و « لبران پندار » وغيرهما ، رغم ما كان يبدو فيها فى بعض الأحيان من طابع شخصيته التى كانت تنبئ عما سيكون له من الشأن فى المستقبل . وقد ظهر ذلك جليًّا فى قصائده التى أرسلها إلى خطيبته وهى « الأسف » و « إليك » و « وادى شيريزى » ، وقد تغلبت فيها العاطفة على الإطناب والإحساس الشخصى على الوصف العام ، وعرف الشاعر المتيّم أن الشعر إنما هو أداة للتعبير الصريح عن الشعور الحقيقى .

كان هذا المجلد أشبه بإرهاصات لنفس عظيمة انعكست

عليها عواطف القرن التاسع عشر فى بدايته . نلمس فيه حماسة « شاتوبريان » الدينية ، والرغبة القلقة فى الاستمتاع بالحياة ، والتفانى فى تكريم كل ما يبعث مجد فرنسا القديم وذلك بتجديد تراثها الأثرى ، وأخيراً خلق عصر جديد خير من العصر الحالى ، عصر حرية وسلم وعدالة .

كل ذلك نجده فى هذا المجلد الصغير ، الذى عثر عليه مصادفة قارئ لويس الثامن عشر فى مكتبة بباريس ، ووجد فيه إحدى الوسائل لتسلية الملك الذى كان مغرماً بالشعر ، فقدمه إليه ، فلما رآه ورأى حقارة مظهره ، ظنه شيئاً تافهاً ، ولكن سرعان ما تغير رأيه فيه بعد أن تليت عليه بعض قصائده ، وأعجب به حتى إنه راجع قراءته بنفسه وعلق ملاحظات على هامشه . وقد أعجب بقصيدة « وفاة الدوق دى برى » — وهو ابن أخيه — إعجاباً خاصاً فعلق عليها بكلمة « بديعة » ، وكان كثيراً ما يقرؤها على حاشيته . وإظهاراً لتقديره للمجلد ومؤلفه أمر بربط معاش سنوى لڤيكتور هوجو قدره ألف فرنك .

فطار لب الشاعر بهذا المعاش ورأى تحقيق أول شرط فرضه والد حبيبته لتزويجه إياها ، وبقى الشرط الثانى وهو موافقة والده الجنرال ، فأرسل إليه يستأذنه ، فما إن وصلت إليه

موافقته حتى أسرع إلى والد حبيبته يطلب إليه يدها ، فلم يجد هذا سبيلا إلى الرفض ، وقد حاز ڤيكتور هوجو رضاء الملك وإعجابه . وبذا تم القران يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٢٣ فى حفل بهيج ضم أفراد الأسرة فى نفس الكنيسة التى كللت بالسواد قبل ذلك بعام ، يوم وفاة والدته .

إلا أن حفلة العرس لم تنقض دون أن يعكر صفاءها معكر ، فبينما الجمع فى نشوة سرورهم وفرحهم إذ بأخيه أوچين تنتابه نوبة عصبية أودت بعقله ، وكان سببها حبه الذى كان يخفيه لأديل ويكبته فى نفسه احتراماً لأخيه . فحزن عليه ڤيكتور وتألم له ، فقد كان رفيق حداثته وشبابه ؛ ومات عام ١٨٣٧ فى مستشفى « شارنتون » وقد ذهبت سدى كل المحاولات التى بذلت لشفائه .

وفى العام التالى لزواجه جمع شاعرنا رواية « هان ديزلاند » ونشرها فى كتاب واحد بعد أن نقحها ، وكان قد نشرها تباعاً بجريدته قبل ذلك . وهى رواية وحشية مفزعة على نمط روايات « ولتر سكوت » لوحش آدمى استساغ أكل لحوم البشر وشرب دمائهم ، يتخلل حوادثها المرعبة مواقف عاطفية مؤثرة عن حب « أردنير » لـ « إيتيل » ، وهو كما مر بنا وصف لحب ڤيكتور

هوجو لأديل فوشيه . وقد أعجب بها الملك فأمر بمضاعفة معاشه .

وفى الوقت نفسه رزق الشاعر ولده الأول ، وسماه ليوبول ، فكانت سعادته به لا توصف . وانتهز والده الجنرال هذه الفرصة فقدم باريس لتهنئته ولمحو ما تركه زواجه الثانى من سيسيل توما فى نفس ڤيكتور من أثر سيئ . وقد استقبله ولده استقبالا حارًّا . ولما حمل الجد حفيده بين يديه فخوراً ، نسى ڤيكتور كل ما كان بينه وبين والده فى المدة الأخيرة ، وتجدّد حبّه القديم له ، مزهوًّا بمجده الحربى وبما قام به من جليل الأعمال فى عهد نابليون ، وحفزه الفخر إلى أن يكتب عنه قائلا :

« أتيح لى أن أرى رجلاً عظيماً وهذا الرجل هو والدى » .

ثم عاد الوالد إلى مدينة « بلوا » ومعه الطفل ومرضعته ، وكان سقيماً حتّى لا يرجى ، على أن الوالد كان يأمل أن يفيد الطفل جو « بلوا » ، فخاب أمله ومات الطفل ولمّا يتجاوز الشهرين . فحزن عليه والداه كثيراً ، ولكن لم تمض سنة حتّى رزقا طفلة قوية سليمة البنية ، سمياها ليوبولدين ، فأنستهما الطفل الراحل .

كان شاعرنا فى ذلك الوقت نشيطاً منتجاً ، يكتب فى عدة مجلات أدبية ، فكفل له ذلك دخلا لا بأس به . وقد رأى أن

ينشئ جريدة يحيي بها ذكرى « المحافظ الأدبى » ، فاشترك معه بعض الشبان ، وأصدر جريدة « إلهة الشعر الفرنسى » La Muse française ، ولم تدم أكثر من عام واحد كانت فيه لسان حال الحركة الشعرية الحديثة المعروفة بالمذهب الرومنتيكى وممن شاركوه فى نشر القصائد وكتابة المقالات « ألفريد دى ڤينيي » و « إميل ديشان » و « سوميه » و « شيندوليه » و « صوفى ودلفين جاى » و « شارل نوديه » محافظ مكتبة الترسانة .

وكان هؤلاء الشعراء الشبان يجتمعون فى أيام الأحد عند شارل نوديه ، فيتجاذبون أطراف الحديث ويتباحثون فى الأدب والشعر . وقد أطلقوا على اجتماعاتهم اسم « المجمع » le Cénacle . وكانوا يعقدونها شتاء حول البيان ، يتخلل أحاديثهم عزف بعض القطع المصحوبة بالغناء أو الرقص : وصيفاً كانوا يختارون لاجتماعاتهم الحدائق وظلال الأشجار المورقة . يشاركهم أحياناً « ألكساندر دوما » الروائى الذائع الصيت ، والموسيقار « ليست » والشاعر « ألفريد دى موسيه » إبان شبابه والناقد « سانت بيف » الذى سنتناوله بالحديث فيما بعد لما كان بينه وبين زوجة ڤيكتور هوجو من علاقات ردية .

فى طريق المجد

توفى لويس الثامن عشر ربيع عام ١٨٢٤ وخلفه أخوه شارل العاشر ، وقد سلك مسلك أخيه فى تشجيعه الأدب وتكريمه الأدباء ، فأبقى معاش ڤيكتور هوجوعلى ما كان عليه ، بل أضاف إلى ذلك أن قلده وسام جوقة الشرف ودعاه لحضور حفلة التتويج بمدينة « رمس » بعد عدة أيام . وقد رأى الشاعر أن يقضى هذه الأيام الباقية فى زيارة والده ، فسافر مع زوجه وابنته إلى « بلوا » . وعند مقابلته والده أعطاه الوسام قائلا : « هذا لك أنت يا أبى » . فتقبله منه فخوراً ، ولم يكن قد منح مثله إبان حياته العسكرية الطويلة وما أبلى فيها من بلاء حسن . ولم يسع الوالد إلا أن ينزع شارة رتبته العسكرية الحمراء ويضعها على صدر ابنه .

ووصل ڤيكتور هوجو مع شارل نودييه إلى مدينة « رمس » بعد سفر أربعة أيام لحضور حفلة التتويج فى ٢٩ مايو سنة ١٨٢٥ . فرأى كاتدرائيتها العظيمة ، التى اشتهرت بتتويج ملوك فرنسا فيها ، تعج بالمدعوين والمدعوات من علية القوم

بملابسهم الحريرية وبجواهرهم الثمينة البراقة تسطع فى أرجاء الكنيسة . ثم حضر الملك فى موكبه العظيم ، وكانت حفلة شائقة لم تشهد الكاتدرائية حفلة مثلها منذ خمسين عاماً .

أخذ ڤيكتور هوجو بروعة الحفلة وعظمتها ، فكتب عنها قصيدته الشهيرة « تتويج شارل العاشر » . وقد تجلت عبقريته فى وصفه للحفلة وروعتها ، ولشارل العاشر وجلاله . وقد أعجب بها الملك إعجاباً شديداً حتى إنه دعاه لمقابلته يوم ٢٤ يونيه عام ١٨٢٥ ، وهنأه عليها وأمر بأن تطبع طبعة فاخرة فى المطبعة الملكية ، وكافأه عليها بأن أعاد إلى والده رتبة الجنرال .

تعرف ڤيكتور هوجو بالشاعر العظيم الذائع الصيت لامارتين ، وكان قد أعجب بمجموعة قصائده « التأملات » . فتوثقت بينهما أواصر الصداقة ولما رحل لامارتين إلى مدينة « شامبرى » فى جبال ساڤوا دعا صديقه إلى زيارته ؛ فسافر إليه مع زوجه وابنته ليوبولدين .

وعند عودته إلى باريس فى أوائل عام ١٨٢٦ نشر رواية « بوج چرجال » ، التى كان قد نشر أجزاءها متتابعة فى جريدته « المحافظ الأدبى » ، وهى قصة تدور حول ثورة الزنوج فى جزيرة « سان دومنجو » سنة ١٧٩١ . وفى نفس



ڤيكتور هوجو فى شبابه (سنة ١٨٢٨)

السنة أخرج الطبعة الثانية لكتابه « الأغانى » وأضاف إليها « الأناشيد » وهذه المجموعة إن دلت على شيء فإنما تدل على التطور فى أفكار الشاعر الأدبية ، ولو أن طريقته لم تختلف فى نظم الشعر عن طريقة سابقيه من الشعراء بشكل واضح، غير أنه أظهر فيها ميلا للمذهب الرومنتكى الحديث ومهارة فى التلاعب بأوزان الشعر . وأخذ يصف فى قصائده القصور القديمة التى يسكنها الفرسان المزوّدون بالدروع على ظهور جيادهم المطهمة ، وسيداتهم المتيمات وخدمهم المطيعون ؛ وأخذ يتمثل هذه القصور وقد امتلأت بالسحرة والجن والعفاريت . ومن أهم قصائده هذه : « العملاق » و « خطيبة الطبال » و « طواف الجن » . ونالت هذه المجموعة من الشهرة ما نالته مجموعته الأولى من قبل .

بدء الصراع الرومنتيكى

لم يلبث هوجو طويلا حتى أظهر ميله نحو مذهبه الجديد بصورة واضحة ؛ فأخذ بعض النقاد يكتبون المقالات الطوياة المليئة بالمدح لهذا الشاعر الشاب ، الحديث العهد ، الذى أظهر عبقرية فذة جعلته فى طليعة الشعراء المجددين . وقد كان من بين هؤلاء النقاد شاب لم يتجاوز الثانية والعشرين ، وقد عمل على إحياء أدب القرن السادس عشر ، هو سانت بيف Sainte-Beuve الذى ذكرناه قبلا ، وقد أصبح فيما بعد أعظم وأدق من اشتغل بالنقد الأدبى فى فرنسا فى مختلف العصور . كان سانت بيف شاعراً أيضاً ولم يكن حتى ذلك الحين قد نشر قصيدة واحدة من شعره . وكان يقطن بجوار هوجو ، فتعارفا وتزاورا ، وأخذا يتطارحان الشعر ويتحادثان فيه متبادلين الآراء . وكانت زوج هوجو تشاركهما فى اجتماعاتهما ، صامتة ، تتبع أحاديثهما . وقد استرعت انتباه سانت بيف بجمالها الشرقى الفاتن ، فكان ينظر إليها من حين إلى آخر نظرات خفية مغرية مريبة ، تنم عن سوء النية وعن خبث الطوية .

بث سانت بيڤ فى هوجو ميلا للإكثار من الحرية فى الشعر ، وأبان له ما كان عليه شعراء القرن السادس عشر من حرية وإقدام فى التعبير ، ومهارة حاذقة فى تنويع أساليب الشعر . وأخذ هذا الميل يزداد وينمو فى نفس شاعرنا ، فإذا به قد نهج فى شعره منهج شعراء القرن السادس عشر ، تاركاً أسلوبه القديم ، أسلوب شعراء القرن الثامن عشر ، أمثال « شيندوليه » و « شانيه » ، فثار على تقاليد عصره وأساليب معاصريه ، واتجه عامداً ومخلصاً بكل مواهبه وعبقريته إلى التحرر من الأوزان المألوفة فى الشعر وعدم التقيد بمقاطع مخصوصة . وكانت ثورته جريئة . لم يعرف لها مثيل فى شاعر من قبل . وما قصيدتاه « صيد البرجراڤ » و « خطوات سلاح الملك چان » إلا أكبر دليل على ذلك .

وبجانب هاتين القصيدتين نجد قصائد أخرى أكثر رصانة ، كقصيدته المسماة « صباى » ، وهى التى وصف فيها سنوات صباه مع والده بين معسكر وآخر ، وقصيدة « الجزيرتان » وهما جزيرة كورسكا وجزيرة القديسة هيلانة ، مهد نابليون وقبره ، وقصيدة « عمود ميدان ڤاندوم » وقد كتبها أثر حادث أثاره سفير النمسا فى فرنسا . فقد كان نابليون يخلع على

قواده ألقاب مقاطعات دول أوربا ، وبعد عودة الملكية نصت معاهدة باريس عام ١٨١٤ على إلغاء الألقاب المسماة بأسماء المقاطعات النمساوية. ولكن هذا القانون كان صورياً ولم يأخذ به أحد.

ففى حفلة ساهرة أقامها سفير النمسا فى فرنسا عام ١٨٢٧ كان بين المدعوين ثلاثة من ماريشالات الإمبراطور نابليون : « سولت » و « مورتيه » و « أودينو » . كل منهم يحمل لقباً رناناً مسمى باسم مقاطعة نمساوية : فالأول دوق دلماسيا ، والثانى دوق تريفيز ، والثالث دوق ريجيو . فتعمد السفير تقديمهم إلى جميع المدعوين بأسمائهم الشخصية دون ذكر ألقابهم . فسبب ذلك ضجة كبيرة انسحب القواد على أثرها من الحفلة وتبعهم باقى قواد الإمبراطور .

عزّ ذلك على ڤيكتور هوجو وهو ابن قائد سابق ، فثار لأجل هذا الحادث الذى عده فضيحة كبرى مست شرف فرنسا ، فكتب قصيدته السابق ذكرها « عمود ميدان ڤاندوم » . التى تنمّ عن تطوّر فى نفسه ، وهو رجوعه عن اندفاعه نحو الملكية الرجعية وازدياد ميله إلى الحرية فى جميع مظاهرها . فلم يكن جهاده مقصوراً على تحرير الشعر من قيوده المألوفة فحسب ، وإنما ظهرت آثار ثورته فى التحرر السياسى والتحرر الفكرى عامة.

مقدمة مسرحية « كروموبل »

ظهرت فى فرنسا فى ذاك الحين حركة أدبية أخذت تتجه رويداً رويداً إلى التجديد من الناحية الفكرية ، وهى الحركة المسماة بالحركة الرومنتيكية . ولكن كل الذين كانوا يقومون بهذه الحركة لم تكن لهم مبادئ ولا قواعد ثابتة ، ولا مذهب معين ولا مدرسة ينتمون إليها ، وكل ما كان يصل بعضهم ببعض إن هو إلا فكرة إيجاد نهضة حديثة للفن والأدب ، والتجديد فيهما . ولما كان لابد لمثل هذه الحركة من رائد يتزعمها ويعمل على نموها ، لكى تأخذ طريقها فى الظهور والانتشار ، فقد تقدم فيكتور هوجو بمقدمة مسرحية « كروموبل » . وفيها وحد هذه الحركة ودعمها ، ووضع لها برنامجها ، وحدد اتجاهاتها .

فقد أبان شاعرنا فى هذه المقدمة أن الإلهام الناشئ عن العبقرية ، والشعور الشخصى الخالص ، يجب أن يحلا محل القواعد العتيقة التى كانت أسساً للشعر من قديم الزمان . فنراه فى مستهلها يثور على هذه القيود القديمة التى وضعها

الشعراء والأدباء الأقدمون للشعر وللمسرحيات — وخاصة « بوالو » — وينادى للشاعر بالحرية المطلقة فى آرائه وأفكاره وفق أهوائه وميوله . وبذلك يعود الفن إلى الحقيقة والطبيعة والحياة. وكما أن فى الحياة تناقضاً ، إذ أنها تجمع ما بين الفرح والحزن ؛ فعلى الشاعر أن يجمع كذلك فى مسرحية واحدة ما بين الحوادث المضحكة والحوادث المبكية ، ولا داعى أبداً لذلك التقيد العتيق الذى اصطلح عليه الأقدمون ، وهو تقسيم المسرحيات إلى نوعين : ملهاة ومأساة ،وعدم الجمع بينهما فى المسرحية الواحدة .

وقد رأى هوجو بثاقب فكره أن الحقيقة والواقع ، اللذين تختلط فيهما السخرية والسمو ، هما خير ما يجعل للمسرحية تلك الروعة الأخاذة . وإذن فليجعل مسرحياته مستقاة من تلك الحقائق الطبيعية فى الحياة ، بدون تقيد إلا بما يتطلبه الفن من اختيار ، وبما تقتضيه العبقرية من تحوير .

أما الشعر فيجب أن يكون طبيعيًّا ، سهلا ، صريحاً ، بعيداً عن التكلف ، سلساً ، مرناً ، بحيث ينتقل به الشاعر من وصف المناظر الطبيعية إلى وصف عواطف النفس ، ومن الرثاء إلى سرد المواقف الهزلية ، ومن الغزل إلى وصف مواقف الأبطال . ويجب أن يكون كثير المقاطع ، غير مقيد

بنظام المقاطع القديمة الذى لم يكن يسمح للشاعر بالتعبير عما يختلج بنفسه من شعور .

والثابت أن شعراء القرن السابع عشر وضعوا تقاليد أدبية وفنية ونظماً للشعر تجعل المجال أمام الشاعر ضيقاً ، لا يمكنه أن يحيد عنه . فوضعوا صوراً عن المرء وعن الجمال ثابتة لا تتغير ، ينقلها شاعر عن آخر بدون أن تتاح له فرصة للتجديد والابتكار ، كما أنهم قيدوا مسرحياتهم بثلاثة قوانين يجب أن تتبع فى كل مسرحية ، وهى :

١ ــ وحدة الزمن ، أى أن كل مسرحية يجب أن يبدأ موضوعها ويتم فى يوم واحد .

٢ ــ وحدة المكان ، أى أن كل مسرحية يجب أن تقع حوادثها فى مكان واحد .

٣ ــ وحدة الموضوع ، أى أنه يجب أن يكون لكل مسرحية موضوع واحد تدور حوله الحوادث .

وكانت نظريتهم مبنية أيضاً على مبدأ الاستقرار الدائم . فعارضهم هوجو فى ذلك ورأى أن العالم فى تغير مستمر وأن لكل عصر فنه وشعره . فنى العصور الأولى كان الشعر غنائيًّا ، وفى العصور القديمة اهتم الفن بالإشادة بسير الأبطال ، فكان

الشعر القصصى . أما فى العصور الحديثة فيجب أن يكون الفن نوعاً آخر هو « الدراما » ، يجمع بين شتى الأنواع ، بين الرفيع والساخر والمفرح والمحزن ، ويكون مجال التجديد والابتكار فيه واسعاً . ويقول هوجو إن شكسبير هو أول من فهم ذلك فهماً تامًّا وعمل به ، فخالف معاصريه وابتكر فنجح وبلغ القمة . فالابتكار يخلق الجمال ، أما التقليد فهو الموت للفن . والعبقرية تخلق قواعدها بنفسها ، والإلهام نوع من الحقيقة .

وبالاختصار فقد كان أهم ما فى مقدمة « كرومويل » من تجديد هو : الرجوع إلى الحقيقة ، والتعبير عن الحياة المطلقة ، والحرية فى الفن .

ولم تلبث هذه المبادئ أن صارت قوانين المدرسة الحديثة التى تزعمها ڤيكتور هوجو ، وقد نالت إعجاب كثيرين فأخذوا يطبقونها فى أشعارهم وفى مسرحياتهم ، ويتبعون الطريق التى مهدها لهم الشاعر .

ومن ناحية أخرى لم تصادف هذه الحركة رضاء بعض الشعراء المحافظين ، المقلدين للأدب القديم (الكلاسيكى) ، فأخذوا يهاجمونها ويهاجمون هوجو وأتباعه ، ملقبين إياهم

بالبرابرة الهمجيين . فكانت نتيجة ذلك أن زاد التفاف أتباع هوجو حوله ، وراحوا يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة ، دفاع أحرار عن عقيدة ودفاع أتباع عن زعيم .

قدم هوجو مسرحيته « كرومويل » بهذه المقدمة ، فظفرت المقدمة بنجاح كبير فى البيئات الأدبية أكثر مما ظفرت به المسرحية نفسها ، إذ أنها لم تمثل على المسرح لما فيها من إطالة ، رغم جمال شعرها .

وفى السنة التالية قدم مسرحية أخرى ، مقتبسة من رواية « قصر كنلورث » للكاتب الإنجليزى « ولتر سكوت » ، عنوانها « أمى روبار » ، وقد مثلت على مسرح « الأوديون » ولم تصادف نجاحاً .

فتألم هوجو ، ولكن ألمه لم يكن إلا سحابة صيف لم تلبث أن انقشعت سريعاً ، إذ لم يمض وقت طويل حتّى رزق طفله « شارل » فبدّل من ألمه سروراً ومن حزنه فرحاً . وكان أسعد أوقاته وأحبها لديه تلك الساعات التى كان يقضيها بين أولاده وزوجه . وشد ما كانت تلك الساعات مصدر إلهام ووحى له فى قصائده !

ومما زاد سروره زواج أخيل أبيل وحضور والده الجنرال

إلى باريس وإقامته بشارع « پلوميه » . فكان ڤيكتور هوجو يتردد عليه كثيراً ويقضى معه سهرات مملوءة بروح العطف والحب والودّ ، تتخللها قصص الجنرال العسكرية وذكريات الثورة وحروب الإمبراطور . فبعثت هذه القصص وتلك الذكريات فى نفس شاعرنا روحاً جديدة ، شعر معها أنه ابن الثورة ووليد الإمبراطورية . وقد ظهرت هذه الروح بوضوح بعد ذلك .

وسعد الجنرال فى هذه الأيام برؤية ولديه وأحفاده . وذات يوم ، وهو فى أسعد أوقاته وأتم صحته ، قضى فجأة وهو واقف على قدميه وهوى كما يهوى الجندى فى ساحة القتال .

« الشرقيات »

انتقم هوجو من المسرح لفشله فيه بمجموعة من الشعر لم تكد تنشر فى يناير سنة ١٨٢٩ حتى انفجرت انفجار القنبلة لما لاقته من نجاح عظيم . وهذه المجموعة قد أوحت بها ثورة اليونان على الأتراك وحب الشاعر للشرق ومناظره ، سمّاها « الشرقيات » .

كانت هذه المجموعة موضع الدهشة والإعجاب لأنها كشفت عن ناحية غير مألوفة فى الشعر الفرنسى ، ناحية لم يكتب فيها أحد قبله ، ألا وهى كتابة القصائد عن الشرق وسحره . وقد نظمها الشاعر وأسهب فيها رغم أنه لم يزر الشرق ولم يره ، بل استعان بتلك المناظر التى شاهدها فى إسبانيا فى أثناء سفره إليها ، وبذكرياته عن كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى أغرم بقراءته فى صباه ، ومشاهدته لبعض اللوحات الشرقية كـ « مذبحة كيبوس » التى عرضها الرسام « ديلاكروا » ، صديقه ، عام ١٨٢٤ ، (فى السنة التى قضى فيها بايرون نحبه فى ميسولنجى) ، وقراءته لكتاب « دليل السفر من باريس

إلى أورشليم » لشاتوبريان ، وكتاب « الأغانى الشعبية لليونان الحديثة » للمؤلف « فوريال » ، ووقوفه على مختلف خفايا الشرق التى سردها المستشرق « أرنست فوينيه » ، ومجموعة الأغانى الإسبانية « الرومنسيرو » التى شرحها له أخوه أبيل وصديقه أميل ديشان .

اكتفى هوجو بمشاهداته ومراجعه هذه ليتعرف على الشرق وبلاد العرب واليونان والبلاد الخاضعة لسيطرة الأتراك ، فأمكنه أن يصوّرها تصوراً ناطقاً فى مجموعة شعرية قوية جذابة ، يروعك فيها تصويره للحريم والقصور الشرقية . ووصفه للحكام الشرقيين كما يتصورهم الغربيون ، وما اشتملت عليه من حوادث الغرام والاستمتاع بالحياة والاستغراق فى اللذات الحسية بجانب حوادث القتل والعنف .

ترى ذلك وتلمس روعته وسموّ الشعر فيه فى قصيدته « ضوء القمر » التى يقول فيها :

« كان البدر مشرق الجبين ، يتنقل على ذرا الأمواج .
وقد فتحت النافذة ذراعيها لخطرات النسيم ،
فجعلت الملكة ترنو إلى البحر وهو يتكسر ،
ويطرز مطارف جزائره السود بنقوش أمواجه المفضّضة .

فهوى العود من يدها وهو يرنّ ؛
فأصغت . . . فسمعت صوتاً أبحّ يردده الصدى .
أتراها سفينة تركية قادمة من مياه « قوس »
تضرب جزائر اليونان بمجاديفها التترية ؟

أتراها أقواقاً تغطس من حين إلى حين
وتقطع الماء الذى يجرى كاللآلىء على أجنحتها ؟
أتراها جنًّا تصفّر من علٍ بصوت رخيم
وتلقى فى البحر بأطناف البرج ؟

من ذا يعكّر الماء قرب قصر الحريم ؟ .
ليس القوق الأسود المترجح فى أرجوحة الأمواج ،
ولا حجارة الجدار ، ولا إيقاع أنغام
السفينة الثقيلة وهى تزحف على المياه بمجاديفها .

تلك قلوع ثقيلة يتصاعد منها الأنين ؛
ومن حدّق فى قعر البحر الذى ابتلعها
رأى شبه إنسان يتحرك فى جوانبها . . .
هو البدر مشرق الجبين يتنقل على ذرا الأمواج . »

وليست قصيدة « نار السماء » بأقل روعة وجمالاً من سابقتها ، وهى القصيدة التى وصف بها مصر فى مستهل مجموعة « الشرقيات » ، إذ يقول :

« مصر ! الشقراء بسنابلها ، تمتد
حقولها المبرقشة كأنها طنافس ثمينة ؛
ـ سهول تلو سهول ؛
يتنازعها من الشمال الغمر البارد ومن الجنوب الرمال المحرقة
وهى لا تزال تتبسم
بين هذين البحرين اللذين يقرضانها .

هناك ثلاثة جبال شادها المرء تنطح السماء
كثلاث زوايا من الرخام تحجب عن العيون
قواعدها المغطاة بالرمال ؛
ومن قممها المدببة إلى الرمال المذهبة .
تتسع درجاتها الهائلة شيئاً فشيئاً
فقد وضعت لخطوات سعتها ستة أذرع .

يقوم على حراستها أبو الهول من صوان وردى وآلهة من رخام أخضر

حتى إذا هبت عليها ريح ملتهبة من الصحراء
فلن تستطيع أن تغض جفونها .

. . . .

وتسمق فى السماء المسلات الرمادية ؛
ويجرى النيل أصفرَ مبرقشاً بالجزر
كأنه جلد نمر عند حلول المساء . »

أما قصائده عن اليونان فى عهد ثورتها فهى أروع ما فى مجموعته من قصائد . وقد كان تأثيرها عظيماً فى نفوس معاصريه ، إذ حث الفرنسيين فيها على إنهاض اليونان ومساعدتها على الثورة والتحرر من نير الأتراك وعسفهم . فدوت دوىّ الطبول فى الأوساط الفرنسية . وإذا كان « بايرون » الشاعر الإنجليزى ، قد خدم اليونان فى محنتها وثورتها بسيفه ، فقد خدمها هوجو بقلمه وقصائده الحماسية ، التى استدرت عليها عطف فرنسا والشعوب الأخرى كافة . ومنها قصيدة « كناريس » و « نوارين » و « رؤوس السراى » ، وأهمها تلك القصيدة التى شبه فيها اليونان فى ذاك الوقت بطفل شريد تائه ، يطلب المعونة ليواصل قتاله ، وسماها « الطفل » ، وإليك بعضاً منها :

« مرّ الأتراك من هنا ، فبات كل شيء خراباً وحداداً .
ولم تعد « كيبوس » جزيرة الخمر إلا صخرة جرداء ،
كيبوس التي كانت تظللها الأدغال ،
كيبوس التي كانت تنعكس على الأمواج ظلال غاباتها الكثيفة ،
وظلال سفوحها وقصورها ، وظلال الراقصات المغنيات
عند المساء أحياناً من جوقات بناتها .

لقد خلت الديار من أهلها ، إلا طفلا أزرق العينين ،
وحيداً قرب جدران مسودّة ، هو طفل يونانى جالس
وقد حنى رأسه ذلة وخضوعاً ؛

. . . .

آه أيها الطفل البائس الحافى القدمين على الصخور
الشائكة !

. . . .

ما تريد ؟ أتطلب زهرة أم ثمرة طيبة أم أنت تطلب الطير
العجيب ؟
فقال الطفل اليونانى ، الطفل الأزرق العينين :
أريد يا صاح باروداً ورصاصاً . »

لم تقتصر « الشرقيات » على قصائد حماسية أو قصائد فى وصف الطبيعة ، بل اشتهرت أيضاً بكثرة ما كتب فيها من قصائد عن الحياة فى الشرق وعن القصور فيه ، وقد حوت من أسباب الترف والانغماس فى الملذّات ، وعن تلك الحور الرشيقات الجميلات والقيان ورقصات الغوالم التى تبعث النشوة واللذة والنعيم فى النفوس ، تحت أشجار النخيل فى المساء وفى ضوء القمر ، كما فى قصيدة » "سارا " فى الحمام » وقصيدة « السلطانة المفضلة » — كما أنه يصف أيضاً تشوقه لرؤية بلاد العرب فى قصيدته « نور مُهل الصهباء » و « وداع المضيفة العربية » ، وحنينه لرؤية بلاد الأندلس التى رآها فى صباه .

وبينما كانت الأيدى تتخاطف « الشرقيات » نشر هوجو قصته الاجتماعية « آخر أيام المحكوم عليه » حمل فيها حملة شعواء على عقوبة الإعدام لما فيها من قسوة ووحشية . وهى قصة مفجعة ، ذات حوادث مرعبة ، تظهر ما يخالج نفس المحكوم عليه بالإعدام يوم تنفيذ الحكم . وتعد هذه القصة مقدمة لمؤلفاته الاجتماعية ومقالاته العديدة التى طالما طالب فيها بإلغاء بعض القوانين الصارمة ، والعمل على رفع مستوى الشعب العلمى والخلقى — كما سيمر بنا عندما نتحدث عن رواية « البؤساء » .

هوجو والمسرح – معركة « هرنانى »

عاد ڤيكتور هوجو فى العام نفسه إلى الكتابة المسرحية بعزيمة صادقة وحماسة شديدة ، فكتب مسرحية « ماريون دى لورم » بالشعر فى أربعة وعشرين يوماً . ولما قرأها على أصدقائه أعجبوا بها كل الإعجاب . إلا أن الرقابة الملكية ، التى كان يرأسها « دى مارتينياك » وزير الداخلية ، لم توافق على تمثيلها ، إذ وجدت أن لويس الثالث عشر وهو أحد أجداد الملك شارل العاشر يظهر فى الفصل الرابع من الرواية بمظهر يحط من كرامته ومن ثم يحط من كرامة الملكية .

فبذل هوجو جهده ليقنع دى مارتينياك بأن الماضى لا علاقة له بالحاضر ، وأنه لن يكون لذلك المنظر أى تأثير فى نفوس الشعب ، ومع ما عرف عن دى مارتينياك من سعة الصدر ومن الميل إلى الحرية فى التأليف ، لم يجب ملتمس هوجو بل أصر على عدم تمثيلها .

وبعد هذه الخيبة ولى هوجو وجهه ناحية الملك ، والتمس مقابلته مؤملا أن ينجح فى إقناعه ، فقابله الملك فى قصر

« سان كلو » وأصغى إلى شرحه الطويل ودفاعه المجيد ، ثم ابتسم وقال له إنه يقدّر شعره حق قدره ويفخر به ولكن لا يسعه إلا أن يوافق دى مارتينياك على قراره . وبذا قُدّر لهذه المسرحية أن تدفن وهى فى مهدها لم تطلع عليها شمس الصباح.

وأراد الملك أن يخفف من وطأة هذا الرفض على هوجو فقرّر أن يعوّضه عما حاق به من الضرر المادى ، فضاعف معاشه فبلغ أربعة آلاف فرنك سنويًّا . ولكن هوجو رأى فى ذلك نوعاً من الرشوة فأبى قبول هذا العطاء الجديد .

ثم صمم أن يؤلف رواية أخرى تظهر على المسرح وتسلم بها كرامته . فلم يأت شهر سبتمبر عام ١٨٢٩ حتى كان قد أخرج درّة مسرحياته « هرنانى » . وهى تلك القطعة الخالدة التى أحدثت فى عالم الأدب والمسرح هزّة عنيفة لم تحدثها مسرحية أخرى ، وقد بلغ التهافت على رؤيتها حدًّا لم يسبق له مثيل .

وتتلخص فى أن ثلاثة كانوا يعشقون « دونيا سول » ، الأول عمها الشيخ « دون روى جوميز دى سلفا » من الأشراف ، والثانى « دون كارلوس » ملك إسبانيا ، والثالث « هرنانى » الطريد لما بينه وبين الملك من ثأر قديم يرجع إلى ما كان بين

والديهما من عداوة أدّت بوالد دون كارلوس إلى قتل والد هرنانى بعد تجريده من ألقابه ومصادرة أملاكه ، مما أوجد الحفيظة فى صدر هرنانى نحو دون كارلوس واعتزامه قتله للأخذ بثأر أبيه .

أما دونيا سول فلا تحب منهم إلا هرنانى ، وقد جاءها ليلا فى قصر عمها حيث تقيم ، قبل الموعد الذى ضربه عمها للزواج منها بيومين ، وطلب إليها أن تستعد للهرب معه فى الليلة التالية إلى الجبال التى يعتصم فيها . فعلم الملك بذلك فحضر فى اليوم التالى لاختطافها قبل هرنانى . وبينما كانت تقاومه حضر هرنانى مع رجاله فقهرتهم قوة الحرس التى أرسلها الملك لمحاصرة القصر وقتلت جميع أتباع هرنانى ، أما هو فقد استطاع الإفلات .

وفى اليوم الذى حدده العم للزواج حضر هرنانى متنكراً فى زى الحجاج لمقابلة دونيا سول بعد أن فشل فى اختطافها ، وطلب إلى العم الضيافة . ثم إن العم رآه معانقاً محبوبته، فثارت ثائرته وأراد القضاء عليه لولا وصول الملك حينئذ للقبض على هرنانى . فلم يسع العم إلا أن يرفض تسليمه حرصاً على شرفه وقياماً بحق الضيافة وقد لجأ إليه هرنانى . فلم ير الملك إلا أن يأخذ دونيا سول رهينة عوضاً عنه وهذا ما كان يسعى إليه . فطار صواب العم واتفق مع ضيفه على قتل الملك ، بعد أن

وعده هرنانى وعداً قاطعاً بأن تصبح حياته ملكاً له جزاء تلويثه شرفه فى منزله ، ولذلك أعطاه بوقه قائلا له إنه سيلبى طلبه إذا سمع صوت البوق .

واشتركا فى مؤامرة واسعة النطاق قام بها بعض الأشراف لعرقلة انتخاب دون كارلوس إمبراطوراً للإمبراطورية الألمانية ولاغتياله . إلا أنه قد نجح رغم هذه المؤامرة وأصبح إمبراطوراً ، وكشف المؤامرة وقبض على أعضائها ، ولكن لم يعاقبهم بل عفا عنهم جميعاً ، وأعاد إلى هرنانى ألقابه وأملاكه وزاد عليها بأن وهبه دونيا سول زوجاً له .

وفى ليلة الزواج ، بعد انتهاء مأدبة العرس ، والجميع فى نشوة السرور ، إذا بصوت البوق يدوّى فى الفضاء ، هو بوق العم حضر يطلب حياة هرنانى . ولما لم يكن فى وسع هرنانى أن يتخلف عن ذلك نهض يودّع حبيبته فى أدق المواقف وأحرجها . إلا أن دونيا سول استوقفته قليلا ريثما ابتلعت سمّاً زعافاً قضى على حياتها ، وتناول هو ما بقى من السم فسقط بجانبها ؛ وانتحر العم أيضاً . وأسدل الستار على ثلاث جثث هامدة .

ها هى ذى الرواية التى أحدثت تلك الهزّة العنيفة فى

جميع الأوساط ، ولا سيما أوساط الشباب المجدد الذى وجد فيها نوعاً مستحدثاً لم يألفه ؛ فتحمّس لها بكل قوة بزعامة « تيوفيل جوتييه » الشاعر الشاب الذى اشتهر بقميصه الأحمر ، بخلاف أولئك الرجعيين الكلاسيكيين الذين رأوا فيها خروجاً على تقاليد الشعر والكتابة . وقد استعرت بين الطائفتين حرب شعواء سببتها هذه المسرحية ، وقامت بينهما معركة حامية الوطيس فى أول عرض لها . فكان لكل طائفة وجهة نظر ، فالأولى ترفع من قدرها وترى فيها مفخرة للمسرح وتثنى على مؤلفها ، والثانية تحط من قيمتها ومن شأن مؤلفها . وأخذت كل طائفة تدافع عن رأيها بحماسة وشدة . وكانت ساحة المعركة « المسرح الفرنسى » .

وقد بكر أنصار هوجو وهم مجموعة شباب « فرنسا الفتاة » من جماعة الفنانين والموسيقيين والشعراء ، فساروا إلى المسرح بملابسهم التقليدية الزاهية الألوان وشاراتهم الحمر وشعورهم المسدلة على أكتافهم ولحاهم الطويلة . ودخلوا القاعة قبل العرض بما يقرب من ثمانى ساعات ليحتفظوا بمقاعدهم قبل احتشاد الجماهير ويستعدوا لخوض المعركة . وأخذ بعض المقرّبين لهوجو منهم والذين تلا عليهم جزءاً منها ، يردّدون ما سمعوه

ويتغنون به ، وقد ملأوا القاعة ضجيجاً وتحمساً .

وأخذت الأنوار تتلألأ واحداً بعد آخر ، وبدأت الصالة تمتلئ رويداً رويداً حتى لم يبق فيها موضع لقدم ؛ ومن بينهم أولئك الرجعيون من الشعراء ورجال الأكاديميه الممثلون للطائفة المناوئه لهوجو ، وقد أخذوا مقاعدهم فى الصفوف الأولى التى حجزت لهم . وكان الجو مكهرباً ، وهدير العاصفة يدوى والتراشق بالألفاظ لا يكفّ لحظة طول هذا الوقت ما بين الطائفتين ، وكاد الأمر يفضى بهم إلى التلاحم قبل عرض الرواية : ولما دقت الدقات الثلاث وانزاح الستار وبدء فى إلقاء الشعر ، بلغت المعركة بين الفريقين حدّ التلاحم ، وازداد استياء الرجعيين حينما رأوا ذلك الخروج عن المألوف ، وأظهروا استياءهم ووصفوا هوجو وأتباعه بالبرابرة الهمجيين ، العاملين على هدم اللغة والشعر ؛ بينما كان أتباع هوجو يدعون أولئك الرجعيين بالمتأخرين بل الأموات ، وصاح زعيمهم تيوفيل جوتييه قائلا : « إلى المقصلة أيها الرُّكب » ، مشبهاً رؤوس هؤلاء الرجعيين الصلع بالركب . مما زاد فى إثارتهم ، فزاد سخطهم ، وكثر تقاذفهم بالسباب والشتائم . ودام ذلك مدة تجاوزت الساعتين طوال عرض الفصلين الأولين . ولما بدأ

عرض الفصل الثالث ابتدأ المحافظون يتراجعون بغير انتظام ، وفى الفصل الرابع شرعوا ينسحبون من المعركة وقد باءوا بالهزيمة والخسران ، ولم يتمكنوا من مواجهة موجة الاستحسان الشديدة التى أظهرها جميع الشاهدين على اختلاف مشاربهم ؛ وعندما انتهى العرض كان الانتصار لأتباع هوجو بالغاً وتصفيق النظارة يصم الآذان .

وإذ كان هوجو فخوراً بأنصاره وانتصاره ، يشاهد من مكانه الثورة بينهم وبين الرجعيين فى آخر استراحة ، تقدم إليه أحد كبار الناشرين طالباً محادثته خارج القاعة . وهناك عرض عليه ستة آلاف فرنك مقابل حقوق طبع الرواية ، فقبل هوجو بلا تردد ، فدفعها الناشر فوراً ؛ وقد كان هذا المبلغ نجدة لهوجو إذ لم يكن يملك فى تلك اللحظة أكثر من خمسين فرنكاً .

حاول الكلاسيكيون أن ينتصروا من ناحية أخرى ، فتقدموا بعريضة رفعوها إلى الملك ، التمسوا فيها منه أن يحمى المسرح من عبث المستحدثين ، وأن يحفظ مكانته واحترامه من فضائحهم وتشويههم إياه بتلك المسرحيات المستحدثة ، الخالية فى نظرهم من القيمة الفنية ، والبعيدة عن العرف التقليدى المتبع . فأجابهم

الملك أنه لا دخل له بذلك ، وأن مكانه من المسرح هو فى قاعة العرض كأى فرد من رعيته .

فكان ظهور هذه المسرحية ونجاح هوجو هذا النجاح المنقطع النظير فاتحة عهد جديد للشعراء المعاصرين وللحركة الشعرية الرومنتيكية الحديثة ، إذ خطا بها إلى الأمام خطوات واسعة راسخة ، وبثّ فى النفوس روحاً جديدة ونهض بالشعر الروائى نهضة مباركة ، فتح بها أمام الشعراء آفاقاً جديدة لاحدّ لها .

فذاع صيت المؤلف فى جميع أنحاء فرنسا ، وكتب له شاتوبريان يهنئه بزعامته لتلك النهضة الأدبية الحديثة . ولم تكن الصحافة بأقل إعجاباً به من الجمهور ، إذ ردد كثير من النقاد والكتّاب شدة إعجابهم بالمؤلف ومدحوه وهنأوه بتلك المسرحية الفذة ، وليدة العبقرية ، وقدروا شعرها القوى الفياض الساحر حق قدره .

« نوتردام دى باريس »

كان هوجو إذ ذاك فى ربيعه الثامن والعشرين ، ربع القوام ، غض الإهاب ، له جبهة تسترعى الأنظار بسعتها وبجمالها ، يشع منها نور العبقرية والعظمة والإرادة الحازمة ، مسترسل الشعر ، حاد البصر ، عميق النظر ، دقيق الفم ، إذا ابتسم كشف عن أسنان غاية فى الجمال ، وكان أنيقاً فى هندامه رغم بساطته ؛ ولم يكن فى مجموع ملامحه ما ينم عن زعامته لهذه الجماعة الثورية .

وكان لا يزال متيماً بزوجه الفتانة أديل ، وقد رزق منها بعد ابنته ليوبولدين غلامين ، شارل ، عام ١٨٢٦ ، وفرنسوا ، عام ١٨٢٨ ؛ ثم ولدت له طفلة دعاها باسم أمها أديل ؛ فظللتهم السعادة جميعاً . وكان يقضى وقته موزعاً بين نظم الشعر وتأليف المسرحيات والروايات ، واللهو مع أولاده واستصحابهم للنزهة فى الحدائق المجاورة .

وكان منزله بشارع « نوتردام دى شان » محط أنظار كثير من الرواد ، أصدقائه والمعجبين به ، الملتفين حوله

التفاف التلاميذ حول أستاذهم . فهذا « شارل نوديبه » محافظ مكتبة الترسانة ، وهذا « ألفريد دى ڤينيي » الشاعر الفيلسوف الشهير ، وها هم أولاء « أميل وأنتونى ديشان » ، و « ألفريد دى موسيه » الشاب الشاعر النابغة ، و « چيرار دى نرڤال » الكاتب الرقيق ، و « ألكسندر دوما » الروائى الذائع الصيت ، وغيرهم ؛ وها هم أولئك الفنانون يأتون ليشعل كل مشعله من لهيب مذهبه الجديد : « لوى بولنچيه » و « سلستان نانتي » ، و « أشيل ديڤيريا » الذى رسم صورة لهوجو عرضها بواجهة أحد المحال فكانت قبلة أهل باريس ، و « داڤيد دانچيه » الذى صنع عدة تماثيل للشاعر . وأخيراً « سانت بيڤ » الذى لم يكن يلذ له الحضور إلى منزل هوجو إلا فى غيابه ليمتع نظره برؤية زوجه الجميلة .

ولم يكن هؤلاء جميعاً يعدون ڤيكتور هوجو أستاذاً فحسب ، بل مجدوه ورفعوه أكثر من ذلك ، كما وصفه سانت بيڤ .

« نحن أمامك كالأغصان إذ تنحنى ،
وحسبك نفثة نخر لها ساجدين . »

فى هذا الجو المشجع وفى سورة فرحه بانتصاره ونجاحه

صمّم على كتابة رواية « نوتردام دى باريس » وكان قد فكر فيها منذ أكثر من ثلاث سنوات . ولكى لا يشغل نفسه بشيء آخر رأى أن يعتزل الناس طول مدة تأليفها . ففي أول سبتمبر سنة ١٨٣٠ ودّع ملابسه الخارجية وأودعها خزانته ، حتى لا تستميله إلى الخروج ، وبعد مضى أربعة أشهر ونصف شهر كتب هوجو خاتمة روايته .

و « نوتردام دى باريس » قصة مملوءة بالعواطف المتباينة وبالحوادث المثيرة . فها نحن أولاء فى عهد لويس الحادى عشر فى باريس القديمة ، المكتظة بالسكان والمزدحمة بالمنازل القذرة والأزقة الضيقة ، وها هى ذى الكاتدرائية العظيمة التى طغت على باريس بعظمها . وقد وقف « كلود فرولو » رئيس الشمامسة بها يشاهد « أسمرالدا » الغجرية ترقص مع عنزها « دچالى » المدرّبة ، المذهبة القرنين ، رقصاً اهتزّت له عواطفه ؛ فشعر برغبة شديدة فى الاستحواذ عليها ، وعشقها عشقاً مبرّحاً . أما هى فلم تشعر نحوه بشيء اللهم إلا بالخوف منه والكره له ، وكثيراً ما أغواها وسعى إليها ، ولكنها كانت ترفض حبه بل مصادقته . ولما ضاقت به السبل أوعز فى ليلة مظلمة إلى أحدب كئيب المنظر ، شنيع الصورة ، يدعى

« كازيمودو » ، كان قد ربّاه فى ظل الكاتدرائية ، أن يختطف « أسمرالدا » ويحضرها إليه .

وبينما الأحدب فى طريقه يجرى بها وقد اختطفها ، إذا بأحد الضباط الشبان يعترضه ويخلصها منه ويقبض عليه ، فكان جزاؤه الجلد وعرضه على منصّة عالية ، مكتوف اليدين ، فى أحد الميادين العامة . وبينما هو على هذه الحال ، والدماء تسيل من جروحه أمام ضحك المشاهدين وسرورهم من منظره وشناعته ، إذ به يصيح أن اعطونى جرعة ماء فالظمأ يكاد يقتلنى . فزادت سخرية القوم منه وعلا ضحكهم عن ذى قبل ، إلا « أسمرالدا » ، فريسته أمس ، فقد أشفقت عليه وصعدت إلى المنصة حاملة زجاجة مملوءة بالماء ، ملبية طلبه . أما هو فظنها أول الأمر تسعى إليه للانتقام منه ، ولكنه حينما رآها قد أشفقت عليه بعد الذى كان منه أمس ، انحدرت من عينه الوحيدة دمعة على خدّه وعرف الحب طريقه إلى ذلك الوحش الآدمى .

وكان التعارف قد تم بين « أسمرالدا » ومنقذها الضابط ، واتفقا على أن يلتقيا فى مكان معلوم . وقد استشاط « كلود فرولو » غضباً حينما علم بذلك ، فسعى لدى الضابط فرضى

هذا فخوراً أن يحضر كلود فرولو اجتماعهما متخفياً . وبينما هما فى نشوة غرامهما ، و« أسمرالدا » بين ذراعى ضابطها الجميل يغمرها بقبلاته الحارة ، خرج رئيس الشمامسة من مخبئه شاهراً سكينه وأودعها ظهر الضابط وقفز هارباً .

فقبض على « أسمرالدا » بتهمة الشروع فى القتل ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتهم القسيس وقد عرفته فى أثناء هربه ، إذ من ذا الذى يصدق أن قسيساً مرشداً إلى الخير ومنفراً من الذنوب والشر ، يقدم على هذه الفعلة الشنعاء ، ومن ذا الذى يشفع لها وهى نورية ، وهذه الطائفة معلوم عنها أنها منبع الرذائل والموبقات . فاقتنع القضاة بإدانتها وحكموا عليها بالاعتراف علناً بجريمتها أمام كاتدرائية نوتردام دى باريس ثم بالشنق فى ساحة « جريف » .

فلم تجد بداً من الخضوع لهذا الحكم الجائر ، وليس فى وسعها أن تنقضه ، فكل الأدلة ضدها . فاعترفت مضطرة بجريمة لم ترتكبها أمام الشعب وأمام قسيس الكاتدرائية ، وقد كان بينهم كلود فرولو ، فعرض عليها حبه مقابل خلاصها ، فلم تقبل وفضلت الموت على البقاء بجوار هذا المجرم . وبينما الجلاد يستعد لأخذها لينفذ فيها حكم الإعدام فى ساحة

« جريف » ، إذ بكازيمودو الأحدب ينقض عليه ، متدلياً على حبل معلق بدعامة الواجهة ، ويضرب به الأرض ويختطفها منطلقاً بها إلى داخل الكاتدرائية صائحاً : « إلى الحمى ! إلى الحمى ! » ؛ وكان للكاتدرائيات فى القرون الوسطى حصانة دينية ، ومن احتمى بها أمن ولا يجوز القبض عليه إلا بقرار من البرلمان .

ظلت « أسمرالدا » فى حمى نوتردام دى باريس ، وفى رعاية الأحدب الساهر عليها كالكلب الأمين . إلا أن كلود فرولو راح يتقرب إليها ويحاول استمالتها واعداً إياها بالخلاص وبالعفو ، فلم تلتفت إليه ؛ فتملكته سورة الغضب وصمم على الانتقام منها ، وتقدّم إلى البرلمان وسعى لدى أعضائه لكى يستصدر قراراً يحرمها من حق الألتجاء إلى الكاتدرائية والاحتماء بها .

فلما نجح مسعاه وصدر القرار شعر بالندم وبوخز الضمير وعزّ عليه أن يفقدها ، فأوعز إلى فئة من المتسولين الذين كان لهم فى وسط باريس حىّ خاص لا يجسر على الدخول إليه أحد من غير طبقتهم حتى الشرطة أنفسهم ، فأوعز إليهم بمهاجمة الكاتدرائية ليلا واختطاف « أسمرالدا » قبل أن تتسلمها

الشرطة ، ولما كانت « أسمرالدا » من أفراد تلك الطبقة وكان لها عندهم حظوة كبيرة واحترام ، رأوا فى تحريض القسيس فرصة ذهبية طالما تمنوها لخلاصها . فتجمعوا ووضعوا الخطة وأعدوا العدة ، وعندما أرخى الليل سدوله وتوارت المدينة تحت الظلام ، هاجموا الكاتدرائية حاملين المشاعل . غير أن الأحدب الأصم لم يكن على علم بتلك المؤامرة ، وظن أن المهاجمين يريدون الانتقام من « أسمرالدا » بتسليمها إلى الشرطة ، فأغلق الباب فى وجههم وقاومهم مقاومة عنيفة يمنعهم من دخول الكاتدرائية أو التسلل فوق جدرانها ، وأحدث ضجة شديدة حدت بالشرطة إلى التداخل ، فقُتل بعض المهاجمين وقبض على البعض الآخر وهرب من هرب . أما كلود فرولو فإنه اتصل بالفتاة وخيرها آخر مرة بين أن تتبعه أو أن يسلمها إلى الشرطة ؛ فرفضت أن تتبعه فدفعها إليهم . وفى أثناء إعدامها علم الأحدب أن سيده هو الذى سلمها فنقم منه وانتهز فرصة وجوده فى أعلى الكاتدرائية فدفعه من أعلاها دفعة شديدة ألقته على الأرض صريعاً مهشماً . ولم يمض إلا قليل حتى كانت جثتان متعانقتان فى قبو « مونفوكون » المعد لإلقاء جثث المحكوم عليهم بالإعدام ، هما جثة الأحدب معانقاً جثة «أسمرالدا» ، إذ لم يطق البقاء بعد موتها .

هذا ملخص تلك القصة التى تعدّ من مفاخر قصص هوجو ، وقد أظهر فيها قدرة غريبة فى خلق أبطالها من نوع غير مألوف . فهذا الأحدب كما صوره إن دلّ على شىء فإنما يدل على براعته وابتكاره بما أودع هذه الشخصية الحيوانية من عاطفة تتصف بكل معانى الكرامة ؛ وجعله تلك الكاتدرائية مسرحاً لحوادث الرواية وإدماجها فى كل جزء منها صيرها شخصية حية تعد من أبطال الرواية .

نجحت القصة نجاحاً عظيماً لا يماثله إلا نجاح سابقتها « هرنانى » على المسرح ، فتخاطفتها الأيدى وقرأها الجميع ، وأعجبوا بمؤلفها الذى عاد بهم إلى القرون الوسطى ، وأحيا شعوبها وعرض عليهم مثلاً من عاداتهم وقوانينهم وخرافاتهم . ثم أعجبوا أيضاً بما أظهره لهم من القوة التى كانت كامنة فى الكاتدرائية فى تلك العصور كأنّ فى كل حجر منها روحاً تهتز لمختلف العواطف وتتأثر بها ، فكانت مثلا لتلك العبقرية الفذّة التى خلقت تلك الروعة فى التصوير .

آخر عهده بالمسرح

دأب هوجو على التأليف وعلى نظم الشعر إلى أن شبت ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ وأحدثت ذلك الانقلاب السياسى العظيم الذى ذهب بالملكية الشرعية ، فأنزل شارل العاشر عن عرشه وأقيم لويس فيليب خلفاً له ، فلبى مطالب الشعب ومنحه الدستور . وشارك شاعرنا الشعب فى حماسته بقلمه ، ونظم قصيدة « ما أُملى بعد يوليه سنة ١٨٣٠» ، مدح فيها الحكومة الجديدة وهنأ الشعب بانتصاره وعبر عن حبه لفرنسا الجديدة الحرّة . وقد نشرت فى جريدة « الجلوب » ، لسان حال الشعراء المجددين ، مع مقدمة من صديقه سانت بيف .

ترك الشاعر منزله فى شارع نوتردام دى شان واستأجر شقة فى منزل يطل على « الميدان الملكى » القديم ، (ميدان الڤوج حالياً) بين المنازل العتيقة الجميلة ذوات البواكى الطويلة ، حيث يشعر المرء بأنه يعيش فى العصور الماضية ، فى القرون التى بنيت فيها ؛ وكان لهدوئه وسكونه خير معين لهوجو فى عمله .

وكانت الدار التى سكنها واسعة ، ذات بهو فسيح يشبه كثيراً ردهات قصور القرون الوسطى ؛ وفيها غرفة للطعام فرشت بالأبسطة الثمينة وكست جدرانها الستائر النفيسة وحشرت فيها حشراً تلك الخزائن القديمة الأثرية التى أغرم هوجو بجمعها ؛ وفيها غرفة للاستقبال واسعة نثرت فيها تماثيل كثيرة من النحاس والخزف وغيرها ؛ يلى ذلك غرفة المكتب المملوءة بالكتب والمجلدات بجانب كثير من الزهريات والأوانى الخزفية التى كان هوجو مغرماً أيضاً بجمعها .

عاش الشاعر فى هذا المنزل الرحب الهادئ أكثر من خمسة عشر عاماً ، سعيداً بأولاده ، مكباً على عمله . فكثر إنتاجه ، وألّف مسرحياته وقصائده الشعرية الواحدة تلو الأخرى . فأحرز النجاح الكبير والمال الوافر وعاش فى سعة من العيش .

وفى اليوم الحادى عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٣١ ، وقد أُلغيت الرقابة على المسرح ، مثّلت مسرحية « ماريون دى لورم » التى لم يوافق شارل العاشر ووزيره دى مارتينياك على تمثيلها من قبل . فكان نجاحها عظيماً ، وقد تقبلها الشعب بحماسة فائقة . ولم تخل هذه المسرحية أيضاً من نقد الرجعيين

الذين رأوا فيها لوناً آخر لم يألفوه من قبل . وقد حدث وقت تمثيلها ما حدث وقت تمثيل هرناني ، لكن الرجعيين قد تقهقروا أمام موجة الاستحسان التى أبداها الجمهور وما أظهره من الثناء على الشاعر الذى أمكنه أن يبرهن فى هذه المسرحية على أن الحب الشريف يعيد للعاهرة شرفها ومكانتها .

ومثلت فى السنة التالية مسرحية « الملك يلهو » فلم تنل أى نجاح . ثم أوقفت الحكومة تمثيلها بعد أول عرض لها إذ أنها تحرض على قتل الملك الفاسد . فلم يرض هوجو بهذا التدخل فى الشؤون الفنية وأقام الدعوى على الحكومة مطالباً إياها بتعويض مادى ، محتجاً بأنه ليس من حق الحكومة أن تمنع تمثيل رواية ما دامت الرقابة على المسرح قد ألغيت . إلا أنه خسر الدعوى وحكم عليه بدفع الأتعاب . فدفعها فخوراً بأنه نازع الحكومة وقاوم طغيانها وأحدث تلك الضجة .

وفى سنة ١٨٣٣ مثلت له مسرحية أخرى كانت نثرية ، وهى مسرحية « لوكريس بورچيا » ، فنالت نجاحاً عظيماً وكانت انتصاراً رائعاً أنسى الناس خذلانه السابق فى مسرحية « الملك يلهو » . وقد فتنت هذه المسرحية ألباب الجمهور فكان تصفيقهم فى أثناء تمثيلها يشق عنان السماء ، وبلغ تحمسهم لها

أشدّه حين غادر المؤلف القاعة بعد العرض ، فحلوا الخيل من عربته وجرّوها بأيديهم صائحين وهاتفين له . ولما وصل إلى منزله تخلص بصعوبة من تلك المظاهرة الصاخبة العظيمة التى كانت موضوع الحديث مدة طويلة . — وأخيراً كانت هذه الرواية السبب فى إنماء العلاقات بينه وبين « جوليت درورويه » إحدى ممثلات المسرحية ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

تتابعت مسرحياته بعد ذلك ، فمنها ما نالت النجاح ، ومنها ما كان نصيبها الإخفاق ، وأشهرها « مارى تودور » و « أنچلو » و « أسمرالدا » المقتبسة من روايته الشهيرة و « روى بلاس » ، حتى كان عام ١٨٤٣ فمثلت فى ٨ مارس مسرحية « البرجراف » فكانت أسوأ ختام لمسرحياته ، إذ أنها سقطت سقوطاً شنيعاً رغم قوة شعرها وجمال بعض المواقف فيها . ويرجع سبب سقوطها إلى تطرّف المؤلف فى الخروج بها عن المألوف لدى الجمهور فلم يستسغها . وقد انتهز الرجعيون هذه الفرصة ، فرصة مغالاة هوجو فى التطرّف ، فدسوا له كثيراً وأثاروا الجمهور عليه فى أثناء التمثيل وقد أخذ يحنّ للمسرحيات القديمة ، فهاج وماج ، فكان حظ الرواية من النقد والاستهزاء ما تألم له هوجو فصمم على هجر المسرح ، وكان هذا آخر عهده به .

المجموعات الشعرية

فى تلك المدة ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٠ لم يكف الشاعر يوماً واحداً عن نظم القصائد ، وكان يجد من نفسه ما يدفعه إلى نظمها ونشرها مجموعات . فنشرت له أربع مجموعات قيمة ، هى « أوراق الخريف » و « أغانى الغسق » و « المناجاة القلبية » و « الأشعة والظلال » وهذه المجموعات رفعته إلى القمة وأنالته عن جدارة إعجاب أهل الأدب أجمعين .

فالأولى من هذه المجموعات – قد نشرت عام ١٨٣١ – تظهر لنا ما كان يشعر به من سعادة الحياة الأسرية وعذوبتها ، وما كانت تبعثه من ذكريات قديمة ولذة حالية وإلهام هادئ ، بعد تحمسه لتأييد مذهبه الرومنتيكى وبعد نشوته بانتصاره . وقد قال عن مجموعته هذه فى مقدمتها إنها « كأوراق الخريف المتساقطة ، وليست بقصائد ضوضاء وجلبة وضجيج بل هى أشعار تشرق صفاء وهدوءاً ، صادرة عن الأسرة والمنزل والحياة الشخصية ؛ وهى نظرة مؤثرة عن الماضى والحاضر » .

في هذه المجموعة الجميلة يذكر الشاعر عهد صباه بين إخوته ووالدته التي كان يحبها حباً جماً ، ويذكر والده القائد العظيم ، ونابليون إذ رآه ذات يوم ذاهباً إلى البانتيون « صامتاً هادئاً كأنه إله من فولاذ » ؛ كما يتناول بالوصف فيها كثيراً من المناظر الريفية البديعة الساحرة وشروق الشمس وغروبها ، فهو يقول :

« أحب المساء الرائق الجميل ، أحب المساء ؛
إذا ذهّب واجهات القصور القديمة
الغائصة تحت أوراق الأشجار ؛
وإذا امتد الغمام قبيل الغروب كأمواج من النار ،
وأطلعت أشعة الشمس في زرقة السماء جزراً من السحب ... »

ونجد في هذه المجموعة بعض القصائد الاجتماعية ، يحث فيها الشاعر أولئك الأغنياء والموسرين على الشفقة والرحمة بالفقراء والمعوزين :

« أعطوا أيها الأغنياء ! إنّ الصدقة أخت الصلاة . . .
أعطوا ، إن الله الذي ينعم على الأسر
يعطي بنيكم القوة ويعطي بناتكم الجمال . »

كما نجده فى بعضها الآخر يعترف بطهارته فى شبابه ، ويعبر عن آلامه وآماله ، وعن غروره وطموحه ، وشدة تعلقه بحياته الزوجية وأولاده ، وقد كان أروعها تلك التى نظمها فيهم .

ويرجع تنوع إلهامه هذا الى ثورته النفسية ورقة شعوره الذى يهتز كلما مسه عامل من العوامل الخارجية ، كما قال فى قصيدة له :

« إن لمعة أمل أو نفحة خطر
تبرق لها روحى الشفافة بريقاً أو تجف وجيفاً
كأن روحى قد خلقها الله الذى أعبده ووضعها
فى مركز الكون صدى يردد ألف صوت معاً . »

ومن ناحية أخرى نجده يصرح بأن رسالة الشاعر ليست النظم للغناء فحسب بل عليه أن يحثّ على العدالة ويدافع عن الحق ، ولو أدّى به الأمر أن ينسى الحب والأسرة ؛ وعليه أن يثير الحماسة فى النفوس ويخوض ميادين السياسة ويعنى بالأمور الخلقية والاجتماعية .

أما ما نجده فى مجموعته الغنائية الثانية « أغانى الغسق » فهى القصائد التى مجد بها نابليون فجاءت فيضاً من وحى إلهامه ،

وهى « نابليون الثانى » و « إلى العمود » وقد عبر فيها عما كان يحسه ويشعر به من حبّ « للنسر » العظيم الذى دوّخ أوربا بأسرها ؛ مع قصائد أخرى يحثّ فيها على حبّ الوطن وحب الحرية . أما بقية ما فى هذه المجموعة من قصائد فلا تختلف فى جوهرها عن قصائده فى المجموعة الأولى ، إذ أنها تدور حول أسرته وشخصه ، وتفصح عما يخالجه من شكوك ، وما يشعر به من مرارة مما يوجه إليه من نقد . ثم يذكر مودته لزوجه وعواطفه نحو محبوبته الجديدة « چوليت د روويه » .

ومجوعته الثالثة « المناجاة القلبية » التى أهداها إلى روح والده ، فأهم ما فيها تلك القصائد التى خلد بها ذكرى والده الجنرال ووصف مآثره ، مع احتجاجه الصارخ على الحكومة التى لم تخلد ذكراه بكتابة اسمه بين أسماء قواد نابليون على قوس النصر فى باريس . وباقى المجموعة لا يختلف كثيراً عن المجموعتين السابقتين من حيث تنوع الموضوعات فيهما ، فهو يعظم الإمبراطور فى قصيدة « قوس النصر » ، ثم يعبّر عن عواطفه نحو أسرته وأهله .

والمجموعة الرابعة «الأشعة والظلال » التى نشرت سنة ١٨٤٠ نجده قد اختص بها والدته وشعوره نحوها وحبه لها وميله إلى

ذكرها ، وتحدث عن ذكريات طفولته المثيرة ، وعن حبه للطبيعة وجمالها ، وعطفه على البائسين ، وعاطفته لمحبوبته . ونجد أيضاً فى هذه المجموعة أول قصيدة نظمها فى البحر والبحارة وعنوانها « ليلة فى المحيط » (Oceano Nox) .

امتازت المجموعات الأربع ، التى تعد من أجمل مجموعاته ، بجزالة شعرها ورصانته ورقته ، وبجمال أسلوبه وعذوبة ألفاظه الموسيقية وعظمة الخيال فيه . ولم ينشر بعدها أية قصيدة حتى عام ١٨٥٣ لانشغاله بالمسائل الاجتماعية السياسية .

علاقة هوجو بجوليت درووية

كان الشاعر الناقد « سانت بيڤ » من أقرب أصدقاء هوجو إليه فقد ناصره بقلمه إبان نشأته فى سنوات الجهاد الأولى المملوءة بالنضال والانتصارات الأدبية ، وقد أنزله هوجو من نفسه منزلة ممتازة فكان يدعوه دائما إلى زيارته . وكانت « أديل» زوجة شاعرنا تحضر أغلب هذه الاجتماعات صامتة ، ثم أخذت تشترك فى الحديث . وقد أثر فيها « سانت بيڤ » بعذب حديثه وبليغ عبارته ، رغم قبح منظره وخبث أخلاقه ؛ وأخذ هو بجمالها وسواد شعرها وبياض بشرتها ودعج عينيها ، فافتتن بها .

ولما شعر بحبه الجارف لها تعمد الحضور إليها عند تغيب هوجو حتى ينفرد بها . وكانت هذه الزيارات عادة بعد الظهر ما بين الثالثة والخامسة ، حين يخرج هوجو للتريض فى حدائق باريس ؛ فيجد « أديل » فى حديقة منزلها تلهو مع أولادها ، فيجالسها ويشكو إليها طفولته التعسة وحوادثها المؤثرة ووحدته الحالية وشقاءه ، فتغلبها الشفقة عليه . وما زال بها يثيرها حتى استدر عطفها عليه . فراحت تكثر من دعوته محاولة

التخفيف عنه بحديثها ، معتقدة فى قرارة نفسها أنها بذلك تؤدى له أجل خدمة إنسانية ، ولم تكن تدرى حقيقة نواياه ، وما كان هوجو يتصور أن علاقة زوجته الجميلة الطاهرة بهذا الشاعر القبيح المنظر تجاوز ما تقتضيه الصداقة من مجاملة وتنزلق إلى العشق والوله ؛ حتى إنه لما رزق ابنته الأخيرة ودعاها باسم أمها « أديل » طلب من سانت بيف أن يكون كفيلاً لها ، فقبل مسروراً .

ولما رأى هوجو أن العلاقات زادت عن حد المألوف ، بدأ الشك يتسرب إلى نفسه ، فتألم كثيراً وطلب إلى « سانت بيف » ألاّ يجيء إلى منزله فى غيابه . فكانت صدمة للناقد . إلا أنه تغلب عليها بأن طلب إلى الزوجة أن تقابله خلسة فى كنيسة مجاورة للمنزل ، ففعلت ، وكانا يجتمعان هناك فى ظل الكنيسة ، معصومين من الخطيئة ، ولكن ذلك لم يكن ليرضى العاشق كثيراً .

وشعر هوجو بتحول كبير فى « أديل » نحوه ، فقوى الشك لديه وأخذت الغيرة تلذعه ، رغم ما كان يرى من حبها له مع إخلاصها لسانت بيف الذى غمرها بحبه ، ذلك الحب الذى حاولت أن تجعله نقيًّا خالصاً من كل شائبة .

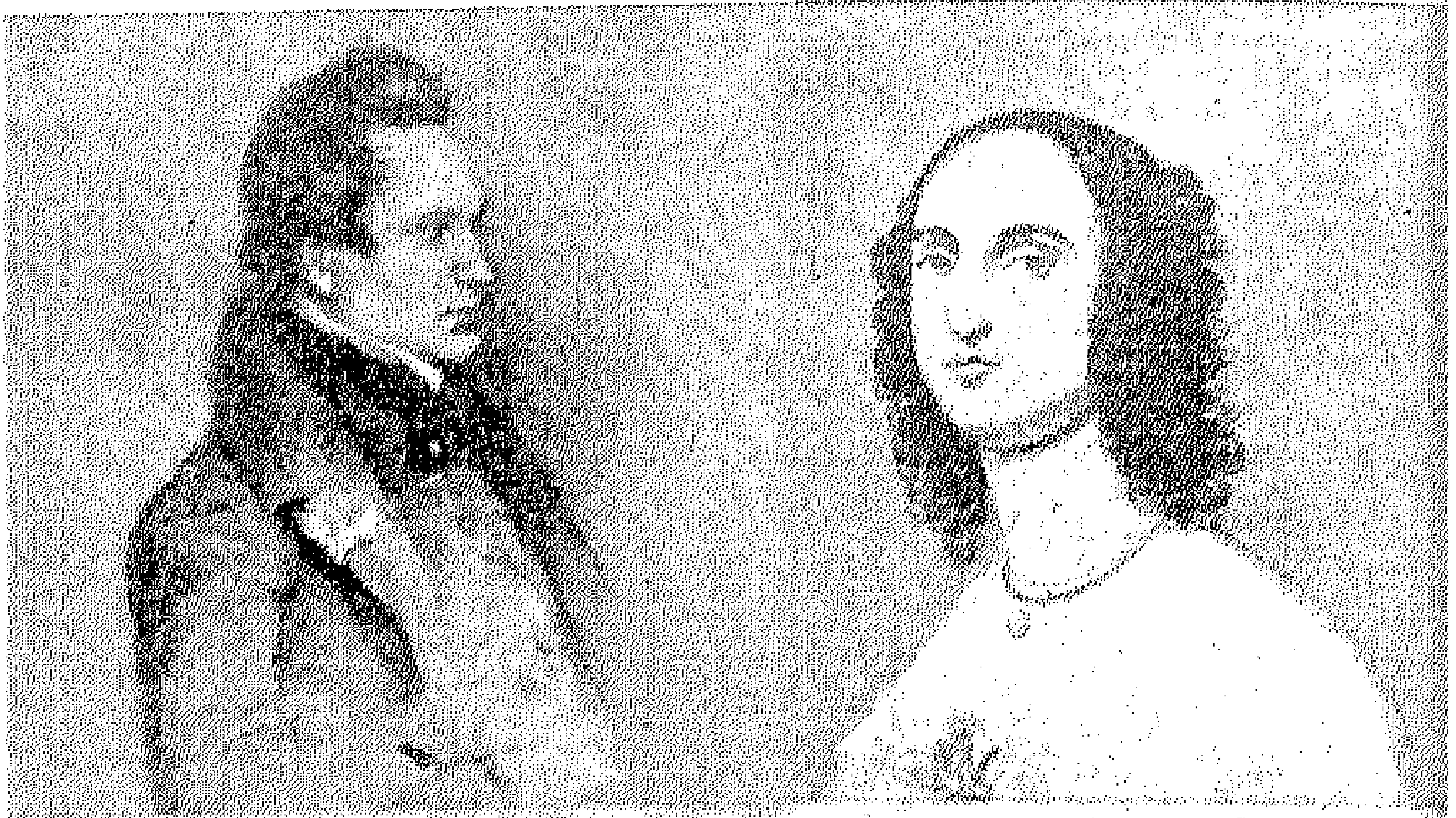
وقد دامت تلك الحال ثلاث سنوات ، حتى كتب هوجو

مسرحية « لوكريس بورچيا » التى مثلت على مسرح « سان مارتان » . وقد أسند دور الأميرة « نجرونى » إلى چوليت درووية الممثلة الشابة ، فقبلت هذا الدور على صغره قائلة لمدير المسرح « لا يمكن الانتقاص من قدر أى دور مهما صغر فى رواية يكتبها هوجو » .

وكانت چوليت فى السابعة والعشرين من عمرها ، بارعة الجمال ، واسعة العينين براقتهما ، صغيرة الفم ، يحوط وجهها البيضاوى الشكل هالة من الشعر الأسود الغزير اللامع ؛ أما جسمها فأجزاؤه رشيقة متزنة فى دقة ونظام جدير بأن يكون نموذجاً للمثالين .

ولم تكن حياتها خالية من المآسى الغرامية ، فقد تهافت عليها كثيرون من الأغنياء وذوى الجاه ، وكان آخرهم الأمير « داميدوف » الذى أغدق عليها كثيراً من هداياه الثمينة وأنفق عليها أموالاً طائلة . بيد أنها حينما رأت هوجو على المسرح فى أثناء التمرينات استحوذ عليها ذهول وتمنت لو تكون له خليلة .

أما هو فكانت نظرته إليها أول الأمر نظرة عابرة ، ثم تحولت إلى عاطفة حب ، أذكاها ما كان يلاحظه من



مدام فيكتور هوجو — فيكتور هوجو عام ١٨٣٢



سانت بيف — جوليت دروويه عام ١٨٣٢

اهتمامها بشأنه ، وهو الرجل الذى نكب فى زوجته وصديقه . وهكذا بدأت بينهما تلك العلاقة التى دامت أكثر من نصف قرن .

غرق العاشقان فى لجة غرامهما مسرعين ، فلم تكد تنتهى التمرينات ويبدأ تمثيل الرواية حتى كانت الخطوة الأولى فى سبيل تقربهما قد تمت . ولما كانت دواعى المسرح تقتضى أن يتقابلا كثيراً كانا ينتهزان الفرص للخروج معاً إلى الحدائق أو إلى تناول الطعام فى الريف . وكثر تغيب هوجو عن منزله محتجاً بأن الحياة المسرحية وضرورة إشرافه على كل شىء بنفسه يضطرانه إلى هذا التغيب .

وقد بلغ من شدة حبه لجوليت أن نظم فيها قصائد كثيرة أشرنا إليها فى الحديث عن مجموعاته الشعرية الأربع السالفة ، وقد أودع تلك القصائد كل مكنونات قلبه لمحبوبته ، كما ارتفع بها فى وصفه لها فوق مستوى البشر . ومن أبدع تلك القصائد قصيدته التى قال فيها :

« وبما أنى وضعت شفتىّ فى كأسك التى ظلت فائضة ،
وألقيت بين يديك جبينى الشاحب ،

واستنشقت أنفاسك العذبة المتصاعدة من روحك التى هى أريح عطر فى الظل المتوارى ،

« كما أنه أتيح لى أن أصغى إليك وأنت تقولين لى
الكلمات التى تنشر ما طواه القلبُ من الأسرار ،
ولما رأيت ثغرك البسام يفترّ على ثغرى
وعينيك تذرفان الدمع فوق عينىّ ،

. . . .

قلت للسنين التى تمرّ مرّ السحاب :
أسرعى ، أسرعى ! ولا تتمهلى وانقضى سراعاً ! فلا آبه بالمشيب !
امضى أنت وأزهارك الذابلة ،
فى قلبى زهرة لا يستطيع أحد أن يقطفها ! »

وقد أخذ الشاعر منذ معرفته بچوليت يحاول أن يسترد لها مقامها وشرفها ويرفع من شأنها ليمحو ماضيها الملوّث ، فكتب هذه القصيدة الجميلة :

« لا تهينين امرأة قد هوت !
فمن يدرى العبء الذى قد ناءت به حتى سقطت هذه

النفس المسكنية !

ومن يعلم مدى الزمان الذى قاومت فيه آلام الجوع !
من منا لم يقف على أحوال النساء البائسات
عند ما عصفت بهن ريح الشقاء فزعزعت من عفتهن
وهن يتشبثن بها طويلاً بأيديهن التى أصابها الوهن !
وهكذا ترى فى طرف الغصن
قطرة رذاذ تتلألأ والسماء تلمع فيها ،
فهى تهتز مع الشجرة وترتجف وتقاوم
وقبل سقوطها تحاكى لؤلؤة وبعد سقوطها تشبه طينة !

والمذنبون فى ذلك نحن ؛ وأنت أيها الغنى ؛ وكذلك ثروتك !
على أن هذه الطينة لا تزال تحتوى على الماء الصافى .
وقليل من أشعة الشمس أو من شعاع الحب
يكفى لكى تخرج هذه القطرة الصافية من الطينة
وتعود لؤلؤة درية برونقها الأول ؛
وهكذا كل شىء مرجعه إلى النور . »

ظلت حياتهما أنشودة عذبة للهوى الشباب وفنى كل منهما فى الآخر حباً وغراماً ، ولم ينغص حياة چوليت إلا ما

كان يلفحها من غيرة هوجو وامتعاضه من حياتها المسرحية وذكرى ماضيها . فتركت التمثيل إلى غير رجعة ، وقطعت علاقاتها بأصدقائها جميعاً ، وانقطعت إليه ووهبته نفسها وحياتها. فزاد تقديره لها وأكبر منها هذا الإخلاص ، فكتب إليها مرة يقول : « صنع الله يدىّ لأصلح حياتك المنهارة ، وروحى لأعشق قلبك ، كما صنع شفتىّ لأقبل قدميك » . وقد تركت أيضاً حياة الترف التى اعتادتها والتى كانت تحياها ، وسكنت منزلاً بسيطاً وضيعاً ، وأضفت عليه من فنها وروحها وحبها ما جعله حقًّا عش غرامها ؛ وعانت الضيق والفقر والبرد ، وضحّت بكل شىء من أجل حبها ، فهو سعادتها وهو ثروتها وهو كل شىء لديها . وقد قالت لحبيبها ذات مرة : « إنّ فقرى وأحذيتى الخشنة وستائرى القذرة وملاعقى الحديدية وبعدى عن كل ترف وأية لذة غريبة عن حبنا تشهد فى كل ساعة بل فى كل دقيقة بأنى أحبك كل الحب » .

واعتادت نمط حياته فكانت تساعده مساعدة فعالة فى عمله ، إذ كان يقضى عندها فترات طويلة فى الكتابة على مكتب أعدّته له . وكانت تنقل له مسوداته وتجمع له الصحف والمجلات والمقالات التى تتحدث عنه ، وبالاختصار تفانت معه

فى عمله إلى أقصى حد .

وفى صيف ١٨٣٤ سافرا معاً إلى وادى « بييفر » وقضيا بضعة أيام كانت أسعد أيام حياتهما ، تغمرهما العاطفة القلبية الصادقة . وتعوّدا بعد ذلك أن يزورا كل عام هذا الوادى الجميل الهادئ ، ويقضيا بضعة أيام من الصيف بين رياض هذاه الريف البديع وأشجار الغابة الغناء ، أو فى كنيسة الوادى الأثرية فيبتهلا إلى ربهما ليديم حبهما ، تلك الكنيسة التى قال عنها فى قصيدة غراء من مجموعة «أغانى الغسق» :

« كانت كنيسة متواضعة ذات قوس منخفض
تلك الكنيسة التى دخلناها ،
حيث مرّت وبكت أرواح عديدة
منذ ثلاثمائة عام.. »

وفى هذا الوادى (عام ١٨٣٧) نظم قصيدته الرائعة « حزن ألمبيو » ، وقد عبر فيها عن خوفه من سرعة زوال السعادة البشرية وتحدث عن قسوة الطبيعة التى لا تحتفظ بالذكريات ، وعن تجدد السعادة باستذكارها . وهذه القصيدة من مجموعة « الأشعة والظلال » ، وفيها يقول :

« قليل من الوقت يكفى ليغير كلى شيء !
أيتها الطبيعة الهادئة سرعان ما تنسين ! . . .
لا يوجد شيء مما عرفناه أمس ؛
فقد شتتت الرياح كتلة الذكريات
كما تشتت ركاماً من الرماد الخامد البارد !
ألن نحيا بعد ذلك ؟ وهل مضى وقتنا؟ . . .
من حيث مررنا سيمر غيرنا . . .
لا سبيل إلى أن يتم امرؤ شيئاً فى هذه الحياة ؛ . . .
نستيقظ كلنا قبل أن ينقضى الحلم ؛
فكل شيء يبتدئ فى هذه الدنيا وينتهى فى مكان آخر ...
إذن سلمنا إلى النسيان أيها المنزل وأيتها الحديقة والظلال !
وغردى أيتها الطيور ، واجرى أيتها الجداول ، وانمى أيتها الأوراق !
فالذين تنسونهم لن ينسوكم . . .
إن النفس فى زاوية يكاد ينتهى عندها الوجود
تشعر بشيء يخفق تحت حجاب . . .
هى الذكرى المقدسة التى ترقد فى الظلام ! »

فى ذلك الوقت كانت مدام ڤيكتور هوجو تتألم

كثيراً من علاقات زوجها بچوليت ، وتكتم ألمها هذا إذ لم تكفّ يوماً عن حبه ، وظلت تفاخر بشهرته وتبدو فى كل ناد محبة وفية له ، واسعة الصدر ، تدرك أن لكل رجل عظيم ميوله وضعفه .

أما « سانت بيڤ » فقد استغل هذا الموقف وحاول الوصول إلى مبتغاه من الزوجة الأمينة بأن تخون زوجها ، فطفق يكثر من التردد عليها ويحاول الترفيه عنها بمواساتها ، ولم ينس فى الوقت نفسه أن يلوم صديقه الزوج على خيانته ويهوّل من ذلك أمامها بل تجاوز هذا إلى انتقاده والتشنيع به فى كل مكان . ولما نشرت مجموعة هوجو الأخيرة « الأشعة والظلال » انتقدها نقداً مرًّا فى « مجلة العالمين » (La Reoue des deux Mondes) وذمه ذمًّا لاذعاً لجمعه بين زوجته وعشيقته فى قصائد المجموعة . فساء « أديل » نقده وذمه لزوجها وتكشفت لها نفسه عما بها من خسة وحقارة ، فقد كانت تعجب بعبقرية زوجها وتحبه حبًّا خالصاً . ومن ثم بدأ الشقاق بينها وبين الناقد . أما هوجو فقد تألم جدًّا مما ناله من صديقه القديم الذى طالما مجده وأثنى عليه ؛ فكتب إليه يعلمه بقطع كل علاقة بينه وبينه ، وأنه لا يريد أن يراه فى منزله بعد اليوم ، فلم يعبأ « سانت بيڤ » بهذا الخطاب

ومضى فى تردده على المنزل ، رغم شعوره بنفور « أديل » منه ، متحاشياً مقابلة زوجها . وذات يوم وجده هوجو فى داره فثار ثائره وقذف به إلى الشارع . فكانت هذه آخر العلاقات الشخصية بين سانت بيف ، بين هوجو وزوجته . وقد سافر بعد هذه الإهانه إلى «لوزان» بسويسرا والتحق بجامعتها وقام بتدريس « تاريخ دير پور روايال » فيها ، الذى تعد من تحف النقد الأدبى فى القرن التاسع عشر .

حياة هوجو السياسية والاجتماعية
(الفترة الأولى)

كان أول مجهود بذله هوجو فى الناحية الاجتماعية هو يوم كتب رواية « آخر أيام المحكوم عليه » التى طالب فيها بإلغاء عقوبة الإعدام لما رآه فيها من القسوة والوحشية . وقد تولدت فيه الرغبة منذ ذاك الحين إلى طرق أبواب هذه الناحية والكتابة فيها ، ليقينه بأن ذلك واجب الشاعر ، وأن عليه أن يركز قلمه وعقله لخدمة المجتمع . وقد كتب فى مقدمة مسرحية « لوكريس بورچيا » هذه الكلمات التى تعبر عن اتجاهه الاجتماعى والسياسى : « إنّ فى المسائل الأدبية كثيراً من النواحى الاجتماعية . فالتأليف يعدّ عملاً والمسرح منبراً وكرسيًّا للتدريس . . . والشاعر مكلف السهر على الأرواح وتهذيبها » . وقال الكلمات نفسها فى مقدمة « أنچلو » : « المسرح اليوم أقرب إلى المدرسة منه فى أى زمن مضى . . . ينبغى أن يكون فى كل مسرحية جميلة فكرة اجتماعية نافعة . . . لقد اتسعت آفاق الفن إتساعاً عظيما فى عصرنا هذا ،

فكان الشاعر يقول فيما مضى " الجمهور " ، أما اليوم فهو يقول " الشعب " . . . » .

وظهر اتجاهه هذا أوضح ما يكون فى خطاب انضمامه إلى الأكادمية الفرنسية عام ١٨٤١ ، وكان قد رشح نفسه من قبل للعضوية فيها ثلاث مرات وفشل ، فكان خطابه اجتماعياً سياسياً أكثر منه أدبياً ، إذ نجده يقول : « إن تربية الشعب بإنشاء المدارس والمعامل ودور الكتب ، والإصلاح التدريجى للفرد بوساطة القانون ، إنما هما الهدف الحقيقى الذى يجب أن تتوخاه كل حكومة عادلة وأن يعمل كل مفكر مخلص على تحقيقه » . ثم عرج فى خطابه على الناحية السياسية فمدح نابليون وأثنى عليه وعلى سياسته ، كما أثنى على سياسة فرنسا إذ ذاك .

فكان خطابه على هذا النحو غير ما كان ينتظر من عضو جديد فى الأكادمية ومن شاعر وكاتب فى طبقته ومنزلته ، إذ كان من المتوقع أن يكون خطاباً أدبياً قبل كل شىء . وقد ظن البعض أن هوجو إنما قصد بخطابه هذا أن يكون دعاية له لترشيح محتمل لدار النيابة .

ونجد له آراء سياسية بحتة فى كتاب له عنوانه « الراين »

نشره عام ١٨٤٢ عن رحلة قام بها مع چوليت دروويه إلى شرق فرنسا وإلى ألمانيا ، وفيه يبدى آراءه فى نظام أوربا بأسرها ، مشيراً بوجوب تغيير هذه الخريطة ، وبخلق دول وبمحو أخرى ، وبتعديل الحدود القائمة بينها ، وبتكوين أوربا تكويناً جديداً كما يشاؤه هو .

وفى الواقع أن حياة هوجو قبل هذا التاريخ لم تكن فى يوم من الأيام خالية من السياسة أو من الميل إليها . فقد كان فى بدء نشأته ملكيًّا متطرفاً ، جاهد بعنف فى سبيل الملكية بأناشيده التى كان لها من الأثر ما كان للخطب والمقالات السياسية ، مطالباً تارة بعودة « البوربون » ومرة أخرى بالثناء على أبطال حركة مقاومى الثورة وضحاياها . غير أنه لم يلبث أن تحوّل فجأة وأظهر ميله الشديد إلى الحرية وإلى حزب الأحرار فى عهد شارل العاشر ولويس فيليب ، وأخذ يناصره بقصائده ومقالاته ، مناشداً الشعب التفانى فى حب الحرية والوطن ، مغالياً فى التحمس لنابليون وإعادة عظمة الإمبراطورية .

وفى عام ١٨٣٧ فى اليوم العاشر من شهر يولية حدث حادث خطا بهوجو فى الناحية السياسية خطوات واسعة . إذ دعا الملك لويس فيليب أعلام الأدب فى فرنسا ، أمثال « ألكساندر

دوماس » و « ألفريد درى ڤيني » و « ألفريد دى موسيه » و « لامارتين » و « سانت بيف » و « ميشليه » وغيرهم ، وعلى رأسهم ڤيكتور هوجو ، إلى الحفلات الكبيرة التى أقامها بمناسبة افتتاح قصر ڤرساى . فلما حضر هوجو قدمه الملك إلى دوقة أورليان ، وهى الأميرة الشابة « إيلين دى مكلمبورج » زوجة ابنه دوق أورليان . وكانت شغوفة بالأدب إلى حد كبير ، شغفاً ورثته عن جدها الملك « أوجست دى ساكس ويمار » الذى اشتهر بحبه للأدب وبمناصرته للأدباء حتى إن حاشيته كانت تضم أعظم أدباء ألمانيا وشعرائها ، وكان صديقاً لـ « جوتة » لـ « شيلر » . وكانت الأميرة تحب فرنسا حبًّا يعادل حبها وطنها ويزيد ، فلما خطبت لولى عهد فرنسا حاول بعض المقرّبين إليها أن يحملوها على رفضه بحجة أن ملكات فرنسا تاعسات فقالت : «لأن أعيش سنة واحدة دوقة أورليان بفرنسا أحب إلى من أن أقضى حياتى هنا أنظر من نوافذ القصر إلى الداخلين الخارجين » . وكانت الأميرة تجيد الفرنسية وتتبع منذ صباها الحركة الأدبية الفرنسية لا سيما شعر هوجو وفلسفة « ڤيكتور كوزان » ، وكانت ترغب فى التعرف إليهما ، حتى إنها قالت لهوجو حينما قدّمه الملك إليها : « إنى سعيدة بمعرفتك ، فقد كنت

أرغب أشد الرغبة أن أتعرف باثنين : بلك بالمسيو كوزان . وقد تحدثت كثيراً عنك مع جوته . وقرأت جميع مؤلفاتك ، وحفظت كثيراً من أشعارك ، ويمكنك أن تمتحنني ! قد أحببت كثيراً تلك القصيدة من مجموعة « أغاني الغسق » التي مطلعها :

« " كانت كنيسة متواضعة ذات قوس منخفض
تلك الكنيسة التي دخلناها ، "
وقد زرت كنيستك بصفة خاصة . »

وبعد بضعة أيام ، حين نشر هوجو مجموعة « المناجاة القلبية » ، بعث إلى الدوق والدوقة بنسخة منها ممهورة بتوقيعه . فأرسلا إليه ، تقديراً لفنه ، لوحة زيتية للرسام « سانت إيفر » تمثل « تتويج جثة إنييس دي كاسترو » ، وقد نالت هذه اللوحة كل نجاح في معرض التصوير عام ١٨٣٧ ، وكان هذا منهما مجاملة سامية إن دلت على شيء فإنما تدل على شدة إعجاب الدوقة بهوجو . وأخذ الشاعر من جهته يعجب بها ، وأراد أن يشعرها بشكره لها وعظم تقديره فاختار مسرحية « روى بلاس » لتمثل أمامها ؛ وكان بطل هذه الرواية رجلاً فقيراً معدماً ، إلا أنه فذّ بعبقريته النادرة ، قد شجعه إعجاب الملكة

به فجالد وثابر وارتقى إلى أن أصبح رئيساً للوزارة ، فخدم الشعب بما قام به من إصلاح وتجديد مع أمانة وإخلاص .

وقد خدمه إعجاب الدوقة به ، وتودده لولى العهد ، وتقرّبه من الملك نفسه أجل الخدمات ؛ ولا شك أن أعظم مساعدة نالها منهم هى نجاحه فى دخول الأكاديميه ، بعد أن أباها عليه أعضاؤها ثلاث مرات ، وكلهم من الرجعيين الذين نالوا على يديه من الهزؤ والسخرية ما نالوا ، وكانوا لا ينفكون يناوئونه ويجاهرونه بالعداء ؛ ولكنهم لم يجرأوا هذه المرة أن يرفضوا طلبه ، بعد ما علموا من حظوته لدى الأسرة المالكة وخوفهم من سخطها عليهم . وقد حضرت الدوقة والدوق حفلة قبول هوجو بالأكاديميه تقديراً له ، واستمعوا إلى الخطاب الذى ألقاه ، وقد كان أقرب إلى السياسة منه إلى الناحية الأدبية ، كما بينا ذلك من قبل.

ظلت الدوقة على إعجابها بهوجو ، وظل هوجو مقدراً لها هذا الإعجاب ، باقياً علي إخلاصه ووفائه لها ، رغم ما حدث من الانقلابات السياسية ، وما أعقبها من نفيه وكرهه لجميع الأسر المالكة .

موت ليوبولدين فى « فيلكييه »

أقحم هوجو نفسه فى غمرة السياسة ونال فى المرحلة الأولى منها الفوز بعضوية الأكادمية والتقرب إلى الأسرة المالكة ، وقد كان حريًّا به أن يخطو قُدُماً نحو أسمى المراتب السياسية وعنده ذلك النشاط الجم وتلك العبقرية النادرة ، وخلفه الأسرة المالكة ومنها الدوقة تساعده وتشد أزره . ولكن موت ابنته وحزنه الشديد عليها قعدا به عن كل نشاط حقبة من الزمن .

كان قد سافر وچوليت فى أغسطس عام ١٨٤٣ إلى إسبانيا فى رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع ، مرّ فيها بتلك المناطق التى عرفها طفلاً ، فأحيت رؤيتها فى مخيلته ذكريات عديدة بقيت فى ذهنه مدى الحياة كنزاً من المعانى لا ينضب . وأخذ طريق العودة فى أوائل سبتمبر ، فجعل يتوقف فيما يروقه من المدن ، حتى إذا وصل إلى « روشفور » فى اليوم الثامن عقد النية على أن يقضى فى زيارتها أياماً يشاهد فيها السجن والميناء ومبنى السفن . وبينما هو جالس فى إحدى مقاهيها يتصفح جريدة إذ وقع بصره على خبر وفاة ابنته الكبرى ليوپولدين غرقاً ، ولم يكن

قد مضى على زواجها من « شارل ڤاكرى » سبعة أشهر . رأى الخبر منشوراً فى صدر الصحيفة كما يأتى :

« خرج يوم ٤ سبتمبر شارل ڤاكرى وزوجته ليوپولدين فى نزهة على نهر السين ، وبينما كانا فى وسط النهر هبت على زورقهما زوبعة شديدة قلبته رأساً على عقب . فنجا شارل وظهر فوق سطح الماء وحاول ست مرات أن ينقذ زوجته ويخرجها من تحت الزورق ، إلا أنها كانت متشبثة بألواحه وهى فى غيبوبة ، فلم يتمكن من إنقاذها وبقى على هذه الحال حتى فقد قواه ، فغرقا معاً » .

قرأ الشاعر هذا الخبر فطار صوابه وعصف به الحزن ، فخارت قواه حتى إنه لم يستطع الوقوف على قدميه وهوى على مقعده ، شاحب الوجه ، مذهولاً ، والدموع تنهمر من عينيه . ولما عاد إليه رشده قرر مواصلة السفر فوراً إلى باريس . فكان سفراً كئيباً ، تتراءى له فيه طول الوقت صورة ابنته فى طفولتها وصباها وشبابها حتى زواجها . فها هى ذى معه فى سفره إلى « تور » تملأ الدنيا صخباً وحبوراً ، وها هى ذى أنس السفر إلى سويسرا ، وبهجة الدار فى « نوتردام دى شان » حيث كانت تتعلم القراءة على عجوز اختارها لها هو بنفسه . ثم يراها وقد

شبت وترعرعت وأخذت تواظب على حضور الصلاة فى الكنيسة المجاورة ، حتّى وافت حفلة زفافها وقد ظهرت بحلتها البيضاء أمام الهيكل متأبطة ذراع عروسها . كان يتصورها فى جميع هذه المشاهد ثم يتصور أنه فقدها إلى الأبد ، فكان الألم يحزّ فى نفسه والحزن يغشاه حتّى ليكاد يفقد شعوره وعقله . أتقضى وهى فى ريعان شبابها ولما يمض على زواجها سبعة أشهر ؟ أخذ يفكر فيها ويفكر فى أخيه « أوچين » كيف فقد عقله من قبل ومات ، وأخذ يفكر فى نفسه متسائلاً : أهو بكامل قواه العقلية أم تراه قد جن أو أوشك ، وقد كتب عن نفسه : « لقد كنت مختل الشعور فى اللحظة الأولى » .

شاركت فرنسا جمعاء ڤيكتور هوجو فى حزنه ، وفى طليعتها الأسرة المالكة ودوقة أورليان ، التى كانت قد فجعت منذ عام بزوجها الدوق . أما مدام هوجو فلم يكن حزنها بأقل من حزن زوجها فقد هدّتها الصدمة هدّاً وانفغر فى قلبها جرح لم يندمل مدى حياتها .

دفنت ليوپولدين فى مدفن « ڤيلكييه » فى تابوت واحد مع زوجها شارل ڤاكرى ، وأصبح المدفن والمقبرة أعزّ مكان وأقدسه عند هوجو وزوجته ، يحجان إليه بانتظام

طوال حياتهما . وكان الشاعر يضع فوق قبر ابنته كلما زاره طاقة من الزهر وأخرى من الشعر .

ولما مضى عام على وفاة ليوپولدين ، وبدأت وطأة الحزن تخف ، أخذ صوت الشاعر يعود رويداً رويداً إلى الحياة ، يتمتم بألفاظ الخضوع والابتهال ، ونظم قصيدة « ڤيلكييه » وهى أسمى قصيدة أملتها الآلام العميقة على امرئ رضخ لإرادة الله واعترف بعنايته :

« أتقدم إليك يا رب أيها الآب الواجب الوجود ؛
أقدم لك وأنا هادئ
حطام هذا القلب الذى هشمته
وهو طافح بمجدك ؛
أتقدم إليك يا رب معترفاً بأنك
صالح ورءوف ورحيم وحنون أيها الإله الحى !

أقر بأنك وحدك تعرف ما أنت فاعل
وأن المرء ليس إلا ريشة فى مهب الريح ؛
أقر بأن القبر الذى يغلق على الأموات
يفتح السماء ؛

وأن ما نظنه فى هذه الدنيا النهاية
إن هو إلاّ البداية ؛

. . . .

لسنا نرى فى هذه الحياة إلاّ جانباً من الأشياء ؛
أما الجانب الآخر فهو غائص فى ليل الأسرار المخيف .
يحمل المرء النير وهو لا يعلم الأسباب .
وكل ما يراه قصير الأجل وباطل وزائل .

. . . .

اللهم إنى أشهد أن الإنسان
إذا شكا هذى ،
كففتُ عن اللوم وكففت عن التجديف
ولكن دعنى أبكى !

. . . .

اللهم أنت تعلم أنّا لا غنى لنا عن بنينا ؛

. . . .

وأننا نذوب ألماً وحسرة إذ نراهم يرحلون . »

ثم نظم بعد ذلك قصائد عديدة فى رثاء ابنته جمعت كلها فى مجموعة « التأملات » وكانت لوعته فى كل منها بالغة جدًّا .

حياة هوجو السياسية والاجتماعية
(الفترة الثانية)

مرّ عام ١٨٤٣ على هوجو بآلامه وحسراته وبدأ عام ١٨٤٤ ، فعاد الشاعر فيه إلى العمل وأخذ يذهب كل مساء تقريباً إلى القصر ليشاطر الأدباء مجلسهم فى حضرة الملك لويس فيليب ، وكان أحياناً يطول جلوسه وحده مع الملك فى محادثات وديّة إلى ساعة متأخرة من الليل .

انتخب هوجو رئيساً للأكادمية وكان عليه أن يبت فى قبول الأعضاء الجدد وأن يلقى خطاب الترحيب . وفى عهد رياسته تقدم لعضوية الأكادمية الأديب الناقد المسرحى « سان مارك چيراردان » فقبلت عضويته ، ثم سانت بيف صديقه بالأمس ، فوافق هوجو على ترشيحه ؛ وكانت موافقته هذه رغم ما لاقاه منه مفخرة له ودليلاً على سمو أخلاقه ونبالة نفسه . إذ أن العلاقات بينهما كانت قد قطعت منذ أمد بعيد ولم يبدُ من سانت بيف أية محاولة لوصلها ، فقد غرقت ابنة هوجو فلم يعزّه بكلمة مع أن لامارتين كتب له يقول : « حاول أن تدخل

عبر هذا الجرح العريض » . ولم يكفه ذلك بل برهن على صغر نفسه وقلة ذوقه بأن نشر بعد قليل من وفاة ليوپولدين مجموعة شعرية تشتمل على قصائد عاطفية يروى فيها حبه لأديل حشا أكثرها بالأكاذيب . فكان لنشرها فى نفس مدام هوجو وزوجها ، وهما فى أشد حالات الحزن ، أسوأ وقع وأمره ، إذ أخذت ألسنة الناس تلوك عرضها ولما ينسوا وفاة ابنتها . ومع كل هذا كان هوجو شهماً عند ما جاءه سانت بيڤ يرشح نفسه للعضوية ، فقابله مقابلة تليق بأى عضو فى الأكادمية ، وقد كان بوسعه أن يرفض قبوله ولكنه لم يفعل رغم موقف سانت بيڤ الأخير منه . ولما ألقى خطاب الترحيب به أثنى عليه ثناء كثيراً .

وعُيّن هوجو عضواً فى المجلس النيابى الفرنسى فى ١٣ أبريل سنة ١٨٤٥ لما كان بينه وبين الملك من العلاقات الوطيدة . فكان هذا التعيين خطوة كبيرة فى سبيل ارتقائه إلى أسمى الوظائف السياسية .

وظل نائباً حتى ثورة ١٨٤٨ ، وقد خطب فى المجلس ست مرات كان يطالب فى كل مرة بإبطال قوانين النفى والسماح للويس بونابرت ابن أخى الإمبراطور نابليون بالعودة إلى الوطن . وكانت خطبه جميعها مركزة التفكير متقنة الإعداد ،

محكمة الحلقات ، ذات أسلوب قوى وخيال بديع ، تفتن السامعين وتأخذ بألبابهم ، ولكنها لم تحملهم على الاقتناع بمطالبه ، إذ أن هوجو كان شاعراً خيالياً أكثر منه خطيباً نيابياً ، فكانت تنقصه سرعة الرد ، والبداهة السياسية ، وقوة إدراك نوايا المعارضين .

حدث لهوجو عقب انتخابه عضواً فى المجلس النيابى حادث أوشك أن يلبسه ثوب الخزى والعار. فقد تعرّف بالرّسام « بيار » وزوجته الجميلة ، فدعته يوماً إلى حضور حفلة تنكرية راقصة فى حديقة دارها . فلبى الدعوة واشترك بكل جوانحه فيها ، ورقص مع ربة الدار التى استهوت نفسه كثيراً وشعر نحوها بميل شديد . ووصف تلك الحفلة فى قصيدته الجميلة « حفلة عند تريزا » وهى فى مجموعة « التأملات » ، وقد ختمها بهذه الأبيات :

« طال الليل ، وصمت كل شىء ، وأطفئت المشاعل ،
وأخذت الينابيع تهدر فى الغابات السود ،
وأخذ البلبل المختبئ فى عشه الخفى ،
يغرّد كأنه شاعر أو عاشق .
فتشتت الجمع تحت الأشجار الكثيفة ؛

وجرّت المجنوناتُ ذوى العقول ضاحكات ؛
وانسلّت الحبيبة فى الظلام مع الحبيب ؛
واعتراهم اضطراب خفيف كما يحدث فى الأحلام ،
فكانوا يشعرون رويداً بضوء القمر الأزرق ؛
الذى يفيض على الأفق — يمتزج بنفوسهم
وبمناجاتهم الخفية وبنظراتهم الملتهبة
وبقلوبهم وحواسهم ورشدهم التائه . »

ظل هوجو عقب هذه الحفلة دائم الاتصال بمدام بيار ، فبادلته هى أيضاً حبًّا بحب ، وتطوّرت بينهما العلاقات إلى أن أفضى بهما الأمر إلى التلاقى سرًّا فى منزل بشارع « سان روك » ، وأخذا يترددان عليه . فعرف زوجها تلك العلاقة المريبة بينهما ، فراح يترقبهما حتى فاجأهما ذات ليلة ومعه وكيل الشرطة ، واقتحم باب المنزل بينما كانا فى نشوة غرامهما . فقبض وكيل الشرطة على المرأة وأودعها سجن « سان لازار » ، ولكنه لم ينل من هوجو شيئاً لتمتعه بالحصانة النيابية . فصمم الزوج أن يرفع الأمر إلى المجلس النيابى ليحاكمه ؛ فلم يرض الملك بذلك ، واستدعى الرسام وابتاع منه لوحة من ماله الخاص وطلب إليه التنازل عن حقه قبل هوجو ، فأذعن الرسام طوعاً لرغبة مليكه .

أما مدام بيار فبعد أن قضت مدة سجنها وأفرج عنها ، طلبت الطلاق من زوجها وظلت خليلة لهوجو مدة ثلاث سنوات ، بالاشتراك مع چوليت دروويه ، التى لم تكن تعلم بهذا . إلا أن الغيرة أخذت تأكل قلب مدام بيار. وزين لها شيطان غرامها أن تستأثر بهوجو وحدها ، فأرسلت الخطابات التى كان يكتبها لها إلى چوليت ، وأفهمتها موقفه منها ، وطلبت إليها أن تبتعد عنه وتفسح لها المجال . فثارت چوليت على هوجو وخيرته بينها وبين عشيقته الثانية ، فلم يتردد الشاعر فى ذلك واختارها هى ، وقطع كل علاقاته بمدام بيار .

ولم تمض عدة أشهر حتى طوى هذا الحادث وامحت ذكراه . وقامت على أنقاضه إشاعة أخرى ملأت الأندية وجميع الأوساط الباريسية ، وهى أن الأميرة هيلانة (دوقة أورليان) ، وكان من المتوقع أن تتوج ملكة على فرنسا ، قد وضعت خطة لسياستها ، وأنها قد ألفت وزارتها المستقبلة واختارت جميع وزرائها من بين الكتاب والشعراء على النحو الآتى :

ڤيكتور هوجو	للرياسة ووزارة الحربية
تيوفيل جوتييه	لوزارة الخارجية
ألفريد دى موسيه	لوزارة المالية

ألفونس دى لامارتين	لوزارة البحرية
جرانييه دى كاسانياك	لوزارة العدل
ليون فوشيه	لوزارة الداخلية

ولكن حلمها وإن لم يتحقق بأكمله ، وذلك بعد سقوط الملكية عام ١٨٤٨ وقيام الثورة ، إلا أنه عين لامارتين رئيساً للحكومة المؤقتة وليون فوشيه وزيراً للأشغال . فتم بذلك ما أرادته الأميرة لهذين الأديبين عن طريق غيرها ، ولم يتحقق ما كانت تريده لنفسها ولهوجو وموسيه وجوتييه .

ثورة ١٨٤٨ – هوجو عضو مجلس النواب

اندلعت نيران الثورة فى فرنسا فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، وتنازل الملك لويس فيليب عن العرش مكرهاً . فحاول هوجو إحباط هذه الحركة الشعبية ، وخطب فى الشعب من شرفة داره مرّة وفى ميدان « الباستيل » مرة أخرى ، داعياً إلى إبقاء الملكية وتنصيب الأميرة هيلانة وصية على العرش . فلم يجد آذاناً صاغية ولم يستطع التأثير فى الشعب . وزالت عقب ثورة فجائية أهدأ حكومة عرفتها فرنسا .

أعلنت الجمهورية مرة ثانية وانتخب لامارتين رئيساً للحكومة المؤقتة التى شكلت لإجراء الانتخابات ، ومنح مرسوم ٥ مارس سنة ١٨٤٨ حق الانتخاب لجميع الفرنسيين . فانقلب هوجو جمهوريًّا ورشح نفسه لعضوية مجلس النواب فى أبريل سنة ١٨٤٨ ، ولكنه سقط ؛ فعاد ورشح نفسه فى الانتخابات التكميلية فى يونية سنة ١٨٤٨ ، ففاز فى هذه المرة ، وكان أحد الأربعة والثلاثين عضواً الذين انتخبوا عن دائرة باريس ، ومنهم لويس بونابرت ابن أخى الإمبراطور نابليون ، وكان قد عاد

إلى فرنسا بعد سقوط الملكية .

وزاد نشاط هوجو السياسى مدة نيابته هذه — من ١٨٤٨ إلى ديسمبر ١٨٥٢ — وتقلّبه مع الأحزاب ، فلم يكن لسياسته ولخطبه وأعماله أى طابع خاص يميزه أو يحدد من موقفه ؛ فهو ينتمى إلى حزب النظام ويتّجه بقلبه إلى الاشتراكية الحكومية . ورغم أنه مع الأغلبية فكثيراً ما كان ينسلخ منها ليصوت ضدها مع الحزب الديمقراطى . فطالب مع اليسار بإبطال عقوبة الإعدام ورفض الدستور بأجمعه ، وأيّد مع اليمين الأغلبية ، وصوّت معها مطالباً بإبطال المعامل القومية وإلغاء الضريبة العقارية والضريبة التصاعدية ورسم الإعفاء من الخدمة العسكرية والاستفتاء الشعبى ، وفى ذلك الوقت كان قد عين عمدة لدائرته بباريس .

ولم يكتف بنشاطه داخل المجلس بل أصدر فى ١١ أبريل سنة ١٨٤٨ جريدة أسماها « الحادث » (L'Evénement) بمعاونة ولده « شارل » وأصحابه « أوجست ڤاكرى » و « پول موريس » ، ليدافع فيها عن سياسته وليتخذ منها أداة لترويج دعوته وليمهد لانتخابه رئيساً للجمهورية .

وكان العمال قد نقموا منه لموقفه العدائى منهم حين النظر

فى قانون المعامل القومية فى المجلس ، فثاروا ضده وهاجموا منزله وأوشكوا أن يحرقوه . وبعد أن خمدت ثورتهم رأى أن ينتقل إلى مسكن آخر فى شارع «لاتور دوفرنى» . وبينما هو منهمك فى إعداد منزله الجديد إذ بزائر لم يكن ينتظره ، ذى عينين رماديتين تنمان عن ميل صاحبهما إلى الأحلام والأوهام ، زائر سوف يكلل رأسه تاج الإمبراطورية الفرنسية ، جاء يطلب مقابلته فى وقت لم يكن فيه هوجو مستعداً للقاء أحد ، ولم يكن هذا الزائر سوى لويس نابليون بونابرت . دهش هوجو من هذه الزيارة المفاجئة ، ولم يكن لديه مقعد واحد ليجلس عليه ضيفه الكريم ، وكان أثاثه لا يزال فى الصناديق المبعثرة فى ردهة البيت ، فلم يجد بداً من أن يجلسه على أحدها ، وجلس بجانبه يستمع إليه .

كان لويس بونابرت قد مضى طفولته وشبابه خارج فرنسا بسويسرا ، وحاول فى الفتنة التى اندلعت عام ١٨٣٦ أن يحمل الشعب على الاعتراف به إمبراطوراً لفرنسا ، فلم يفلح وقبض عليه ونفى إلى أمريكا . ففرّ منها وعاد إلى سويسرا ومكث فيها يرقب سير الحوادث فى فرنسا حتى عام ١٨٤٨ . وها هو ذا الآن فى حجرة خالية إلاّ من الصناديق الخشبية ، يجلس بجوار النائب هوجو وهو يعرف شعوره نحو الإمبراطورية

الأولى ، وقصائده التى نظمها فى عمه نابليون ، ومطالبته أيضاً ، وهو عضو فى المجلس النيابى السابق ، بالعفو عنه (أى عن لويس نابليون) حين كان منفيًّا فى أمريكا والسماح له بالعودة إلى الوطن . يعرف كل ذلك عن هوجو ، فأتى إليه يعرض عليه أغراضه ويكشف له عن نواياه وينشد مساعدته وتعضيده له لانتخابه رئيساً للجمهورية ، قائلا إنه لا يريد الحكم ليعيد عهد نابليون الأول بحروبه وضحاياه ، إنما يريده ليوطد لفرنسا دعائم السلم ، السلم الدائم . فوعده هوجو بمساعدته ، وقام وبعض النواب بمؤازرته إلى أن تمّ له الفوز وانتخب رئيساً للجمهورية . وكانت هذه الزيارة أولى اتصالات هوجو بلويس بونابرت ومعرفته به . وسوف نرى ما سينجم عن هذه الاتصالات من نتائج فى غاية من الأهمية بالنسبة لهوجو . وكثيراً ما يكشف لنا التاريخ عن اتصالات كهذه لها عذوبتها وخطورتها .

وقد كان هوجو يأمل فى مكافأة سخية من لويس بونابرت كأن يقلده بعد هذا إحدى الوزارات ، ولكن خاب ظنه فقد تجاهله رئيس الجمهورية عند ما ألّف الوزارة الجديدة . وكان لتجاهله هذا رد فعل عنيف فى نفس الشاعر ، وبدا

بينهما نوع من النفور ، زاده على مرّ الأيام ما كان يبديه رئيس الجمهورية من رغبة فى إرجاع الحكم الإمبراطورى ، مناقضاً وعده لهوجو الذى كان يزداد ميلا إلى الحرية والمساواة .

وزادت جهود هوجو فى مجلس النواب مدّة الثلاث السنوات التى قضاها عضواً فى هذه الهيئة ، وأبدى نشاطاً كبيراً يفوق ما أظهره فى المجلس النيابى السابق فى عهد لويس فيليب ، حتى أصبح رئيساً لحزب اليسار الديمقراطى الاشتراكى وخطيبه المصقع فى المجلس ؛ فخطب مرات عديدة فى نواح شتى وفى مواضيع لها أهميتها كموضوع الإسعاف العمومى (٩ يوليه سنة ١٨٤٩) ، ومسألة التدخل الفرنسى فى روما فى مؤتمر الصلح (أغسطس سنة ١٨٤٩) ، ومشاكل التعليم (٥ يناير سنة ١٨٥٠) ، والإصلاح الانتخابى (٢٠ مايو سنة ١٨٥٠) ، والضمان والتمغة وإلغاء قانون النفى مع السجن . وكانت خطبه حادة ، شديدة اللهجة ، فى بلاغة لاذعة أثارت الضجة والمنازعات العنيفة ، وكان أروعها تلك التى ألقاها فى إلغاء قانون النفى مع السجن ، إذ أنها كانت مملوءة بأبلغ العبارات وأسمى مراتب الشعور بالعدالة والتسامح . وقد قامت بينه وبين زملائه القدماء من أعضاء المجلس النيابى السابق مبارزات فى الخطابة ، فكانوا يهاجمونه

١١٢

بشدّة ويتهمونه بتقلبه وتحوّله من الملكية إلى الجمهورية ثم إلى الاشتراكية ، وكثيراً ما كانوا يقاطعونه حين يتكلم مرددين فقرات من أشعاره تناقض ما يقول .

انقلاب ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ ونفى هوجو

كانت صلة هوجو برئيس الجمهورية تزداد تصدعاً واضطراباً . فالأول ناقم من الثانى لحرمانه منصب وزير كما كان يطمع فيه ، والثانى يسعى إلى أن يصير إمبراطوراً ويرى فى الأول عدوًّا له ، ومن هنا ساءت العلاقات بينهما . ومما زادها سوءاً أن عمل هوجو على مقاومة الرئيس فى مشروعه بكل ما أوتى من عزيمة وبما لديه من فصاحة داخل المجلس وخارجه ، مهاجماً فكرة إعادة الإمبراطورية ، متمسكاً بالجمهورية ، حتى إنه كثيراً ما كان يهاجم لويس بونابرت فى شخصه ، ولم يكن يخشى أن يهجوه هجاء مرًّا أمام المجلس أو يهزأ به ، ويلقبه بالهارب وأحياناً « بنابليون الصغير » ، أى الوضيع ، و « بأوجستول » أى « أوجست » الصغير ، نسبة إلى أوجست إمبراطور الرومان . وكان يقضى الساعات الطوال فى الخطاب الواحد ، بل كثيراً ما احتل وحده المنبر جلسات متتالية ، محاولاً بكل قواه إثارة الرأى العام وإثارة المجلس بصفة خاصة ضد رئيس الجمهورية وضد آرائه ومشاريعه . حتى لقد كاد مرة يسقط مغشيًّا

عليه فى إحدى خطبه – فى نوفمبر سنة ١٨٥١ – من شدة التعب إذ استمر يتكلم زهاء خمس ساعات متتاليات .

أما لويس بونابرت فكان قد أعدّ العدة لقلب نظام الحكم الجمهورى والرجوع بفرنسا إلى الحكم الإمبراطورى ، وذلك بمساعدة أعوانه من أعضاء المجلس ومن خارجه . وتمّ الانقلاب فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ ، وأصبحت فرنسا إمبراطورية ، ووضع اسم هوجو فى أول قائمة المحكوم عليهم بالنفى . فلم ييأس هوجو وقرر المقاومة والنضال ، ومعه نفر من أعضاء المجلس كانوا يناصرونه ؛ فقاموا بحملة شديدة محاولين إحداث ثورة لإعادة الجمهورية ، وألفوا من بينهم جمعية فى باريس تكفلت بلصق إعلانات ضخمة على الجدران ، تحث على عدم الاعتراف بحكومة لويس بونابرت وبحقوقه ، بل عدته خائناً خارجاً على القانون . أما الإمبراطور فقد أصدر منشوراً عدّ فيه هوجو ثائراً ، ووضع ثمناً لرأسه ، وأمر بالقبض عليه وعلى جميع أعضاء لجنة المقاومة إذ كانوا قد نجحوا فى إثارة فريق من أهل باريس ، ونصبوا المتاريس فى بعض أحياء المدينة : فى « الحال » وفى شوارع « مونتر جوى » و « موكونسى » و « تكتون » وغيرها . ولما شعر هوجو بخطورة الموقف لم يجد بدّاً من ترك منزله ، إذ لم

يأمن على نفسه فيه ، وفضّل قضاء نهاره وليله بين المتاريس ، مجازفاً بحياته ، وفى بعض مخابئ أخرى متفرقة . وبالرغم من كل ما بذلته لجنة المقاومة لم تقوَ كما كانت تتوقع على النهوض بالثورة والقضاء على الإمبراطورية ، نظراً لشدة عزم الإمبراطور وحشده قواه لإخماد الثورة فى مهدها .

فلما رأى هوجو أن الحركة أوشكت على الفشل ، وأن المتاريس أخذت تسقط الواحد تلو الآخر ، وعلم أنه مقضى عليه ، هرب من باريس والتجأ إلى بلجيكا فبلغ بروكسيل يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٨٥١ ، واستأجر شقة بشارع « الميدان الكبير » ، تاركاً زوجته بباريس . فأخذت تبيع بالمزاد العلنى أثاث المنزل وجميع تحفه ومخلفاته الثمينة . أما هو فانكب على كتابة روايته التاريخية « قصة جريمة » ، وهى قصة الانقلاب الحكومى الذى قام به نابليون الثالث أى لويس بونابرت ، وهى قصة مسهبة معقدة ، لعب غضب الشاعر فيها دوراً هاماً فجاءت بعيدة عن الصحة فى كثير من حوادثها ، كما ملأها بهجو الإمبراطور وسبه ، ولم ينشرها إلا عام ١٨٧٧ ، أى بعد خمسة وعشرين عاماً من تأليفها . ثم كتب بعدها فى مايو سنة ١٨٥٢ هجاءه المرّ اللاذع « نابليون الصغير » الذى أحدث

ضجة فى بلجيكا .

وقد هاجر معه من فرنسا عدد كبير من الثوار والنواب الذين احتوت أسماءهم تلك القائمة السوداء ؛ فأخذوا بدورهم يحملون فى الصحف البلجيكية حملاتهم الشديدة اللاذعة على الإمبراطور وحكومته حتى استاء الشعب البلجيكى وحمل حكومته على أن تسن قانوناً يحاكم بموجبه من يتعمد السب فى رؤساء الدول الأجنبية . فلم ينتظر هوجو حتى يصدر هذا القانون ، بل غادر بلجيكا فى أول أغسطس سنة ١٨٥٣ إلى لندن ؛ فلم يرقه كثرة ضبابها ولا شدة ظلامها ، فغادرها إلى جزر بحر المانش واستقر « بجزيرة چرسى » القريبة من ساحل نورمانديا ، وقد كانت من قبل منفى لشاتوبريان مدة من الزمن .

هوجو فى جزيرة جرسى

أرسل الشاعر المنفى فى طلب زوجته وأولاده بعد أن استأجر فى هذه الجزيرة منزلاً يسمى « مارين تراس » أقام فيه ثلاث سنوات من مدة نفيه التى دامت تسع عشرة سنة .

لم يكد هوجو يستقر فى جرسى حتى لحقت به صديقته چوليت دروويه واتخذت لها مسكناً بالقرب منه ، فكان هوجو يتردد إليه كل مساء ، فيكتب فى غرفتها أو يجتمع فيه بباقى المهاجرين الفرنسيين .

وبعد مدة ألِف الحياة فى تلك الجزيرة الصغيرة ، ففارقه بعض وجومه ، وأخذ رويداً رويداً يستمتع بمناظرها . وكثيراً ما كان يخرج بصحبة چوليت للتنزه فى الحقول أو على شاطئ المحيط ، فيملأ عينيه من منظره الرهيب ، فتنشط أعصابه وأفكاره إلى العمل ، وكأن أمواج المحيط الهائجة تشاركه فى غضبه وتوحى إليه بأشعاره العنيفة الصاخبة ضد المغتصب الذى تسبب فى نفيه .

وفى هذه الجزيزة نظم شاعرنا مجموعة قصائده الهجائية

« العقوبات » ونشرها فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٥٣ . وهذه القصائد كلها أتون غضب ثائر على المغتصب الذى يحكم فرنسا ، وقد ملأها ذمًّا وهجاء لاذعاً لم يسمع له مثيل . فمن السباب إلى اللعن ومن التهكم إلى السخرية وكأن كلّ بيت من السبعة الآلاف التى تتكون منها المجموعة سوط يجلد به ظهر المغتصب . ولم يكتف هوجو بهجو الإمبراطور وحده بل هجا أعوانه ومن ساعدوه على قلب الحكم ، فأخذ كل نصيبه من سياط هوجو ، ومنهم « مورنى » و « ڤايان » و « دوبين » و « سانت أرنو » وغيرهم .

وغالى هوجو فى هجائه وسبابه حتى أوشك أن يشوّه مجموعته لولا قوة إلهامه وصدق عاطفته وشدة حماسته وبلاغة أسلوبه وجمال شعره . فمن قصيدته الأولى « الظلام » ، التى يسرد فيها الانقلاب الذى أحدثه « المجرم » ، إلى آخر قصائده فى المجموعة « النور » ، التى تملؤها الثقة والإيمان والأمل بالمستقبل ، لم يخل بيت واحد من تلك اللهجة العنيفة مع تنوع الأساليب .

أما أجمل قصيدة فى المجموعة وأروعها وأطولها فهى بلا ريب قصيدة « الاستغفار » (L'Expiation) ، وهى أبدع قصيدة كتبها عن نابليون الأول ، نقم فيها منه قلبه الحكم الجمهورى بعد الثورة ، وإنشاءه الإمبراطورية ، وكيف عوقب

على جريمته . ولكن أكانت عقوبته انسحابه من روسيا ، أم كانت انهزامه في واترلو ، أم نفيه إلى جزيرة القديسة هيلانة ؟ كلا . إن عقوبتة كانت في الانقلاب الأخير . فلقد صحا في قبره بالأنفاليد ، ورأى همجياً يسير على رأس عصابة من الرعاع ويلوث اسمه وشرفه ومجده ، ويسمى نابليون الثالث : هذه عقوبته . وهذا من أروع ما يجود به خيال شاعر عبقري .

ومن أعظم قصائده حماسة وأبرعها لهجة تلك التي اختتم بها الباب السابع والأخير، وعنوانها «الكلمات الأخيرة»، وقد جاء فيها :

« وما دام يتلثلث في الأرض ويسحق تحت فكيه
القسم والفضيلة وشرف التقوى ،
وهو نشوان وقد ألقى في شناعته عاره على مجدنا ،
وما دمنا نشاهد تلك المساخر تحت قبة السماء ،

ولو نمت دناءة الشعب نمواً
أصبح يُعْبَدَ معه الخادع الممقوت ،
ولو قالت إنجلترا وأمريكا للمنفى :
ابتعد عنا فإننا خائفون !

فأنا لن أنحنى ! بل أقبلكما فى منفاى القاسى ،
دون أن أبثّ الشكوى ،
بقلب ملؤه الحزن وبعزيمة مشبعة باحتقار القطيع ،
يا أيها الوطن معبدى ، ويا أيتها الحرية علمى !

. . . .

وأرضى بالنفى المضنى وإن لم يكن له حد ولا نهاية
دون أن أحاول أن أعرف
هل خضع مَن كنا نعهد فيه العزم والشجاعة
أو هل ذهب كثير ممن كان يجب بقاؤهم .
فلو لم يبق سوى ألف فأنا فى جملتهم !
ولو بقى مائة لظللت أتحدى المغتصب ؛
ولو بقى عشرة لكنت العاشر ،
ولو لم يبق سوى فرد واحد لكنت أنا هذا الفرد . »

وقد حقق ذلك وتمسك بكلامه وأبى أن يتمتع بجميع مراسيم العفو التام التى أصدرها الإمبراطور ، ولم يعد إلى فرنسا إلا بعد سقوط نابليون الثالث ، أى فى سنة ١٨٧٠ .

ومن أعجب ما حدث لهوجو فى جرسى أن آمن بمناجاة

الأرواح وباستحضارها ، فانكبّ على هذا مدة طويلة كادت تودى فى النهاية بأعصابه . ففى إحدى زيارات مدام « دى چيراردان » لجرسى ، ثم لهوجو فى منزله ، دار النقاش حول هذا الموضوع ، وكانت مدام دى چيراردان شديدة الإيمان به . ولكن هوجو لم يقنع أول الأمر ، إلا أنه سمح أخيراً أن تقوم السيدة بإجراء تجربة أمامه . فأحضرت منضدة مستديرة وجلست إزاءها ، وبجوارها شارل وأديل هوجو ، ووضعوا أيديهم عليها وأخذوا يناجون روح ليوپولدين ابنة هوجو التى غرقت منذ أكثر من عشر سنوات. فتخلخلت المنضدة واهتزت ، وحضرت روح ليوپولدين تحدثهم بتفاصيل حادثتها التى قضت فيها نحبها . وكانت التفاصيل دقيقة بحيث إنها أبكتهم جميعاً ، ومن هنا آمن هوجو . وعلى يدى مدام دى چيراردان تعلم طريقة استحضار الأرواح ، فاستحضر كثيراً منها أمثال روح « ڤولتير » و « دانت » و « راسين » و « شكسبير » و « أفلاطون » و « إيشيل » و « أندرية شانييه » وأرواح الأسد والضفادع والمحيط وملاك النور وظلام القبر وغيرها . فكانت هذه الأرواح تتحدث بالشعر ؛ ومن عجب أن أشعارها كانت تشبه أشعار هوجو تماماً ، وأن نظرياتها الفلسفية هى نظرياته بعينها . ولم يكن

يدهش لزيارة كل هذه الأرواح له ؛ أليس هو الوحيد الذى يعرف أسرار الطبيعة ويدرك خفايا الكون كما يعتقد ؟

ومما يدهشنا أن هوجو استغرق فى عمله مؤمناً بصحته ، فى حين أن ذلك لم يكن فى الواقع إلا عملية نقل الأفكار وتبادلها.. فوسيطه كان ولده شارل ، وكان وسيطاً حساساً ، يتلقى أفكار والده بسهولة عظيمة ويعبر عنها تحت تأثيره شعراً ، فيراها الوالد مطابقة لما كان يتوقع ، وهذا ما خدعه ، ولا عجب فقد كانت أعصابه المضطربة بعد الإجهاد الأخير سبباً قويًا فى سرعة تصديقه وإيمانه بهذه العملية . وكان أثرها فيه وفى ولده سيئاً للغاية ، فتملكتهما الأوهام السمعية والنظرية كرؤية الأشباح ليلاً أو سماع طوافها وحديثها . وظهرت هذه الاضطرابات فى القصائد التى كتبها فى ذلك الوقت ونشرها فيما بعد فى مجموعة « التأملات » .

وفى غضون ذلك كان المنفيون المقيمون بالجزيرة قد أسسوا جريدة سياسية دعوها « الإنسان » (L'Homme) ، اشترك هوجو فى تحريرها بمقالاته وحملاته العدائية على الإمبراطور ، الذى أبرم معاهدة مع إنجلترا لم ترق فى عين هوجو . كما أن بعض زملائه هجوا ملكة إنجلترا نفسها لأنها استقبلت إمبراطور

فرنسا ، غير الشرعى فى نظرهم ، فى قصر « وندسور » ، وردت له الزيارة فى فرنسا ومنحته ثقتها . وكان الهجاء لذاعاً ، أثار اشمئزاز أهالى الجزيرة حتى أوشكوا أن يفتكوا بكاتبى المقالة وطردوهم فوراً من الجزيرة . فاحتج هوجو على ذلك . فكان نصيبه أن أمر بمغادرة الجزيرة فى مدى ثمانية أيام . فأبحر إلى جزيرة « جرنسى » فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٥٥ .

فى جزيرة جرنسى

لم يكن هوجو الذى نزل من السفينة بصحبة زوجته وأولاده وچوليت درورويه ذلك الرجل الأنيق الجميل الذى كان يحادث الملك لويس فيليب فى قصر « التويليرى » منذ ثمانى سنوات . فقد ذهب ما كان فيه من جمال وأناقة ، وحلّ محله ذلك الوجه الحليق المجعّد ، وتلك الجبهة العريضة المقطبة لما يساوره من الاضطراب النفسى الشديد ؛ فقلّما تمرّ على أطراف شفتيه ابتسامة مرّة تنمّ عن غضب لم يتلاشى ؛ إلاّ عينيه فإنهما لا تزالان برّاقتين ، تشعان ذكاء وتلمعان عزيمة وإرادة جبارة .

نزل هوجو إلى الجزيرة فى مدينة « سان بيير بورت » ، ولم يلبث أن استأجر شقة متواضعة ، مكث فيها سنة ، فنشر خلالها مجموعة قصائده الذائعة الصيت « التأملات » وقد تحدثنا عن بعض قصائدها عند ما تحدثنا عن وفاة ابنته غرقاً . وهذه المجموعة من أجمل مجموعاته الغنائية وأقواها شعوراً وإلهاماً . وهى جزءان تتخللهما القصائد التى نظمها

فى رثاء ابنته . وفى الجزء الأول ، وعنوانه « الماضى » ، ذكريات صباه وشبابه وغرامه ؛ وفى الجزء الثانى ، وعنوانه « الحاضر » ، قصائد فلسفية ونفسانية كتبها متأثراً بطرق استحضار الأرواح . أما القصائد الخاصة بابنته فقد أودعها كل مكنونات قلبه وحبّه لها وعظيم تأثّره وحزنه الشديد ، وأسماها باللغة اللاتينية « Pauca Maeae » أى « القليل الباقى لى » ، ووصف فيها حياة ابنته من مهدها إلى لحدها ، ثم شرح ما أحسّ به من اللوعة على فقدها ، كما فى الأبيات الآتية :

« آه لقد كنت مختل الشعور فى اللحظة الأولى ،
واحسرتاه ! لقد بكيت ثلاثة أيام بكاء مرًّا .
أنتم يا أيها الذين انتزع الله منكم آمالكم العزيزة ،
أيها الآباء والأمهات الذين قاسيتم آلامى ،
أشعرتم بكل ما شعرت به ؟
لقد أردت أن أحطم رأسى على حجارة الطريق ؛
ثم ثرت ، وكان أحياناً هياجى فظيعاً ،
كنت أحدق بنظرى إلى هذا الشىء الفظيع
ولم أصدقه ، وقلت صائحاً : كلا !
— أيسمح الله بهذه الكوارث التى لا نجد لها اسماً

والتى تغرس اليأس فى القلوب ؟ —
وكل ذلك كان يبدو لى حلماً مفزعاً ،
وأنها لم تستطع أن تهجرنى كما فعلت ،
بل كنت أسمعها تضحك فى الغرفة المجاورة ،
وأنه من المحال أن تكون المنية قد أدركتها ،
وأنى سأراها تدخل من هذا الباب !

آه ! كم من مرّة قلت : الصمت! الصمت ! لقد تكلّمت
أصغ ! ها هى ذى حركة يدها على المفتاح !
انتظر ، إنها قادمة ! دعنى أستمع !
إنها بلا ريب فى مكان ما بالمنزل . »

وبينما كان قلبه يتفتت ، كان عقله يحاول أن يفهم أسباب الحوادث ، و « لماذا يجب أن تفارقنا المخلوقات الفاتنة » ، وكيف تكون الحكمة الإلهية على تلك القسوة ؛ كما حاول إدراك أسرار الكون والأسباب التى تدبّره ، فكان يرتجف مما تصوره له مخيّلته من خفايا « فى جوف هذه السماء الجامدة الراقدة » . ويشعر أنه مخلوق ضعيف شريد وسط هذا الكون الرهيب ، وأنه ألعوبة صغيرة فى أيدى قوات الشر والخير التى تتنازع العالم .

فيشعر أحياناً بيأس عميق إذ يعتقد أن الإنسان مخلوق محكوم عليه بالألم ، وأن جهوده مهما عظمت لا فائدة منها ، فمن يوم خلقه الله لا بد له أن يقاوم ويجاهد ويتعذب ، إلى أن ينتهى أخيراً إلى « صمت الموت الواسع العميق » .

وأحياناً يثوب إلى رشده من هذه الخواطر الكئيبة ، فيقبل إرادة الله لكن دون خضوع ، ويكفّ عن التجديف ولكن دون أن يكف عن البكاء ، ويسجد لربّه ، مقدماً له «حطام قلبه المفتّت » ، دون أن يفهم إرادته ، فيحاول أن يعتقد أن الموت حسن يفتح أبواب السماء ، مقر السعادة والنور ، ويتصوّر أن للموتى « خلوداً مشرقاً سعيداً » ؛ إلاّ أنه لا يستطيع أن يتخلص من فكرة الأموات الراقدين فى قبورهم سجناء ، وينتفض لظلمة القبور حيث الأعزّاء جائعون باردون ، وحيث « يسمعون أصواتنا كأنهم فى حلم » .

هذا ما نجده فى الجزء الثانى من « التأملات » ، وهو يدلّنا دلالة واضحة على نفسيّة هوجو وعبقريته بعد غرق ابنته وبعد نفيه .

نالت هذه المجموعة نجاحاً عظيماً وشهرة لا مثيل لها ، وجاءته بربح جزيل يعدّ ثروة ، أتاحت له شراء منزل كبير فى

المدينة ، فى حى مرتفع يشرف على البحر ، وكان هذا المنزل يدعى « هوتفيل هوس » ، تحيط به حديقة صغيرة مكتظة بأشجار الكافور والبلوط والتين والأزهار المتنوعة . وقد تفنّن هوجو فى تأثيثه ، وجمع فيه كثيراً من التحف النادرة . فى الطبقة الأولى الأرضية غرفة واسعة ذات موقد عال جعلها غرفة الطعام وملأها خزائن منقوشة رسم هو نقوشها ، كما وضع فيها تحفة تثير الدهشة ، وهى كرسى صنعه بيده وزخرفه على الطرازين القوطى والبيزنطى ، ونقش على إحدى ذراعيه كلمة « چورج ــ ١٥٣٥ » يعنى قائد « الدوق رنيه الثانى دى لورين » الذى كان يعدّه شاعرنا جدّه الأكبر ، ونقش على الذراع الثانية اسم والده « چوزيف ليوبول سيچسير هوجو ــ ١٨٢٨ » ، ونقش على ظهر الكرسى ترساً فيه شعاره وهذه العبارة باللاتينية « أناهوجو ــ أنا رماد ورفات ــ الغائبون حاضرون » . ثم وصل بين الذراعين بسلسلة من الحديد تمنع من الجلوس عليه وكان هوجو يقص على ذويه ومعارفه أنه ما صنع هذا الكرسى إلاّ لتجلس عليه أرواح أسلافه الغائبين ، ووصل به الحال أخيراً أن اعتقد هو نفسه أنها تتناوب الجلوس عليه . وكان يمنع أى شخص من الاقتراب منه حتى لا يدنّسه .

وجعل حجرتى النوم والاستقبال فى الدور الأول ، وكانت حجرة النوم مكسوة بخشب البلوط المنقوش ، وبها أعمدة حلزونية من الخشب نفسه ، وباب ضخم من صنع النقاشين الفلندريين القدماء ، ووضع فيها سرير كبير محاط بحواجز من الخشب ، وثريا كبيرة مكوّنة من أربعين سراجاً ؛ وسماها غرفة « غاريبالدى » ، وكانت أشبه بمتحف خشبى . أما غرفة الاستقبال فجعلها على الطراز اليابانى ، ووضع فيها كثيراً من المرائى ، وأربعة تماثيل ذهبية كبيرة تحمل روقاً مرتفعاً ، وكسا جدرانها وسقفها بالحرير اللامع الأزرق المذهّب . وكان يستقبل فيها ضيوفه كأنه ملك فى قصره .

أما فى الطبقة العليا فقد وضع مكتبه فى شرفة واسعة ، ذات نوافذ زجاجية ، تطل على البحر من كل الجهات . وفى هذه الشرفة المعروفة باسم « لوك أوْت » (Look-out) كتب هوجو أغلب قصائد الجزء الأول من « أساطير القرون » وقصته الشهيرة « البؤساء » والمجموعة الشعرية المسماة « أغانى الشوارع والغابات » وقصة « عمال البحار » وقصة « الرجل الضاحك » وقصة « ثلاثة وتسعين » وغير ذلك .

أما نظام حياته فى هذا المنزل . وهو أول منزل ملكه ،

فقد كان نظاماً عملياً محضاً ، إذ كان يستيقظ فى السادسة صباحاً ، وأحياناً قبل ذلك بساعتين ، فيستحم بالماء المعرض طول الليل للبرد القارس وللرياح الشمالية فى حوض فى أعلى المنزل ، فينعشه ذلك الحمام البارد وينبه أعصابه ويقوى عضلاته المتينة . ثم يقصد شرفته الزجاجية المرتفعة ، وكأنها منارة يشرف منها على الجزر البعيدة وعلى شاطىء فرنسا « المغرى » ، ويمضى فى الكتابة بعد أن يكون قد التهم خمس أو ست برتقالات بقشورها . وكان يكتب واقفاً أمام لوحة من الخشب مثبتة فى الحواجز الزجاجية . وبعد أن يقضى أربع ساعات فى العمل يقوم بتناول طعام الفطور ، ويستأنف عمله حتى موعد الغداء . وبعد حمام فى البحر يعود إلى عمله من جديد بقوة لم يعرف لها مثيل فى عالم الأدب فى كل الأجيال ، قوة لا تعرف الملل ولا الكلل ، ولا يوهنها برد الشتاء ولا حر الصيف .

أما چوليت ، وقد أعجزتها الهموم والأحزان والقلق والحب ، فهرمت قبل أوانها ، فكانت تسكن منزلاً قريباً من هوتڤيل هوس وتشرف عليه ، ومنه كانت تراقب حبيبها فى شرفته أمام لوحته ، أو تراه يغدو ويروح كأنه الإله الذى تعبده . وفى أوقات فراغها كانت تفلح أرض حديقتها وتجمع الورد وتقطر

ماءه ليغسل هوجو به عينيه كل مساء ، أو تصنع له الفطائر تبعثها إليه فى هوتفيل هوس . وكانت تقابله بعد الفطور لتتنزه معه قليلاً على الشاطئ ، ثم يعودان هو إلى عمله وهى إلى منزلها حيث تنسخ له الصفحات التى يكون قد كتبها فى الصباح ، وتنتظره إلى أن يعود إليها ومعه أولاده أحياناً ، وكثيراً ما جلس معهم على مائدتها لتناول الطعام .

وعلى هذا المنوال قضى هوجو زهاء خمسة عشر عاماً تخللتها الحوادث أليمها وسعيدها . فمن الحوادث الأليمة أن مرض الشاعر فى أغسطس سنة ١٨٥٨ بالتهاب جلدى وظهرت على جسده البثور ، مما دعاه إلى التخلى عن عمله ثلاثة أشهر . ومنها ما كان من ابنته « أديل » الجميلة التى أحبت ضابطاً إنجليزياً وآثرت الهرب معه إلى كندا فى سنة ١٨٦٣ على البقاء فى هذه الجزيرة الخالية من أسباب التسلية والرفاهية مما أثر فى صحتها فأذبلها وأهزلها ؛ وما كان من نذالة هذا الضابط وهجره إياها وتركها وحيدة فى هذه البلاد النائية ، مما أفقدها عقلها . فذهب عندها أخوها « فرنسوا » وأحضرها ، وعاشت التعسة فاقدة اللب ، كعمتها « أوجين » إلى أن ماتت بهذه الحال فى التسعين من عمرها تقريباً عام ١٩١٥ .

ومن هذه الحوادث المؤلمة مرض مدام هوجو وذهابها إلى بلجيكا حيث عاشت مع ابنها « شارل » ، الذى تزوّج هناك ، فلم تلبث أن فقدت بصرها وماتت بعد قليل بين زراعى زوجها الذى هرع لرؤيتها عام ١٨٦٨ .

أما عن الحوادث السعيدة فأهمها نشر مجموعاته الشعرية ورواياته وبعض أسفار أتيحت له إلى بلجيكا وهولندا وإنجلترا .

« أساطير القرون »

« وحينما أكتب وأنا أفكر فى شرفتى
أرى الأمواج تولد وتموت ثم تولد لتموت
وأرى الطيور البيض تسبح فى الهواء
والسفن تنشر أشرعتها للريح
كأنها عن بعد وجوه كبيرة
تتنزه على البحر . »

بهذه الأبيات وصف هوجو المنظر الذى كان يراه دائماً من شرفته الزجاجية فى هوتڤيل هوس ، وكان خير ملهم له فى نظم قصائد « أساطير القرون » (La Légende des Siècles) وقد نشرت أول مجموعة منها — وهى ثلاث — عام ١٨٥٩ . وهذه المجموعات من أضخم وأفخم مجموعاته ، إذ أنها ليست بقصائد غنائية ، بل هى ملاحم تسرد سير الأبطال وبطولتهم ، قد بعث بها ما اندثر من عصور الإنسانية الأولى ، معتمداً على روايات التاريخ الخرافية والأحاديث والقصص . فهو يطوف

بالقارئ خلال العصور والدهور من بدء الخليقة إلى أيامنا هذه يصف الأرض فى العصور الأولى يوم خلقها الله ، مبتسمة سعيدة ، تخرج من أحشائها ما أودعها الله للبشر من أزهار وفاكهة . ثم ينتقل به إلى التاريخ المقدس من حوّاء إلى المسيح ، فيصف خلق المرأة الأولى وجمال بشرتها ورشاقتها ، وصوت الضمير الذى أنب قايين ، وجمال الليل الذى اتصل فيه بوعز وراعوت ، وبعث لعازر من الأموات . ثم ينتقل من خرافات الإغريق وقصص الآلهة والأبطال والملوك وقصور نينوى ، إلى تاريخ القرون الوسطى وسير الأبطال الذين طافوا حول العالم لإصلاح الأخلاق وعقاب المجرمين ، فيروى قصص رولان وشرلمان عائداً من حروبه ومغامراته . ثم يعرج على هذه البلاد التى رآها فى حداثته وزارها فى كبره مع محبوبته چوليت فيصف إسبانيا بجمالها العنيف فى تاريخها القديم أيام حروب رودريج والعرب ، وبروحانية أهلها فى عصر فيليب الثانى وفى عهد محاكم التفتيش ، إسبانيا بلاد الدين وبلاد الشهوة ، اللطيفة القاسية . ثم يتحدث عن الإسلام فى فجره الأول وموت النبى ورؤية عمر . ويسبح بخياله حول الشرق ، فيصور لنا السلطان مراد والأتراك ومحمد الثانى ، ومصر فى عهد المماليك ،

وإيطاليا فى العصور الوسطى تحت نير القياصرة الألمان ، ثم فى عصر النهضة والانبعاث . وينتقل بعد ذلك إلى العصور الحديثة والقرنين السادس عشر والسابع عشر ، فيتحدث عن الشعراء كما يتحدث عن الأبطال ، ويتحدث عن الثورة الفرنسية وعن الإمبراطور نابليون وعن فرنسا فى حالتها الحاضرة وبؤسها وشقاء أهلها . ثم ينتقل إلى المستقبل ويعبر عن آماله فى عالم أهنأ وأرقى من عالمه الحاضر ، تتمتع فيه الأمم بوحدة دائمة وسلام دائم مقيم . ويختتم هذا الطواف بحديثه عن الآخرة وعن يوم الحساب وعن مصير كل إنسان .

هذا مجمل بسيط لهذه المجموعات الثلاث التى تربو على ثلاثين ألف بيت من الشعر ونيف وعن مائتين وخمسين قصيدة ، استطاع الشاعر فيها بقوته الخارقة ومخيلته الفذة أن يصور للقارئ حياة العصور والأجيال متتالية متسلسلة ، وكأنها كلها حقائق طبيعية ، رغم ما فيها من حوادث خارقة للعادة ونوادر عجيبة .

وفى هذه القصائد بجانب هذا التصوير الرائع وهذه القصص العظيمة ، ناحية فلسفية لا تخفى على القارئ ، وقد نوه عنها الشاعر فى مقدمة المجموعة الأولى ، وهى تقدم البشرية رويداً رويداً من أحط درجات التوحش والهمجية إلى أرقى درجات

الخير والسلام والمحبة ، أو على حد تعبيره : تدرّج البشرية من الظلام إلى النور . وقد أراد أن تكون هذه القصائد حكمة وعبرة وإرشاداً وإصلاحاً ، إذ كان يعتقد أن الشاعر إنما هو رائد للفكر البشرى وراع للشعوب ، يتلقى من السماء وحياً وإلهاماً . وقد اعتقد بممارسته مناجاة الأرواح ، كما أسلفنا ، أنها تحثه على عمله العظيم وتوحى إليه رسالته العليا . فكان يهب كل جزء بل كل ذرة من الكون روحاً ، كما كان يسمع ضمير هذا الكون بما احتواه من جماد وأحياء يناجيه بأسرار مفزعة ويسمو نحو الله ليستغرق فيه . فيشعر القارئ من قصيدة إلى أخرى ، خلال الأخطاء والجرائم ، بتسامى الروح العالمية نحو الخير والنور ويرى صراع النفس العنيد للتحرر من قيود المادة التى تثقلها وتسجنها ، ويتبين ، بين حماسة الشاعر المؤمن إيماناً راسخاً بالتقدم والرقى ، الانتصار النهائى للنور على الظلام وللخير على الشر .

« البؤساء »

لم تنقض ثلاثة أشهر على نشر الجزء الأول من « أساطير القرون » حتى نشر هوجو روايته الذائعة الصيت « البؤساء » ؛ وهى أول رواية نثرية كتبها بعد « نوتردام دى باريس » ، وهى تصوير دقيق فاجع لحالة البؤس الاجتماعى فى فرنسا فى القرن التاسع عشر .

كان قد ابتدأ يفكر فى تأليفها عام ١٨٢٣ ، ولم تكن سنه إذ ذاك أكثر من واحد وعشرين عاماً . وفى سنة ١٨٣٠ باحث أحد الناشرين فى موضوعها ، ولكن انشغاله بالمسرح وكتابة مجموعاته الشعرية حالا دون تحقيق هذه الفكرة . وعاد إليها عام١٨٤٥ وكتب منها جزءاً كبيراً وكاد ينتهى منها لولا ثورة١٨٤٨ التى أرغمته على التوقف عن إتمامها مدة طويلة ، إلى أن كان ربيع ١٨٦٠ ، وقد رأى أن نفيه سيطول ، فانكبّ على الكتابة من جديد ، ولكن بروح أخرى ، حيث إن أفكاره قد تغيّرت وتطوّرت تطوراً كبيراً مدة نفيه ، نتيجة تجاربه السياسية والحوادث الاجتماعية التى طرأت على نظام فرنسا .

فبثّ فيها عواطفه الجديدة ، وأحدث تغييراً بيناً فى أوضاعها ، وتوسع فى أبوابها إلى أن أصبحت خمسة أجزاء . وقد كان عنوانها الأول « البؤس » ، فأصبح « البؤساء » .

ومحور هذه الرواية هو « چان ڤلْچان » وتقلبات حياته ، فمن الحياة الشريفة إلى السجن ، ومن الانحطاط الخلقى والاجتماعى إلى الصلاح والاستقامة والبروز مرة أخرى ، يتخلل كل ذلك بدوات من الآلام والتضحيات . وترجمة هذه الرواية ترجمة كاملة لا يتسع لها المقام لتشعب الحوادث ولتعدد الاستعراضات ، ولذلك سنكتفى بتلخيصها فى أضيق حيز ممكن .

چان ڤلْچان عامل شاب فقير شريف ، حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة مدة خمس سنوات لمحاولته سرقة رغيف يسدّ به رمق أولاد أخته الجائعين . ضاقت حياته بالسجن من أول الأمر إذ هى حياة غريبة عليه لقساوتها وجورها ، فحاول الهرب عدة مرات وفى كل مرة كان يقبض عليه ويحاكم بتهمة الهرب ، إلى أن تضاعفت مدة سجنه ، فقضى فيه تسعة عشر عاماً ، انحطّ فيها وفسدت أخلاقه لمشاركته اللصوص والمجرمين . ولما أطلق سراحه منح مائة وتسعة فرنكات ، مكافأة له على عمله طول مدة سجنه ، وشهادة إثبات شخصيته صفراء اللون

تنبئ بأن صاحبها كان يوماً ما ضيفاً على السجون الفرنسية . فأغلقت فى وجهه جميع الأبواب لماضيه السيء . وراقبته الشرطة مراقبة دقيقة . فكاد ييأس من حياته لولا أن قيض له الله الأسقف « ميريال » ، الذى آواه وفتح له أبواب منزله وأطعمه على مائدته بكل حفاوة وإجلال ، كأنه ضيف عظيم . ليرد له شرفه وثقته بنفسه . فكافأه چان ڤلچان بأن سرق منه أوانيه الفضية التى أطعمه فيها . ولما قبض عليه خارج المنزل متلبساً بسرقته أعيد إلى الأسقف ، الذى تظاهر أمام الشرطة بأنه منح چان ڤلچان هذه الأوانى ، وزاد على ذلك بأن أعطاه شمعدانين من الفضة ورجاه أن ينفق ثمنهما فى فعل الخير . فأثر ذلك فى نفس چان ڤلچان المشبعة بالإجرام ، ولم يكن يتصور مثل هذا السمو فى الأخلاق وأن هنالك من يفعل الخير كما رأى فى يومه هذا ؛ وبدأت نفسه ترجع إلى الحقيقة ، التى محتها من مخيلته تسعة عشر عاماً فى السجن ، وهى : وجود الخير فى الحياة .

نجده بعد ذلك بثمانى سنوات فى إحدى مدن فرنسا الشمالية وقد حدث وقت دخوله إليها أن كانت النار مشتعلة فى منزل رئيس شرطتها ، وكان ولداه على وشك الموت حرقاً لو لم يسارع چان ڤلچان إلى إنقاذهما ؛ فشكر له الرئيس ولم يسأله عن إثبات

شخصيته ، وبذا لم يعرف ماضيه فى هذه المدينة . فعاش فيها عيشة شريفة وأسس بها صناعة درت عليه ربحاً كثيراً ، وأصبح ذا ثروة طائلة ، وسمى نفسه مسيو « مادلين » ، وذاع بين سكانها ما اتصف به من كرم وطيبة قلب وإحسان إلى الفقراء والمعوزين فانتخب عمدة للمدينة .

وفى ذات يوم رأى عاهرة تدعى « فانتين » تنشب أظافرها فى وجه شاب قد داعبها مداعبة سخيفة بأن وضع بين كتفيها العاريتين قطعة من الثلج ، فقُبِض عليها وحُكِم عليها بالسجن ستة أشهر . فشق على مسيو مادلين أن تذوق امرأة بريئة عذاب السجن وأمر بالإفراج عنها رغم أنها قد بصقت فى وجهه ؛ ثم طلب إليها أن تسلمه ابنتها « كوزات » ليتبناها ، ووعدها وعوداً صادقة أنه يسهر عليها وعلى تربيتها ، فوافقت المرأة وسلمته الطفلة ودخلت هى المستشفى لتعالج من مرض التدرن الرئوى .

عاش چان ڤلچان بشخصيته الجديدة فى هذه المدينة قرير العين ، بعيداً عن الشك ، إلى أن نقل إليها مفتش للشرطة يدعى « چاڤير » ، وهو مثال للشرطى الحازم ، الذى يخضع للسلطة خضوعاً أعمى ، ويتفانى فى عمله وفى إرضاء ضميره إلى أبعد حدود التفانى . وما إن وقع بصره على مسيو مادلين ، عمدة البلد ،

حتى شك فى أنه قد رأى هذا الوجه قبل ذلك فى السجن حيث كان يشغل وظيفة مفتش ، وأنه يشبه وجه چان ڤلْچان شبهاً تامًّا . وقوى الشك لديه ، فأرسل إلى الإدارة العامة فى باريس يعلمها بأن مسيو مادلين هذا إن هو إلا الشقى چان ڤلْچان ، الذى تبحث عنه الشرطة لاتهامه بسرقة قطعة نقود من طفل صغير بعد مغادرته الأسقف ميريال . فكان ردّ الإدارة أن اتهمته بالجنون . ولكن رغم ذلك لم يتزعزع يقينه ، إلى أن أشيع يوماً ما أن الشرطة فى باريس قبضت على شخص يدعى « شانماتييه » وقد توكد لديها أنه چان ڤلْچان . فانتهى الأمر بچاڤير عند هذا الحد ، واعترف بخطئه ، واعتذر لمسيو مادلين عما خالجه من شك نحوه ، وما قام به من سعى لدى الإدارة العامة بباريس لإدانته .

فلما وصل الخبر إلى مسيو مادلين أن هناك بريئاً سيحاكم محله ، ثارت نفسه ثورة عنيفة . أيترك رجلاً آخر يحاكم ظلماً وعدواناً بينما هو يرتع فى بحبوحة العيش ؟ أم يتقدم مضحياً بسعادته وهناءته وبسعادة « كوزات » لينقذ هذا البرىء ، الذى ربما وضعه الله عمداً فى طريقه ليدفن ماضيه إلى غير رجعة ؟ أخذ مسيو مادلين يفكر طول ليله ويتردد بين الإقدام والإحجام ،

وهو فى أشد عاصفة نفسية عرفها ، يؤنبه ضميره تارة ويحثه شبح الأسقف ميريال إلى الخير تارة أخرى ، حتى استقر به الرأى أخيراً على أن التضحية لا بد منها . فتقدّم إلى المحكمة يوم محاكمة الرجل الآخر ، واعترف بشخصيته ، وكشف القناع عن نفسه وحقيقته . ورغم سمو عمله هذا وعظمه ونبله : ورغم استقامته وبعده عن الجريمة وحياته الشريفة بمآثر البر المملوءة فى العشر السنوات الماضية ، فإن المحكمة لم تر أى اعتبار لكل ذلك ، ولاسيما أن الجريمة المتهم بها تافهة ، فلم تأخذها أية رحمة ولا شفقة ، فحكمت عليه وأعيد إلى السجن مرة أخرى . إلا أن إقامته فيه لم تطل هذه المرة ، إذ سقط بحار مصاب ذات يوم فى البحر ، وكان چان ڤلْچان يعمل وجماعة من المسجونين فى ترميم جسر ، فألقى بنفسه فى الماء وأنقذه ، ثم ألقى بنفسه مرة أخرى فى الماء كمن فقد قواه ، وغاص فيه سابحاً إلى أن وصل إلى مركب كان راسياً بالقرب من الجسر ، واختبأ فيه حتى حلول الظلام وفرّ هارباً . ولما أعيا السجانون طول البحث عنه فى اليم ، أعلنوا غرقه وشادوا ببطولته فى إنقاذ البحار .

فها هو ذا للمرة الثانية حرٌّ فى باريس ، يعيش مختبئاً فى دير للراهبات ، يعمل بستانيًّا فيه باسم « فوشليڤان » ، بعد أن

نجا من چاڤير مرة ثانية وقد أوشك أن يقع فى قبضته . وقد تمكن من إنقاذ الجزء الأكبر من ثروته ، كما خلص الطفلة كوزات من أيدى صاحبى فندق كان قد وكل إليهما العناية بها فكانا من أقسى خلق الله عليها ، وأدخلها الدير لتتلقى علومها . وعاش معها ست سنوات خرج بعدها من الدير واستأجر منزلاً هادئاً عاش فيه معها إلى أن ظهر فى أفقها « ماريوس » ، وهو شاب رقيق جميل ، ابن أحد قواد نابليون ، أحبها وبادلته حباً بحب رغم فقره ؛ ولما شبت فتنة يونيه ١٨٣٢ ، وأقيمت المتاريس ودار القتال بين الثوار ورجال الحكومة فى المدينة ، اشترك فيها ماريوس. فعند ما علم چان ڤلچان بوجوده مع الثوار خلف المتاريس خشى عليه من عواقبها ، فسعى إليه . وإذ به يعثر على چاڤير وقد قبض عليه الثوار ، لوجوده متخفياً بينهم ، وحكموا عليه بالإعدام فوراً لتجسسه عليهم . فتقدم منهم طالباً أن يتولى هو إعدامه ، وأخذه وسار به إلى أن وصل إلى طريق ضيق معتم فبدلا من أن ينفذ فيه حكم الإعدام أطلق سراحه . وعاد إلى المتاريس ، فإذا بماريوس قد جرح ، فحمله وسار به داخل قنوات المجارى تحت الأرض مسافة طويلة إلى أن خرج فى حى بعيد عن منطقة القتال . فوجد چاڤير أمامه بزيه

العسكرى ؛ ولما رآه چاڤير أراد أن يقبض عليه باعتباره مجرماً هارباً؛ ولكنه وجد ذلك نكراناً للجميل وقد أنقذه چان ڤالْچان من الموت ، فتركه ، وضميره يؤنبه لمخالفته واجبه كشرطى ، وفضل الانتحار جزاء قيامه بعمل مخالف للقوانين التى تعوّد أن يطيعها طاعة عمياء ، فألقى بنفسه فى نهر السين .

أما ماريوس فقد تزوج من كوزات ، وعاش معها سعيداً وترك لها چان ڤلْچان كل ثروته بعد موته .

هذا التلخيص الضئيل لا يؤدى إلاّ فكرة يسيرة عن هذه الرواية الكبيرة ، التى تقع فى نحو ألفى صفحة ، وهى رواية خيالية تاريخية فلسفية اجتماعية غرامية ، تتخللها حوادث متباينة وتحاليل متشعبة متنوعة ، مبنية على فكرة وجوب القيام بإصلاحات اجتماعية واسعة ، أهمها تعليم الشعب أجمعه ، ورفع مستوى حياته ، وحماية الضعفاء حماية مجدية . وقد عبر الكاتب عن هذه الفكرة فى مقدمة قصته قائلا : « إذا لم تحلّ المسائل الثلاث الجوهرية فى هذا القرن ، وهى إذلال الرجل بالفقر ، وسقوط المرأة بسبب الجوع ، وانحطاط الطفل بالجهل ، فسيبقى البؤس ، وستكون القوانين مسببة للهلاك الاجتماعى » .

وقد نالت قصته هذه من النجاح والشهرة ما نالته قصته

« نوتردام دى باريس » . ولم يكف هوجو عن كتابة القصص مدة نفيه ، وهو كالعامل الذى يبدأ عمله فى الصباح الباكر وينتهى منه بانتهاء اليوم . فكان يكتب طول النهار على لوحته الخشبية فى شرفته الزجاجية المطلة على المحيط الواسع ، يستنشق هواءه المنعش فيبعث فيه نشوة العمل ، وتمتلئ نفسه رغبة فى الإنتاج المستمر . فلا عجب أن أوحت إليه رؤيته لهذا المحيط وتلك الآفاق المتسعة بموضوع قصته « عمال البحار» Les travailleurs de la Mer التى نشرت عام ١٨٦٦ . وهى قصة عن تلك البحار المترامية ، بصخورها البارزة ، وأغوارها العميقة ، وأمواجها المتلاطمة ، وتياراتها وهدوئها وعواصفها . وهى أيضاً رمز لذلك المجهود المضنى الذى يبذله المرء للتغلب على ما لا مهرب منه من عوارض الطبيعة التى يلاقيها فى البحار ، يتخللها وصف رقيق لعاطفة البحار الجلد وغرامه .

وقد أعقب قصته هذه بقصة « الرجل الضاحك » التى نشرها عام ١٨٦٩ ، وجمع فيها كثيراً من الشذوذ والتناقض ؛ فجمع بين بطل القصة ، وهو رجل شقت شفتاه فى صغره حتى أذنيه ، فبدا كأنه يضحك دائماً ، وبين فتاة شابة رقيقة الطباع ولكنها عمياء .

ولم يكتف هوجو بنظم القصائد وتأليف القصص ، بل تعدّاها إلى الكتابة فى التراجم والنقد الأدبى . فقد طلب إليه ابنه « فرانسوا » أن يكتب له مقدمة صغيرة لمسرحيات شكسبير التى ترجمها ، فلم يرض بكتابة بعض صفحات ، بل وضع كتاباً ضخماً فى حوالى أربعمائة صفحة عن شكسبير وعن مؤلفاته وبحوثه وحياته ، وعن غيره من كبار كتاب الأدب .

ونشر حينئذ مجموعة غنائية مكوّنة من قصائد قصيرة تختلف اختلافاً بيناً عن كلّ ما كتبه من قبل ، إذ أنها كانت على النقيض ممتلئة رقة وعذوبة ، بعيدة عن الشدّة والقسوة التى اعتادهما فى كتاباته الأخيرة ، مما لم يكن منتظراً منه ، وسماها « أغانى الشوارع والغابات » .

على قمة المجد

رفعت هوجو مؤلفاته إلى قمة المجد وجعلته فى طليعة أدباء فرنسا وكتابها وأدباء العالم أجمع . وكان الشعراء يعدونه رائدهم وأستاذهم ، ويتهافتون تهافت باقى الشعب على قراءة مؤلفاته من أى نوع كانت . فاشتهر شهرة لا مثيل لها ، وذاع صيته فى أرجاء العالم ، ونال من التمجيد فى حياته ما لم ينله أديب آخر حتى بعد وفاته . فأوربا بأسرها تعدّه عبقرية عالمية ومن طراز أولئك الذين تحدث عنهم فى دراسته لشكسبير ، ناسياً نفسه ، فكان القراء ينوبون عنه فى إضافة اسمه إلى تلك السلسلة ، سلسلة النوابغ العالميين . وقد توّجه النفى بإكليل من المجد والفخار ، ورفع من قدره فأصبح بطلاً من أبطال السياسة ، إذ أن سيطرته لم تقتصر على الناحية الأدبية فحسب ، بل تعدتها إلى الناحيتين السياسية والخلقية ، وقد أصبح مثالاً للرجل السياسى العظيم ، ورمزاً للحرية والإصلاح الاجتماعى والتقدم والرقى والثورة على الطغيان .

كانت كلمته موضع التقدير ، مسموعة فى كثير من الأحيان . وقد بدأ يظهر عام ١٨٥٩ نشاطاً سياسيًّا عالميًّا ،

ويبذل نصائحه ووصاياه للأمم والشعوب . فكتب يحرّض الإيطاليين على توحيد صفوفهم وعلى الثورة لنيل الحرية . وأرسل إلى چنيف بمقالات طويلة يحثّ فيها على إلغاء عقوبة الإعدام ، وإلى روسيا يأمرها بالاحتفاظ ببولندا . وناشد الولايات المتحدة أن تعفو عن « چون براون » ، كما حرّض المكسيك على الصمود فى حربها ضد نابليون الثالث إلى النهاية ، وعند ما أصبح « چياريز » رئيساً للجمهورية أرسل إليه ينصحه بإيثار الرحمة والشفقة ويملى عليه واجباته . وشجع الجمهوريين الإسبانيين ، واحتجّ بشدّة على مذبحة « كوبا » ، ولام جميع ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها لتخليهم عن مساعدة « كريت » كما وجه نظر إنجلترا إلى سوء معاملتها إيرلندا ، ونصحها بتوخى الحق ومراعاته ، وما عدا ذلك فكثير ، مما أعلى صيته وسمعته فى عالم السياسة الدولى ، هذا ولم يترك أى ظاهرة فكرية دون أن يدلى برأيه فيها .

وقد أنعم عليه حاكم فلورنسا بالوسام التذكارى المئوى لدانت عام ١٨٦٥ ، وأرسل إليه رئيس وزارة البرتغال يبلغه رسمياً كأنه يبلغ دولة عظيمة ، إلغاء عقوبة الإعدام فى بلاده . وكثيراً ما كان يدعى إلى المؤتمرات فى الخارج أو ينتخب لرياسة بعضها ،

كما حدث فى مؤتمر الصلح الذى أقيم بلوزان ، وألقى فيه خطابه الرائع أمام « مواطنى الولايات المتحدة الأوربية » ، كما وضع برنامجاً كاملاً شاملاً للإصلاحات الاجتماعية . وعلى الجملة فلم يدع مجالاً للنشاط الفكرى أو الأدبى أو الاجتماعى أو السياسى إلاّ طرقه . فكان موضع التقدير والتعظيم والإجلال ، حتى فاقت شهرته شهرة « ڤولتير » نفسه فى القرن السابق ، وكانت الرسائل ترسل إليه أحياناً بهذا العنوان المختصر : « ڤيكتور هوجو بالمحيط » ، فتصل إليه . وقد أربت ثروته فى ذاك الوقت على المليون فرنكاً (أى أربعين ألف جنيه)

العودة إلى الوطن

كان هوجو قد قال عند مغادرته فرنسا : أعود متى عاد الحق والعدل والحرية . لذلك أبى أن يستفيد من قوانين العفو التى أصدرها نابليون الثالث عام ١٨٥٩ بكثير من الإباء والعظمة ؛ لأنه لم ير فيها الحرية التى ينشدها ، بل لم ير فى وجود نابليون الثالث على عرش فرنسا العدل الذى يريده ، مفضلاً البقاء فى منفاه الاختيارى رغم حنينه إلى وطنه العزيز ، ذلك الوطن الذى ظل يتطلع فى الأفق البعيد باشتياق إلى شاطئه من شرفته كل صباح . كما أنه وجد فى مقامه بعيداً عنه كل الحرية فى محاربة الإمبراطور المغتصب ، ولم يترك فرصة تمر إلا حاربه سواء أكان بقلمه أو بلسانه . وكان ختام محاربته هذه أن حكم عليه غيابياً عام ١٨٧٠ لاحتجاجه الشديد اللهجة على الاستفتاء الذى قام به الإمبراطور ، وكان عنوانٌ هذا الاحتجاج كلا » .

ثم اندلعت نيران الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وهزم الجيش الفرنسى فى سيدان ، وسقطت الإمبراطورية .

وكان هوچو إذ ذاك فى بلجيكا ، وكانت هذه هى اللحظة التى ينشدها ؛ فأسرع عائداً إلى باريس ، وقلبه مملوء بالفرح والاضطراب معاً . واستقبلته الجماهير بحفاوة بالغة لم يكن يتصورها ، فكتب عنها فى مذكراته الخاصة يقول : « وصلنا إلى باريس الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين . وكان هناك جمهور عظيم ينتظرنى ، وقد استقبلنى استقبالاً يفوق الوصف ، ووقفت لأخطب أربع مرات ، مرة من شرفة مقهى بالطريق والثلاث الأخريات من عربتى . وعند ما أوصلنى الجمهور الذى كان يزيد خطوة فخطوة إلى منزل پول موريس بشارع لاڤال ، وهممت أن افترق عنه ، قلت له : " إنكم تكافئوننى بساعة واحدة عن عشرين عاماً قضيتها فى المنفى " . وكانت الأصوات ترتفع بنشيد " المارسييز " ونشيد الرحيل . وبعضهم يصيح : عاش ڤيكتور هوجو ، وغيرهم يتغنون بأبيات من " العقوبات " . وقد استغرق الطريق من محطة الشمال إلى شارع لاڤال ساعتين . وأرادوا الذهاب بى إلى قصر الحكومة ، فصحت : "لا يا مواطنى الأعزاء ، لم أجئ لأزعزع الحكومة المؤقتة ، بل لأؤيدها" .

وكان وصوله إلى باريس ليلة أن طوقتها الجيوش الألمانية ، وكان القطار الذى أقله إليها آخر قطار دخلها . فوجه إلى الألمان

نداءه الذى طلب إليهم فيه أن يحترموا المدينة العظيمة ، موجهاً نظرهم إلى إخاء الشعوب والاتحاد العالمى ، بنفس الأساوب الذى كان ينهجه فى مؤتمرات الصلح التى حضرها ، ولو أنه لم يكن على يقين من نتيجة ندائه هذا.

لم يظهر هوجو أى نشاط سياسى مدة الحصار ، لعلمه أن الكلمة للسيف والمدفع ، وليست للسياسة ؛ حتى إنه لم يوافق على إجراء انتخابات مجلس البلدية ، وعدّها غير مناسبة فى ذلك الوقت ، ورفض الموافقة على ترشيح نفسه فيها عن الدائرة الخامسة عشرة ؛ كما احتج على إدماج اسمه بين أعضاء لجنة الأمن العام ، ولم يقبل أن يشغل أية وظيفة ذات صبغة سياسية ، بل وجّه كل جهوده إلى تشجيع الدفاع عن باريس وتقوية الروح المعنوية فى الشعب . وساهم بنصيب موفور من الناحية المالية فى شراء المعدات الحربية اللازمة للدفاع ، وفى الإنفاق على المستشفيات المتنقلة . فقد أنفق عليها الجزء الأكبر مما جناه من بيع الطبعة الثانية لمجموعة « العقوبات » ومن قراءة أهم قصائدها على مسارح باريس .

وكان يُظهر روحاً مرحة مشجعة ؛ ويطوف بأنحاء المدينة ، وعلى رأسه خوذة حربية ، يبث الشجاعة فى نفوس المدافعين ،

ويحثهم على الصمود ما استطاعوا . ولكن صراعهم هذا لم يدم طويلاً ، إذ سلمت المدينة في ١٨ يناير سنة ١٨٧١ . وأجريت في الحال انتخابات الهيئة النيابية القومية للمفاوضة في شروط الصلح مع الألمان في « بوردو » وإبرام معاهدة معهم . فرشّح هوجو نفسه وانتخب عضواً فيها بين نواب باريس وسافر إلى بوردو . ولكنه لم يلبث أن انفصل في الجلسات الأولى عن الأغلبية في المجلس ، وانضمّ إلى حزب اليسار الذى رفض الأسس التى وضعت للمعاهدة . وصعد المنبر يطالب بإبقاء نواب الألزاس واللورين أعضاءً في الهيئة ، وانعقاد المجلس في باريس بدلا من بوردو . وفى جلسة ٨ مارس قوطع بشدة فى أثناء خطابه ، فاستاء كثيراً ، وقدّم استقالته من المجلس .

وبينما هو يستعد لمغادرة بوردو توفى ولده شارل الذى كان قد صحبه إلى هذه المدينة ؛ فنقل جثمانه معه إلى باريس ودفن يوم ١٨ مارس ، وهو اليوم الذى شبت فيه فتنة بلدية باريس (La Commune) . واضطر بعد ثلاثة أيام أن يمضى إلى بروكسل لتصفية تركة ولده . وعند ما أخمدت نار الثورة أرسل هوجو من بروكسل إلى الحكومة الفرنسية احتجاجاً شديداً على أعمال الانتقام الإرهابية التى أخذت بها الثوار بعد انهزامهم ،

ونشر خطاباً يعلن فيه استعدادة لإيواء الثوار بمنزله ببروكسل . فأثار خطابه هذا سخطاً شديداً عليه من جانب الحكومة البلجيكية ، التى كانت تعدّ الثوار فئة من الأشرار الفوضويين ؛ وثار عليه الشعب البلجيكى أيضاً ، فتجمهر أمام منزله فى ليلة ٢٧ مايو ، وقذفه بالحجارة وحطم زجاج النوافذ ؛ ولولا تدخل الشرطة آنئذ لما نجا هوجو من ثورة الشعب الغاضب . وكان هذا الحادث آخر عهده ببلجيكا ، إذ أمرته الحكومة بمغادرة البلاد فى الحال وحرّمت عليه دخولها مرة أخرى.

سنوات هوجو الأخيرة ومولفاته فيها

سافر هوجو من بلجيكا إلى لوكسمبورج ، ومنها إلى تيونفيل ، تلك المدينة التى دافع عنها والده مراراً منذ ستين عاماً ؛ ثم سافر إلى لندن . وبعد مدة عاد إلى باريس ورشح نفسه مرتين لعضوية مجلس النواب ، فسقط فى المرتين . فنقم من باريس وأهلها ، ورحل إلى جزيرة چرنسى ، ومكث بها سنة كاملة ؛ عاد بعدها إلى باريس فى يوليه سنة ١٨٧٣ ، فوجد ولده الثانى مريضاً ، ثم لم يلبث أن وافته المنية فى أواخر السنة نفسها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فى سن شقيقه الذى قضى نحبه منذ عامين . فكانت الصدمة أليمة على نفسه ، ولا سيما أنه لم يبق له من أسرته سوى ابنته المخبولة وحفيده چورج وحفيدته چان ، اللذين بقيا موضوع حبه وسلوى حياته . وقد نظم فيهما مجموعة شائقة من القصائد عنوانها « كيف يكون المرء جداً » (L'Art d'être grand'père) عبر فيها بسذاجة عذبة عن عاطفته وحنوه عليهما ، فوصف أهواء الطفولة البريئة ولهوها الممتع وإقبالها على الحياة ، بأسلوب رقيق جذاب .

وظل يعمل ولا ينقطع يوماً عن التأليف ، وقد نشر فى العشر السنوات الأخيرة عدداً غير يسير من الكتب ، منها : « أفعال وأقوال » وهى مجموعة خطبه السياسية والاجتماعية التى ألقاها منذ عام ١٨٤١ ؛ و « السنة الرهيبة » وهى مجموعة شعرية عن الحرب وآلام الحصار ؛ وقصة عن الثورة الفرنسية عنوانها « ثلاثة وتسعون » أى عام ١٧٩٣ ؛ وقصائد أخرى كثيرة زاد بها « أساطير القرون » فأصبحت جزئين ؛ ونشر قبل انتخابات عام ١٨٧٧ ، وكان وقتئذ عضواً بمجلس الشيوخ ، كتاب « قصة جريمة » التى كان قد كتبها بعد نفيه مباشرة ، وهى قصة الانقلاب السياسى الذى أحدثه نابليون الثالث . ونشر أيضاً خطبة عن ڤولتير ، وكتاباً عن البابا فى سنة ١٨٧٨ عنوانه « البابا » ؛ ثم « الرحمة الكبرى » وهى مجموعة قصائد نظمها فى الشفقة والرحمة بالضعفاء والمساكين ؛ ومجموعة قصائد أخرى سماها « الحمار » يهجو فيها العلم والعلماء ؛ وكتاب « الديانة والديانات » (١٨٨٠). وهو آخر ما وصلت إليه فلسفته الإنسانية المملوءة بالوهم والخيال ، وقد درس فيها المعرفة والإدراك ، والضمير والعدالة ، وقدرة الحياة العالمية على الخير والشر . ثم نشر فى عام ١٨٨١ مجموعة أخرى من القصائد الهجائية والغنائية عنوانها



« رياح العقل الأربع » ؛ ومسرحيته الفلسفية « تركو يمادا » ؛ فالجزء الثالث من « أساطير القرون » ؛ ثم قصة « أرخبيل المانش » .

وهناك عدد كبير من مؤلفاته كتبها ولم تنشر إلا بعد وفاته ، منها « المسرح الحر » و « آخرة إبليس » و « أشياء رؤيت » و « الله » و « الإلهام الكامل » و « السفريا ت » و « السنوات المشؤومة » و « المحيط » و « الباقة الأخيرة » و « التوأمان » ومسرحية « أمى روبسار » ، وغير ذلك .

وهكذا كان لهوجو قدرة على التأليف عجيبة ، تجعله يقف أمام منضدته كل صباح فيكتب ما لا يقل عن مائة بيت من الشعر أو عدداً غير قليل من الصفحات النثرية ، يضاف إليها عدد من الرسائل .

وصار مضرب الأمثال بوجهه العريض ذى الجبهة الواسعة ، وشعره الأبيض الغزير ، ولحيته البيضاء .. وكان رغم تجاوزه السبعين لا يزال قوياً نشطاً ، على أحسن ما يكون من صحة وعافية ، لم يشعر يوماً بالتعب ، مع إفراطه فى العمل ؛ وإذا استثنينا مرضه بالتهاب جلدى سنة ١٨٥٧ ، وانحطاط فى أعصابه فى صيف ١٨٧٨ ، انتقل بسببه إلى جزيرة جرنسى

للمرة الثالثة حيث أقام أربعة أشهر ، إذا استثنينا هذا فإننا نستطيع أن نقول : إنه لم يعرف المرض فى حياته الطويلة .

ولم ينقطع فى سنه هذه يوماً عن نزهاته الطويلة مشياً على الأقدام أو ركوباً فى الطبقة العليا من المركبات المكشوفة ، غير مبال بالبرد يلفح وجهه أو بالمطر يتساقط عليه .

وقد حكى عنه حفيده چورج « بقى حتى أواخر أيامه ذا شهوة غريبة إلى الطعام ، فقد كان يجهز لنفسه على المائدة ألواناً غير مألوفة من المآكل ، هى خليط من الأنواع المختلفة التى تقدم إليه ، فيخلط البيض باللحوم والخضروات والطيور والبطاطس وغير ذلك فيجعلها جميعها فى صحفة واحدة يقطعها قطعاً صغيرة بسكينه ، ثم يصب عليها كل ما فى المملحة من ملح ، ويأكلها متلذذاً فإن كان أمامه على المائدة سرطان فإنه لا يجد غضاضة فى أن ينزع ساقاً من سيقانه ، يقضمها بأسنانه الفولاذية ، ويلتهمها بلحمها وعظامها ، وكلنا دهش مما يفعل . وكذلك كان يصنع بالبرتقال ، إذ كان يضع الواحدة منها فى فمه ويأكلها مع قشرها ، كغول ظريف ، مبتسماً للدهشة التى يراها فى أعيننا المحملقة . »

كانت جوليت دزوويه تقيم معه فى منزله الجديد بشارع

« أيلو » ، وكانت إذ ذاك فى الثالثة والسبعين ، ولم تزل تحيط الشاعر الذى أحبته مدة خمسين عاماً بعطفها وحنانها وحبها العميق . وشهدت معه ذلك الاحتفال العظيم والمظاهرة الرائعة التى قامت بها فرنسا بأسرها تحية له يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٢ لبلوغه الثمانين من العمر . فقد احتشدت الجماهير أمام داره ، وأخذت تنشد قصائده وتحييه كملك متوج . وقدّر عدد الذين مروا أمام الدار بما يقرب من الستمائة ألف نسمة من سكان باريس ؛ وقد حياهم الشاعر مراراً من شرفته . كما شهدت معه أيضاً قبل ذلك بعامين احتفالاً لا يقل روعة وعظمة ، وذلك يوم احتفل مسرح « الكوميدى فرانسيز » الشهير بمرور خمسين عاماً على أول تمثيل لمسرحية « هرنانى » . وبعد انتهاء تمثيلها وضع على المسرح تمثال نصفى لهوجو كلل بالأزهار ، ووقفت الممثلة « سارا برنار » ممسكة بيدها سعفة ذهبية وأخذت تقرأ قصيدة « معركة هرنانى » التى كتبها الشاعر « فرنسوا كوبيه » خصوصاً لهذه المناسبة .

وأصيبت چولييت فى آخر أيامها بمرض السرطان الخبيث الذى أخذ يضنيها شيئاً فشيئاً ؛ فاحتملت آلامه الشديدة بعزيمة جبارة حتى لا تؤلم هوجو . وأشد ما كان يعذبها خوفها أن تموت

وتترك حبيبها وحيداً فى هذه الحياة ، وهى التى ظلت وفية له ، تحوطه برعايتها طوال السنين الماضية . ولكن عذابها لم يطل ، فقد وافاها أجلها المحتوم فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٣ عن سبعة وسبعين عاماً .

فكان موتها خسارة على هوجو لا تعوض ، إذ كانت بهجة شبابه وكاتمة أسراره ودعامة شيخوخته ورفيقة حياته المخلصة . بكاها كثيراً وحزن عليها شديداً ، وفارقه بموتها نشاطه . فكف عن الكتابة والتأليف ، وزادت كآبته ، وبدأت قوته فى الاضمحلال ؛ فلزم منزله واعتكف فيه ، وظهرت جروح فى قلبه ، إلى أن أصيب بالتهاب رئوى فى ١٨ مايو سنة ١٨٨٥ . ولما زادت وطأة المرض عليه ، شعر بأن منيته أوشكت أن تحين ، فودع أصدقائه ، قائلا آخر بيت من الشعر تلفظ به :

« ها هنا جهاد الليل والنهار »

ثم طلب حفيديه وضمهما إلى صدره يقبلهما وهو يبكى ، وقال : « اقتربا منى يا ولدىّ . . . كونا سعيدين . . . فكرا فىّ . . . وأقيما على حبى يا عزيزىّ . »

ولما أخذ يعالج سكرات الموت ويقاومها أحياناً بقوته ، قال لصديقه پول موريس : « ما أطول انتظار الموت . » فقال

پول موريس : « أنت لن تموت . » فقال هوجو : « كلا ها هو ذا الموت ، فمرحباً به . » وكان آخر ما قال : « الوداع يا چان . » . وأسلم الروح فى يوم الجمعة ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥ فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يتمم الواجبات الدينية . ومات هادئاً مطمئناً لأنه كان مؤمناً بخلود الروح ، يعزّيه أن الموت ما هو الا انتقال بسيط ، وأن القبر باب العالم الأعلى .

الجنازة القومية

كان الشاعر قد كتب وصيته قبل وفاته بعام وسلمها إلى صديقه پول موريس ، وهى :

« أعطى خمسين ألف فرنك للفقراء
أريد أن أحمل إلى المدافن فى عربتهم
أرفض صلوات الكنائس جميعها
أطلب الدعاء من جميع الأرواح
أومنُ بالله .

ڤيكتور هوجو . »

وقد قرّر مجلس بلدية باريس أن يدفن فى البانتيون ، كما قرّرت الحكومة أن تحتفل رسميًّا بتشييع جنازته ، وأن يعرض جثمانه تحت قوس النصر لتحييه الجماهير . فشيّدت منصّة كبيرة فاخرة ، وضع عليها التابوت الضخم يوم ٣١ مايو ، وزين القوس وكُسِىَ بالحرير الأسود ، وقد كتبت عليه عناوين مؤلفاته . وكانت الأعلام السود المزينة بالنجوم الفضية ترفرف

على جوانبه ؛ وأضيئت حول القوس مائتا شعلة ليلاً ونهاراً . وقام بالحراسة فريقان من الفرسان المدرعين ؛ وكان حرس الشرف مكوّناً من طلبة المدارس . وتوالى مرور الجماهير أمام القوس لتحية الراحل طول النهار ، وعادت فى الليل تتدفق إلى الميدان من جميع الشوارع المؤدية إليه كأنها أنهار تمر أمام الجثمان صامتة خاشعة ، تودع شاعر فرنسا العظيم .

وفى أول يونية فى الساعة الحادية عشرة دوّت إحدى وعشرين طلقة معلنة بدء الاحتفال بتشييع الجنازة . فحضر ممثلو الحكومة والهيئات على اختلافها ، وممثلو الدول الأجنبية ؛ وبدأ الخطباء يتناوبون تأبينه ، فألقى كل من رؤساء مجالس الشيوخ والنواب وبلدية باريس ومجلس السين العام ووزير المعارف وممثل الأكادمية الفرنسية كلمة بليغة فى الراحل الجليل .

وفى منتصف الساعة الثانية وُضع الجثمان على العربة المخصصة للموتى الفقراء ، كما طلب الشاعر فى وصيته ؛ فكان تناقضاً عجيباً أن تسير أمام هذا الموكب الهائل تلك العربة المتواضعة ، وخلفها أعلام الدولة وعظماؤها وممثلو الدول الأجنبية ومحافظ باريس وكتيبة من الحرس وآلاى من الفرسان وإحدى عشرة مركبة يجرّ كلاً منها ستة جياد تحمل أكاليل الزهر .

ومرّ الموكب بشارع « الشانزيليزيه » فيدان « الكونكورد » فشارع « سان چرمان » وشارع « سان ميشيل » وشارع « سوفلو » . وعلى طول هذه الشوارع ، على الأرصفة وعلى أسطح المنازل وفى شرفاتها ونوافذها ، وعلى الأشجار وأعمدة المصابيح ، وعلى التماثيل والنافورات العامة ، وعلى المنابر المعدّة من قبل ، وفى كل مكان ، كانت الجماهير متجمعة كالبحر الزاخر ، تبلغ المليون نسمة ، تنتظر مرور الموكب الهائل الذى كان مؤلفاً من حوالى مائة ألف شخص .

وفى الساعة الثانية وصل النعش أمام « البانتيون » ، فأنزل عن العربة ووضع أمام الباب ، إلى أن مر الموكب بأجمعه من أمامه يحييه التحية الأخيرة . وكانت الساعة السادسة والنصف حين وضع فى الناووس ورقد رقدته الأبدية .

ففقدت فرنسا بموته شاعراً من أكبر شعرائها ، ومفكراً كانت له جولات وصولات فى حياتها الأدبية والسياسية والاجتماعية فترك لها تراثاً من آثاره لن تبرح فرنسا بل العالم بأجمعه يتداوله مدى الأجيال .

* * *

ها هى ذى حياة ذلك الرجل العظيم الذىساير فرنسا فى

كل أطوارها فى القرن التاسع عشر ، وبعث فيها روحاً أدبية عالية ، وأفنى حياته فى سبيلها وفى سبيل الأدب ، ولاقى كثيراً من الشدائد حتى النفى من الوطن ليخلق منها فرنسا أخرى جديرة باحترام العالم . فآثاره تعدّ من أعظم آثار الأدب الفرنسى ، بل دعامة الأدب الحديث ، وإن لم تخلُ بعض الأحيان من العيوب ولم تسلم من النقد . فقد كان تأثيرها عميقاً وعاماً فى نفوس الشعراء والأدباء .

وإذا كان لإنجلترا أن تفخر بشكسبير ، ولإيطاليا بدانت ولألمانيا بجوته ، ولإسبانيا بسرڤانتيس ، ولروسيا بپوشكين ، فمن حق فرنسا أن تفخر بشاعرها العظيم هوجو .

الفهرس

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

مجموعة نوابغ الفكر الغربى

مهرت «دار المعارف» المكتبة العربية بهذه المجموعة النفيسة وتوخت فيها ألمع ما بزغ فى سماء الغرب من عقول جبارة نابغة لإيمانها بأن مقومات الفكر فى الشرق العربى وإن توفرت لخلق العالم والأديب إلا أنها لا تؤتى أطيب ثمارها إلا إذا امتزجت فيها مقومات الفكر الغربى. وهذا ما تهدف إليه هذه المجموعة :

وقد ظهر منها :

- نيتشه
- ديفيد هيوم
- برجسون
- برتراند رسل
- بسكال
- أفلاطون
- شيلر
- تايلور
- جون ستوارت مل
- وليم جيمس

ويصدر قريباً جداً :

- ديكارت
- جون ديوى
- كارل ماركس
- سان سيمون

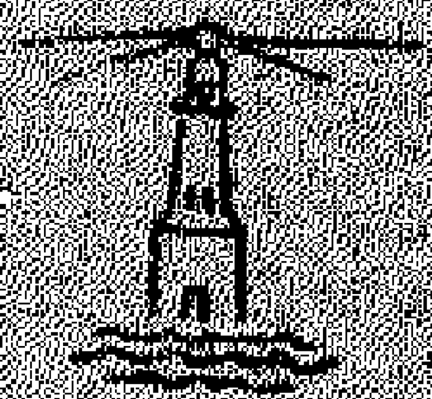
دار المعارف للطباعة والنشر

ديسمبر ١٩٥٩ الثمن ٥٠ مليما

اقرأ

محمد لبيب البوهي

الوجودية ... والإسلام



دار المعارف بمصر

الوجودية ... والإسلام

محمد لبيب البوهي

الوجودية ... والإسلام

اقرأ ٢٠٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٥ – يناير سنة ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

مقدمة

ذهب الناس فى شأن الوجودية مذاهب شتى — واختلفوا كثيراً فى تقديرها — فقال قائلون مبدأ يهدف إلى ممارسة الحرية الفردية فى أوسع نطاق — وقال آخرون بل كفر بيّن وإباحية.

وقد أجاب الأستاذ توفيق الحكيم حين سأله سائل : عن الوجودية وما يماثلها من المذاهب . . وهل انتهى الأمر بها إلى الاندماج فى أدبنا فأصبحت ذات أثر فيما يصدر عن الكاتبين من أدب وفن ؟ ! أم أن أمرها لا يعدو كتابات دبجها بعض الذين اطلعوا على بعض خصائص هذه المذاهب؟

فكان مما أجاب به الكاتب الفيلسوف : أن رواج هذه المذاهب الأجنبية قد يكون راجعاً إلى الكسل العقلى ؛ فبعض شبابنا يكتفى بارتداء ما جاء مصنوعاً «جاهزاً» من بلاد أخرى كما يشغف شغفاً شديداً بأحدث ما يرد إلينا من «موضات» الأزياء والأفكار ، فإذا وصلنا يوماً إلى أن ننشئ بأنفسنا مذاهب ونظريات أدبية وفنية مستمدة من صميم تفكيرنا الذاتى ، ومن ظروف مجتمعنا وعقائدنا فإن ذلك يكون هو الاتجاه الصحيح

الذى ينم عن نشاط عقلى ، ولم يكتف بالتلقى السلبى عن الخارج ، بل تخطاه إلى الإنشاء الإيجابى ، ومن الخير أن نذكر دائماً بأن ضعف الثقافة القومية والتأثر دائماً بما يرد إلينا من نظريات وفلسفات فجة كل ذلك له خطره لأنه سينشئ جيلا ينظر إلى تراثه القومى وإلى دينه وربما إلى لغته وثقافته بنفس النظرة التى ينظر بها إلينا أولئك الذين يريدون لنا عن تراثنا تحويلا ونحن نجتاز فترة من التاريخ فيها كثير من الذين يتربصون بنا . ويريدون أن يغزونا من الداخل بمثل هذه المذاهب . فمن واجبنا اليقظة وأن نحرص فى هذه الفترة بالذات على تغذية شعلة الحماس الوطنى . وأن نحاول أن نحميها من هذه الدسائس الفكرية التى تحاول أن توهنها .

محمد لبيب البوهى

٧

أضواء على الوجودية

عندما يريد المهندس أن يقيم عمارة فإنه يتخيل أولا الوضع التصميمى الذى ستكون عليه تلك العمارة . . ارتفاعها ، عدد طوابقها ، أحجام حجراتها ،ألوانها ، نوع زجاجها ، إلى كل ما يتصل بها حتى الأشياء الكمالية فيها ، من بروز ونقوش وغير ذلك ، مما يجعل العمارة قائمة فى ذهنه صورة متكاملة يضعها بعد ذلك على الورق ثم ينقلها تنفيذيًّا إلى الطبيعة .

هذه الفكرة عن العمارة هى صورتها . . تصميمها للوضع الذى ستصير إليه بعد وجودها ثم إن كينونة الشىء هى وجوده ، بينما الفكرة التى أقيم على مثالها هى الصورة أو المثال وبين هذين الأمرين . . الصورة والكينونة تذهب الفلسفة وتجىء .

وقد أجمع كثير من الفلاسفة على أن الصورة تسبق الوجود وأن وجود الشىء دليل على وجود مثالى تصورى له سابق عليه .

واستدل كثير من الفلاسفة من ذلك على وجود الله إذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور لأنه هو الذى ينشئ الكائن على هذه الصورة التى وضعها .

وغالباً ما يأتى الوجود أقل كمالا من الصورة التى تفقد بعض بهائها فى عملية الإخراج وفى تحويل الفكرة إلى عمل ، ولذلك ذهب كثير من المفكرين إلى أن جهاد الإنسان وسعيه يدوران حول تكميل نفسه حتى يصبح مطابقاً للصورة الإنسانية المثالية التى صور عليها الله الإنسان الكامل .

* * *

ولكن الفلسفة الوجودية تقوم على عكس ذلك فهى لا ترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود ، ومن ذلك ترى أنها تفقد ميزة المرونة . ذلك أن الفلسفة التى تجعل الوجود قائماً على صورة مثالية ، تجعل للمشاكل حلولا لأن الحل هو الرجوع إلى الأصل ، ومحاولة العودة إلى الصورة المثالية للشيء الكائن إذا حدث تحول أو انحراف عن طريق السير نحو استكمال الكائن .

فالوجودية لا تربط الإنسان بغير شخصه : ذاته . . . وجوده ، لا تربطه بفكرة مثالية سابقة أو تقيم له صورة للإنسان الكامل أو الفاضل يجاهد أن يحققها فى نفسه ، فهى بذلك تنحرف عن طريق الفلسفة المثالية ، وعن طريق الأديان كلها إذ تنهض تلك الأديان على أساس التسامى الدائم بالإنسان

إلى المثالية .. إلى صورة الله .

ولئن كان كيركجارد هو أول من ركز فلسفته حول ذلك الاتجاه ، فقد تلاه فلاسفة آخرون لم يقيموا وزناً كبيراً أو صغيراً على تفاوت بينهم للقيم الإنسانية المثالية التى تقول بوجود مثل كامل سابق على الوجود فلا ارتباط عندهم بين الإنسان من حيث هو كائن فعلا وبين الصورة الأصلية للإنسان المثالى .

ولا ريب أن فصل هذا الارتباط يكسب الإنسان اضطراباً وقلقاً . لأنه لا يربط وجوده إلى أصول ثابتة ولا يلتزم طريقاً مطروقاً كالسيارة التى تنطلق دون أن تسير فى طريق معلوم ولا صلة تربطها بالسيارات الأخرى التى تنطلق فى قافلة الحياة ، إنها قد تتشابك وقد تتصادم وقد يحطم بعضها بعضاً دون أن تفكر فى تعديل سيرها .

فالفلسفة الوجودية هى فلسفة الذات الإنسانية المتفردة دون ارتباط بغيرها من الذوات . . . وهى فى واقع الأمر ليست فلسفة ولكننا لا نجد اسماً فى الواقع يمكن أن يعبر تماماً عنها فنستعير لها كلمة الفلسفة

إذ الفلسفة لابد أن تنتهى إلى نتيجة ولكن الوجودية لا تنتهى إلى شىء فهى لا توقد شمعة ولا تمهد طريقاً ولا تشير

إلى أى كائن آخر سوى الإنسان ذاته .

وليس المعنى الإنسانى الشامل ، وإنما الإنسان كفرد ، إنه هو مشكلة نفسه كما قال كيركجارد الزعيم الأول للوجودية الذى ترجم مشاعره الخاصة وجمع آلام تجاربه وصبها فى بوتقة أسماها الوجودية فهى إذن معاناة ذاتية عاناها كيركجارد .

ولما كان كل إنسان يختلف كثيراً عن سواه فإن الاتجاه الوجودى لفرد ما سيختلف عنه بالقياس إلى فرد آخر ، ولذلك فإنك لا تستطيع أن تسمى مجموعة هذه الاتجاهات فلسفة أو مذهب

والوجودية تجادل عن نفسها فتقول إنها لا تقبل توجيهاً يأتى من خارج الذات ، وهو جدل عقيم وغير منطقى لأن الطبيعة الإنسانية متشابهة فما يصلح به الفرد يصلح للمجموع إلا فى حالات شاذة نادرة قد تحتاج علاجاً خاصاً ولكنها لا تغير القاعدة .

كما أن الفرد لا يمكنه قيادة نفسه قيادة مستقلة تمام الاستقلال عن الآخرين مهما أوتى من إمكانيات ذاتية ذات تجارب قوية وثقافة ممتازة ورأى حكيم ونظرات سديدة لأن الوجود الإنسانى مترابط بعضه مع بعض ولكن الفلاسفة

الوجوديون يرون أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يمكنه أن يكيف وجوده ، ويتصرف فى هذا الوجود الذاتى لكل فرد دون ارتباط بأى تصميم جماعى لحقيقة الإنسان كجنس ، وذلك بعكس ما ذهب إليه الفلاسفة الهادفون من أن الإنسان خلق على صورة مثالية غيبية ، هى التى تدعوه إلى الاقتراب منها والأديان تشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته .

فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للإنسان يجب عليه تحقيقها ليقترب من الكمال المطلق ، بل إنها تعارض فى ذلك أيضاً الأديان السماوية وغير السماوية على الإطلاق ، لذلك فالفرد الوجودى غير مكلف بالأخذ بتقليد سابق أو التمسك بعرف متبع أو النزول عند توجيهات سالفة لأنه مقطوع الصلة بكل ذلك ، وقد بدأت دنياه المستقلة المتفردة داخل قوقعته الذاتية منذ أحست هذه الذات بوجودها الأرضى فقط ولا شىء غير هذا ، وعليه وحده أن يختار وفقاً لما يرى حلا لمشاكله وأن يرسم طرق السير فى مسالكه.

وهذا الاختيار الذاتى هو الصورة التى يحققها لنفسه ، فالوجود أولا ثم من هذا الوجود تنبثق الصورة التى يجب أن يصنع حياته عليها .

* * *

ويجب أن نذكر دائماً أن الوجودى ليست لديه تعاليم وجودية لتحقيقها، بل يحقق وجوده الخاص طبقاً لاتجاهاته الذاتية ، ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول إليه أمره ولا توجد أية نظم أو حقائق مشتركة يلتقى عندها الوجوديون ليكون لهم منها إيمان بهدف ما ، أو فكرة ما ، أو عمل ما ، لا توجد حقيقة ثابتة على الإطلاق أكثر من أنك موجود فكل وجودى يدرك أنه موجود بلا رابطة بغير ذاته ، وهذا هى الحقيقة المستوحدة التى ليس بعدها فى الوجودية حقيقة ، وعليه تبعاً لذلك أن يكون فيلسوف نفسه ، يصنع لها مذهبها وسلوكها ، فإذا رأيت خمسة وجوديين فثمة خمسة فلاسفة وإن رأيت عشرة منهم كان لكل منهم فلسفته وإنجيله وربه ولو صار سكان الكرة الأرضية وجوديين فثمة أنبياء وفلاسفة بعددهم أجمعين لا يلتقى نبى مع نبى ولا تتشابه فلسفة مع أخرى إلا أن يكون الأمر مصادفة نادرة ولن يجدوا فى هذا الاختلاف ضيراً أو حرجاً على الإطلاق .

* * *

ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاتها ، ذلك أنه خارج على نظمها ومقدساتها فهو ليس منها ،

وقد يكون حرباً عليها ، فهو لا يبالى مثلها ولا يهمه مصيرها فهو فى حالة عدم معنوى ، أى لا وجودى .

ومع ذلك فإننى أجد هناك بعض اتجاهات لهيدجر وسارتر يعتبران فيها الوجود الفردى المستقل على صلة ما بالوجود العام ولكن ليس معنى ذلك ارتباط الإنسان بالكون ارتباط الجزء بالكل وإنما يمكن أن يشبه ذلك بطائر انفلت من سربه فهو يرى السرب أحياناً فى طيرانه الحر المنفرد ولكنه لا يعود إليه ولا يربط مصيره بمصيره ..

فأغلب الفلاسفة الوجوديين يعتبرون ذلك الطائر الوجودى له فلكه الخاص الذى يلف فيه ويدور ، إن شاء حط هنا وإن شاء عشش هناك ، وإن شاء حلق وإن شاء هبط ، بل إن شاء نتف ريشه وراح يئن فى حرية تامة ، دون أن يمد جناحيه أو يرنو ببصره إلى السرب الآمن المنطلق ينشد معونته أو اللحاق به.

بل إنه قد يحتقر ذلك السرب المتجمع الذى لا يقوى الطائر فيه على الانفلات من السرب فهو أسير المجموع ، إنه ضعيف جبان يستمد قوته وحياته من سواه .

وهذه الحالة يهذبها آخرون فيقولون إن للطائر الوجودى أن يحقق انفصاله عن السرب ثم يسير فى نفس اتجاه الريح

غير مرتبط بهدف السرب وإنما يختار هو هدفاً يرضيه فهو دائماً فى حال هذا الانفصال الوجودى فى قلق ومن شأن هذا القلق أن يجعله متحفزاً يقظاً معتمداً فقط على جناحيه هو.

* * *

فهذا الطائر المنفرد المحصور فى ذاته يصبح قلقاً من أجل مصيره فهو مجذوب إلى ذلك المستقبل الغامض الذى اختار بمحض الإرادة الذاتية أن يطير صوبه ولكنه لا يعرف أين ومتى وكيف سيجده، فهدفه الوجودى يسبقه دائماً وهو يطير نحوه . نحو فكرة ذاتية يسير خلفها دائماً أبداً مطيعاً مخلصاً ، ويمكن التعبير عنها بأن أهواء النفس تسبق صاحبها، ووجوده الذاتى يتابعها لتحقيق أهدافها، مهما كانت هذه الأهداف المعلقة أمام عينيه على بعد منه كلما اقترب منها ابتعدت فتابع صوبها المسير ولن يلتقى بها أبداً ولن يعدل عنها .

وقد يكون هذا السباق الأبدى متجهاً إلى أعلا إلى إيجابيات الحياة ومثالياتها ، ولكن الوجودى لا يحفل بقيمتها على هذا الاعتبار ولا يشده إليها أنها مثالية وإنما لأن ذاته الوجودية تنزع إليها ، فهى وجوده الذى عليه أن يتابعه بغير جدال .

* * *

ومتى كان الأمر كذلك فإن هذا الوجودى قد يحقق أموراً مثالية كالطائر الذى يجد نفسه يحط فوق بستان بينما آخر يحط فوق جيفة وكلاهما لا يبالى بما حط عليه .

وقد ينتهى الأمر بهذا الوجودى الذى تشده المثالية الذاتية إلى الروحانية ، إلى لون من ألوان التصوف . . إلى الله دون رغبة فى ثوابه ولا ابتغاء رضوانه ولا طلباً للسعادة فى عالم آخر ولا حباً فى الله .

على أن هذا الأمر الذى قد يحدث بمحض المصادفة والذى يندر جداً أن يحدث طالما كانت النفس هى التى تريد وتختار لا يمكن اعتباره من محاسن الوجودية لأنها لا تعنى به ولا تستهدفه ، فإذا ألقى فى عرض الطريق بكتاب نافع فالتقطه بعض المارة فانتفع به فإن الذى ألقى الكتاب تخلصاً منه لا يمكن أن يسمى واعظاً أو مرشداً فالوجودى لا ينشد الفضيلة لأنها فضيلة ، إنه منطلق فحسب لأن ذاته تدفعه ، فهو فى اتجاه دائم إلى ما يمكن أن يكون بالنسبة للكون العام لا شيء ، أى العدم : فالوجوديون يمكن أن يسموا بالعدميين لو سميت الأمور بنتائجها

* * *

والوجوديون يسمون الانطلاق المتحرر مع طبيعة النفس عملية خلق ، لأنها تعطى الإنسان الحق فى خلق إرادته واحتمال مسئولية ما يخلق ويختار ، وهذه عندهم هى عين الحرية . وهم يرون أن الحرية بهذا المعنى الذى لا يربطه شىء ولا يوجهه هى غاية الوجود الإنسانى ، فإذا تنازل عن هذه الحرية فقد تخلى عن وجوده كإنسان ، وأهدر حقوق ذاته ، غير أن بعض الوجوديين يجعلون هذه الحرية الذاتية متصلة بخيط ما ، بالوجود المطلق ، ولكنه اتصال اختيارى محض قد تقطعه أقل ريح عابر ، إن هذا الخيط مجرد لافتة مكتوب عليها أنه يوجد هنا عضو من الأسرة الإنسانية ثم لا شىء غير هذا ، كالتاجر الذى يضع على دكانه لافتة بأنه يمارس التجارة فى بعض السلع ، ولكنه لا يرتبط بنظام البيع العام ولا يحفل بتعاليم مجمع التجار ولا الأساليب المتبعة فى البيع والشراء

* * *

بل إنهم ليسمون اتصال الوجود الفردى بالوجود العام مشكلة ، بينما يعتبره العرف والمنطق والنظام العام بديهية ونظاماً : فالوجودى يخشى من الاعتراف بالوجود العام أن يضطره ذلك إلى أن يربط نفسه بالتزامات ما ، فيخضع ذاته للمعوقات

التى تنهض فى طريق حريته، إذ لا قيمة على الإطلاق للاعتراف بحقوق جماعة وأنت لا ترى نفسك ملزماً بالأخذ بهذه الحقوق ، إن الوجودى لا يعترف بالوجود العام إلا كما يعترف راكب القطار بمجموعة الركاب الآخرين ، إنه واحد منهم حرّ فى أن لا يتابعهم بل قد يدع القطار ويقفز من النافذة أثناء سيره بل ربما وجد لنفسه الحق فى أن يحطم الجزء الذى يحتله أو يفك أحد مساميره .

فالوجوديون لا يقيمون وزناً للقيم التى تربط الأفراد بالمجتمع ، ولا يحفلون بما يوحى به العقل والنظام ما لم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم مصادفة إنما العبرة عند الوجودى الأصيل بالتجربة الشخصية ، والمعاناة الذاتية ، فهو لا يعترف بالنار لمجرد أنه يشاهدها أو لأن الناس أسموها كذلك وخافوها بل لابد له من أن يحترق بها كى يدرك ذلك ولا يعترف بحلاوة شىء إلا إذا تذوقه .

* * *

من هنا تنشأ فكرة اللادينية ، إذ الوجودى لا يعترف بشئ غير مرئى وغير محسوس . غير واضح فى نفسه لم يجد فيه إبرة تخزه فى صدره ، وبما أن القواعد والتقاليد والنظم والأديان

هى مجرد أفكار مثالية ، وتشريعات وتوجيهات لم يصنعها الوجودى ، ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها والفكرة بصفة عامة لا وجود لها ، إذ الوجود لا يكون إلا لما هو كائن بالفعل .

والوجودى لا يلتفت إلى الوراء لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط نفسه بأفكارهم ، إنما يبدأ وجوده يوم أحس هذا الوجود ، ولا حرج أن يصل هو إلى بعض ما وصلوا إليه بتجربته الخاصة بل قد يصل إلى الله دون أن يرشده أحد إليه أو يذكره به ولا فخر فى ذلك إلا للتجربة الذاتية الحية .

وهذا الاتجاه يفتح أبواباً عدة إلى الضلال ، ذلك أن كل إنسان مهما كانت نزعته الوجودية وإحساسه بهذه النزعة وتكريس إرادته مع قوة الدفع الذاتى ، فإن ذلك كله إذا حشر فى تجربة ذاتية فردية دون مقاييس سابقة ستصل به إلى نتائج لا يطمئن إلى قيمتها الحقيقية من الحق أو الباطل ما دام لا يوجد الميزان الذى توزن به .

وعلى هذا الأساس فإن التجربة الواحدة مع مجموعة من الوجوديين ستكون نتائجها مختلفة وينتهى الأمر إلى الفوضى التى لا رابط لها والاضطراب الذى لا يعصم منه شىء .

* * *

ومهما يكن من أمر فإن الوجودى غير صادق فى ادعائه إنه هو خالق إرادته وصانع مشيئته ذلك أن اتجاهاته الذاتية التى تملى عليه رغباتها ، ويجند لها إرادته . . . هذه الاتجاهات الوجودية ليست من صنعه الخاص وإنما هى تفاعلات غير محسوسة للبيئة والظروف والحالة العامة التى وجد فيها والتى تطبعه بطابعها فهو حين يزعم أنه يتصرف بتمام حريته يكون مخدوعاً عن الحقيقة التى كونت هذه الاتجاهات ، فهو ليس إذن حراً فى تجربته التى هيأته لها الأقدار منذ ولد بل قبل أن يولد وقبل أن يستطيع أن يزعم أنه وجودى ، ولو كانت هذه الظروف قد تغيرت فى البيئة الاجتماعية أو العائلية قبل أن يولد لتغيرت تبعاً لذلك الدوافع التى يزعم أنه خالقها ، فالإنسان المربوط بحبل طوله ألف ياردة قد يتحرك مسافة ما دون أن يحس القيد فيظن أنه حر إلى غير حد ، ولن يستطيع الوجودى مهما جاهد أن يتحرر كلية من الوراثة ومن أثر البيئة التى نشأ وعاش فيها قبل أن يمارس النزعة الوجودية ، ونحن حين نذكر ذلك نضع فى الحسبان فلسفة سارتر وهى أسهل الفلسفات الوجودية التى تجعل للوجود الذاتى رباطاً ما بالوجود العام ، الأمر الذى تنكره كثير من الفلسفات الأخرى الوجودية ، وإن كانت الفلسفات

الوجودية تتشابه فى المحاور الأساسية التى تدور عليها والتى تحرر الفرد تحريراً كاملا من كل قيد،ومن هنا تنشأ عدة اختلافات واتجاهات أكثر من الاختلافات الموجودة بين الأديان المختلفة والمذاهب المتفرعة عنها ، بل ربما كان هناك من التفاوت بين اثنين من الوجوديين أكثر مما هو بين مؤمن بالله متصوف فى إيمانه وبين آخر يعبد الأوثان ، فبينما نجد وجودياً يعلن أنه بتجربته الوجودية اهتدى فى حرية تامة إلى اكتشاف الله والإيمان به إذا بآخر تهديه نفس التجربة إلى الإلحاد ولا يعتقد أن أى تجربة قد تقود الإنسان إلى الله.

وسارتر يعلن هذا ويقول إنه لايوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود لأن الله غير موجود ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية ، لأن الوجودى لم يختر هذا الحل وإنما فرض عليه فرضاً.

فالدين عنده خرافة لأنه نسيج من الاتجاهات العقلية أو الغيبية يجب أن تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك ، وليس معنى هذا أن الوجودية تسقط عالم الفكر من حسابها وإنما لها فى ذلك منطقها الخاص فبينما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود إذا بالوجودى يجعل ذاته قائمة أولا ومنها بعد ذلك تنبثق

الاتجاهات الفكرية ... أى يخلق الوجودى الفكرة التى يصنع بها حياته ... مثله فى ذلك كمثل عابد الوثن الذى يصنع الوثن أولا بيديه ثم يخر له ساجداً فالوجودى ليس فى معزل عن عالم الفكر بل إن أفكاره ذاتية بحتة ،وعلى أساسها يعالج صلته بالناس وهو يرى أن الأفكار الخارجية فيها إعدام للذات أو اتجاه إلى العدم لأنها ليست منبثقة من وجود ذاتى مستقل، على أن هذا قد يكون غير منطقى وغير واضح ولكن ذلك هو شأن الوجودية طالما أن محورها الرئيسى هو الذات الفردية فالوجود الفردى يختلف عند إنسان عنه عند الآخر ولهذا تختلف الاتجاهات الفكرية وربما كان ذلك هو السبب فى عدم وجود تعليمات أو نظم يتواصى بها الوجوديون بل هى اتجاهات فكرية فردية لا تصلح أساساً لحياة إنسانية كريمة وهى تنافى كل المقومات الضرورية لإقامة مجتمع سليم متكافل متعاون .

٢٢

الوجودية . . . والعقيدة الدينية

ليست هذه كلمة رجعية يراد بها كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان شد العجلة إلى الوراء ومنعها من التقدم إلى الأمام وليست محاولة لسد المنافذ أمام ضوء جديد ينير بعض الطريق ولكن من حق الإسلام كدين أصيل فى هذه المنطقة من العالم أن يتحقق من شخصية الأفكار الواردة عليه « كالديدبان » الذى يفحص أوراق المارة فإما أن يدعهم يمرون إلى داخل الحدود أو يردهم إذا كانوا مصدر خطر وليس هذا حجراً وإنما هو وقاية فمن حق الإسلام إذن أن يكشف عما فى هذه الواردات من حق أو زيف حتى لا يشغل أهله بأمور إما أن تكون حقيقة قديمة جاءتهم فى ثوب غريب وفى هذه الحال قد يكون من الأصوب الرجوع إلى الأصل والأخذ عنه مباشرة وإما أن تكون كما يقول أديب كبير مصرى من أعراض « مغص عقلى » .

* * *

ومن هذا التشبيه نتصور أن هناك أمراضاً قد تصاب

بها الأفكار عقب تخمة فكرية غير متجانسة تحشر حشراً في العقول فلا يكون لها مفر من أن ترسلها على صورة ما قد يحدث تماماً للمعدة حين تحشر فيها ألوان شتى من الطعام بلا تجانس ولا حساب .

فأين الوجودية من هذا التشبيه ؟

وهل هي فلسفة إيجابية وغذاء فكرى ؟

وأين هذه الوجودية من الإسلام وأين هو منها ؟

إن دعاة الوجودية لم يصلوا بعد إلى تحديد ثابت لأهدافها وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعتها فهى حالة انبثاقية من داخل الإنسان تهدف إلى إجراء تنفيذى لما يعتمل باطنياً فى الذات فهى دعوة للإنسان إلى تحقيق وجوده الذاتى أى يعيش طبقاً للدوافع النفسية التى تدفعه من الباطن كما يدفع البخار القاطرة فيحقق بذلك وجوده الكونى .

ومعنى هذا أن الوجودية على هذه الصورة تحاصر الإنسان داخل نفسه فى قوقعة مغلفة باتجاهاته الذاتية البحتة .

* * *

وهذه الدعوة قد تهرب إليها بعض النفوس وتجد فيها لوناً من ألوان العزاء والتعويض السلبى ولو مؤقتاً عقب الكوارث

فينطوى الإنسان على نفسه كافراً بالقيم العامة والتقاليد .

* * *

وإذا كان من حق كل إنسان أن يحقق وجوده فهل الإمكانيات الكونية تسير فى خطوط متوازية بالنسبة لرغبات كل فرد فى تحقيق وجوده بلا صدام مع وجودية الآخرين ؟ أم أن التفكير الوجودى قد يدعو إنساناً إلى الاتجاه يميناً بينما الدافع الوجودى لإنسان آخر قد يدفعه يساراً فيكون صدام فى عرض الطريق وأن ذلك قد يخل بالأمن والفضيلة والنظام ؟

وهل ترى أن دعاة هذا المذهب قد فكروا لنا فى علاج لهذا الصدام الذى يبدو واقعاً لا محالة عند النظرة إلى الفكرة الوجودية ورغبة كل إنسان فى تحقيق ما توحى به ذاته ؟ أم أنهم يتركون السيارات وعربات النقل والدواب والناس ويقولون لهم هذا هو الطريق فسيروا كما تشاءون ؟ ؟

* * *

وهل يمكن أن نقول إن الوجودية هى أن يصنع الفرد لنفسه ديناً ويحقق فرديته من حيث هو إنسان موجود فى هذه الدنيا . ديناً فرديًّا لا علاقة له بالآخرين ؟

* * *

إن الوجودية كلمة مرنة يمكن أن تتسع لأفكار كثيرة بينما أستطيع فى وضوح أن أقول إن الإسلام دين يحقق الوجودية المثالية .

ذلك أنه إذا كانت الوجودية هى تحقيق الدوافع الكامنة فإن الإسلام يصنع أولا هذه الدوافع النفسية وينميها ويرعاها فى نظام تكافلى كامل يحقق خير وجودية للفرد مع الوجودية الشاملة للمجموع فإذا كان دعاة الوجودية يعطونك مقعداً وثيراً ويقولون لك ضع هذا المقعد حيث شئت فى مركبة الحياة فإن الإسلام يصنع لك هذا المقعد ويعطيك إياه ويحدد لك مكانه من مركبة الحياة حتى لا تزاحم أحداً ولا يزاحمك أحد ولا تثير المتاعب والمشاكل فتسير المركبة فى اطمئنان وسلام .

* * *

الإسلام يحدد للإنسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه

فوجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فرداً مثالياً متحلياً بالفضائل .

ووجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو فيها تحدد له واجباته العائلية التى لا يتحقق وجوده العائلى إلا بها ، ووجوديته

من حيث هو مواطن تفرض عليه تبعات فى نطاق الوجودية الوطنية، ووجوديته كإنسان تلزمه نحو البشرية بالتزامات نحو الوجود الإنسانى السليم .

ولكن السذج الذين آمنوا بالوجودية كانوا غير مسلحين بعقيدة دينية تحميهم من عواصف هذه الفتنة العمياء التى تبيح لهم الشهوات وتخلع عليها أسماء رنانة ، بل وترفع من قدرهم حين توهم هؤلاء المخدوعين أنهم أصحاب دعوة فكرية وفلسفة جديدة ، وانتفش ريش هذه الدعوة الجديدة حين تزعم أمرها هرقل ضخم من أباطرة السحر والبيان فتولى زمامها ، وراح « سارتر » ينفخ فى مزمارها ويكرس أسلوبه وحياته وقصصه للدعاية لها ، وساعدته الحالة النفسية التى انتهت إليها بلاده ، التى ركعت تحت قدمى « هتلر » على نفخ البالون الوجودى الأجوف ، وراح من حوله مهرجون كبار يسوقون فى سبيل شرح الوجودية حشوداً ضخمة من الألفاظ التى تؤدى بتلاعب ماهر عكس معانيها . . وأخذت القصص الحادة التى تستهوى شباب ما بعد الكارثة تغذى أعصابه بهذا الوقود النارى وهى تدعوه إلى التنفيس عن رغباته المكبوتة والبحث عن السلوان حيث كان تحت اسم مقدس بين التهليل والاحتفال بأنه بذلك يؤكد ذاته ويمارس وجوده .

ولقد وصف الوجودية الفليسوف « جان كانابا » فى كتابه المعروف باسم الوجودية ليست فلسفة إنسانية فقال « إن الوجودية رائعة إذا شوهدت عن بعد غير أنها تبدو على حقيقتها حين نقترب منها فنكتشف أنها ليست إلا بناء من ورق » .

* * *

وعندما تلقى الشباب المتعب الباحث عن اللذة هذه الدعوة وهو غير مسلح بعقيدة دينية راحت خفافيش الدعوة الجديدة تحلق فى أجواء لا نسور فيها وأخذت الجموع تحج إلى كعبة السرور والأنس وتمارس ألواناً من شذوذ الملوك فإذا ما سئل أحدهم عن ذلك أجاب بأنه وجودى .

وراح ذلك الوجودى يغشى المجتمعات ويندس فى كل وسط مبشراً بدعوته وقد وجد الأمر فى بعض الأحيان سهلا لميل النفوس إلى الجديد ولأنه يدعوهم إلى التحلل من قيود تحول دون ممارسة الأهواء ، وهو يزعم أن الوجودية فوق الأديان جميعاً حتى يكسب لها أنصاراً من كل دين — فالمسلم والمسيحى واليهودى الجميع يجدون الترحيب فى مجال الدعوة الإنسانية الجديدة .

فهى — إنسانية لأنها لا تقاوم نفسها . . وكل إنسان ميسر

لما وجد من أجله . فليطع الهاتف الباطنى حين يدعوه — إلى أى شيء . هذا قولهم بأفواههم .

وللوجوديين أسلوب عجيب فى المغالطة — إذ الهدف هو استعمال الألفاظ بلباقة حكيمة لكسب الأنصار ، فهم يدّعون أحياناً أن هناك وجودية مؤمنة ويؤيدون ذلك بأن « كيركجارد » نبي الوجودية الأول الذى دعا إليها من أكثر من مائة وخمسين عاماً كان مؤمناً ، ولا يقتضى الإيمان فى كل الأحوال التصديق بوجود إله خالق لهذا الكون . . بل إن المؤمن الوجودى قد يؤمن بنفسه ويكفر بالله . . لأن الإنسان موجود تراه وتسمعه وتتحدث إليه وأما الله فغير موجود لأننا لا نراه ولا نسمعه .

ولذلك يلزم الإيمان بالموجود أى بالإنسان والكفر بغير الموجود أى بالله .

فهذا الإيمان الوجودى هو إيمان المرء بنفسه .

* * *

فأنت ترى أن هذا لون عجيب من التلاعب بمرونة الألفاظ حتّى تتمكن الوجودية من أن تكسب أنصاراً من كل سبيل يسيرون وراء طبلها ، وحتّى يتسع المجال لها بهذه الأساليب

الملتوية كى تتسلل فى كل جماعة وكل هيئة وكل دين وهى تحمل لافتات ترضى ميول كل طائفة حتى يأنسوا إليها كما يقتحم الجاسوس حصون أعدائه بزى خداع لينسفها من الداخل .

والوجودى قد تصطدم رغباته بالمجتمع ونظمه وتقاليده وعاداته . . . لا بأس . . ولا حرج عليه فى ذلك على الإطلاق — إنه لن يبالى . . . سيهز كتفيه ويمضى فى سبيله . . وهو ينظر إلى الدين والمجتمع والناس وكل ما اصطلح القوم على احترامه وتقديسه إذا عارض رغباته نظرة اللامبالاة .

« شعاره . دع هوى النفس ينطلق إلى غايته — ويمتد طولا وعرضاً بقدر ما تستطيع قواك — إنك حينذاك تملك أن تصنع أشياء كثيرة — وأن تنشئ أحداثاً ضخمة — وأن تؤثر فى كل شىء — وأن تجنى ثمار كل شىء .

هذا هو وجودك فحققه .

* * *

المجتمع عند الوجودى خرافة .

ونحن الذين خلقنا هذه الخرافة . فالإنسان وجد فرداً . . وهو لن يمد يده إلى سواه إلا إذا أحس ضعفاً . فهو يبتغى

عند المجتمع حينذاك مساندة .

المجتمع وهم يسند الضعيف الذى لا قدرة له على تأكيد ذاته — والاندماج فى المجتمع يشل شخصيتك وإن ذلك لحماقة كبرى . فلا تجعل هذه الخرافة تقف فى طريقك — ولا تلجم حريتك باسم هذا الشيء الذى لا وجود له .

إنك لست مديناً للمجتمع بشيء — فليس عليك أن ترد هذا الدين بأن تقمع من رغباتك أو تحد من سلطانها لحماية الآخرين — فكل إنسان يجب أن يعيش حياته كما يهوى . .

هذا هو منطق القوم .

* * *

فإذا ما نفضت من المجتمع اليدين . . فلا تقم وزناً لما هو أشد حمقاً من المجتمع . . وهو الدين . . إياك ومعانى الحرام والحلال — فلا تجعل من نفسك عبداً لهذه الخرافة الأخرى — فالله غير موجود . . وإنما هو كلمة ابتكرها الإنسان ، إن الإنسان هو الذى خلق الله — وأقام فى ذهنه هذا الخيال الضخم ليخدر نفسه به إذا أصابه مكروه . . أو ضل فى الحياة سعيه . فيزعم لنفسه أن هناك أجراً فى الآخرة مرصوداً — فيه عوض وجزاء عما فاته فى الدنيا .

* * *

الوجودى يسخر من ذلك كله — فهو ليس فى حاجة إلى عزاء عما يفوته فى دنياه . فليس بعد هذه الدنيا شىء — وسيمارس فيها حياته كما يحلو له .

* * *

والفلاسفة الوجوديون لا يلتقون عند نقطة ابتداء فى شرح مذهبهم أو تحليله . ولا ينتهون عند غاية سواء . . فأنت تراهم لا يدينون بشىء ولا تجمعهم طريق — لأن لب هذه الدعوة هى الذات وحريتها الفردية — ولكل أن يمارسها وفق رغباته .

إن عمر الإنسان محدود على الأرض ، وأيامه فيها معدودة فعليه أن ينتهز فرصته ليعيش أيامه لنفسه فحسب ، مستمداً أسلوب حياته من أهوائه غير مقيد بشىء آخر غير إرادته . ضارباً بكل ما عدا ذلك عرض الأفق . فقد ولد مصادفة والموت سيطوى إن آجلا أو عاجلا سجله ، فعليه أن يعتصر من الدنيا لذائذها . . وأن يكرس عزماته لتحقيق هواه . وليكن بعده الطوفان . . ولتذهب الدنيا بمن فيها وما فيها إلى الجحيم . فما يهمه من ذلك شىء .

الوجودى صاحب نفسه فحسب ، وصديق هواه أولا وأخيراً . لا تقف فى وجه رغباتك . . ولا تلجم شهواتك بقيد ما . .

إن مَثَلَكَ إن فعلت ذلك كمثل من يعترض مجرى السيل ، أو يلقى الأحجار فى مجرى النهر . . دع السيل حراً يتدفق إلى غايته — وهو لا يزعم ذلك فى سذاجة . إنما هناك فلسفة تشرح دقائق هذه التعاليم وتدافع عنها .

* * *

حينما نسلط بعض أضواء الإسلام على الوجودية إنما نعنى بذلك العقيدة . . فالإسلام رمز للعقائد السماوية وبينما يعمل الوجودى على تفتيت المجتمع . . ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه ، نرى أن العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية . . ليتكون من النقط المتفرقة نهراً . . ومن اللبنات الموزعة بناء . . فالعقيدة تجعل الفرد يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التى لا ينضب معينها ولا تضعف .

وبينما الوجودى حين يسير فى حياته فرداً يصبح كالريشة قد تطويه أى ريح .إذا بالعقيدة تجعله مع المجموع قادراً على مواجهة الحياة والأشياء بتلك القوة الجماعية . فلا يحس أنه ضائع ولا يشعر أنه عاجز ، ولا يقيس عمره بأيامه القليلة على الأرض ، وإنما يزنها بميزان الإنسانية الكاملة ، وعمرها الذى يمتد من الأزل إلى الأبد .

* * *

تلك هى وظيفة العقيدة الدينية — وذلك هو أثرها فى النفس والحياة — إن الوجودى يريد أن يكون قويًّا بنفسه .. وهو يغمض عينيه عما سواه . وذاك وضع غير منطقى مع الحياة . . إن مَثَله مثلُ الجندى الخارج من الصف . . يزعم أنه قادر على مواجهة العدو وحده . . إنه يسخر من العرق والعناء الذى تبذله الجموع . . إنه مريض بوهم كبير ويستنكر كل علاج قد يشفيه من هذا الوهم . . .

إنه يظن أنه سيعيش سعيداً . . بينما السعادة الصادقة لن تتيسر بغير العقيدة لأن السعادة هى الخير . . وكل ما نالته البشرية من خير إنما كان بسر العقيدة . . فالعقائد هى التى جمعت الناس كالبنيان المرصوص فى وجه كل شر يراد بهم . . ولو كان الأمر إلى كل فرد يعالج أموره على حدة . . لقضى أيسر الشر على الناس أجمعين .

* * *

وبينما الوجودى يضحى بكل صالح للجماعة فى سبيل ما يرى فيه الخير لنفسه . . إذا بالعقيدة تقدس التضحية بالعمر الفانى فى سبيل الحياة الكبرى التى لا تفنى . . والفرد حين يسلم زمامه لعقيدته سيحس تجاوباً مريحاً مسعداً لأنه ينفذ نظاماً

لا يستقيم أمر الخير على الأرض إلا به .

فالعقيدة هى وحدها التى تمنح الناس المعونة وتمدهم بالمساندة . . وهى التى تحقق للفرد حريته الصادقة . . لأنها ستنقذه من عبودية شهواته . . فالوجودى حين يعلن تحت اسم زائف أنه يريد أن يكون حرًّا من كل قيد حتى يحقق رغباته . . إنما يعطى بذلك إقراراً أنه عبد لهذه الرغبات .

* * *

إن المرء فى ظل العقيدة تصغر فى عينه قوى المال والجاه وقوى المركز والسلطان وقوى الحديد والنار . . فهو يستخلص حريته وينأى بها عن كل المؤثرات بينما الوجودى سينحنى لهذه القوى التى يلتمس عندها تحقيق مرغوبه . . وهو لن يجاهد فى سبيل شىء من المثاليات الصادقة . . فهو بالإضافة إلى عبوديته لذاته سيكون عبئاً على الآخرين لأنه يعتزلهم فلا يشارك فيما يدفع ضرا عامًّا أو يجلب خيراً .

الوجودى إنسان لا قدرة له على الصبر والكفاح . . وهو دائماً مستطار اللب هلوعاً من فكرة الموت . . بينما المؤمن القوى العقيدة يحرص على الموت كى توهب له الحياة .

* * *

إنها لحماقة كبرى أن يتخلى الوجودى عن الفائدة العظمى التى تحققها العقيدة فى سبيل الاستمتاع الوقتى بالحلول الذاتية لمشاكله . . . إنه لن يجد الحل الدائم للمشاكل إلا مع العقيدة التى تسلح تلك الحلول بالقوة التى تكفل لها البقاء .

* * *

وبعض الذين يخدعون ببريق الدعوة الوجودية معذورون .. ذلك لأنهم لم يتذوقوا عقيدة دينية ولم يدرسوها دراسة عميقة تكشف عن جواهرها ((وإذا كان البعض يرى حجته فى الضعف الذى حاق بالأمم الإسلامية وبالمسلمين فى أكثر أحوالهم . فليس ذلك راجعاً إلى ضعف إمكانيات العقيدة فى رسم منهاج متكامل للحياة . وإنما يرجع لابتعاد هؤلاء المسلمين عن جوهر عقيدتهم بحيث أصبح انتماؤهم إليها انتماء لفظيًّا بعيداً عن الروح التطبيقى لمقتضيات هذه العقيدة

* * *

وأريد أن أؤكد ما أشرت إليه مراراً إلى أننى حين أذكر العقيدة الإسلامية فى معرض مناقشة الوجودية . . إنما أعنى كل عقيدة دينية . ذلك أن العقيدة الإسلامية هى عقيدة إنسانية تدعو إلى وحدة متماسكة . وهى منارة تريد أن ترسل

ضوءها إلى كل البقاع . ليهتدى بها كل السائرين بلا تمييز .

إن الوجودى باتجاهاته الفردية ينسف البناء الذى جاهدت الإنسانية على مدار عمرها الطويل فى إقامته . وهو يقطع كل حبل اتفق الناس على الاستمساك به فى مسارب الحياة . ولذلك فإن كل جهد يبذله لن تكون نتيجته ذات قيمة عملية . . إنه يدور فى حلقة مغلقة . . وهذه الحلقة تتخبط فى دورانها وهى تعوق سير القافلة البشرية .

* * *

وإذا كان الوجودى ينشد اللذة . .

فإنه باتجاهاته تلك يحرم نفسه من أكمل وأقوى أنواع اللذات . . وهى اللذة الروحية .

* * *

هذه اللذة البالغة الحلاوة ، حتى إن الإسلام ينهى أتباعه عن الاسترسال فيها . إنها لذة الاستغراق فى الصفاء الوجدانى . . الذى أحسه الرجل الصوفى وهو يسرى فى كيانه ويجعل أيامه ولياليه لذة ناتجة عن فكرة موصولة بأسباب الأرض والسماء . فهو باتحاده فى الكون يشعر بكل ما فيه من جمال فيقول عن نفسه وإخوانه .

نحن فى لذة لو عرفها الملوك لحسدونا عليها .

* * *

والعقيدة الإسلامية تهدف إلى إسعاد البشر فى دنياهم قبل أخراهم وترشد كل إنسان إلى أن يأخذ بحظه من نصيب الدنيا وهى تجمع الناس وتجندهم فى كل حقل من حقول الإنتاج . وتدعو دائماً إلى العمل الجماعى وتجعل العمل قرين الإيمان . . فنى كل آيات القرآن لم يرد الإيمان خلواً من العمل . . إن إيماناً بغير عمل كشجرة بلا ثمر .

والعمل كلمة تعنى دفع العجلة دائماً إلى الأمام ولكن الوجودى حين يختار لنفسه العزلة عن حقول الإنتاج مستمتعاً بهواه . إنما يقاوم عجلة التقدم . وهو بذلك شر على نفسه وعلى الناس .

* * *

إن الوجودى عدو للعقيدة الدينية . فهو عدو لكل شىء . فالعقيدة تدعو إلى الوحدة العامة . من الجماد إلى النبات إلى الحيوان الأعجم — إلى الإنسان الناطق — .

إن الإنسان سيشعر بمسئوليته إزاء هذا كله . . . وعليه تجميع كل شىء كما تتجمع تروس الآلة لينشأ عنها دولاب

ضخم متكامل الأجزاء . . يؤدى الرسالة العظمى التى أرادها الله للناس وجعلهم مستخلفين فى الأرض وكلاء مسئولين عن كل ما فيها .

فالوجودى بوضعه ذاك عدو لله . . والذى يعادى الله . . إنما يعادى كل شىء حتى نفسه .

ويتشدق الوجودى بمعانى الحرية . .

إن العقيدة لا تستمد حريتها الضيقة من معنى أرضى محدود تافه . . إن العقيدة حين تدعو إلى الإيمان بالله إنما تضع نظماً شتى عادلة لكل شىء . . وبهذه النظم يسعد كل إنسان ويجد هناءه .

وما دام هذا الكون من صنع الله . . والخلائق به يهتدون . . فلن يكون هناك وجه للنزاع والتطاحن ، وفى ظل العقيدة يتساوى الجميع فى تحصيل الخير .

فالناس سواسية كأسنان المشط .

ولن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . أنه ارتباط ينشأ عنه السلام على الأرض . . ذلك السلام الذى يحاربه الوجودى حين تتعارض رغباته مع رغبات الآخرين الذين لا يعترف بهم ولا يقيم لهم ولا لمجتمعهم ولا لدينهم وزناً .

فالوجودية مبدأ خطر على الإنسانية وضد قضية السلام .

ونحن الآن فى بلادنا نواجه ألواناً شتى من المشكلات والعوائق ونريد أن نجمع الأمة على ما يسدد خطاها . . فمن الخطأ البين أن ندع أفكارنا تذهب بدداً فى مسارب ملتوية .

إننا فى مسيس الحاجة إلى كل فرد وإلى كل طاقة ولابد أن نواجه ذلك بعقيدة تجمع قوانا .

إن العقيدة وحدها هى التى تسعفنا بالقوة اللازمة لتوحيد الجهود فى كل حقل وكل ميدان .

وإذا كنا قد ألقينا الأضواء على الوجودية من وجهة نظر العقيدة الإسلامية . فإننا سنذهب فى الفصول التالية إلى تفنيد كل مذهب من مذاهبها على انفراد لنكشف عنه النقاب .

سر الوجود كما يراه « مارسل »

كان كيركجارد هو الداعى الأول للوجودية وتدور محاور دعوته حول الذات وتجميد نزعاتها ثم انطلاقها بعد ذلك فى انبعاث حر من كل قيد . . ثم كان للوجودية دعاة آخرون . منهم جبريل مارسيل ، وهو صاحب فلسفة خاصة ، فإذا كانت أهم مبادئ الوجودية هى الانفرادية فكل إنسان إذاً يختلف عن الآخر فى اتجاهه الوجودى مادام يرى نفسه حراً فى اختيار مذهبه ومن ثم تكون لكل إنسان فلسفته الخاصة المستمدة من تفكيره الذاتى ، وعلى هذا فإن لمارسيل فلسفته التى نادى بها عام ١٨٨٩

إن محور فلسفته الوجودية هو الجسد ، فكل إنسان تنبه إلى أول شىء فى وجوده فوجد جسده ، فالجسد الإنسانى هو الأصل الذى وجدت الذات فيه نفسها ، ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجى لتحقيق الاتجاهات الوجودية . . فأنا لا أقيس أى شىء إلا بمقدار ما يتأثر به جسدى ، فهناك شركة يتكون منها الوجود الإنسانى الجسد والذات والأحاسيس

والجسد غير مرتبط بصورة سابقة لوجوده ـ عمارة قائمة لا صلة لها بالمهندس الذى أقامها ولا تعترف به ولا بالتصميم الذى أقامها على صورته ورسمه ، بل على هذه العمارة أن تهندس نفسها منذ اكتشفت وجودها وعليها أن تخلق عالمها .

* * *

ومن هنا قد يسير مارسيل خطوات عن أستاذه كيركجارد نحو الصلة بالعالم الخارجى فنفهم منه أن الجسد فى تنفيذ أحاسيسه ينشأ عنه ما يسمى بالفلك الوجودى الذى يدور فيه ويتأثر به .

ونفهم منه أيضاً أن أحاسيس الوجودى تبدأ من الجسد وتتجه إلى فوق لتنطلق باستمرار متجهة إلى الأعلى متخذة لها معراجاً تصعد به نحو المطلق ، الوجودية تتركز تركيزاً تاماً فى قوة إيجابية صاعدة نحو الذات المطلقة ولكنه لا يحدد لها سلماً ترقى عليه ولا مصعداً تصعد به ، حسبها أن تنطلق متحررة من كل قيد بشرط أن تتجه إلى الأعلى دون أن تعرف بالضبط ما هو المفهوم من الاتجاه إلى الأعلى ما دام لا توجد هناك مناهج ولا خطط مرسومة ولا أهداف معينة ، ولكن المهم هو أن الوجود عنده أن يخلق الإنسان إرادته ويتجه بها إلى التعالى

على الدوام ، فإنني وجدت لأعلو ثم أعلو حتى أصل إلى الوجود المطلق .

ولك العذر إذا وجدت إطاراً يتكون من هذه الألفاظ وليس بداخل الإطار صورة واضحة المعالم .

إن مفهوم هذا الكلام أنه لون من ألوان الاتجاه إلى الله .

هكذا نفهم إذا ترجمنا الألفاظ إلى لغة المتصوفة وحينئذ يفرح رجل الدين ويهلل الفيلسوف المؤمن مارسيل .

ولكنه لا يحدد لنا ما نطمئن إليه لهذا الزعم فهو لم يرسم صورة واحدة نقتدى بها فى ذلك التعالى الوجودى ، حسب المرء أن يجتهد فى دمج وجوده بالذات المطلقة ، ولما كان كل إنسان يختلف عن سواه فى الفهم الحر الاختيارى فلن تستطيع تحديد صورة واحدة لما يعنيه بالضبط مارسيل

* * *

ومارسيل يعود إلى فكرة الفلك الوجودى فيقول إنه يعنى أن الذات تسير فى مدار الوجود شاعرة بشخصيتها منفردة بطابعها ، فلا تكون مطية أبداً للمجتمع ولا تفنى فيه فكل ذات عليها أن تذهب فى تنفيذ مواهبها بوحى إرادتها أثناء هذا الانطلاق إلى فوق دون الاندماج مع الآخرين ، فالوجودى

لا يدع نفسه ذرة تائهة فى الصحراء ، بل يعمل فى صحراء الحياة مقيماً حوله سياجاً منفذاً بقوة اختيارية مشيئته وأن هذا التفرد ضرورى ولا مجال للمساومة فيه ، لأن الاندماج مع الغير هروب من المسئولية التى هى إحدى المحاور الأساسية للوجودية .. لابد إذن من المسئولية الذاتية .

المسئولية الكاملة الخلاقة التى تجعل الإنسان خالق نفسه ، أى خالق اتجاهاته الوجودية ، فالوجودية تزداد وجوداً كلما ازدادت تفرداً دون نظر من الوجودى إلى ما حوله ، ومن حوله فهم مجرد آلات تعاونه أو تساعده من بعيد

* * *

ولكن الشعور بالوجودية يقتضى وجود آخرين حتى تنشأ المسئولية لأنه لو لم يوجد الغير ، لما كانت هناك صلات ولا ارتباطات أو أعمال وهى كلها ضرورة الوجود لممارسة الوجود ذاته فى اتجاهاته ، ومن هنا فإن وجود الغير ضرورى لأنه العامل المسبب لإبراز وجودها وإيجاد فرص للاختيار والمسئولية .

ومن هنا يبدو أن مارسيل يتقدم فى حرص انفرادى نحو المجتمع بعض خطوات ، فيجعل هناك صلة ضرورية بخارج الذات . . . بل هو يجعل العالم جزء من وجودنا لا يتحقق الوجود

الذاتى إلا به فأنا لا أتكلم إلا إذا كان هناك من يسمعنى ولا أنظر إلا إذا كان هناك ما يرى .

فالأشياء والناس هى آلات نمارس عن طريقها وجودنا وبذلك يبدأ نوع من الاتصال الحسى يظل يتدرج ويسمو حتى يصل إلى نوع من الاتصال العاطفى يبدو فى الحب فأنا لا يمكن أن أمارس عاطفة الحب ما لم أدخل فى وجودى العاطفى شخصاً محبوباً ثم يتدرج أكثر من ذلك إلى مشكلة الخلود .

ولعل هذا التدرج من الحس إلى العاطفة إلى الخلود هو ما يطلق عليه الانطلاق الوجودى إلى التعالى فهو يرى أن الخلود مشكلة .

ولكنه يعترف بالخلود ، فالإنسان يموت ويتحلل جسده ولكننى قد أظل أذكره كما لو كان موجوداً فهو خالد فى نفسى إن شئت استحضرت صورته وإن شئت استعدت كلامه وكأننى أسمعه وإن شئت تصورته قائماً يذهب أمامى ويجىء . . وكلنا جرب هذا الشعور من استحضار صورة عزيز مات فى مخيلتنا .

* * *

فالوجودية عند مارسيل تبدأ من الإنسان باعتباره جسداً غير مرتبط بأشياء سابقة ثم يذهب مع هذا الجسد بعد أن يقيم حوله حصناً ذاتياً ليقيم له صلات بالناس والأشياء ثم يتدرج إلى العاطفة ثم إلى الزمن الذى يقهره فى تعاليه بتخليد الصور التى يريدها .

ولو أن مارسل جعل القيم الإنسانية والفضائل أساساً يرتبط به الإنسان فى تنفيذ هذا التدرج . . إذن لمددت إليه يدى كمسلم يفهم دينه لأقول له إنى معك

ولكنه لم يفعل

* * *

قد تكون هناك محاسن لهذه الوجودية إذا صادفت نفساً نقية ، وذلك أنها تجند القوى الذاتية لتنفيذ أغراض الذات ، فمن الخير إذن أن تكون أغراض الذات مدروسة دراسة جندت لها عقول العالم المفكرة والنظم السماوية المقدسة حتى لا تضيع هذه الجهود الذاتية المجندة لخدمة الذات فى تنفيذ اتجاهات سلبية تنخدع بها النفس فى حالة عدم ارتباطها بموازين ومقاييس

* * *

ولو حدث ذلك لكان من محاسن هذه الوجودية ، اليقظة التامة لدفع كل ذرة من ذرات الوجودى الإنسانى لتنفيذ الهدف إذا كان الهدف إيجابيًّا .

ولو حدث هذا لكان لها محاسن أخرى منها تنمية الشخصية الاستقلالية .

ولكن هذه المحاسن لابد أن يشترط لقيامها أن تكون الوجودية قائمة على أسس إيجابية سبق أن حددها الوجود الإنسانى باعتبارها أصلح صورة للإنسان المثالى ثم تأتى الوجودية فتجعل الذات مجندة فى سبيل تحقيق هذه الصورة المثالية وتستهدفها فى أعمالها .

* * *

القدر . . والوجودية

هل الوجودى قادر حتماً على تحقيق وجوديته . . ؟ وإذا لم يكن فما جدوى هذا العناء ؟ هل من الضرورى أن ينتهى اختيارى لعمل ما إلى النتيجة التى أرجوها ؟ إن أحداً لا يمكن أن يقطع بذلك ، فإن المرء لابد أن ينحنى للقدر وينزل إن راضياً أو راغماً على أحكامه وإذا كنت مستعداً دائماً أبداً لاحتمال المسئولية ، فليس هذا معناه وجوب تحقيق الأمر الذى يقع عليه اختيارى ، هنالك القوة التى تدعنا نعبث ونلعب فتهدم هى ما عبثنا به وما لعبنا ، وما كنا نظن أننا قادرون عليه .

فالوجودية لا يمكن أبداً أن تجعل الفعل الذى استهدفه واجب الحدوث ، إنها قد تكون منطقية لو أن للإنسان قدرة حتمية على تكييف وجوده . . أو كان قد خلق بناء على إرادته ، أما أن تكون الذات قد فرضت فرضاً ، وهى معلقة بخيط القدر ثم تزعم هذه الذات أنها حرة حرية كاملة فإن ذلك بعيد عن المنطق ،

إن القط قد يتربص لبعض الجرذان ، ثم يدعها وهى

تحت سيطرة مخالبه تلعب وتمرح ليلهو بها إلى حين ، فلو زعمت أن لها حرية المرح والعبث فإن مخالبه هى الحقيقة القائمة التى تكذب هذا الزعم . . . إن المخالب هى التى تحدد نوع ومصير الحرية التى يزعمها لنفسه الجرذ الصغير.

وليس معنى هذا أن يقف الإنسان رافعاً يديه مغمضاً عينيه مستسلماً للعاصفة وإنما عليه أن يدرك من أين تهب العاصفة ثم يحتمى منها بالحصون التى أقامها على مر الزمن . . العقل والدين . . وليس من الحق أن أزعم أن هذه الحصون تفنى وجودى وتلاشى شخصيتى لأننى لم أصنعها . . كيف أزعم هذا وأنا لم أصنع نفسى ولم يكن لى فى وجودى إرادة أو اختيار ؟

* * *

فالإنسان عاجز عن تحقيق وجوده تحقيقاً كاملا كما يشتهى حتى ولو هيئت له أسباب النجاح ذلك لأن الإرادة المنبعثة من الذات لتحقيق العمل تختلف قوة وضعفاً لأسباب لا دخل لى فى صنعها كالصحة والذكاء والوراثة والإمكانيات المختلفة التى لا سلطان لى عليها ، إن أسباباً أخرى تتداخل بالرغم منى لتشترك فى تحديد خط سيرى .

ومعنى هذا أننى لست حرًّا بالوصف الذى يتطلبه الوجودى

أن الفيلسوف « يسبرز » يقرر معى هذا المذهب من أنه من المستحيل أن تعيش ذات معتمدة اعتماداً كلياً على إرادتها فحسب وأن الذات لا تمارس خصائصها إلا فى النطاق العام .

إن هذا الوجودى الكبير قد ابتدأ من الصحراء ضالا فأبى أن يسأل عن الطريق وبعد عناء وطول جهد التقى بالناس فى بعض المنحنيات ، ولكنه لا يعترف بأن هذا الالتقاء هو الهدى أو هو من حكمة القدر ولا يندمج مع الآخرين ويسير بعد ذلك كما يلتقى الجندى بفرقته فى الجيش فيسير معها بعد أن ظل زمناً ضالا فى طريقه عنها وإنما يظل منفذاً لتعاليمه الذاتية فلا اندماج فى خطوات ولا اشتراك فى هدف وإنما علاقات عابرة قائمة على تحقيق المنفعة الذاتية دون نظر إلى نظام الجيش الذى ينتمى إليه

* * *

لقد التقى « يسبرز » الفيلسوف الوجودى مع الناس فى بعض الطريق ثم راح يشق له بينهم ممراً خاصاً على هواه ، وهو فى الواقع يهتدى بهم أثناء سيره معهم لأنه مدفوع مع المجموعة ، وهذا أمر مستحيل التحقيق وإذ سينشأ عنه كثير من الخلل والاضطراب ومعنى هذا أن ما يزعمه الوجودى عن

إمكان الاعتماد الكلى على فرض ذاتيته هو زعم غير واقعى وأنه يطلق على تصرفاته اسماً حلواً فى بعض الأسماء ولكنه لايدل على معنى صادق أو على كل المعنى المقصود

* * *

لو قلت هذ القول للوجوديين فلن يسلموا به ، سيلفون كعادتهم ويدورون ويقولون لك .. ان الفيلسوف « يسبرز » إذا كان قد جعل العلاقة مع الآخرين أساساً للوجود فليس معنى هذا أن الوجودية تستند إلى ما سواها وإنما هى فقط تستمد من هذا العلاقات الغيرية أحجاراً تبنى بها طريقها الذ تى أو أسباباً تبلغ بها المراد .

معنى هذا أن الوجودى لا يمكن أن يكون زوجاً أو أباً لأن اتجاهات الحياة الزوجية أو العائلية قد تتعارض مع اتجاهاته الذاتية ومن ثم فهو يعانى فراغاً فى العلاقات الروحية هذا الفراغ العجيب الذى لن يستعيض عنه الوجودى بشئ مما تمتلئ به حياة الناس ، وربما كان هذا مفتاح السر فى تقدير الألم والخطيئة ذلك أن الإنسان يجب أن يسير فإذا لم يذهب مع القافلة يميناً فإنه سيذهب شمالا والنفس كالزجاجة الفارغة إذا لم تملأ بشئ ما ملأها الهواء ، والهواء عند الوجودية هو

الألم والقلق والخطيئة وربما كان هذا انتقاماً حتمياً من الحياة ، من الذين ينحرفون عن طريقها الطبعى المرسوم .

* * *

ولو انقلب الناس جميعاً وجوديين لما كان هناك إنسان يهتم بما يصيب الآخر ، فواقع كلها فى القاع منها ما يتحرك ومنها ما يغوص فى الطين فالذى ينجح فله نجاحه والذى يفشل فليذهب إلى الجحيم ، ذلك لأن القوقعة الوجودية لا تهتم بغير ذاتها ما لم يكن هناك شىء يأتى مصادفة . . . وهى تعترف بأن الآخرين ليسوا سوى آلات ينتفع بها فى تحقيق الذات ، كالكاتب الذى يتحطم فى يده القلم فيلقى به ويتناول سواه بلا حزن . ستنشأ من هنا للناس آلام . . . فليكن . . فإن الألم مقدس لأنه ضرورة لابد منها بل هو الحافز للإحساس بالقوة الوجودية ومن الضعف أن يستمع الوجودى إلى ما يقوله رجل الدين عن السلوان والعزاء ، إنه يسد أذنيه حتى لا تتلوث وجوديته بما قد يذهب بألمه فهو لا يريد أن يعلم بأنه . . . (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

إنه يرى أن ما يحبه وما يريده هو الخير المنطبق تمام الانطباق

على وجوديته وإلا فلا

* * *

على أن فلسفة يسبرز الوجودى لا تخلو من شيء جديد بالتفكير ويقرب أن يكون تسليماً بنظرية القضاء والقدر فهو يرى أن الله هو الكمال المطلق أو هو المعنى المضاد للفشل فإن كل شيء لا يكون قائماً إلا إذا وجد ضده فوجود الليل يقتضى وجود النهار ليتميز كل منهما عن الآخر وقس على ذلك وجود الأبيض بوجود الأسود ووجود الحياة بوجود الموت ، فوجود الفشل يدل على وجود كمال ، وبما أننا لانجد فى الدنيا كمالا مطلقاً ، فلابد إذن من أن تكون هناك فى الحياة ألوان مختلفة من الفشل ليكون هناك فى الجانب الآخر كمال مطلق هو الله .

* * *

أهداف الوجود الإنسانى

يقف طلاب الحقيقة طويلا عند العمق الكامن فى فلسفة الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر (١٩٠٠) إذ يبدو أن فلسفته الوجودية تدور حول أهداف الوجود الإنسانى أو الغاية المطلقة من الوجود ، فهو قد لا يكون وجودياً على طريقة الفلاسفة الوجوديين الآخرين ، فقد ذكرنا أن الفلسفة الوجودية فلسفة ذاتية تختلف باختلاف ما يراه كل إنسان ، لأن الأمر لا يدور على محاور ثابتة لا تتغير.

فالإنسان عند هيدجر خلق لتحقيق رسالة السمو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائماً وهو اتجاه مثالى تنشرح له صدور الذين يؤمنون بالله وبالعقل وبالحياة ، ولكن ليس علينا أن نتلقى هذه البداية بقرع طبول التفاؤل فهيا بنا نمش على حذر مع هيدجر فإذا استحق أن نصفق له فعلت ذلك كمسلم فاهم لأصول دينه غير متعصب وإنما غيور على الأصول المقدسة.

* * *

إن البداية مع هيدجر مشجعة ولا شك ، فهو يرى الإنسان

ليس باعتباره جسداً موجوداً كما فعل يسبرز وإنما باعتباره المخلوق الوحيد المسئول عن الكون وعمارة الأرض والذى يمتاز عن سائر المخلوقات بأن مجال نشاطه هو فهم الطبيعة ودراسة أسرارها واستغلالها فهو وحده أى الإنسان الحاصل على شرف الوجود ، وما عداه فآلات مسخرة له . . فوجود الإنسان يتحدد من رسالته فهو إذن الكائن الوحيد الموجود وما عداه فليس وجوده أساساً .

وإذن فقد بدأنا . . بدأنا ننظر إلى الوجودية من خلال منظار واضح .

* * *

والإنسان عند هيدجر ليس مستوحداً منفرداً بذاته ، وإنما لابد له من علاقة مع الوجود البشرى العام ، فتحقيق رسالة وجوده مرتبط بذلك . فإذا انطوى ذلك الإنسان على نفسه واعتقل ذاته داخل قوقعته دون أى صلة بالغير فقد أنهى بيده وجوده . . . واختار العدم فهناك صلة ما بين وجود الإنسان كفرد وصلته بالكون كوجود عام ، أى بين الموجود والوجود ذاته وهذه الصلة تنشأ عنها التزامات

* * *

ولكنه حين يعطى الإنسان هذا الضوء ويفتح له الطريق يحذره من الطريق ومن الناس ومن الجنوح إلى الرأى العام وإلا استحال وجوده الذاتى إلى شبه وجود أو وجود مائع إياك وأن تجعل رأيك يضيع فى خضم هائل كما تضيع قطرة الماء فى المحيط .

لا تجعل نفسك صورة من صور الناس فهم يجنحون إلى لذة الكسل والثرثرة ، كن سيد نفسك وأفكارك وانأ بنفسك عن ضغط المجتمع ، إنك فى حرب مع العالم ، وجدت فيه بالرغم منك ... وهو يعلمك أنك تريد أن تنتصر على الظروف والزمن والطبيعة وتأخذ ما فى يد سواك فالجميع فى مقاومة تنشأ لك منها المتاعب والآلام ، فيجب أن تواجه هذه الحقيقة وأن تلقاها وجهاً لوجه وأن تعض بالنواجز على القلق الناتج من ذلك فهذا القلق ضرورى ولابد منه لإشعال حماس النفس فهو منبه الذات والمحذر لها من كل ما يريد أن يشدها إلى الفناء

* * *

والواقع أننى حين أريد أن أجرب هذه النظرية أجد أن الحياة المليئة بالقلق قد تنتهى إلى تحطيم صاحبها ، لأنها مخالفة لطبيعة الحياة نفسها فليس الوجود عدواً لى وإنما كل ما فى

الكون صديق لى يريد معاونتى فى تحقيق رسالتى الإنسانية ، والله قد خلقه وسخره لهذا وقد يكون بينى وبين الناس والوجود العام نضال أو كفاح ، ولكنه أشبه ما يكون بالمباراة الرياضية لا عداوة فيها للمتبارين ، والانتصار الرياضى هو انتصار للغالب والمغلوب لأنه نصر للهدف الرياضى ذاته والفكرة الرياضية بصفة عامة .

على هذا يمكن تحقيق النجاح والاطمئنان إلى الحياة والسير معها ومع الناس فى رضى بلا قلق ولا خوف كما يريد هيدجر . والنظرية التى تقول بأنه على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح هى نظرية سليمة أثبت الزمن والتجارب صدقها ، وليست الراحة الإنسانية ضعفاً بشرياً ، فإن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإنما خلق ليؤدى رسالته وهو راض عن نفسه وعن الحياة بلا خوف منها .

إن هذا الاسترسال يدفعنا إلى التساؤل . . . لماذا خلقنا . . ؟

وهيدجر الفيلسوف الوجودى يجيب بأننا خلقنا لنموت . . لكى نكون فى نهاية الأمر فريسة للعدم وقد يمكن الرد على هيدجر فى هذه النقطة بأنه ما قيمة الخوف والقلق إذن ؟ إذا كانا لن يغنيا عن النهاية شيئاً . ؟

وهل حقاً أن الإنسان قد خلق لينتهى إلى العدم أم أنه خلق ليحيا ويتطور من حياة إلى حياة أفضل أن يقوم بتطوير نفسه فى هدوء حتى يلقى الله فى النهاية السعيدة لأن الإنسان يستأنف حياته الأخرى على الصورة التى مات عليها أى على الدرجة التى وصل إليها فى حياته فيبدأ الحياة الروحية من حيث انتهت الحياة الأرضية .

* * *

(إن هيدجر فى رعب دائم من الموت إننا سنموت والموت شىء مخيف فيجب أن نخافه .)

ولكن لماذا كان الموت مخيفاً ؟

إنه مشفق من الموت لأنه التجربة الوحيدة التى يعانيها المرء ثم يطوى على حقيقتها نفسه فلا يعود ليتحدث بها إلى الناس ويمارس ما تعلمه منها .

فإذا كان هيدجر يخاف الموت لأنه شىء مجهول والمجهول يخاف ، وإذا كان هيدجر أيضاً لا يريد أن يستمع إلى ما يقوله الله تعالى عن الموت فإنه بالمنطق لن يخرج عن أحد أمرين :

١ ــ إما أن يكون فناء مطلقاً وإذا فقد ارتاح الوجودى من ذاته التى أتعبته طويلا وعذبها وعذبته .

٢ – وإما أن يكون تحولا إلى عالم آخر فى رحلة من نوع جديد فيجب أن يسر الوجودى لفرصة القيام بتجربة جديدة وكلا الفرضين يجب أن يطمئن من أجلهما هيدجر فلا يخيف الناس .

* * *

على أن هيدجر المثالى فى بعض نواحيه يبدو فى نواح أخرى أكثر تزمتاً من سواه من أباطرة الوجوديين فقد تفهم أنه يقول فى نظرية له بأن الإنسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن يحققها ليصبح موجوداً وهو غير مرتبط طبعاً فى عمليات التحويل الوجودى بالعقل أو بالدين بل عليه أن يسير وحده حسب توجيهات الصاروخ الذاتى الذى يدفعه حتى يقف بالرغم منه عند المحطة المكتوب عليها لافتة باسم الموت .

* * *

وطبيعى أن هذه العملية سيلازمها الهم لأن الإنسان يسير غير مستعين لا بالله ولا بالعقل ولا بشىء آخر فهو يحمل همه على ظهره ويصعد الجبال أو يخوض البحار أو يغرق فى اليم أو تنوشه السباع وليس له أن يستغيث أو يطلب النجدة

أو المعونة لأنه لو فعل لفتح باب الغير كى يقتحم وجوده .
وبينما نحن فى هذه الظلمات إذا بالحقائق البسيطة السهلة تسخر منا فإذا كان الوجود الإنسانى هو الشعلة التى أراد الله بها أن يضىء ناحية من الوجود فعلى الإنسان أن يحملها راضياً حتى إذا انتهى فى الطريق إلى المحطة النهائية ووجد هناك من يريد أن يستلم منه الشعلة ليستمر فى عمله الأرضى ثم يعود هو إلى المكان الذى انتدبه منه الله فى أول الأمر ألقى بالتحية راضياً للمتخلفين بعده على الأرض ثم انحنى لهم فى تقدير وتوارى فى عالمه بلا ضجة ولا غم ولا تعقيد للأمور .

* * *

الوجود . . واللاوجود

سارتر هو عميد الوجوديين الحالى والمسئول الأول عن كثير من اتجاهاتها الحقيقية فى هذه الأيام وهو الكاشف عن كثير من الأمور الشاذة التى عليها فلسفته .

والوجودية عنده نوعان . وجود ثابت وهو وجود الأشياء الجامدة الثابتة على ما خلقت عليه والإنسان وهو الموجود المتغير النزاع إلى تحقيق شيء ما وهذا الشئ هو شغله الشاغل باستمرار لاهثاً مجهداً خلف الانبثاقات الذاتية التى تنبثق منه وتسبقه وعليه أن يلحق بها . هذه الإرادة الذاتية المنطلقة أمامه ترتسم أمام عينيه على هيئة صورته التى يجب أن يكونها وهذه الصورة التى هو مطالب بتحقيقها لا تستقر أبداً أنها باستمرار أمام عينيه وهو يريد أن يلحق بها ويدخل فيها ويحقق بهذه النهاية ذاته .

وهو يشارك أساطين الوجوديين السابقين من أن الإنسان ليس عليه أن يستعين بالدين أو العقل أو نظريات وضعها

غيره فى تحقيق وجوده لأن ذلك يفسد هذا الوجود .

* * *

ونحن نرى أن سارتر يرمى إلى أن الأصل فى الوجود هو اللاوجود . هو الفناء . . والإنسان يحاول أن يوجد نفسه أى يخرج بذاته من اللاوجود .. من الجمود .. من العدم فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الإرادى للفعل هى المحاولات اللازمة لتحقيق الوجود وليس هناك إله عليك أن تستمع لتعاليمه لأن الوجودى لا يسمع نصحاً ولا وصية ولا موعظة وإنما عليه هو بممارسة التجارب الوجودية أن يصل إلى الصفات التى تصبح علماً عليه . . ولقد ندرك أن سارتر يزعم بأن الإنسان هو الذى خلق فكرة الله لأن الإنسان له الحرية الكاملة فى اختيار صفاته وتحقيق وجوده وهذه الحرية غالية الثمن وصعبة فى ممارستها وتكلفه هموماً ومتاعب ومسئولية فالإنسان فى طور من أطوار عجزه أراد أن يريح نفسه من أنه غير قادر على تحقيق رسالة فاعتنق فكرة وجود الله لينسب إليه أسباب فشله الذاتى وليعزى نفسه بأنه لم يستطع أداء هذا العمل لا لأنه عاجز بل لأن الله لا يريده فيغمض الإنسان عينيه أمام متاعب المسئوليات ويهز كتفيه ويستغفر ربه ويجنح إلى الراحة .

وعلى هذه الصورة يزعم سارتر أن الله غير موجود ولكن الإنسان هو الذى خلقه للأسباب التى لخصناها .

* * *

وهكذا ترى أن الإنسان حيثما اتجه مع الوجوديين لن يظفر بشىء سوى الدوران مع ألفاظ حادة ذات تعبيرات ملتوية قد يجد فيها بعض ذوى النفوس المعذبة راحة أو حافزاً لاحتمال العذاب أو مبرراً لاستمرار نوع خاص من السلوك .

إن للوجودية فى بعض حالاتها جوانب مشرقة ولكنه إشراق زائف كإشراق قطع الزجاج الملقاة تحت أشعة الشمس فى صحراء وهى فى الأعم الأغلب تهدم فى نفس الإنسان الماضى والحاضر والمستقبل فى سبيل إشعار النفس بنشوة الكبرياء وإقناع الوجودى أن الثمن الضخم الذى يتحمله يعادل هذه النشوة الذاتية المتعالية

على الوجودى أن يقف بالعصا فى طريق كل ما هو مقدس فإن هوت النفس إلى شىء من ذلك لوى عنانها فى قسوة إلى الداخل لتعاود تدريب نفسها تدريباً على الوحدة والتميز الانفرادى ثم تعاود الانطلاق إلى الخارج لتنفيذ الشحنة المغلفة بأغراض الذات « وسارتر » يسمى هذه العملية حرية وذلك لأن

الحرية جزء منا لا نستطيع التخلص منها لأنها هى الوجود فإذا تخلصنا من الحرية لم نكن فى حالة وجود وإنما نكون قد أسلمنا أنفسنا إلى العدم .

* * *

إن النفس وجدت فى هذا الكون بدون إرادة منها فكأنما هى تنتقم لنفسها بأن تنفذ ما تشاء غير مقيدة بالقوى الخالقة الموجهة كالسجين المتمرد على سجانه، إنه سيغضب على ذلك السجان ويخالفه وسيكون من أجل ذلك خائفاً يترقب فهو فى حالة قلق مستمر وهو يقول لنفسه فليكن ، فإن هذه هى الحرية التى يمارسها داخل السجن لأن الرضوخ لأوامر السجان هى الاعتراف بالسجن هى إعدام الحرية وإفناء الوجود وتسأله لماذا لا تريد أن تحيا فى هدوء ؟ فيجيب .. هدوء ؟ إننى أريد أن أكون حراً رغم سجنى إننى أحقق وجودى الحر الذاتى والمتاعب التى أتحملها هى ثمن هذه الحرية .

* * *

حينما يجتمع اثنان لأداء عمل متشابه من الأعمال أحدهما وجودى والآخر عبد من عباد الله فإن عبد الله سيقول لقد جرب هذا الموضوع من قبل فلان أخى أو صديقى وفاز فيه

بخير كثير ثم إن طريقته متفقة مع النظم والمثل والتعديل البسيط الذى اقترحه هو كذا ليكون الأمر أكثر نفعاً فإذا نجح عبد الله هذا ازداد استبشاراً وشكر ربه وإذا فشل قال لنفسه لم يكن فى وسعى أكثر من هذا لقد بذلت جهدى ثم كانت إرادة الله .

ولكن السيد الوجودى لن يرضى بهذا الأسلوب ، سيغمض عينيه ويغوص فى أعماق ذاته يتلقى منها الإلهام ثم يجعل إرادته تتجسد وتندفع خارجة لتجره وراءها فى قوة وحماس ثم يحس قلقاً يرج كيانه لأنه فى اختياره غير مستند إلى قوة تحميه أو رأى يعضده والنجاح والفشل عنده سيان ، ذلك أن الحقيقة عنده هى الانطلاق ، هى مجرد الحركة نحو تحقيق رغبات الذات .

* * *

ويظهر أن الوجوديين يستعملون كلمة الحرية استعمالا عكسياً فلست أدرى أيهما أكثر حرية ؟ أذلك الذى يجد الشجاعة الكافية لتضحية . أهوائه فى سبيل الأخذ بفكرة أثبت العقل والدين صلاحيتها ؟ أم الطفل الذى يريد أن يحصل على اللعبة ويلهو بها وله حرية تحطيمها ؟

إن الإنسان خلق على صفات وأخلاق وعادات لم يصنعها هو بنفسه لكى يكون له الحق فى الادعاء أنه ينفذ أهداف

ما صنع وإنما هو يتصرف طبقاً لما أودع فيه بالرغم عنه من صفات فإذا لم يهتد بالإرادة الخالقة فى تسيير هذه الآلة الإنسانية بما علم صانعها من أسباب الخير لها كان خائناً لهذه الآلة الإنسانية التى هو أمين عليها وخائناً لوجودها لأن تحقيق وجودها الطبيعى رهن بتحقيق رسالتها التى حددها لها صانعها وفقاً للنظم التى تثبت صلاحيتها سواء كانت أخلاقية أو اجتماعية .

ففهم الحرية هنا فهم غير أمين : إن السائق ليس حراً فى استعمال السيارة بطريقة قد تحطمها وإنما هو مكلف أن يسوقها فى حرية وفقاً لإمكانياتها ومدى احتمالها فى حدود التصميم الذى أوصى به المهندس والمخترع

* * *

والحب . . .

تلك العاطفة الحلوة الرقيقة التى هى أجمل ما فى الوجود الإنسانى عليها يتعارف الناس وتكون بينهم المودة وبها تتغذى الفنون ويتغنى الشعراء .

إن للوجودية فيها رأياً

ذلك أن الحب مشاركة وجدانية .

وهذه المشاركة تقتضينى أن أضحى بأشياء من أجل

الحب ذاته أو الحبيب .

ولكن الوجودية لا تريدك أن تبذل شيئاً أو تتنزل عن شىء لأن ذلك إنفاق من خزينة الذات يذهب بقليل أو كثير من ثروتها الوجودية .

فالحب ليس مشاركة عاطفية عند الوجودية . . لأن المشاركة معناها أن الذات فتحت بابها لذات أخرى . وإنما الحب استمتاع فردى كل من الحبيبين يقف على شاطئ وهذا يقذف لذلك بقدر ما يعطى الآخر... أى أن الحب تبادل متعة بل هو نوع من الصراع يحاول كل طرف أن يحصل لنفسه فيه على متعة من الطرف الآخر كعملية البيع والشراء والأخذ والعطاء والبضاعة فى حدود الثمن ثم يذهب البائع والمشترى كل إلى حال سبيله فإذا كانت هذه هى نظرة الوجودية إلى أسمى ما فى الوجود وهو الحب الذى تهتز به النفس وتمتلئ وتسعد وتجد فى الفناء فيه تحقيقاً لأسمى تضحية أمكننا أن نحكم على قيمة الحياة نفسها فى نظر الوجودية .

إن كيركيجارد زعيم الوجودية الأول وقع فى الحب ولكنه حطم قلبه ولم يتزوج حتى لا يكسر جناح الحرية وآثر أن يكون وجودياً .

إن جنون الحاكم بأمر الله يمكن بهذا القياس أن يجعله زعيماً كبيراً من زعماء الوجودية ذلك أنه كان يقتل أحبابه وأصحابه حتى لا يكون رجلا ضعيفاً تأسره العاطفة فتفتح ذاته لشخصية أخرى تشاركه وجوده .

إنه يطعن عواطفه ويقف على أشلائها ناعماً بنشوة الحرية حرية الخلاص من أسر الحب والعاطفة ورباطها المقدس .

فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها إلى شيء ليس لها إرادة فى اختياره ولو كان فى هذا الشيء نعيم الحياة ولذتها العليا فالوجودية تعادى من يحاول أن يجذبها إلى نظم الحياة ويذيقها برد الراحة بينما هى تريد أن تظل تضرب على غير هدى فى صحراء نارية وتقطع اليد التى تحاول أن تجفف عرقها ، أليس الوجودى يريد أن يكون خالقاً . ؟ . والخالق لا يتخذ صاحبة ولا ولداً وليس له كفواً أحد !!

وهكذا يتخبط « سارتر » حتى يضل وينتهى بالرد على نفسه بما لا يحوجنا إلى تعليق فيقول إن الإنسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغى فيظل هائماً وراء الوجود المثالى الذى يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه .

فليظل هكذا ما دام كذلك قد وجد .

* * *

من هم الوجوديون . . ؟

تسربت الفكرة الوجودية إلى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب فراغاً روحيًّا هائلا ونهض الذين قضى عليهم أن يستأنفوا الحياة من تحت أنقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجوههم غبار الانهيار الذى انهارت معه أعصابهم ليروا كل شىء قد ذهب . . . المال . . والجاه . . والزوجات . . والأولاد . . فأصيبت القيم المعنوية التى عجزت عن أن تدخل العزاء إلى النفوس بتصدع كبير .

وكان لابد لكثير من الناس أن يجد له واحة يصنعها بنفسه يستمد منها فلسفته الجديدة يستطيب معها احتمال آلامه فبرزت الوجودية من مخبئها القديم وراحت تنادى بالدين الجديد فى الظرف المناسب .

وكان المرعى الخصيب للدعوة الوجودية هو أوساط الشباب حيث كل جديد يبدو براقاً وحيث لا توجد فى أعماق النفس من التجربة والخبرة مقاييس تقف أمام هذا الدين الجديد بكل زخارفه وألوانه .

وساعد على هذا أن رجال الدين فى كثير من البلاد لم ينهضوا ليقدموا للناس العزاء بصورة واقعية ولا لتصوير الدين تصويراً صادقاً ترتاح إليه النفوس المعذبة قبل أن يخطف أبصارها بريق الوجودية .

وهناك طائفة أخرى من أتباع كل جديد من الذين يسارعون إلى اعتناق كل فكرة جديدة باعتبار أن هذا التصرف يكسبهم فى نظر الغير لوناً تقدمياً فلا يتهمون بالتأخر ولا بالرجعية وهؤلاء كثيراً ما يسيئون إلى الوجودية أكثر مما يحسنون إليها لأن انتسابهم إليها وفهمهم لها يعتبر سبة فى جبينها فإنها مهما كانت من هوان الشأن فإن لها فى بعض جوانبها ناحية مشرقة فإنك يمكن أن تجد فى كل شر ناحية خير .

فراح كثير من الوجوديين يلبسون مذهبهم ثوب التهريج ويخلعون على هذا التهريج لوناً من ألوان القداسة ويجندون فى سبيل الدفاع عن ذلك حشوداً من الألفاظ المرنة المطاطة التى تحمل كثيراً من المعانى والتى فيها من قوة التأثير الشكلى ما يستهوى الناظر السطحى .

* * *

وكما أن النار المندلعة من أكوام من القش ترتفع فى الجو

مرة واحدة حتى تخلب بارتفاعها الشديد الفجائى الأبصار ثم تخمد وتتوارى ، كذلك صنعت الوجودية فإنها بدأت بعد الحرب ترتفع فى فرنسا ارتفاعاً شديداً ثم راحت تخمد وتتوارى . ومن سوء حظ بعض البلاد أنها أبصرت بنيرانها فى إبان ارتفاعها الفجائى فراح البعض يقلدونها وينفخون فى جذوتها عندهم بينما هى تحتضر فى بلادها . . . إن الوجودية مقضى عليها حتما بالموت لأنها تحمل فى جسدها ميكروبات مرضها والقضاء عليها ومن الخير أن ندعها تموت بغير ضحايا وأن ننقذ الذين يستهويهم أن يكونوا من ضحاياها .

إنها رائعة إذا شوهدت على البعد ولكننا حين نقترب منها ونلمسها نسخر منها ونسخر من غرورنا بها حين كنا نراها بناء ضخماً وهى من الورق المنفوش

* * *

وإذا كانت الوجودية تحتضر الآن فى بلادها فإننا لا نريد لها وهى تموت أن تضع رأسها على وسادة يصنعها عندنا بعض المهرجين المطبلين لها حتى لا يظن أنها شهيدة

إن الأصوات التى نسمعها تتكلم باسمها هى حشرجة الموت للوجودية حين تصرخ فى صحوة الاحتضار . . إننا يجب أن

نرقب موتها جيداً حتى لا يتخلف بعدها وليد ملعون يحمل اسمها ويدعو بدعوتها .

* * *

إن من طبائع الناس أنك لو وقفت بينهم فى ميدان كبير ورحت تؤذن وتدعوهم إلى الصلاة لمروا بك ساخرين ولو ظهر بينهم دجال يخرج من جيبه ثعباناً يصفر لالتفوا حوله فى عناية مصفقين ولكنهم قد ينصرفون عنه بعد ذلك وينسون أمره وذكره وهكذا التفاهات قد تجد رواجاً لا يثبت على الزمن .

وليست الشهرة وسرعة الانتشار بدليل على قوة المبادئ وثباتها فالأمور الجدية قد تلقى حرباً ضروساً وتظل أجيالا حتى يرتفع لها بناء ولكن الهياكل التى تقام سريعاً من الورق يكفى عود ثقاب ليأتى عليها .

لقد ظهر الوجودى فى المجتمعات الباريسية فى زى تهريجى غير مقيد بعرف ولا تقاليد ولا دين يزعم أن هذا هو التحرر من كل شيء عدا الإحساس بالوجود والتصرف طبقاً لهذا الإحساس . وقد يكون هذا التصرف مخالفاً للوجودية الأصلية ولكن يكفى أن الوجوديين أنفسهم يعترفون بأنه لا توجد للوجودية سمات محددة وليست لها وصايا وإنما هى تكشف

لكل إنسان عن وجوده وتترك له حرية التطبيق فللناس العذر حينما يرون وجودياً فى زى خاص أو تصرف خاص أن يروا بأنه يتصرف وفقاً لنزعة مستمدة من الاتجاه الوجودى الذى يحرص أنصاره أن يرددوا بأنه لا دين له ليتسللوا من وراء ذلك إلى كل دين فعلى الوجودية إذن أن تتحمل وزر ما يلقى عليها ما دامت دعوة بلا وصايا ولا نصائح ولا مثل .

* * *

الوجودية . . والإنسانية

إن سارتر وارث عرش الوجودية يتلخص دستوره الذى يفهم من كتاباته واتجاهات أعوانه وجنود مذهبه وما تنبض به قصصه ومحاضراته ، يتلخص ذلك كله فى الدعوة إلى طاعة النفس .

فأنت تجد فى قصص « سارتر » شخصيات تدور حول تنفيذ الوحى الذاتى وتمجيده ولو كانت هذه الانبثاقات الذاتية ذات صبغة طيبة كأن تدعو إلى تمجيد الفضيلة أو الخير أو الجمال إذن لقلنا إن النفس الداخلية توحى بالخير والشر وأن الوجودى يتحمس للجانب الإيجابى .

ولكن العكس هو الصحيح ذلك أن النفس أمارة بالسوء ولذلك فإنه من الصعب جداً بل ربما كان مستحيلا أن تجد وجودياً يركز وجوده فى سبيل فكرة بنائية أو عمل إيجابى .

إن الشيطان نفسه يستحى من أن تكون كل إيحاءاته سوداء بل إنه ينفذ إلى النساك والعباد بأن يغريهم أولا بشىء من الخير وربما دعاهم إلى التطرف فيه ليلهيهم التطرف عن حقيقة

الأصول الإنسانية القائمة على الاعتدال .

والنبي محمد يقول لأن يذهب أحدكم فى حاجة لأخيه خير له من أن يعتكف فى مسجدى هذا أربعين ربيعاً ذلك أن نفع الناس هو رسالة الإنسان وخير الناس أنفعهم للناس وألد أعداء الاتجاه الإنسانى هى الأنانية حتى لو أريد بها الخير الذاتى المحض .

والهواتف الوجودية كلها تدور حول الذات أى حول الأنانية .

فالوجودية إذن لا تحفل بالإنسانية وهى ذات خطر كبير لأنها تمجد الغرائز وتباركها وهى خالية من الأمصال التى تحميها من جراثيم الشرور .

* * *

على أنه إذا كانت هذه هى الوجودية التى يخلب بريقها أبصار الشبيبة التى يستهويها طاعة النفس فإن الإنسان يحار فى تصرفات أقطاب الوجودية ممن تعتبر تصرفاتهم تطبيقاً عملياً لدعوتهم ويجب أن لا تنسى أنهم دائماً — وهذا يكاد يكون عرفاً متبعاً فى الوجودية . . يخلعون على تلك التصرفات أسماء لولبية تفهم على تأويلات شتى لتضييع الحقيقة وسط الألوان الكثيرة .

« فهتلر» مثلا كان يلغى شخصية الفرد فى سبيل فائدة ألمانيا ويجعل الفرد الألمانى وقوداً لإدارة الآلة الكبرى . . الدولة .

ويبدو أن هذا ضد الوجودية التى تمجد الفردية ولكن « هيدجر» أستاذ « سارتر » بعد أن عينته الحكومة النازية عام ١٩٣٣ عميداً لجامعة فريبورغ ذهب أولا فى تمجيد الإرادة الفردية تمجيداً بعيداً حتى ليقول أحد تلاميذه متهكماً إننى أود أن أكون ذا إرادة حديدية كما يدعو هيدجر ولكنه لم يوضح لنا ما هو هذا الشيء الذى يلزم أن نصمم عليه وأن نجعل إرادتنا فى سبيل تحقيقه إرادة حديدية .

ويحار تلاميذ هيدجر فى تفسير أمرين متناقضين.. الفردية المطلقة كما تدعو إليها الوجودية .. والفناء المطلق فى شخص الزعيم هتلر .

فإذا بهيدجر الوجودى الكبير يفسر لهم الأمر فيقول إن هتلر هو روح الشعب وهو صميم الوجود الألمانى فحينما تفنى فى هتلر تكون قد حققت صميم الوجود الألمانى الذى هو وجودك أنت من حيث أنك فرد ألمانى .

* * *

فإذا اتخذنا هذا التفسير العجيب قاعدة فإن الوجودى

يمكن أن يفعل أى شىء بأى طريقة وبأى أسلوب ثم يبرر ما ذهب إليه بأن هذا هو الوجود العام الذى يفنى فيه وجودى الشخصى.

وفى ذات الوقت يمكن لوجودى آخر أن يحارب نفس الشىء ويستعمل نفس التأويل بطريقة عكسية .. فالوجودية على هذا تبرير عجيبى مرن محض يقبل أى صورة وزئبق لن تستطيع أن تمسك به .

وهذا المبدأ أولى به أن يسمى بالانتهازية التى تنتهز أى فرصة لتنادى باسمها تحت اسم الوجودية وستجد فى القاموس الوجودى من الألفاظ الحادة ذات الرنين الموسيقى الذى يستهوى الشبان ما يضرب على أوتار نفوسهم

* * *

بل إن الوجودية ذهبت فى وقت ما إلى تمجيد الدين واعتبرت أن إيثار الإنسان لأى مطلب شخصى يعتبر خطيئة فى حق الوجود الإلهى الذى يجب أن يفنى الإنسان فى ذاته المقدسة على الطريقة التى رأى بها هيدجر فناء الفرد فى ذات الزعيم « هتلر »

ويقول « كارل باسبرز » الفيلسوف الوجودى « إن الإنسان ليدفع حياته ثمناً كى يكلمه الله » وبينما تكاد تؤخذ كمؤمن بالله

وباليوم الآخر وبرسله وكتبه بهذه الصوفية الوجودية العجيبة إذا بك تسمع من وجودى آخر كبير هو « سنستوف » صيحته التى تقول « إذا كنت تريد أن تكون وجودياً صادقاً فيجب أن تنبذ ظهرك الله والعقل وذلك أن البواعث الإنسانية لن تزدهر معهما » .

وتمسك رأسك من الصداع الذى ألم بها من جراء هذا التناقض العجيب الذى يدل على أن الوجودية مجرد لافتة يمكنك أن تحملها ثم تضعها على أى محل تشاء : تضعها على الحمارة كما تضعها على باب الكنيسة أو باب المسجد : وتكون النتيجة لذلك أنه إذا وجد اثنان من الوجوديين فستجدهما مختلفين فى الاتجاه أصلا وفرعاً وإذا وجد ثلاثة ازداد الخلاف ويمكنك أن تحصى المذاهب الوجودية بأن تحصى عدد أنصارها فى فجاج الأرض .

* * *

والسبب فى ذلك أن الوجودى يعبد هواه فهو قد يذكر الله صباحاً إذا وافق ذلك هوى فى نفسه فى الصباح ثم يكفر به ظهراً ويجد عنده ما يبرر به الاتجاهين وسيزعم أنه كان صادقاً مع نفسه . . مع ذاته . ومع الاتجاه الوجودى فى الظهر . .

وكل يوم هو فى شأن وسبحان من له الدوام .

* * *

إن الوجودية تقول إن الإنسان خالق نفسه . . . وذلك معنى واسع ينتشى به كل من فى قلبه مرض وكل من فى نفسه مرض وكل من فى عقله مرض . . إنها كلمات حادة كأسنة الحراب ولكنها لا تدل على معنى حقيقى لا ترضى إلا أولئك المرضى الذين تستهويهم نشوة التعالى والعظمة والشعور بفخامة النفس حين يتصور كل منهم نفسه إلهاً ، وهكذا تصبح الكرة الأرضية جنة للمجانين حتى يصبح عدد سكانها آلهة بلا عباد ، ولا كتاب مقدس ولا ملائكة ، ولا جنة ولا نار ولا وصايا ولا دين.

* * *

صدام مع العقل

وإذا كانت الوجودية ليس لها لون خاص ولا قاعدة ولا توجيه ولا وصايا ولا حدود وإنما هى تختلف باختلاف أعوانها إلا أنها تكاد فى كل صورها تجمع على شيئين هما أنه يجب نسف العقل والدين . . . عدا بعض بوارق عند « كيركيجارد » و « سبرز » تشير إلى وجود إيمان من لون خاص ،إيمان ذاتى منبثق من شخصية فردية لا ينطبق على الإيمان المعروف بأصوله المحددة .

فالعقل عند الوجودية ليس ديموقراطياً . بل إنه أداة أرستقراطية مشحونة بأفكار سادة أرستقراطيين هم الفلاسفة الذين عاشوا فى الأبراج العاجية لتغذية العقل بأفكار واتجاهات غير وجودية .

هذا العقل الذى يمسك بالعصا يلهب بها ظهر صاحبه إذا انحرف عن أوامره أو يوخزه باسم الضمير بإبرة من الداخل يعوق صاحبه عن الاتجاه الاختيارى الحر ويقف حائلا بينه وبين حريته ولا يدع الوجودى يعمل على تحقيق ذاته وفقاً لإرادة

حرة غير مقيدة بل العقل يلوى عنانه ويرغمه على النزول عند مقاييسه .

فهذا العقل الواعظ الذى قد يحلو له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقف كالجدار فى طريق الوجودى ومن ثم فيجب أن ينسف .

* * *

وكذلك الدين عند أغلب دعاة الوجودية إن لم يكن أكثرهم عدا من يؤمن بالله على طريقته الخاصة إيماناً قد يأتى مصادفة ولا يلزم صاحبه بتبعات ، فالدين عند الوجودية خرافة يؤمن بها الإنسان المجهول ويتلقى منها أوامر ينسبها إلى واعظ غير موجود وغير مرئى يسميه الله ثم يخر ذلك الإنسان فى حماقة ساجداً فى رهبة لذلك المجهول الذى خلقه خياله .

وإذا كان الله موجوداً فإن الإنسان هو الذى خلقه — تعالى الله — والإنسان الذى يريد أن يسير فى طريقه يجب أن يحيد عن طريق ذلك الإله الذى قد يمنعه من الاستمرار فى المسير ويقول له عند أى نقطة من نقط الطريق قف .

والوجودى لا يريد أن يتلقى أمراً من أحد ولو كان هذا الأحد هو الله .

والدين قاصر عن تلبية الرغبات الوجودية ، هكذا يزعم الوجودى مدعياً فى غرور صبيانى أن الدين محدود بتعاليمه أما الوجودية فانطلاق كامل إلى غير نهاية لأنها بلا تعاليم ولا وصايا أى بلا قيود .

* * *

ولن تستطيع أن تجادل الوجودية وتقنعها بوجهة نظر الدين أو العقل إذ أنك إما أن تتخذ براهينك من وحى العقل وهى لا تؤمن به وإما أن تجعل الإيمان نوراً تريد أن تهدى به السبيل وهى ضد هذا الإيمان ويمكنك أن تسأل الوجودى إذا كنت خالق نفسك أى صانع ذاتك وناسج اتجاهاتك فأى إرادة هذه التى تتدخل فى طريقك فتفرض على ذاتك وإرادتك وحريتك بالرغم منك ومنها ومن كل شيء حق « الفيتو » ؟

ما هذه القوى التى تجعلك بالرغم منك تسير يميناً وقد كنت متجها شمالا؟

وإذا كنت صانع وجودك فهل تصنع رزقك وصحتك وتتحكم فى أجلك وموتك ؟. وتفرض على صديق أن يلقاك فى الموعد الذى تراه أنت وتعمل على تغيير الفصول وقصر الليل وإطالة النهار.

فإذا لم تكن قادراً على التحكم فى هذا الوجود فماذا بقى لك لتتحكم فيه .

الأهواء . . والشهوات وهواتف الغريزة . . ؟

وحتى هذه قد جربت مراراً أنك غير قادر دائماً على استغلالها وفق ما تشتهى .

فأى قوة هذه التى تعترض طريقك . . ؟ !

* * *

إن نظرية العداء للدين هى امتداد للنظرية النفسية التى وجدت بالتجربة أن الإنسان المغيظ المأزوم يصب جام غضبه على شيء ما يجد فى العداء له تنفيساً عن آلامه ويجعل هذا الشيء يحمل أوزار الفشل والعقد القديمة الدفينة .

وقد كان هتلر على علم بهذه النظرية فكان يعمد من حين إلى حين إلى إيجاد أعداء تصب عليها النازية غضبها فيشتد حماس أفرادها .

وعلى هدى هذه النظرية أرادت الوجودية أن تلهب ظهر أعوانها بالحماس فناصبت الدين والعقل العداء فتذكر لهم إنها أساطير غامضة تشل قوى التفكير الوجودى وتجعله يستسلم للمجهول بينما يجب عليك أيها الوجودى أن تكون حراً فى تحطيم كل قيد يحطم إنسانيتك ومن العار أن تدع العقل يعلمك بل لابد لك من تعلم نفسك بنفسك وممارسة التجارب الحية . . وليس من المهم أن تخطئ أو تصيب فهذا أمر اعتبارى بل

الخطأ نفسه يشعر الإنسان أنه موجود .

* * *

أما الدين فإنه يدفع إلى العدم لأنه يجعل الذات فى عبودية لله وفى هذا فناء لها فالله هو الذى يقدر ويفرض ويحرم ويعاقب ويحيي ويميت وليس عليك إلا أن تتلقى أوامره ، أو تسعى وأنت تلتمس منه أن يبارك مسعاك فيجب على الوجودى أن يتمرد على هذا كله . فلن يقبل أن يرفع يديه إلى السماء طالباً شيئاً أو نادماً مستغفراً ملتمساً فتح باب الرضوان .

وهكذا يذهب الجنين الذى فى بطن أمه يضرب جدران البطن وهو يقول هذا هو عالمى ، هذا هو وجودى فإننى لم أر وجوداً سواه ومحال أن يرتبط وجودى بوجود شىء آخر اسمه الأم لأن هذه الأم غير موجودة ودليلى على ذلك أننى لا أراها ولن أبرح مكانى هذا فيجب أن أرتب أسباب إقامتى فيه . وأن أنظم غذائى ورزقى من هذه الأحشاء والأمعاء .

وهكذا يظل الجنين يتخبط فى وجوده المزعوم حتى تلفظه أمه مشدوهاً من هذه الحقيقة الكبيرة التى كان يعيش داخلها وينكرها .

* * *

وفى بيت الدمية للكاتب النرويجى « هنريك إبسن » ما يجعلنا

نفهم أن المجتمع هو أكبر وهم وأضعف فكرة ، ذلك أنه ليس هناك مجتمع على الإطلاق وإنما هناك أفراد ، هم أنا وأنت وهو وهي وضع على هؤلاء لافتة وهمية كتب عليها « المجتمع » .

ومفهوم هذا الكلام إنه إنكار لوجود المجتمع وثورة عليه أي على نظمه ، فالوجودى يعيش من أجل نفسه وعلى الدنيا والناس والمجتمع العفاء ، فإذا عاش من أجل فكرة أو هدف أو حتى من أجل أم أو أب أو زوجة أو حبيبة أو ابن كان الوجودى خائناً لوجوده ، فالواجب تفتيت المجتمع وهدم البناء الضخم ونزع أحجاره وأبوابه وأخشابه ثم سحقها سحقاً حتى تصبح ذرات وحتى تصبح كل ذرة منفردة بذاتها وفى هذا شعورها الأحمق بوجودها . لأن المجتمع كان يلغى شخصيتها ويتحكم فيها ويحكم عليها بالإعدام لأنه يدمج وجودها فى غيرها .

ويقول الفيلسوف الروسى « بردیانف » أن المجتمع أضعف من أضعف حيوان تسحقه ببعض قدمك .

فبديهى أن يكون المجتمع أضعف من الفرد ذلك لأن المجتمع فكرة مجردة وهو بكل ما فيه لا يعدل من القيمة الوجودية شخصية فأر لأن الفأر الصغير يصرخ ويئن ويتلوى ويعيش ويموت ويلد ويتكاثر ويقاوم الموت ويغالب الفناء ويرث صفات أجداده ولكن المجتمع لا يبكى ولا يئن ولا يتوجع

ولا يورث . وذلك لأن المجتمع مجرد فكرة .

والوجودية تقف وجهاً لوجه فى كثير من اتجاهاتها ومراميها فى عداء مع الفلسفة وذلك أن الفلسفة لون عميق من ألوان تفكير ذلك الشيطان الرجيم المسمى العقل ثم إن الإيمان بالعقل قد ينتهى بالمرء إلى الإيمان بالله أى بالعدم لذلك فالوجودى لا يؤمن بالفلسفة إلا أن تكون فلسفة مادية تقطع الخيوط بين الناس وبين كل ما هو معنوى أو مقدس ، فإن وجدت مثل هذه الفلسفة فإن الوجودى يؤمن بها بحذر فالوجودية لا تعرف الثقة المطلقة إلا بنفسها وذلك أنها ترى أن عالم الفكر ملىء بالمزالق وأنك قد تسير معه فى طريق فينتهى بك من حيث لا تحتسب إلى طريق آخر .

وإذا كان الوجوديون مع عدائهم لشىء ما لن يحجموا إذا دعتهم الضرورة إلى الأخذ به رياء إلى الحين الذى يحققون فيه مأرباً لهم فإنهم مع عدائهم للفلسفة يدعون أن سقراط كان وجودياً أى أنه أول من فلسف الوجود وهى ألفاظ يخلعونها بالأسلوب الذى يرضيهم . ألم يكن سقراط يدعو الإنسان إلى أن يعرف نفسه بنفسه ؟ وهذه هى الوجودية ، هذه الكلمات تكاد تجدها على لسان كل صغار الشباب المرتدين ثياب الوجودية ،وهو تأويل كاذب ذلك أن سقراط كان يدعو إلى

الفضيلة والوجودية لا تدعو إلى شيء ، بل تدعو إلى السلبية والوجوديون يفخرون بأن كيركجارد أراد بدعوته أن يوقظ النائمين فى أحضان العقيدة — « وسارتر » قطب الوجودية فى هذا الزمان يضع قصصاً وجودية يكشف فيها شخصياته ويفضحهم ويدعهم فى عرض الطريق عرايا من كل شيء ومن كل خلق أو فضيلة ثم يتولى عنهم بلا توجيه وحتى بغير كلمة عزاء .

سيقولون إنه كالطبيب يكشف عن مرضاه فليس فى تعريتهم حرج وسنقول لهم إن الطبيب يكشف عن مرضاه ليعالجهم دون أن يأخذهم عرايا إلى عرض الطريق ويقرع حولهم بالجرس ويقول لهم فى فضيحة من الملأ هاأنتم أولاء على حقيقتكم فانطلقوا لقد نزعت عنكم الثياب وكشفت لكم عن حقيقتكم عن وجودكم فلا تخجلوا من عوراتكم .

لماذا إذن الاحتفال بهذه التفاهات؟ إن هناك أقوام مصابون بألوان أخرى من الشذوذ وقد جعلوا من الشذوذ دعوة لهم فلماذا يكون لكيركجارد وسارتر أنصار ؟ ولا يكون لهم أنصار ؟ وهل إذا كان سارتر هذا بوذياً أو إندونيسياً ودعى بهذه الدعوة هل كان يجد من يردد هذه الدعوة هنا من ورائه أم أن هذه الدعوة جاءت من بلاد يحب أناس أن يربطوا أنفسهم بعجلتها ورحم الله زمناً كان كل ما يرد من هذه الجهات يلقى التأييد بلا مناقشة ولا جدال .

هل الوجودية رجعية . . أم تقدمية ؟

ترفع الوجودية فى يدها سكيناً لتقطع بها كل يد تحاول أن تمتد إليها لتعاونها . فهى تنسف كل نشاط جماعى ، وهى بذلك تعتبر روحاً انفصالية تقوم على الأنانية . . . ولها مع ذلك بعض الفوائد فى استثارة النفوس الخامدة الضعيفة ، وذلك بما تثيره من قلق يحفز إلى العمل ولكن أى عمل هذا الذى تدعو صاحبها إليه . . ؟ إنه عمل بلا هدف ولا غاية . . وأى خير فى أن تجد عربة تائهة فتدفعها إلى الصحراء تجرى بلا هدف . . ؟

إن العمل الصادق لا يمكن أن يكون فى غنى عن المعاونة والانتفاع بالخبرة التى عاناها الآخرون وإذا كان هدف الوجودية إشعار كل إنسان بذاته ليدرك أنه موجود فالإنسان موجود بالطبع دون حاجة إلى أن يقرص نفسه ليتألم فيعلم أنه موجود ودون أن يضرب رأسه فى الحائط ليسيل دمه فيدرك أن هذا الدم دمه وإذن فهو موجود . . إن عمله يعلن له وللدنيا نوع وجوده وإلا فأين ذهبت إذن ملايين السنين التى مرت بالإنسان منذ وجد على الأرض قبل أن ينادى كيركجارد بالوجودية . . ؟ هذه الأجيال الطويلة التى مارس فيها الإنسان الوجود وبنى الحضارات وأوجد القيم ومارس الألم والأمل واليأس

والنجاح والنصر والهزيمة فى كل الصور والألوان ألم يكن هذا كله وجوداً ؟ أم أن الوجودية فقط أوجدت الإنسان على الأرض منذ مائة عام فحسب ؟

لقد كان الإنسان يمارس وجوده دون أن يحبس نفسه فى قمقم ويضع القمقم فى النار ليلتهب وتلسعه جدرانه فيصيح وسط النار إننى موجود لأننى أحس النار .

والوجود يجب أن يكون قائماً على تجنيد الإنسان لنفسه فى مشاركة المجموع فى دفع عجلة الوجود إلى الأمام فى الطريق الذى وضح لكل ذى عين أنه يؤدى بالبشرية إلى الخير العام وليس للوقوف ولا للرجوع إلى وراء أو الانتكاس . وإذا كانت الوجودية تحتقر العقل فهى إذن تخالف نفسها ذلك لأن الفكرة الوجودية سواء كانت سلبية أو إيجابية فهى فكرة قبل كل شىء صنعها عقل بشر أى أنها حركة عقلية .

إن الوجود متماسك تماسك الآلة ولكن الوجودية تفك أوصال هذه الآلة مسماراً مسماراً ومحوراً محوراً ، وترمى كل جزء فى ركن وتقول له أيها المسمار لقد أنقذتك لأنك كنت ضائعاً فى هذه الآلة لا شخصية لك فيها أما الآن فأنت مسمار لك شخصية ذاتية . . وذلك هو العدم لأن المسمار لا قيمة له إلا فى المعاونة على دوران الآلة والآلة هى مجموعة من المسامير وقطع الحديد ،

فلو تفككت فقد انعدمت وانعدم بالتالى كل جزء من الأجزاء فهو يستمد وجوده من وجودها .

* * *

والوجودية فى معرض الحديث عن الحب تقول إن الحب لا يجب أن ينتهى إلى زواج وقد تقدم الكلام عن هذا ، وهذه ولاشك جريمة إنسانية مهما خلع عليها الوجوديون من أسماء . والكلمات الهستيرية التى تقول إن الخطيئة من طبيعة الإنسان فلا حرج عليه من ممارستها هى اتجاه هدام يخالف أى مبدأ إنسانى وأنا أتجنب أن أقول أى مبدأ دينى أو عقلى حتى لا يضع الوجوديون أصابعهم فى آذانهم فإن العفريت الذى يفرون منه هو الدين أو العقل .

لذلك أقول إنهم ليسوا إنسانيين بعد أن أعلنوا أنهم ليسوا مؤمنين ولا من أنصار العقل فماذا يكونون إذن ؟

ماذا يكون الذى يتحلل من نظام الأسرة التى ولد فيها .؟ الأبوين الذين أوجداه .؟ ولا يحترم المجتمع الذي يأويه ولا العقل الذى يحميه ولا النظام الذى يعيش فى كنفه وظله .

فهذا المجتمع أحاطه بكل نظم الأمان والاطمئنان ورعاه قبل أن يولد فلا يحق له أن يحاربه أو يقف منه بعيداً تحت تأثير فكرة سلبية أو على الأقل غير عملية .

نحن لا ننكر أن الإنسان يجب أن تكون له شخصية متميزة لا تذوب ولا تتلاشى وإنما يجب أن تنشأ هذه الشخصية فى الإطار الاجتماعى والأخلاقى المعترف به .

وإذا كانت الحياة الإنسانية كنهر ينساب من الأزل إلى الأبد وأن كل إنسان يولد فى سفينة تسير فى هذا النهر فإنه من الجنون أن يفكر أحد ركابها أن يعارض سيرها .

إننا لا نمارى فى وجود فكرة الإنسان ولكن وجوده هذا إنما يشبه وجود قطرة الماء فى النهر أو الثمرة فوق الشجرة وأن من عيوب النظرية الوجودية الفردية أن ما يراه الإنسان أنه حق قد يراه الآخر على نقيض ذلك لأنه لا توجد مقاييس مشتركة معترف بها .

وإذا كنا نناقش الوجودية من وجهة نظر الدين أو الأخلاق فليس معنى هذا أننا نقف جامدين فى تعصب ضد أى فكرة جديدة ذلك أن الدين الحق من المرونة بحيث يضم ويتسع ويخلع من تقديره على كل فكرة بنائية .

كما أنه ليس من القول الجدى ما يذهب إليه البعض من أن الوجودية قد تهدى إلى الإيمان ، ذلك أن الإيمان فكرة وعمل ، والعمل له تعليمات ونظم قررتها الأديان ولابد من الأخذ بها ليكون الإنسان مؤمناً ، فأنا لا أكون مؤمناً بحق الإنسان فى العمل ثم لا أعمل أو أحترف البطالة .

وقد سبق أن ذهبت فى بعض أقوالى إلى أن من محاسن الوجودية بجانب مالها من أضرار هى أنها تجند الإرادة الإنسانية

لتنفيذ فكرة فلو اعتنق الإنسان الفكرة الدينية المرنة أو الأخلاقية المثالية ثم ذهب يجند كل إمكانياته فى تنفيذ ذلك لأمكن أن نطلق على هذا الاتجاه اسم الوجودية الأخلاقية ولكنت على هذا الاعتبار أول راغب فى اعتناق مذهب هذه الوجودية .

فأنا لست متعصباً ولا جامداً فى نظرتى إلى الفكرة .

* * *

ولكن الواقع ينفر الإنسان من أن يسكت عنها ذلك لأنها على هذا الوضع القائم نوع من الضلال البعيد ، تصور شخصين أحدهما يجاد رغبته الوجودية فى أن يتجه شمالا والآخر جنوباً والجيش لا يكون قوياً إلا بمقدار تجميع جنوده فى اتجاه واحد مدروس من قبل وهذا لا يمنع أن يكون لكل جندى رتبته وشخصيته وفى هذه الحال سيزداد شعوره الوجودى لأنه يستمد قوته الوجودية من قوة الجيش فالوجود القوى يكون لجندى فى جيش قوى والوجود الضعيف يكون لجندى فى جيش ضعيف منحل مفكك .وكذلك المجتمع سواء بسواء ،

وهذه أيضاً هى روح الإسلام وروح كل دين .

فمن المحال إذن أن تكون الوجودية فكرة إنسانية تستهدف خير البشرية ، لأنها تخرج المجتمع والنظم المثالية من حسابها ، وتحبس كل إنسان داخل قوقعة مغلقة بالأنانية لتمارس من الداخل اتجاهاتها الفردية ، منتشية بالألم الذى ينعش قواها كما تنعش المخدرات من يتعاطاها ، والوجودية تحرص على

القلق ، ولا يمكن مع القلق الصبر على البناء ، فلا يوجد عمل سليم تم تحت تأثير قلق محموم، فالأعمال الناجحة تؤدى فى شعور بالثقة والاطمئنان دون جلد النفوس بالسياط لتعمل فى ألم وخوف وقلق من السياط المقلقة ، ولذلك فإن الوجودية لا تساهم فى بناء الحياة التقدمية لأنها بلا أهداف ، ولأنها تقف على البعد تطل من نوافذ القواقع على قافلة البشرية وهى تسير ، وقد تلعن بعض الأحداث أو تباركها دون أن تساهم فيها لأنها قررت تعطيل قوى الإنتاج البنائى ، فالعقل تركته يترهل ويشيخ وشاحت عن المثاليات بجانبها بينما الإسلام يحث أنصاره على العمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) إذا بالوجودية تجعل كل جهد غير شخصى جهداً ضائعاً بينما التفنن فى شذوذ الأزياء والارتماء على مقاعد الحانات والكاباريهات قد يكون اتجاهاً وجودياً فالوجودية مسرحية هزلية لا تهدف إلى تسلية الجمهور وإنما يقوم بها ممثلوها تعبيراً عن نزعات نفوسهم.

ثم إن الوجودية متشائمة لا مستقبل لها لأنها لا تزرع الأمل فى النفوس فهى سرطان يمتص دم المجتمع ويهدده بالفناء دون أن تعطى شيئاً فى نظير ما يهيئه لها المجتمع من حماية بل هى تلعن ذلك المجتمع وتقطع اليد التى تحسن إليها فالإنسانية ليس فيها متفرجون وكل من لا يعمل لها فهو عدو لها .

الوجودية .. والتشاؤم

الوجودية ترى أن الإنسان خلق ليتعذب ، وأنه وجد نفسه وسط قطيع يساق بينما تلهب ظهوره بالسياط كلما توقف ليلتقط أنفاسه تحت أشعة الشمس الحارقة وفوق الشوك الذى يدمى قدميه .

وقصة سوزيف اليونانى تقول إن الآلهة كانت قد حكمت على سوزيف بأن يدفع أمامه حجراً إلى أعلا الجبل ، وكلما بلغ القمة انحدر الحجر إلى السفح فتأمره الآلهة بالعودة ليدفع الحجر إلى القمة من جديد ثم يعود الحجر فيسقط ويجرفه أمامه وتسيل دماؤه ويعود هو إلى دفعه دون أن يعرف لماذا يدفع هذا الحجر ولا لماذا كل هذا العذاب ... هكذا يقول وجودى مصرى .

ثم يجيب بأن الآلهة عذبته كل هذا العذاب لأنه أخطأ بينما يرى أن الإنسان الحر هو الذى يخطئ أما العبد فإنه لا يخطئ لأنه لا يختار ما يفعل وإنما يفعل ما يختاره له سيده .

* * *

والواقع أن هذه القصة بعيدة كل البعد عن حقيقة الحياة إذ يفهم منها أن الخطأ مقدس وأن عدم الخطأ رذيلة ، ولا يوجد دين من الأديان يعصم الإنسان من الخطأ وإنما عليه ألا يبحث عن الخطأ ويمارسه مختاراً راضياً وإنما إذا مارسه بسبب ضعف أو جهل ثم علم أنه أخطأ فمن الخير ألا يعود إلى اختيار الخطأ بل يعود إلى الحق ، أى إلى الله فيجد الله تواباً رحيماً لا يحاسبه على الخطأ الذى تاب منه كما تفعل الآلهة فى قصة سوزيف الخرافى .

والإنسان لم يخلق كما يقول الوجودى ليقاسى العذاب ولا شىء إلا أن يدفع الحجر إلى أعلا ويسقط عليه الحجر ويجرفه إلى القاع تلهبه السياط ليعود فيدفع الحجر من جديد ، ويظل دائماً أبداً فى هذه الدوامة التى لا تنتهى من اللعنة الأبدية.

هذا هو التشاؤم الذى تخيف به الوجودية أنصارها من الله الرحمن الرحيم ، ومن الحياة ذات الألوان المتعددة التى تزخر بالحلو والمر ، وأن المر وجد فيها ليعرف الناس الحلو .

لم يخلق الإنسان ليصعد الجبل وهو يدفع الحجر ، وإنما خلق ليصعد الجبل على مهل وروية وهو يمهد طريقه أثناء الصعود لمن يأتى بعده ويجد أثناء الصعود على الجانبين واحات وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأشواك عليها حراس يطلبون إليه أن

يتجنب طريقها وهؤلاء الحراس هم الرسل والفلاسفة والتجارب الشخصية والناس فى طريق الصعود متعاونون فلن تسقط الأحجار إلا على رأس من يتجنب سبل الجبل الممهدة ويذهب وحيداً من وراء الحراس .

فالخطأ ليس لعنة أبدية ، وإنما درس وإرشاد ، والله لا يحاسب على الخطأ ولكن على الإصرار عليه ، فالإنسانية لم تظلم سوزيف وإنما سوزيف الوجودى هو الذى اختار أن يظلم نفسه .

وليس الحر كما تقول الوجودية هو الذى يخطئ وإنما الحر هو الذى إذا أخطأ يقول فى شجاعة إننى أخطأت ، ويجند إرادته للعودة إلى الحق فيكون وجودياً صالحاً لأن الحرية عمل وليست استسلاماً للرغبة لأن الاستسلام لرغبات الذات أمر سهل.

ألوان من الوجودية

تجادل الوجودية عن نفسها بمجموعة من التعبيرات الحادة المتعددة الجوانب التى تحمل أكثر من معنى والتى تفهم على أكثر من وجه كأنما تشعر بضعفها عن مواجهة الحقائق فتتوارى وراء هذه التأويلات فأنت تسمعها تردد كلمات الذات والقلق والمسئولية .

والذات هى المحراب الكبير الذى تحوم حوله المعانى وتفرش له الطرق وتحرق له البخور ، هذه الذات يقول عنها الوجودى إنها تائهة فى خضم الحياة اليومية الرتيبة ، فيجب عزلها لتتعرى فى عزلتها عن نفسها على حقيقتها بلا رتوش ولا زخرفة ، وعليها بعد ذلك أن تهاجر من دنيا الناس إلى دنياها ، وبذلك تحطم القيد الذى ظلت ترسف فى أغلاله زمناً طويلا وتصبح إلهاً لا يعرف الرحمة فى تنفيذ أهدافه ، وبذلك تتحقق معجزة الوجود .

ويقول جان كانابا فى نقده للوجودية . إنه لا يمكن تغطية النزعة الإنسانية بالفلسفة الوجودية لأن ذلك العمل لن يكون والحالة هذه إلا تمويهاً ولكى تكون النزعة الإنسانية صحيحة يجب أن يكون هدفها الإنسان نفسه ، الإنسان المطلق . أما الوجودية فتجعل الإنسان فى خدمة الذات أى أنها تعدم

الإنسانية وتسميها وجوداً .

* * *

والمسرحيات والقصص التى يؤيد بها « سارتر » الاتجاه الوجودى الحديث تدور كلها حول إظهار الحيرة والاضطراب : إزاء عالم يقال إنه خلق بلا سبب ، وإنه تيه مطلق والإنسان عليه فى هذا التيه أن يكتشف ذاته . وحبكة كل قصة هى فى هذا الاكتشاف وسد المنافذ أمام الإنسان حتى لا يشترك فى أى عمل عام أو ذى فائدة جماعية وتثبيط الهمم نحو أى حركة بناء ، إذ ما معنى البناء فى عالم غير موجود ! ؟

وكيف تترك الموجود فعلا وهو الذات لتعنى بما هو غير موجود وهو المجتمع وتنتهى القصص والمسرحيات الوجودية دائماً بأنه لا خير فى عمل شىء .

* * *

وبينما نجد أن أبسط مبادئ الحكمة تستهدف إيجاد حل لكل مشكلة من مشاكل الإنسان إذا بالوجودية فى يأسها التام ترى أنه لا خلاص للإنسان من مشاكله وأنه لن يستطيع أن يصنع شيئاً فالإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران ما دام على صلة بالمجتمع ذلك لأن المجتمع كالبحر تأكل أسماكه الكبيرة أسماكه الصغيرة .

والمجتمع بناء مفكك منهار وتضم هذه الأجزاء فى قهر وإرغام مظاهر البطش والجبروت فالإنسان على هذا الوضع فى خسران دائم ولعنة أبدية

* * *

ونظرات الوجودية إلى التاريخ

هى أنه لا وجود للتاريخ . لماذا ؟ وكيف ؟ لأن التاريخ مرآة للمجتمع وقد صنعته البشرية على هواها فى صور شتى ، والعالم كله باطل الأباطيل فهو كساقية جحا التى تأخذ من البحر وتلقى فى نفس البحر . وبينما يقول الوجودى الكبير « سيمون دى بوفوار » إن الإنسان مقضى عليه بالإخفاق فى كل شىء إذا « بسارتر » يقول إنه قد يحدث أحياناً نجاح وقتى نسبى فى حالة تغلب وعى ذاتى ناضج على سواه .

أى بصريح العبارة إنه بالاتجاه الوجودى يمكن للإنسان أن ينقذ بعض ما يمكن إنقاذه إذ يحقق الوعى الذاتى له ما يعجز عنه المجتمع فى عالم خلق ليكون خسراناً فى خسران .

ولا تعجب حين ترى بالرغم من ذلك أن الإنسانية حققت فى كثير من أطوارها كثيراً من الأمور المثالية والقيم النافعة وذلك لأن الوجودى لن يعنى بهذه المثاليات والقيم ولن يعتبرها نجاحاً أو كسباً إذ ما قيمة هذه الإشعاعات الضئيلة فى عالم

كله باطل الأباطيل ولا منفعة تحت الشمس فالكون يدور حول نفسه وما تحسبه أنت تقدماً ليس هو إلا تغييراً أو اختلالا فى الوضع أثناء الدوران .

ولعل هذا قريب من مذهب البراهمشاريا عند الهنود .

فهذا المذهب الهندى هو أن فساد الوجود كله قائم على الغريزة الجنسية فلو تخلص الناس من الدافع الجنسى لتخلصوا من كثير من الشرور ، والطريق إلى ذلك هو تجنب الطعام الزائد عن الحاجة ، لأن هذا الزائد هو الذى يريد أن ينصرف عن طريق الجنس ، فلو أجعت نفسك فإنك تميت الدافع الجنسى ، ومن أجل هذا كان غاندى يطعم قليلا من اللبن وبضع بلحات يقمن أوده ولا يهيجن الجنس .

وقد تسأل فى هذا المضمار سؤالا هو ما مصير البشرية إذا أضرب الناس رجالا ونساء عن التناسل ؟

والجواب عند الهندى البرهمشارى

هو أنه لا شأن لك بهذا فإنك لم تعط على نفسك صكاً أنك مسئول عن حفظ النوع .

وكذلك الوجودى يغل يده عن أى منفعة أو نشاط جماعى لأنه لا يعطى المجتمع شأناً إيجابياً ، بل هو عنده كما تقدم خسران وضلال فعليك ذاتك ، عليك نفسك فحسب وهذا

هو البريق الذى يخطف فى الوجودية أبصار الشباب والمتعبين فيجدون فى التحلل من الواجب عبادة مقدسة فى محراب الذات .

فالمرأة إذا انصرف عنها زوجها لتحصيل رزق من أجلها وكانت وجودية وأحست بسبب انصرافه عنها جوعاً عاطفياً ، فلا حرج عليها أن تشبع هذا الجوع ، والوجودية تشجعها على هذا المنزع فى لحظات الطيش وسيطرة الهوى وهى اللحظات التى تجند النظم الاجتماعية والأخلاقية والدينية نفسها لإنقاذ الإنسان منها وهدايته سواء السبيل ، ولكن الهاتف الوجودى يصرخ فى أعماقها إنك لم تخلقى من أجل كبت العاطفة وحبس الرغبة بتأثير ما يزعمون أنه الواجب ، إن وجودك هو كنزك الأوحد فلماذا تدفنين هذا الكنز تحت أحجار القبور الاجتماعية .

وتنتهى بأن تنطلق مع هواها . . مع وجودها . . مع ذاتها تحطم قيد الزوج والولد وما يسمى الشرف . وهذا هو لون من القصص الوجودى .

* * *

لقد كنت أود أن تكون مهمة الوجودية عكسية لما سبق فيهتف الهاتف الداخلى بالحقائق التى تصير إليها الأمور بعد أن تكتشف هذه المرأة حقيقة الهوة التى انهارت فيها وبعد أن تندم على ضياع زوجها وشرفها وأولادها .

* * *

ويبدو أن هذه هى الحقيقة التى ذهب إليها الكاتب

المصرى الوجودى فى كتابه « الوجودية » فاتخذ من زليخا امرأة العزيز مثلا للوجودية حين راح الهاتف الوجودى يصرخ من أعماقها فى وجه يوسف . هيت لك — بعد أن غلقت دونه الأبواب ولم يعلق هذا الكاتب على موقف يوسف الصديق منها لامتناعه عن ممارسة ذلك الفعل فإذا كانت زليخا وجودية بالنسبة لنفسها فلماذا لم يعتبر يوسف وجودياً لأنه أطاع الهاتف المنبعث من أعماقه والذى يعصمه من طاعة النفس والهوى ؟

إن يوسف الصديق ليس وجودياً . . !!

وامرأة العزيز وجودية مائة فى المائة .

وحسب الوجودية هذا فإن القول يغنى عن كل تعليق .

* * *

والوجوديون يعترفون بأن الوجودية قد تنتهى بصاحبها إلى التعب أو العذاب ولكنها تقول بأنه لا مفر من ذلك فإن هذه هى الضريبة التى يتحملها الإنسان ليكون حرا ، على أن هذا الذى تسميه حرية ما هو فى واقع الأمر إلا خضوعاً مطلقاً لأهواء النفس وطاعة للصنم القابع فى داخل الذات .

والوجودية لا تحفل بالتاريخ لأنها لا تعترف به كما ذكرنا ولأنه نظام اجتماعى يسجل نفسه متطوراً وفقاً لفروض اجتماعية رتيبة أو فجائية ولكنها أى الوجودية تعترف بوجود أناس يصنعون التاريخ بأن يملوا عليه اتجاهاتهم الذاتية وهى قيود تفرض على الغير

الوجودى . . والحياة العامة

الوجودى لا يذكر الحياة الاجتماعية تحت اسم المجتمع ، إنما يطلق عليها الناس الآخرين ذلك لأن الحياة عنده مجرد ناس كل منهم يدور فى فلكه منطوياً على ذاته وفى داخله مجموعة من الرغبات المتناقضة التى تمزقه وتدعوه إلى محاربة سواه فهى إذن تجسيم لمركبات النقص وازدراء للإنسان .

ومن الطبيعى أن الوجودى لا يسم نفسه بهذه السمات ، وهذا الشعور لابد أن يصاحبه احتقار للغير ، وهذا الاحتقار يزداد كلما ازداد الشعور بالذات وازدادت تبعاً لذلك عزلته الاجتماعية وهذا الوضع سينشأ عنه استعلاء للأنانية وسيطرة للكبرياء الذاتية وجمود للقلب حتى لقد يكون من الخسة أن يساعد إنساناً آخر أو يعينه لأن هذا معناه إقحام نفسه فى وجود غيره وينتهى الأمر إلى التخلى عن كل صراع أو نضال يرجى من ورائه تحويل الإنسان ولو قليلا عن محيط الدائرة التى حبس نفسه فيها ليدور فى محيطها مغمض العينين يظن أنه

منطلق فى الفلك الوجودى ، ولن يهتم الوجودى بالبحث عن سند دينى أو عقلى أو اجتماعى يبرر به تصرفه .

* * *

كما أن الوجودى لن يتحد مع غيره من الوجوديين ، إذ لا صلة تجمع بينهم كهذه الصلة التى تجمع أبناء النادى أو الهيئة أو النقابة الواحدة ، إنما هم مجرد ناس كل منهم حبس نفسه داخل قوقعته ، ولذلك تعلن الوجودية عن نفسها إنها ليست ديناً ولا فلسفة ولا مذهباً ، ولا هيئة ولا شيئاً مما يقرب من ذلك ، وعلى هذا فإنه ليس للوجودية وصايا ولا نصائح ولا صلاة ولا ارتباط بشىء ما ، فهم والحق يقال يطلقون على أنفسهم اسماً يخالف حقيقتهم ، فإن هذا نوع من الموت الاختيارى .

ولست فى ذلك مغالياً لأن التخلى عن الكفاح فى سبيل المجموع هو تخل عن الحياة ، ثم إن العزلة سلاح يطعن به الاعتزالى نفسه ويلزم أن يحمى المجتمع على هذا الأساس الوجودى من نفسه ، فإن المريض ليست له حرية ترك نفسه بلا علاج مع ما يسببه للغير من عدوى ، وإذا أراد إنسان أن ينتحر فإن المجتمع يحاول أن يحاسبه ويمنعه من ذلك غير ملق بالا إلى صخبه وادعائه الحرية فى الانتحار ، ذلك لأنه مدين

بوجوده لهذا المجتمع فيجب أن يعمل من أجله .

* * *

ولما كانت الوجودية تدعو إلى العزلة فهى على هذا الأساس تدعو إلى الإضراب عن العمل من أجل الحياة ، وهى حرية سلبية لا يجب أن يترك بريقها يخاب أنظار الكسالى والمنحرفين والذين يعانون مركبات نفسية مختلفة .

إن الوجودية يمكن أن تسمى العاطل الشرير قديساً وجودياً ، وسارتر يختتم نشيده فى تقديس الذات والانفرادية بقوله إن من لا يستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان رعديد .

* * *

فأنت ترى أن الحرية الوجودية هى أسطورة خرافية هدامة تعوق الإنسان عن الارتقاء على أى صورة من الصور ، بل تقدس التفاهات وتشد الإنسان باستمرار إلى الانهيار .

إن الحرية التى تنادى بها الوجودية هى عملية عزل مستمر وانفصال عن المجتمع الإنسانى وما دامت الوجودية ترى أن الإنسان مقضى عليه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الأباطيل فما معنى هذه الحرية التى تنادى بها إلا أن تكون دعوة إلى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة الملازمة للوجود .

فى الأدب الوجودى

لما كانت الوجودية بلا تعاليم ولا وصايا وليس لها دستور مكتوب فإن المنقب وراء هذا المذهب لا يجد ما يروى غلته إلا فى الأنماط المختلفة من القصص الوجودى حيث يعنى الفلاسفة الوجوديون ببث أفكارهم فى هذه القصص ذات الطابع العجيب وكلها تدل دلالة واضحة على عدم إنسانية هذا المذهب على الإطلاق .

ذلك أنه ما دامت هذه القصص تعبر عن الأدب الوجودى فإن هذا التعبير يكاد ينحصر فى ألوان شاذة من الناس تأتى أفعالا شاذة كما يتضح من قصة الغريب تأليف ألبير كامو .

والقصة استعراض لحياة إنسان وجودى . حياة ضائعة من أولها إلى آخرها ، وإن كان صاحبها قد ذهب منطلقاً من كل قيد يعب عبًّا من شهواته ولا يبالى موت أمه ولا يبالى حتى بالجريمة نفسها حين يرتكبها بلا سبب ولا موجب . . تلك هى شخصية « مورسو » بطل القصة الذى كان شعاره أخذ الحياة بلا مشقة وفى استهتار مع عدم التقيد بأى قيد اجتماعى أو إنسانى .

إن هناك بعض النقط التى يجب أن توضع على حروف

هذا المعنى ، إن ألبير قد أسمى قصته تلك بالغريب ، وهو يعنى — كما يبدو — أن بطل قصته « مورسو » عاش غريباً فى مجتمع لا يؤمن بتقاليده .

فماذا كان يريد مورسو بطل قصة الغريب ؟

هل كان يريد من المجتمع أن يسجد لوجوديته فلا يؤاخذه على ما جنت يداه ! ! ؟

لقد عاش مورسو فى الأرض فساداً وعاقر جميع الموبقات وانتهى إلى أن قتل إنساناً فسيق إلى المقصلة فهل أحس ندماً أو اتجه إلى خالق الوجود يطلب المعونة ؟ إنك ترى الجواب فى قول بطل القصة فى نهايتها .

« لقد كنت على صواب — ولا أزال على صواب » .

فما هو هذا الصواب الذى يتمسك به ذلك البطل الوجودى ؟ فلنذهب إذن مع القصة قليلا لنستمع إليه يقول فى البداية :

اليوم ماتت أمى . . أو أمس . . لا أدرى لقد تلقيت برقية من الملجأ نصها « أمك ماتت . . الدفن غداً . قلوبنا معك »

وكانت أمه فى ملجأ العجائز فى « مارنجو » على مسافة ٨٠ كيلومتراً من بلدة الجزائر فيضطر إلى السفر لشهود جنازتها فيذهب إلى الملجأ متأففاً مما عانى من وعثاء الطريق، ضيقاً صدره من العجائز المرضى فى الملجأ ، وهم يتحدثون فى

جماعات صغيرة ، وعند باب الغرفة ، التي سجن فيها جثمان أمه غادره المدير قائلا « إنني أتركك يا سيد مورسو فإنني أفترض أنك تريد أن ترى أمك . . وهنا يصف مورسو حقيقة شعوره فيقول . . فوقفت دون أن أقول شيئاً ، فيعود المدير قائلا سأكون في مكتبي وتحت تصرفك ، ولقد حُدد الدفن مبدئياً في الساعة العاشرة صباحاً إذ اعتقدنا أنك تستطيع هكذا أن تقضي الليل بجانب الراحلة ثم يقول المدير كلمة أخيرة ، يبدو أن والدتك قد أعربت كثيراً لزملائها عن رغبتها في أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية .

* * *

وهنا يظهر استياء مورسو من أن تفكر أمه في أن تدفن وفقاً للطقوس الدينية فهو يقول لنفسه . . إن أمي لم تفكر أبداً طيلة حياتها في الدين . . ثم يصف مورسو كيف قضى ليلته إلى جانب أمه .

« دخلت الغرفة وكانت مضيئة جداً . . مطلية بالجص ، مشتملة على قطعة كبيرة من الزجاج أعدت للأواني . وعلى بضعة كراسي وحوامل خشبية قد وضع على حاملين منها في وسط الغرفة تابوت عليه غطاؤه ، وبالقرب من التابوت كانت هناك ممرضة عربية في زيها الأبيض قد غطت رأسها بمنديل

زاهى اللون ، وفى هذه اللحظة دخل البواب من ورائى وقال فى شىء من التعثر . . يجب أن أفك مسامير التابوت حتى تستطيع أن تراها ، وعند ما اقترب من التابون منعته .

فقال لى . . ألا تريد ؟

قلت . . كلا

فتوقف وشعرت بالارتباك إذ أننى أحسست أنه ما كان يجب أن أقول هذا . .

وبعد لحظة نظر إلى وسأل : لماذا ؟

ولكن بدون لوم ، وكان لا يبغى سوى أن يعلم فقلت : لا أدرى وعندئذ أخذ يعبث بشاربه الأبيض

* * *

وتمر ساعة من هذا الليل وهو فى غرفة أمه المسجاة التى لم يشأ أن يرى وجهها قبل أن يواريها التراب ، وهو يشعر بالضيق والقلق . . « وأخذ زنباران يطنان على لوح الزجاج وأحسست بالنوم يأخذنى فقلت للبواب دون أن ألتفت إليه ، أمنذ أمد طويل وأنت هنا ؟ فأجابنى على الفور منذ خمس سنين » .

* * *

ويدع الجثمان المسجى ويذهب فى ثرثرة طويلةمع البواب

لقطع الوقت فيخبره البواب عن كثير من تاريخ حياته وتهم زوجة البواب أن تمنع زوجها من الاسترسال لوقار الموت ، ولكنه يقول لقد وجدت أن ما يقوله البواب حقيق وشيق .

« ودخلت الممرضة وقد تكاثف الليل فأدار البواب مفتاح الكهرباء وبهر عيني انبثاق النور ، واقترح على البواب أن يحضر لى كوباً من القهوة باللبن ، ولما كنت أحبها كثيراً فقد قبلت ، وأحببت عندئذ أن أدخن ولكنى ترددت لأنى لم أكن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمى ؟ . وفكرت فوجدت أنه ليس لذلك أى أهمية . »

* * *

وانتهى به الأمر إلى مشاركة البواب التدخين أمام الجثة حتى أنهما بعد قليل من الوقت وضع كل منهما مقعداً على جانبى التابوت وكل منهما فى مواجهة الآخر وراحا يثرثران فأغرى ذلك الممرضة أن تنسى هى الأخرى الوقار الواجب للموت فتشغل نفسها بأشغال الإبرة .

* * *

وحين ينتهى الليل تحس بسخرية مورسو ممن جاءوا لمشاركته فى الجنازة وقد احتملوا كل عناء رغم تقدم السن بهم وما حل بأكثرهم من مرض فهو يتأمل وجوههم فى سخرية قائلا :

وعندما جلسوا نظر أغلبهم إلى وهزوا رؤوسهم فى ارتباك ، فى حين أكلت أفواههم الخالية من الأسنان شفاهم وهم يهزون رؤوسهم ، وأحسست إحساساً مضحكاً وهو أنهم جاءوا ليحكموا على .

* * *

فأنت ترى أن هذا الوجودى لا يقيم وزناً لما تعارف الناس على احترامه ، لقد اشمأز من تمسك أمه بأن تدفن دفناً دينياً وقد ضاق ذرعاً بقضاء ليلة إلى جوار جثمانها فراح يقطع الوقت بالثرثرة مع البواب وبالتدخين وهو يتعجل على أى صورة الانتهاء من هذه الطقوس البغيضة ليعود طليقاً إلى أهوائه . . إلى وجوديته . . إلى أنانيته .

* * *

وإنك لتراه فى منتصف القصة حين يجلس إلى صديقه « سالامانو » الذى راح يبدى حزناً شديداً على كلبه الذى يموت فيتحدث سالامانو فى أسى عن هذا الكلب الذى كان له صديقاً ويأسى عليه فى ساعة موته فيصفه بأنه كان طيباً .

وكأنما كان سالامانو يريد أن يسمع كلمة عزاء من هذا الوجودى القاسى مورسو . . ولكن كيف يشعر مورسو بالحزن على كلب وهو الذى لم يحس أى حزن على موت أمه . ! ؟

إن سالامانو يريد أن يستجديه كلمة عزاء وكأنما ظن المسكين أنه إذا مس حديث الموت وذكره بأمه فلربما انفجرت فى قلب مورسو أحاسيس الرثاء على كل من يموت إنساناً كان أو حيواناً ، فيجود على سالامانو بكلمة فانظر إلى مورسو وهو يقول :

« قلت لسالامانو إننى متألم لما حدث لكلبه فشكرنى وقال لى « إن أمك كانت تحبه كثيراً . . وعندما كان يتكلم عنها كان يدعوها « بأمك المسكينة » ولقد أفترض أنى أشعر حتماً بشقاء كثير منذ موتها ، فلم أجب بشىء .

* * *

وإننى لأحس بأن أى تعليق قد يقلل من بشاعة الاحتقار الوجودى للأم ولكننا نعود إلى بداية القصة حين انتهت مراسم الجنازة لنرى شيئاً عجيباً يحدث فى اليوم التالى ولما تجف دماء أم مورسو فى قبرها استمع إليه يقول :

كان من الصعب على أن أنهض من سريرى إذ كنت متعباً بسبب ما لقيت بالأمس ، وعندما كنت أحلق ذقنى تساءلت ماذا سأعمل اليوم ؟ ذلك أنه كان قد حصل على يومى أجازة لمناسبة الوفاة وقد قضى اليوم الأول فى مراسم الجنازة وفى اليوم التالى أحس بالرغبة فى اللهو .

« أخذت الترام إلى حمام الميناء وهناك اندمجت فى الجمهور ، وكان هناك شبان كثيرون ووجدت « ماری کاردونا » تستحم وهى فتاة كانت تكتب على الآلة الكاتبة فى مكتبى وكنت قد اشتهيتها فى ذلك الحين وهى أيضاً على ما أظن كانت تشعر بما أشعر . ولكنها تركت العمل بعد قليل ، ولم يتح لنا الوقت ، وفى أثناء الاستحمام ساعدتها على اعتلاء خشبة تساعد على العوم . . وعندئذ لمست ثدييها وكنت لا أزال فى الماء عندما كانت نائمة على بطنها فوق الخشبة فالتفتت نحوى وكان شعرها فى عينيها وهى تضحك فصعدت على الخشبة بجانبها وكان الجو جميلا وبينما كنت أمزح ألقيت برأسى إلى الوراء ووضعته على بطنها فلم تقل شيئاً ، وبقيت هكذا ، وكانت السماء فى عينى وكانت زرقاء مذهبة وكنت أحس ببطن مارى وهو يضطرب تحت قفاى فى لطف ومكثنا وقتاً طويلا على الخشبة ونحن نصف نائمين . وعندما اشتدت حرارة الشمس غاصت فى الماء فتبعتها ولحقت بها ووضعت يدى حول خصرها وعمنا معاً . . وضحكنا معاً .. وعندما لبسنا بدت عليها أمارات الدهشة والحزن ، إذ رأتنى أضع فى عنقى رباطا أسود ، وسألت عما إذا كنت فى حداد ؟

فقلت لها — إن أمى قد ماتت . .

ولما أرادت أن تعرف تاريخ موتها .

أجبت أمس . .

فرجعت إلى الوراء قليلا . . ولكنها لم تبد أى ملاحظة ، فرغبت فى أن أقول لها ليس الذنب ذنبي » .

* * *

أنظر إلى حديث إنسان وجودى عن أمه التى ماتت بالأمس وإلى التصرفات الوجودية التى تكشف النقاب عن حقيقة هذه الدعوة العجيبة .

لقد كان يود أن يقول لها إن موت أمه ليس ذنبه ، لأنه كان يفضل أن لا يحاط علماً بذلك . فلتمت أو فلتذهب إلى الجحيم دون أن تعطله عن ساعة من ساعات المتعة ، إنه ليس ذنبه أنها قد ماتت بالأمس وأن صديقته التى يشتهيها قد ترى فى ذلك حائلا دون الاستمتاع .

* * *

وعند المساء كانت مارى هى الأخرى وجودية فهو يصف ذلك قائلا « كانت قد نسيت كل شىء فذهبنا إلى السينما وكانت الرواية مضحكة . بين حين وآخر . على الرغم من سخافتها وكانت مارى تضع ساقها على ساقى . وكنت أداعب ثدييها وقرب نهاية الحفلة قبلتها ولكنى أسأت التقبيل ، وعندما

خرجنا أتت معى »

* * *

وهكذا قضى ذلك الوجودى اليوم الثانى لموت أمه ثم يقول عن نفسه ولما استيقظت فى الصباح كانت مارى قد رحلت وتذكرت أننا فى يوم الأحد فضايقنى ذلك ، إذ أننى لا أحب هذا اليوم . . . لماذا لا يحب هذا الوجودى يوم الأحد ؟

لأنه يوم الله . . يوم العبادة . . . يوم الدين .

* * *

وعندئذ تقلبت فى سريرى وتشممت رائحة الملح التى تركها شعر مارى فى الوسادة ونمت حتى العاشرة ثم دخنت بعض السجاير دون أن أغادر السرير حتى الظهر ولم أكن أريد أن أتغذى عند « سيلست » كعادتى لأنه من غير شك سيوجه إلى أسئلة وأنا لا أحب ذلك .

* * *

كان يخشى أن يسأله عن موت أمه

لقد فسق فى يوم وفاتها . وأغوى فتاة . وكره يوم الأحد لأنه يذكره بالله ، حتى ذكرى أمه كره معها أن يذهب إلى الرجل الذى سيتقدم إليه بكلمات العزاء فيذكره بحزن لا يحسه.

* * *

وتمر شهور . . وشهور . . وتتقدم أحداث قصته مع ماري فيتاح لنا أن نعرف رأى الوجودى فى الزواج . فقد عرفنا نظرته إلى أمه وإلى الله وإلى الأمانة المفروضة فى محافظة الإنسان على الأعراض .

لقد استمرت علاقته بماري . . . إنه يقول :

وفى المساء جاءت ماري تبحث عنى ، وسألتنى عما إذا كنت أريد أن أتزوج منها ؟ فقلت إن هذا لا يهمنى وتستطيع أن تتمه إذا كانت تريد، فرغبت عندئذ أن تعرف ما إذا كنت أحبها فأجبت بمثل ما أجبت به من قبل . وهو أن هذا ليس له معنى وإننى لا شك لا أحبها .

* * *

أنظر إلى حقيقة نظرة الوجودى إلى الجنس الآخر . . إنه يشتهى فقط – أما الزواج فليس له معنى ، فإذا تم أو لم يتم فسيان لأنه لن يلزمه بشيء ، إنه كالمفلس الذى لا يملك شروى نقير ، ويطلب إليه أن يمضى صكاً بمليون جنيه فيفعل ساخراً .

لا يهمه الزواج أو عدمه، ولكنه إجراء يجعل الفتاة تستمر تحت سلطان شهواته إذا كانت تريده ، وهو يعترف لها بأنه لا يشعر نحوها بالحب . لسبب بسيط وهو أن الوجودى لا يعرف ما هو الحب . . ولا يعترف به ويراه ضعفاً لأنه سيشده إلى

تبعات وقيود وقد سبق تحليل الفكرة الوجودية نحو الحب فى فصل سابق وها نحن نرى التطبيق فى القصة ، قصة الغريب الذى ظن أنه مظلوم فى هذا المجتمع ولذلك فهو يعيش غريباً فيه كالمجرم الذى يرى أنه غريب فى مجتمع محصَّن ضد الجريمة .

ولما قال السيد الوجودى مورسو لمارى أنه لا يحبها قالت ولماذا إذن تتزوجنى ؟ فيجيب أنه ليس لذلك أهمية وأننا نستطيع أن نتزوج إن شاءت على أنها هى التى تطلب ذلك فعقبت على ذلك بأن قالت بأن الزواج شىء خطير .. فأجبت .. كلا »

* * *

إنه لا يراه خطيراً على الإطلاق لأنه لن يحس بتبعاته ولن يعترف بعواقبه . إنه مجاملة . أو شىء يحتال باسمه للمتعة إلى الحين الذى يريد أن يتسلل منها حرًّا بأى طريق شاء .

* * *

وتستمر القصة حتى نرى مورسو فى ضيافة أحد أصدقائه ويحدثه هذا الصديق بأن أعرابيًّا قد تعارك معه وهو لذلك يريد أن يحمل مسدسه حتى يقتل به ذلك الأعرابى إذا هم أن يدخل معه فى عراك مرة أخرى فيحمل عنه مورسو مسدسه فى يوم قائظ يثير أعصابه فإذا بالضيق يشتد به فيقتل الأعرابى فى

فورة عصبية بلا موجب فى لحظة تسرع واندفاع وعدم تبصر .

وحين يحاكم لا يندم على شىء .

وحين يساق إلى السجن يرى أنه غريب فى عالم مقيد بالتقاليد وحين ينتهى الأمر يردد ما سبق أن أشرنا إليه لقد كنت دائماً على صواب . وسأظل على صواب » .

فعقوق الوالدين والتنكر للطقوس الدينية والسخرية ممن جاءوا يعزونه ويجاملونه والفسوق الفاجر فى اليوم التالى لوفاة أمه والاعتداء على الأعراض والتهوين من قيمة الروابط الاجتماعية والحياة الزوجية حتى القتل بلا مبرر . .

كل هذا يراه الوجودى « مورسو » صواباً . ذلك لأنه قد مارس وجوده وأطاع الهاتف النفسى فلم يشعر بوطأة القيود الاجتماعية وإنما أحس بزهو تحطيمها ، والتحرر منها ووجد فى ذلك سعادة كالراحة التى يجدها الأجرب حين يحك جلده ويدميه .

والعجيب أنك تقرأ قصة الغريب وهى قصة طويلة يتصارع فيها نشاط أشخاص كثيرين فتعجب من السلبية المطلقة التى تتسم بها كل شخصياتها فلا تجد فرداً واحداً يمارس وجوداً شريفاً من أى زاوية إنسانية فهم بين فاسق أو مخمور لا يفيق أو قواد أو أفاق فإذا قلنا إن المؤلف يرسم شخصيات وجودية

كان لنا العذر حين نقول إن خلو الوجودية من الوصايا هى التى تدعو أفرادها إلى هذا الضلال البعيد ، وحين نقول إن الوجوديين هم أفراد يستهويهم الشذوذ ويجدون فى الخروج عن نظم المجتمع تنفيساً عن كبت شديد .

* * *

ألسنا على حق إذن حين نرى أن الوجودية تتلخص فى طاعة هوى النفس والخضوع لسلطان الغرائز !! ؟

ألسنا على حق أيضاً حين ننتهى إلى أن الشيطان نفسه لو أراد أن يضع لأنصاره منهاجاً لما أضاف إلى الوجودية جديداً ؟

إن الجواب الذى قد يدور فى أذهان بعض الوجوديين أن « ألبير كامو » إنما يصور اتجاهاً يريد أن يثبت به أن الحياة تبعث الحيرة والاضطراب إزاء عالم يرى الوجودى أنه خلق بلا حكمة ولا سبب وأنه تيه مطلق على الإنسان أن يحتمل فيه الآلام فى سبيل اكتشاف ذاته . . . إن الوجودية تسد المنافذ التى تأتى منها الأشعة الهادية . . أشعة الدين . . . والعقل .. والاتجاهات الإنسانية.. فما دام الوجودى يسىء الظن بكل هذا ويحطم كل مصابيح الأنوار التى تنير له الطريق فهو سيزعم والصواب ليس فى جانبه أنه غريب فى مجتمع يراه

على حقيقته ضالا بلا حكمة وليست له غاية .

إن الوجودى هو الذى اختار أن يعيش غريباً فى مجتمع متماسك حكيم ، إن الأدب الوجودى يريد أن يثبت دائماً أنه لا خير فى عمل شيء وهذا هو الضلال البعيد .

وبذلك يجد الوجودى مبرراً فى عدم المساهمة فى أى عمل بنائى منظم لأن الإنسان مقضى عليه بالفشل والخسران إذا وضع يده فى يد المجتمع الذى يشبه عنده البحر تتطاحن أسماكه ويأكل القوى منها الضعيف .

ولذلك كان مورسو الوجودى فى قصة الغريب يصيح بأن آثامه التى مارسها كان فيها على صواب .

ولعله من المفيد أن نذهب مع القصة قليلا فنشهد مورسو ساعة محاكمته لنرى أى عواطف هذه التى تجيش بنفس المقدم على النهاية ؟ أهى عواطف الأسى على ما أنزل بالناس من أذى ورغبة صادقة فى استئناف حياة جديدة ذات طابع جاد ؟

أن هذا ما يحدث غالباً حين يتورط الإنسان فى إثم أو حتى حين يسترسل الإنسان فى عماء عن تقدير الحقائق التى يراها ثم تنقشع الغشاوة عن عينيه .

إن موقف مورسو يوم محاكمته ليعطينا فكرة عن حقيقة

النظرة التى ينظر بها الوجودى إلى الحياة ، وإلى الناس ، وإلى ما قدمت يداه ، إنه يقول كما جاء فى ترجمة الأستاذين السيد عطية محمد ومحمد الإمام للقصة .

* * *

من الشيق أن يسمع الإنسان القوم يتحدثون عنه ولو كان على مقعد اتهام وأستطيع أن أقول إنه فى أثناء مرافعات المدعى والمحامى جرى حديث كثير عنى ، بل لعل هذا الحديث كان أكثر من الحديث عن جريمتى .

ثم يذكر بعض ما جاء على لسان الدفاع ، حتى ينتهى إلى قوله :

... ولم يدهشنى ولم يثر انتباهى إلا بعض أقوال أو حركات أو فقرات خطابية فى مرافعات المدعى وكانت فكرته — إن كنت قد أحسنت الفهم — تقوم على أنى ارتكبت جريمتى مع سبق الإصرار ، ومهما يكن من شىء فقد حاول إثبات ذلك وقال : « لسوف أبرهن على ذلك أيها السادة وأبرهن عليه مرتين : أولا تحت الضوء الواضح للحقائق ، وثانياً تحت الضوء الغامض الذى استمده من دراستى لهذه النفس المجرمة » .

وبناء على هذه الأقوال لخص الأحداث منذ موت أمى ذكر المحكمة بعدم حساسيتى وبجهلى لحقوق أمى وباستحمامى

مع امرأة فى اليوم التالى ، وبالخيانة ورواية فرناندل الهزلية ، وأخيراً عودتى بمارى ، وهنا لم أفهمه فى الحال لأنه قال مع « عشيقته » لأنها كانت بالنسبة إلى مارى . . . وبعدئذ تناول قصة ريموند ، فوجدت أن طريقته فى النظر إلى الأحداث لا يعوزها الوضوح إذ كان ما يقوله معقولا لقد كتبت الخطاب متفقاً مع ريموند لكى أجذب إليه عشيقته وأهيئها لمعاملة قاسية مع رجل ذى خلق مشكوك فيه ، وأثرت بالشاطئ خصوم ريموند فجرحوه وعندئذ طلبت مسدسه وعدت وحدى لكى أستخدمه . وقتلت العربى وأنا أنوى ذلك ، وانتظرت لكى أكون متأكداً من أن العملية قد تمت ، ثم أطلقت مرة ثانية أربع رصاصات فى ثبات وتأكيد وبطريقة تعتمد على نوع من التفكير .

ثم قال المدعى . ها أنذا أيها السادة قد رسمت أمامكم خط الحوادث التى قادت هذا الرجل إلى أن يقتل وهو يدرى ما يفعل ، وإنى لألح على هذه النقطة إذ لسنا أمام جريمة قتل عادية أو عمل لم يسبقه تدبير ، وتلابسه ظروف تستطيعون بها أن تخففوا من حدته ، إن هذا الرجل أيها السادة رجل ذكى . ولقد سمعتموه ، أليس كذلك ؟ إنه يعرف كيف يجيب ويعرف

قيمة الكلمات ، وأن المرء لا يستطيع أن يقول انه قد عمل وهو لا يدري ماذا عمل .

* * *

ويقول مورسو : لقد أصغيت إليه وسمعته يحكم بأنى ذكى ، ولكنى لم أفهم جيداً كيف تستطيع صفات رجل عادى أن تصبح أدلة اتهام دامغة ضد متهم ، وعلى هذا فقد كان الذى أدهشنى ولم أصغ إليه قوله . هل عبر على الأقل عن أسفه ؟ كلا أيها السادة ، إنه لم يبد ولا لمرة واحدة خلال التحقيق متأثراً بسبب جريمته الشنيعة .

وفى هذه اللحظة التفت المدعى نحوى وأشار بأصبعه وهو مستمر فى مهاجمتى بشدة دون أن أفهم — فى الواقع — لذلك سبباً . ولا شك أنى لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من الاعتراف بأنه على حق ، إذ لم أكن آسف على عملى ، ولكن كان يدهشنى كل هذا الإلحاح فى الهجوم ، وودت لو أنى حاولت أن أشرح ودياً أنى لم أستطع حقاً أن آسف يوماً على شىء ما ، فقد كنت دائماً مشغولا بما سوف يحدث لى ، فى اليوم أو الغد . ولكنى بالطبع لم أستطع أن أكلم أحداً بهذه اللهجة وأنا فى هذه الحالة التى وضعونى فيها ولم يكن لى الحق فى أن أظهر نفسى

محباً بل وذا نية طيبة ، وحاولت مرة أخرى أن أصغى ، لأن المدعى أخذ يتكلم عن نفسيّ .

كان يقول . . أيها السادة المحلفون : لقد انحنيت على نفسه فلم أجد شيئاً . وقال عنى — إننى فى الحقيقة ليس لى نفس ، بل ولا أى شىء بشرى — وإنى بعيد كل البعد عن أى نوع من المشاعر الإنسانية التى تصون قلب الإنسان . وأضاف . . . ولا شك أننا لا نستطيع أن نلومه على ذلك ، إذ ليس لنا أن نشكو من فقدانه شيئاً لم يكن يستطيع أن يناله يوماً ما ، ولكن عندما تتولى المحكمة الأمور يجب أن يتحول التسامح وهو فضيلة سلبية إلى القصاص . وهو فضيلة أخرى أقل سهولة وأكثر سمواً . . خصوصاً عندما يصبح فراغ القلب الذى تكشف عند هذا الرجل هوة قد يتردى فيها المجتمع ، ثم تكلم بعد ذلك عن موقفى إزاء أمى وأعاد ما قاله فى أثناء المرافعات ، ولكنه كان أكثر استطراداً عندما تكلم عن جريمتى وبالغ فى استطراده حتى إنه قال للمحكمة « إن هذه المحكمة أيها السادة ستنظر غداً أشنع جريمة . قتل أب ، وفى رأيه أن الخيال يتقهقر أمام هذه الجناية المتوحشة . وأنه يجرؤ فيأمل أن عدالة البشر ستحكم فيها بلا ضعف ، ولكنه لا يخشى أن يقول أن الاشمئزاز

الذى تبعثه جريمة قتل الأب فى نفسه أقل من ذلك الاشمئزاز الذى يحسه أمام عدم حساسيتى . وفى رأيه أن الرجل الذى يقتل أمه معنوياً يجب أن ينبذ من المجتمع البشرى كذلك الذى يحمل يداً قاتله إلى من هيأ له الحياة .

* * *

وعندما جلس أعقب ذلك فترة صمت وكنت مذهولا بسبب الحر والدهشة وسعل الرئيس قليلا وسألنى فى صوت خفيض جداً عما إذا كان لدى شىء أقوله ولما كنت أرغب فى الكلام فقد وقفت وقلت فى شىء من الارتجال إنى لم أتعمد قتل العربى . فرد على الرئيس أنى أثبت بذلك الجريمة على نفسى كما أنه يسعده قبل أن يسمع محامى أن أوضح له الدوافع التى أوحت إلى بما اقترفت فقلت سريعاً وأنا أمزج بين الكلمات إلى حدما وأحس بما فى أقوالى من شىء مضحك إن السبب هو الشمس . أعنى أن الشمس هى التى أثارت أعصابى .

فأعقب ذلك ضحكات فى الردهة .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من القصة العجيبة التى تصور حياة إنسان وجودى يظن أنه غريب فى مجتمع لا يفهمه ويرى أن كل ما يفعل إنما هو الصواب وأنه لا يندم على شىء .

نهاية الوجودية

هل الوجودية تحمل أسباب بقائها أم موتها . . ؟ ذلك أن هناك مقاييس يمكن بها معرفة المذاهب أو الدعوات التى تحمل طابع البقاء أو تكون كفقاقيع الصابون ترتفع قليلا فى الهواء ثم تتلاشى .

والوجودية تقوم على أسس منهارة لن تستطيع الصمود طويلا إذ لا يمكن اعتبار الانفصال عند المجتمع والعقل والمثل العليا أسساً صالحة للبقاء لأنها تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الإنسانى .

وهى تدرك أنها ليست صالحة للبقاء ، وقد لا يستطيع الإنسان فى الأعم الأغلب من الظروف أن يستمر وجودياً على هذا الطريق المنحرف أبد الدهر فيظل مخالفاً لتكوينه الروحى والذهنى والوراثى والاجتماعى معادياً لما ارتضته البشرية خلال أجيال من التجارب والمعرفة ، فلن يظل مغمض العينين مستسلماً لعاطفة الذات معتنقاً عقيدة خاطئة بأنه لا منجاة

لروحه إلا بانتزاعها من الضمير العام وإخضاعها لعبودية الأهواء والنزعات الذاتية .

فهو إن عاجلا أو آجلا سيشعر بجفاف الوجودية ومجانبتها لنظم الحياة وأنها ليست فلسفة متفائلة تعمل على تجميل الوجود ، وليست إنسانية على الإطلاق ، ولا يمكن لإنسان أن يعيش حياته كلها عدواً لله وللعقل فى خصومة مع الضمير العالمى ، إننا نعيش فى زمن تزداد قيه قوة الطبقات الصاعدة فى تعاون يقوى ويشتد على مدى الأيام ، ولا بد أن تجرف المخمورين بنشوة كاذبة بما يسمونه زيفاً حرية الاختيار .

لن يستطيع إنسان أن يعيش إلى الأبد فى رعب دائم من الحياة يلتمس المسارب ليهرب منها سيما وأن ما يدعوه اختياراً حرا غير قائم على أى نظم أو مقاييس ثبتت صلاحيتها ، فهى إذن نوع من التخبط

ولما كانت الوجودية تشل يدها عن أن تشد على أيدى الآخرين فهى إذن تعوق أى نضال تقدمى وبذلك يصبح شعارها اللامبالاة أو نوع من التصوف السلبى ، فهى لا تزيد على أن تكون مجموعة تبريرات وهمية لتجسيد وجهات نظر فردية ، وتغليفها بغلالة من القداسة المدعاة ، مع افتقارها

المطلق إلى أى تحديد للغايات والأهداف ، وفرار من كل ما اصطلح الناس على أنه حق وخير وجمال .

* * *

إنها خيانة للمثل العليا والعقل والنظام العام ، ولكل روح كفاحية أو تقدمية وتخدير مقنع للقوى العاملة وإيحاءات جنونية فى وثبات هستيرية من داخل النفس وتصميم أحمق على تنفيذ « اللاشىء » .

إنها ليست دعوة إيجابية لأنها لا تستهدف أهدافاً إيجابية على الإطلاق ولأنها تجعل الناس فى شغل دائم بذاتهم الفردية وتحملهم على الحقد على كل عمل جماعى .

فهى إذن فى مجموعها حركة رجعية مدمرة .

* * *

مصادر البحث

الوجودية	: هنرى لوفافر
الأسرة الوجودية	: موحان
شعوذة فلسفية	: بلتيزر
الوجودية ليست إنسانية	: كانابا
الفلسفة الوجودية	: زكريا إبراهيم
الوجودية	: أنيس منصور
قصة الغريب (لألبير كامو)	: ترجمة السيدعطية ومحمدالإمام
السلام والإسلام	: سيد قطب

يناير ١٩٦٠

الثمن ٥٠ مليما